

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

٢٦٧

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة

دراسة تطبيقية لقوله عائشة رضي الله عنها [إن خلقه القرآن]

رسالة مقدمة لقسم الكتاب والسنة في مرحلة الدكتوراه

أعدها

الطالب / أحمد عبد العزيز قاسم الحداد

إشراف

الأستاذ الدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد

١٤١٣ هـ

قاع الطالب يصحح رسالة كتاب أخلاق النبي
د. عبد الوهاب طاهر
د. محمد بن محمد علي
١٤١٣ هـ

الفصل الثاني

الأخلاق السلوكية المتعدية
إلى الغير

وفيه خمسة مباحث:

- ١ - الأمانة
- ٢ - الوفاء
- ٣ - الحلم والعفو
- ٤ - الرحمة
- ٥ - الكرم

المبحث الأول

(خلق الأمانة)

الأمانة بمصدر آمنه يأمنه أمانة إذا وثق به واطمأن إليه ولم يخفه.

قال ابن فارس: "الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق" (١).

مأخوذة من الأمن الذي هو ضد الخوف؛ لأن الأمانة لا يُخاف عليها لأنها توضع عند أمين، والأمين ثقة لا يخون (٢).

أما في الاصطلاح فتعرف بأنها: ضد الخيانة، ويقال أيضا بأنها: «صيانة الإنسان كل ما ينبغي صيانته من حقوق أو فروض أو واجبات أو حدود أو أشياء مادية أو معنوية سواء كانت لله تعالى أم للناس» (٣).

منزلة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية:

وهي من الأخلاق الإسلامية العظيمة التي ينضوي تحتها جميع أحوال العبد الدينية والدنيوية، كما علمت من التعريف، إذ هي كلها منوطة بالأمانة فشعائر الإسلام عند المسلم أمانة، وأعمال الحلال والحرام أمانة، وحقوق المسلمين عامة الحسية والمعنوية أمانة، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

ولذا كانت محل عناية القرآن الكريم حيث تحدثت آياته الكريمة عنها حديثا مستفيضا أمرا بها، وتنويعا بشأنها وشأن أهلها، ونهيا عن ضدها وهي الخيانة في آيات كثيرة فقد بلغت الآيات المتحدثة عنها من مادة (أمن) فقط سبعا وأربعين آية (٤).

(١) معجم مقاييس اللغة مادة "أمن" ١/١٣٣.

(٢) انظر: القاموس المحيط ٤/١٩٧ مادة "أمن"، والتوقيف على مهمات التعاريف ص ٩٤.

(٣) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ١٥/٢، وتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم للحياة والأحياء له أيضا

ص ٣٣١.

(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٨١، ٨٨-٨٩.

تنويه القرآن الكريم بخلق الأمانة :

أما تنويه القرآن الكريم بهذا الخلق فهو تنويه عظيم دل على عظم منزلة الأمانة عند الله تعالى، وببالغ أثرها في استقامة المجتمع، ووضوح دلالتها على تحلي المرء بمكارم الأخلاق من عدمه، وذلك في آيات كثيرة من الذكر الحكيم منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢] .

فإن في هذه الآية من التنويه بالأمانة ما يجل عن الوصف، حيث أفادت أن السماوات والأرض والجبال، مع عظم أجرامها وبالع ثقلها، وشدة قوتها؛ أبين حملها استصغارا لأنفسها عن حملها، وأشفقن : أي خفن من تحمل تبعاتها، وما ذلك إلا لإدراكها أن تحملها عظيم خطره، وكبير تبعته .

ومع ذلك فحملها الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته، لظلمه نفسه، وجهله بحقيقة ما حمل وما يترتب عليه، والأمانة التي تتحدث عنها الآية هي: "كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهي وشأن دين ودنيا، والشرع كله أمانة" (١) كما قال الحسن البصري وغيره من السلف رحمهم الله تعالى.

فإذا كانت هذه الأجرام العظيمة الثقيلة امتنعن من حمل الأمانة لعظمها، فذلك دليل على عظم خطرها وكبير شأنها عند الله تبارك وتعالى وعند الناس .

الأوامر القرآنية بأداء الأمانة :

أما الأوامر القرآنية بأداء الأمانة فمنها ما جاء في قوله تعالى في آية المداينة: ﴿... فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣] .

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا .. ﴾ [سورة النساء: ٥٨] .

وفي هذين الأمرين من التنويه بخطر الأمانة ما يدل على عظمة أمر هذا الخلق، وعظم

(١) البحر المحيط ٢٥٣/٧، وانظر: شرح مسلم للإمام النووي ١٦٨/٢.

جُرم التخلي عنه، وذلك أن الآية الأولى: اقترن الأمر بأدائها، بالأمر بتقوى الله لإدخال الروح في ضمير السامع، وتربية المهابة في نفسه حتى لا يفرط فيها، وذلك لعظم خطر التفريط فيها على ما سيأتي إيضاحه في (التنويه بشأنها) .

وفي الآية الثانية من تربية المهابة في ضمير السامع ما في الآية الأولى، حيث افتتحت بالاسم الجليل: (إن الله) إذ يشعر النفس بعظمة الأمر وعظمة الأمور به فلا يتجرأ على التفريط فيه، إلا أن يكون ضعيف الإيمان أو فاقده .

النهي عن ضدها وهي الخيانة:

ومع ما في هذه الأوامر الصريحة من التشديد في الأمر بأداء الأمانة، والإشارة إلى خطر التفريط فيها، إلا أن الأمر لم يقف عند ذلك، بل لقد استفيد الأمر بها أيضا من النهي القاطع عن ضدها وهي الخيانة التي هي من أخس رذائل الأخلاق وأساء مساوئها، كما لا يخفى، وذلك لأنها تعني: "مخالفة الحق بنقض العهد في السر" (١) وتعني أيضا: "التفريط في الأمانة" (٢) . وهذا الخلق، إنما هو من أخلاق الكافرين والمنافقين، أما المؤمنون فلا، لأن المؤمن قد يطبع على شيء من رذائل الأخلاق، إلا الخيانة والكذب فإنهما يزاحمان الإيمان فينفيانه (٣) .

وقد كان التحذير من هذا الخلق في القرآن الكريم شديدا في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٧] ، وهذا نهى عن الخيانة الدينية بتعطيل الفرائض والسنن، أو بالإضرار بخلاف ما يظهر المرء وهو النفاق، أو بالغلول في المغنم، أو بعدم النصح لله تعالى ورسوله

(١) المفردات للراغب ص ١٦٣ .

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٣٢٩ .

(٣) فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ٣٤٩/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه

وسلم: لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ، ولا يجتمع الصدق والكذب جميعا، ولا تجتمع الأمانة

والخيانة جميعا، وقال الألباني في الصحيحة برقم ١٠٥٠: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات .

صلى الله عليه وسلم، أو غير ذلك مما يندرج في مسمى الدين. وهو أيضا نهى عن الخيانة الدنيوية وهي المتعلقة بحقوق المسلمين المادية والمعنوية^(١)، فكلها شملها النهي المقتضي للتحريم .

وبيل أثر الخيانة في الدنيا والآخرة :

وقد بين في آيات أخرى ماذا يترتب على الخيانة من العقاب، فبين أنه يترتب عليها عدم محبة الله تعالى للخائنين فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٥٨] وعدم محبة الله تعالى للخائنين يعني بغضه لهم، والبغض يستدعي الغضب، وهو يستدعي العذاب.

وقد دل على ذلك أن الله تعالى قرن هذه الصفة بالكافرين والمنافقين كثيرا، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [سورة الحج: ٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٧١].

فالأية الأولى والثالثة تثبت الخيانة للكافرين، والثانية للمنافقين^(٢)، وغضب الله وعذابه لهؤلاء معلوم من الأدلة الأخرى في القرآن والسنة .

ومما يترتب على الخيانة أن الله تعالى يحبط أعمال الخائنين وتدابيرهم كما قال جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٥٢] أي لا ينفذه ولا يسدده، ولا يهدي الخائنين بكيدهم، فأوقع الفعل على الكيد مبالغة في عدم الهداية لأنه إذا لم يهد السبب علم منه عدم هداية مسيبيه بالطريق الأولى^(٣)، وذلك كما فعله سبحانه وتعالى

(١) انظر مآثر التنزيل للبيضاوي ص ٢٣٨ .

(٢) فإنها نزلت في بشر بن أبيرق حيث سرق درعا لأنصاري، وكان منافقا معلوم النفاق، والقصة مشهورة

يرجع إليها في كتب التفسير كتفسير ابن جرير ٢٦٥/٥، وتفسير ابن كثير ٥٥٠/١ .

(٣) درر التنزيل ص ٣١٧، وروح المعاني ٢٦١/١٢/٤ .

مع كفار مكة حينما حاربوا رسوله صلى الله عليه وسلم ونقضوا العهد الذي أخذه الله تعالى عليهم، وعلى كل عاقل في الإيمان به سبحانه، وما يلزم منه من الإيمان برسوله، وما جاءوا به من أمور الإيمان والإسلام الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢] "فإن هذا العهد استقر في الفطرة وما من نفس إلا وهي تشعر به، ولكن تغلبها ضلالات العادات واتباع الكبراء من أهل الشرك" (١).

فكفار مكة لما نقضوا هذا العهد حاق بهم ما يحق بالخائنين من عدم هداية كيدهم كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٧١]، وذلك يوم بدر على يد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم، فقتل وأسر صناديدهم وعتاتهم جزاء على تفريطهم في الأمانة ونقضهم ما عاهدوا الله عليه، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُيَسَّرٌ لِّهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: ١٠] فهم الذين جنوا على أنفسهم ذلك المصير السيئ، والمعنى: أن من نكث عهده فإن وبال نكثه عليه لأن ذلك نقض للعهد، فانظر إلى عظيم الوبال المترتب على الخيانة، لأنها تفريط للأمانة، وهذا يؤكد ما دلت عليه الأوامر القرآنية بأداء الأمانة وعظيم خطر التفريط فيها .
ويدل على ذلك أيضا تنويه القرآن العظيم بهذا الخلق، وأهله المتحلين به الآتي بيانه الآن .

التنويه بأهل الأمانة في القرآن الكريم :

لذلك نال القائمون بها على وجهها عظيم ثناء الله تعالى وجزيل إكرامه وإنعامه .
والذين نالوا ذلك هم الصفوة المختارة من عباد الله تعالى، من الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وصالحى المؤمنين، وقد نوه القرآن الكريم بهم تنويها عظيما؛ أما الملائكة فكلهم قائم بأدائها على وجهها الكامل؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون

(١) روح المعاني ٢٦١/١٢/٤، وانظر التحرير والتنوير ٨٢/١٠ .

ما يؤمرون، غير أن الذي أثنى عليه منهم بها هو جبريل عليه السلام فقط، وذلك لمقتضى المهمة التي نيّطت به، وهي السفارة بين الله تعالى، وبين رسله عليهم الصلاة والسلام، وقد أثنى الله تعالى عليه بها في موضعين من كتابه: أولاهما في سورة الشعراء حيث قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [١٩٣، ١٩٤].

والثاني في سورة التكويد حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [١٩-٢١].

وأما الأنبياء والرسل فهم أمناء الله في أرضه على شرائعه ودينه وكتبه، لذلك كان هذا الوصف واجبا لهم، ويجب على الأمة اعتقاده فيهم، وقد أثنى الله تعالى به عليهم في آيات كثيرة كما قال عن هود عليه السلام: ﴿.. وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [سورة الأعراف: ٦٨]، وكما قال عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [سورة يوسف: ٥٤].

وقص عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام مقالة كل منهم لقومه وهو يدعوهم للإيمان: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [سورة الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨، والدخان: ١٨].

وقص مقالة ابنة شعيب عليها السلام في وصفها لموسى عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [سورة القصص: ٢٦].

إلى غير ذلك من الآيات الواصفة لهم بهذا الخلق، دون سائر أوصافهم الحميدة، وكل أوصافهم حميد، فدل اختيار وصف الأمانة لأنبياء الله عليهم السلام في هذه الآيات مع كثرة صفاتهم وأخلاقهم الكريمة الحميدة على عظمة هذا الخلق وبالعز منزلته.

وأما المؤمنون فقد كان التنويه بهم بسببه عظيمًا، حيث اقترن ببيان ما نالوه على الأمانة وغيرها من الأخلاق الكريمة المذكورة، من عظيم الأجر وجزيل الثواب، وذلك بقوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١-١١].

فانظر إلى مبلغ ثناء الله تعالى على المؤمنين لاتصافهم بتلك الأخلاق الكريمة العظيمة، والتي منها (أنهم لأماناتهم وعهدهم راعون) أي محافظون فلا يفرطون بشيء منها، فأثبت لهم الفلاح الذي يعني الفوز في الدنيا والآخرة، وأورثهم الفردوس الذي هو أعلى الجنة (١).

وذلك هو غاية الإكرام الذي أعده الله لأهل الأمانة كما دلت على ذلك آية المعارج المنوّهة بأهل هذا الخلق أيضا، وذلك حيث قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مَكْرُمُونَ﴾ [سورة المعارج: ٢٢-٣٥]. وفي هذه الآيات من التنويه بأهل هذا الخلق وبيان عظيم منزلتهم عند الله تعالى، ما في الآية الأولى، وكفى بذلك فخرا وفضلا وشرفا لأهل هذا الخلق الكريم.

(١) كما دل على ذلك ^{حديث} أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "إذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة" أخرجه البخاري في الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ٢٠/٤.

تمثل خلق الأمانة

في النبي صلى الله عليه وسلم

إذا كانت الأمانة خلقا عظيما في سائر الناس لما لها من الأثر العظيم في صلاح الدين والدنيا، ولذا كانت واجبة على كل مسلم، فإنها في أنبياء الله ورسله أعظم، وفي حقهم أوجب وألزم، بل هي من الأخلاق الأساسية الأربع التي يجب توفرها فيهم وهي: (الصدق، والأمانة، والتبليغ، والفتانة) وقد فطرهم الله تعالى عليها ليرشحهم بها لحمل رسالاته إلى خلقه، وقد كانوا مضرب المثل في التحلي بهذه الأخلاق العظيمة .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد كان في ذروة الذرى من هذه الأخلاق، وكمالها فيها فاق كل كمال، كما يشهد لذلك الوقائع والدلائل الآتية :

١ - فقد نشأ يتيما مطبوعا على الصدق والأمانة لا يعرف لهما بديلا منذ نشأته وترعرعه، وهو لا يكاد يعرف في أوساط قومه إلا بالأمين، فيقولون: جاء الأمين وذهب الأمين^(١)، حتى حل محل الرضا من قلوبهم وعقولهم، كما دل على ذلك احتكامهم إليه في قصة رفع الحجر الأسود عند بنائهم الكعبة المشرفة بعد تنازعهم في استحقاق شرف رفعه ووضعه محله، حتى كادوا يقتتلون فيما بينهم لولا اتفاقهم على تحكيم أول داخل يدخل المسجد الحرام، فكان ذلك الداخل هو محمد صلى الله عليه وسلم المرضي لديهم أجمعين "فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم هلم إلي ثوبا، فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده الطاهرة، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه، قال ابن هشام: "وكانت قريش تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين"^(٢) .

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٠٧/١ مع الروض الأنف .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٢٨/١ مع الروض الأنف، وطبقات ابن سعد ١٤٦/١ وغيرهما، وأصل القصة في مسند

الإمام أحمد ٤٢٥/٣ من حديث مجاهد عن مولاة السائب بن عبد الله بإسناد حسن، كما حكاه الألباني

في تعليقه على فقه السيرة للغزالي ص ٨٥ .

هكذا كان خلق الأمانة سبيل الترشيح هذا الشاب اليتيم لحل فتنة كادت تشتعل بين بطون قريش فتودي بحياة كثير منهم لولا أن الحكمة العظيمة من صاحب الأمانة العظيمة أطفأتها، وما كان لهذه الحكمة أن تبرز لو لم يكن خلق الأمانة قد مهد الطريق أمامها، مما جعلهم يرضون بحكمه دون أن يتسرب إليهم شك في محاباة أو مDAHنة فئة على أخرى، لعلمهم بعظيم أمانته وثقتهم به،

٢ - بل لقد جعلتهم ثقتهم الكبيرة بأمانته صلى الله عليه وسلم ينقلون إلى بيته أموالهم ونفائس مدخراتهم لتكون وديعة عنده، فكان ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته، ولم يزل ذلك دأبهم حتى بعد معاداته بسبب دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى وترك عبادة الأوثان، لا يختلجهم شك في أمانته، وهم له صلى الله عليه وسلم معادون، كما دل على ذلك تركه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مكة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام منها، ليرد ودائع الناس التي كانت عنده، "فأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمانة :

ولقد شهد له صلى الله عليه وسلم بالأمانة الأعداء والأصدقاء على حد سواء، وذلك دليل على شيوع هذا الخلق فيه، وتسليم الكل له به .

١ - فأبو سفيان زعيم مكة لما كان قبل إسلامه أمام هرقل ملك الروم، لم يستطع أن يخفي هذا الخلق العظيم، وهو الحريص على أن يغمطه حقه أو يطعن فيه بدافع العداء له حيثذاك، ولكن لما سأله عماذا يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أجابه أبو سفيان بأنه: « يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة » (٢) .

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٣٧ مع الروض الأنف .

(٢) متفق عليه وتقدم غير مرة، وهذا اللفظ أخرجه البخاري في الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد

٢ - وأما الأصدقاء: فمنه ما قالته خديجة رضي الله عنها له عليه الصلاة والسلام عند ابتداء تنزل الوحي: "فوالله إنك لتؤدّي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث.." (١).
٣ - ومما قاله جعفر بن أبي طالب عنه في قصته مع النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه وذلك حين سأله عن الدين الذي اعتنقه فقال جعفر رضي الله عنه: «حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه...» (٢).
هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم معروفا بالأمانة لدى الناس كافة ممن عرفه أو سمع عنه.

ولا غرو في أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بتلك المثابة من الأمانة؛ لأن الله تعالى قد أراد منه أن يكون خاتم أنبيائه ورسله إلى الخلق كافة، ولا يقوم بذلك إلا أمين كامل الأمانة، ينال ثقة الناس فيستحيون له ويؤمنون به.
ولقد تمثل خلق الأمانة فيه صلى الله عليه وسلم بكل معانيها بعد بعثته كتمثله فيه قبل ذلك، بل بأوضح من ذلك وأجل.

فلقد ائتمنه الله تعالى على تبليغ شرعه وسياسة خلقه، فقام بذلك حق قيام حتى رضي عنه وعن بلاغه المبين، وشهد له بأنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة كما وصلت إليه حتى تم الدين، وذلك حين قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: ٣]، ودل عليه أيضا تأييد الله له بالمعجزات الحسية والمعنوية وإظهاره على أعدائه، وهذه الأدلة منزلة منزلة أن يقول الحق تبارك وتعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني، كما تقدم إيضاحه (٣).

(١) متفق عليه وتقدم أيضا، وهذا لفظ يونس عن ابن اسحاق كما في الروض الأنف ١/٢٧٤.

(٢) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٢/٨٧ من حديث أم سلمة بإسناد حسن كما بين ذلك د/العمرى في

السيرة النبوية الصحيحة ١/١٧٤.

(٣) في مبحث الصدق ص ٣٩٩

إخباره صلى الله عليه وسلم عن أمانته :

وقد كان عليه الصلاة والسلام يستشعر هذا الخلق العظيم من نفسه الشريفة فيوضحه للأمة عندما يقتضي الأمر ذلك كما في الأمثلة الآتية :

١ - فلما ارتاب بعض جفأة الأعراب (١) في هذا الخلق العظيم، من جنابه صلى الله عليه وسلم عمدا وعنادا وتكبرا، بدافع الجشع والنفاق، وراح يشكك في عدالة توزيعه صلى الله عليه وسلم للمغانم، ويقول: كنا أحق بهذا المال ... لما قال ذلك، قال عليه الصلاة والسلام: "ألا تأمنوني وأنا آمن في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً؟" (٢) فأنكر عليه الصلاة والسلام عليه قوله، وبين ما هو عليه من الأمانة العظمى التي جعلته أهلاً لأن يكون أميناً على وحي الله وشرعه .

٢ - وكذلك قال في حق اليهودي الذي أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشتري منه ثوبين إلى الميسرة، فانتهزها اليهودي فرصة لينال من جنابه العظيم، علّه أن يشفي ما في نفسه من الحقد الدفين والحسد الكمين، وقال: إنما يريد محمد أن يذهب بمالي، فقال عليه الصلاة والسلام: "كذب، قد علم أنني من أتقاهم لله، وأدأهم للأمانة" (٣) .

(١) وهو الرجل الغائر العينين، المشرف الوجنتين، الناشز الجبهة، المخلوق الرأس، المشمر الإزار، الذي قام فقال: يا رسول الله اتق الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟" ثم قال فيه: "يخرج من ضعضئي هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية" قال الراوي: وأظنه قال: لكن أدركتهم لأقتلهم قتل ثمود" انظر فتح الباري ١٦/١٨٧ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن ٢٠٧/٥، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم برقم ١٠٦٤ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في البيوع، باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل برقم ١٢١٣، والنسائي في البيوع، باب البيع إلى أجل المعلوم ٢٩٤/٤، من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

ومن خلال هذين الموقفين تتجلى لك عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم وكمال حكمته وعدله وحلمه...، حيث يتجرأ مثل هؤلاء الأراذل على مقامه العظيم وهو النبي الرسول المعصوم، الإمام العام والحاكم المطلق، فكان بإمكانه أن ينال منهم ما أراد من العقوبة على تجرئهم الوقح على جنابه بمثل ذلك الكلام، غير أنه صلى الله عليه وسلم لم يؤاخذ أحدا منهما، كما تجلت لك عظمة أمانته من هذا الكلام البليغ المعبر عن الحقيقة التي جعله الله تعالى عليها ليكون أمينا على الدين والدنيا .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الأمانة :

تلك هي بعض أخباره صلى الله عليه وسلم عن هذا الخلق في نفسه، ولقد كان يترجم عن ذلك الخلق أيضا بأقواله فيه ليحث أمته عليه، أو يحذرهم من نقيضه، وأقواله في ذلك كثيرة، ككثرة متعلق مدلول الأمانة، وقد علمنا أن الشرع كله أمانة، لذلك فإن أقواله صلى الله عليه وسلم في الأمانة شاملة لكل أبواب الشرع: الإيمان، والتعبدية، والسلوكية الذاتية والاجتماعية .

ففي الأبواب الإيمانية بين عليه الصلاة والسلام ارتباط الأمانة بالإيمان في غير ما حديث، ونذكر منها:

١ - قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: "إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" قال حذيفة: ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها

مثل الوكت (١)، ثم ينام فيظل أثرها مثل الجمل (٢)، إلى أن قال: "فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده وما أبظرفه وما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان" (٣).

فسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينزل على قلوب الرجل والمرأة من الإيمان وعلم الكتاب والسنة أمانة، وهذه الأمانة هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى عَيْنِ الْإِيمَانِ﴾ ^[الأنعام: ١٧٩] فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكليف واغتنتم ما يرد عليه منها، وجد في إقامتها" (٤).

٢ - وقد كان عليه الصلاة والسلام يهتم بربط الأمانة بالإيمان فكان كما يقول أنس بن مالك رضي الله عنه "قلما خطب إلا قال: "لا لإيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له" (٥).

(١) هو الأثر اليسير، وقيل: هو سواد يسير، وقيل: هو لون يحدث بخالف للون الذي كان قبله. هـ، شرح مسلم ١٦٨/٢.

(٢) هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها، ويصير كالقبة فيه ماء قليل. هـ، المرجع السابق.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب رفع الأمانة ١٢٩/٨، ومسلم في الإيمان باب رفع الأمانة برقم ١٤٣.

(٤) حكاها الإمام النووي في شرح مسلم ١٦٨/٢، عن محمد بن إسماعيل التميمي الأصبهاني صاحب كتاب "التحرير شرح صحيح مسلم" وأقره عليه، ونقله عنه أيضا الحافظ في فتح الباري ٤٦/٢٧، وأقره كذلك.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٣٥/٣، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠١/١ إلى

أبي يعلى والبزار والطبراني في الأوسط، قال: وفيه أبو هلال - الراسي - وثقه ابن معين وغيره، وضعفه

النسائي وغيره، وفي التقريب برقم ٥٩٢٣: صدوق فيه لين، وله شواهد من حديث أبي أمامة وابن مسعود

رضي الله عنهما، ذكرهما الهيثمي في المجمع ١٠١/١ وعزاه الأول للطبراني في الكبير، وفي إسنادهما

ضعف، ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في الأوسط والصغير ٦١/١، وذكره الهيثمي في المجمع

=

٢٩٧/١، قال: وتفرّد به الحسين بن الحكم الحر.

فنفى الإيمان بتاتا عن فاقد الأمانة، لأن الذي يزعم على أدائها والمحافظة عليها هو الإيمان، فإذا فقد الإيمان لم يبق عنده وازع لذلك، فالأمانة مظهر هذا الإيمان القلبي، وترجمانه الواقعي، فمن ضيعها، فذلك دليل على فقد الأصل الذي تنبع منه الأمانة وهو الإيمان، وهذا ملموس ومشاهد، فكم نرى من خيانة عند فاقد الإيمان على مستوى الأفراد والجماعات في كل أرجاء المعمورة نسأل الله تعالى السلامة .

٣ - وفي الأبواب السلوكية، ناط عليه الصلاة والسلام سلوك المرء الذاتي والاجتماعي بالأمانة، وبين أن المرء مسئول عن سلوكه في نفسه، وسلوكه في مجتمعه؛ لأن كل ذلك أمانة عنده وهو مسئول عن أمانته، وذلك حيث قال عليه الصلاة والسلام: "كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه - راوي الحديث - فسمعت هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم، وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والرجل في مال أبيه راع ومسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" (١) .

فقد سمي النبي صلى الله عليه وسلم جميع من ذكر رعاة، والراعي هو "الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ما أوتمن على حفظه وما هو تحت نظره" (٢)، وأتى بذلك بأسلوب "تمثيل ليس في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه، فإنه أجمل أولا ثم فصل، وأتى بحرف التنبيه مكررا" (٣) ليرعى انتباه السامعين لأهمية ما سيلقي إليهم فيحفظوه ويعقلوه .

= ومن حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند الطبراني في الكبير كما في المجمع ٨٦/٣، قال: وإسناده منقطع، فهذه الشواهد بكثرتها تقوي حديث أنس المذكور وترفعه إلى درجة الحسن، لاسيما أن علته هو الراسي، وهو ثقة عند ابن معين، إمام أهل هذه الصنعة، والله أعلم .

(١) أخرجه البخاري في الأحكام، باب قول الله تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾... ٧٧/٩، ومسلم

في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل برقم ١٨٢٩ .

(٢) شرح مسلم للإمام النووي ٢١٣/١٢ .

(٣) فتح الباري ١٣١/٢٧ .

(وقد دخل في عمومه حتى المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه حتى يعمل المأمورات، ويجتنب المنهيات فعلا ونطقا واعتقادا، فجوارحه وقَّواه وحواسه رعيته)(١) .

ومع ذلك فلم يكتف صلى الله عليه وسلم بهذا العموم، بل لقد نص على الأمانة في مواضع أخرى متفرقة تدعو الحاجة إلى التنصيص عليها لعظم أمر الأمانة فيها وذلك كما في الأمور الآتية :

أ - الأمانة في تولية أمور المسلمين، وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم :

١ - "ما من عبد يسترعيه الله رعيةً، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة"(٢) .

٢ - وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: "يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها"(٣) .

٣ - وقوله عليه الصلاة والسلام: "من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطة فما فوقه كان غلولا يأتي به يوم القيامة"(٤) .

(١) فتح الباري ٣١/٢٧ ١٣٢٤ هـ يتصرف يسير .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح ٨٠/٩، ومسلم في الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار برقم ١٤٢، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في الإمامة، باب كراهية الأمانة بغير ضرورة برقم ١٨٢٦، وأبو داود في الوصايا، باب ما جاء في الدخول في الوصايا برقم ٢٨٦٨، والنسائي في الوصايا، باب النهي عن الولاية على مال اليتيم ٢٥٥ / ٦ .

(٤) أخرجه مسلم في الإمامة، باب تحريم هدايا العمال برقم ١٨٣٣، من حديث عدي بن عميرة الكندي رضي الله عنه، وأبو داود في الأقضية، باب في هدايا العمال برقم ٣٥٨١، وأحمد في المسند ١٩٢/٤ .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي عظم فيها النبي صلى الله عليه وسلم شأن الأمانة في ولايات المسلمين العامة أو الخاصة .

ب - الأمانة في الأموال ونحوها، وهو النوع الذي لا يكاد الناس يعرفون الأمانة إلا فيه، وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة أيضا، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام :
١ - "أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك" (١).

٢ - وقوله: عليه الصلاة والسلام: "إن الخازن المسلم الأمين الذي يعطي ما أمر به فيعطيه كاملا موفورا طيبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين" (٢) .
ج - الأمانة في الأحوال الشخصية، والحقوق الزوجية، وهي من أهم الأمانات، وأقواله صلى الله عليه وسلم تبين ذلك، وهي كثيرة ومن ذلك :

١ - قوله صلى الله عليه وسلم: "إن من أعظم الأمانة عند الله تعالى يوم القيامة الرجلُ يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها" وفي رواية: "ثم ينشر أحدهما سر صاحبه" (٣)، فسمى النبي صلى الله عليه وسلم هذا النوع من أعظم الأمانات، لما يترتب على إفشاء ذلك من فساد خلقي .

د - الأمانة في المجالس، وهي نوع مهم من أنواع الأمانات لما يترتب عليها من حفظ الحقوق وصيانة الحرمات، وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام :

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، باب الرجل يأخذ حقه من تحت يده برقم ٣٥٣٥، من حديث أبي هريرة

رضي الله عنه، والترمذي في البيوع، باب رقم ٣٨ برقم ١٢٦٤، والدارمي في سننه ٢/٢٦٤، والحاكم في

المستدرک ٢/٤٦، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

(٢) أخرجه البخاري في الوكالة، باب وكالة الأمين في الخزانة ٣/١٣٥ من حديث أبي موسى الأشعري رضي

الله عنه، ومسلم في الزكاة، باب أجر الخازن الأمين برقم ١٠٢٣ .

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة برقم ١٤٣٧، من حديث أبي سعيد الخدري رضي

الله عنه، وأبو داود في الأدب، باب في نقل الحديث برقم ٤٨٧٠ .

١ - "إذا حَدَّثَ رجل رجلًا بحديث ثم التفت فهو أمانة" (١) .

أي: إن الحديث ذاك أمانة يجب عليه حفظه كما تحفظ الأمانات المادية، لأن صاحبه يريد ذلك بقرينة حاله .

٢ - ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم موقف عظيم من مواقف الأمانة في هذا الباب، يدل على عظم أمانته، وعلى عظم أمانة المجلس، وذلك حينما جاء سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بعبد الله بن سرح إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليؤمّنه ويبايعه، وكان عليه الصلاة والسلام قد أهدر دمه مع النفر الذين أهدر دمهم يوم الفتح (٢)، فلما وقف على رأسه الشريف وقال له عثمان: بايع عبد الله، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثًا كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: "أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأي كفت يدي عن بيعته فيقتله؟" فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينيك؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في نقل الحديث برقم ٤٨٦٨ من حديث جابر رضي الله عنه، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء أن المجالس بالأمانة برقم ١٩٥٩، وقال عنه: حديث حسن، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٠٩٠، وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه عند أبي يعلى ١٠٣٠/٣، كما أفاده الألباني في المرجع السابق .

(٢) وهم عبد الله بن خطل، وقَيْنَتَان له كانتا تغنيان بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وكان ابن خطل قد ارتد عن الإسلام وقتل مولى له مسلمًا، والحويرث بن نقيد، وكان ممن يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، وأذى ابنته فاطمة وأم كلثوم رضي الله عنهما عند هجرتهما إلى المدينة، ومِقْيَس بن صَبَابَة لقتله أنصاريا وارتداده عن الإسلام، وسارة مولى لبعض بني عبد المطلب وكانت تؤذيه بمكة، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أبي سرح الذي كان قد ائتمنه النبي صلى الله عليه وسلم على كتابة الوحي فارتد مشركًا، وعاد إلى قريش وافترى الأكاذيب في أمر الوحي عند قريش، وكان أخا لعثمان بن عفان رضي الله عنه من الرضاعة، وانظر تفصيل أمر هؤلاء في سيرة ابن هشام في فتح مكة ٩٢/٤ مع الروض الأنف للسهيلي، ودلائل النبوة للبيهقي ٥٩/٥ - ٦١ .

"لا ينبغي لبي أن تكون له خائنة الأعين" (١) .

فأعظم بهذه الأمانة التي حالت بينه وبين ما كان يشتهي من سفك دم هذا الذي كان قد ارتد وافترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان قتله في الله لو أشار به (٢)، ولكن عظمة أمانته أثبت عليه أن يخدشها حتى في إيمائه وهو في موطن حق، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم .

وهذا يؤكد على مبلغ عظمة أمانة المجالس في الإسلام، وعظم خطر إفشاء أحاديثها.
هـ - الأمانة في الاستشارة، وهي من أهم أنواع الأمانات لما يترتب عليها من اعتماد المرء على المشير في أمر قد يكون فيه صلاح دينه أو دنياه أو فسادهما، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أمر هذه الأمانة فقال:

١- "المستشار مؤتمن" (٣) أي يجب عليه ابداء الإشارة الصحيحة حسب ما يرى، وإلا كان مفرطاً في الأمانة ويعد خائناً، وقد علم ما يترتب على الخيانة من عظيم العقاب .
إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على الأمانة في كل شرائع الإسلام التي يضيق بها الحصر هنا وهي تدل جميعها بالالتزام على كمال أمانته صلى الله عليه وسلم لكونه كان أوفى من يطبق ما يندب إليه.

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه السلام برقم ٤٣٥٩، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والنسائي في تحريم الدم، باب حكم المرتد ١٠٦/٧، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٧٢/٧ إلى أبي يعلى واليزار قال: ورجاهما ثقات، والخير ذكره البيهقي في الدلائل ٦٠/٥، وابن هشام في السيرة ٩٢/٤ بمعناه، وابن سعد في الطبقات ١٤١/٢ بمعناه أيضا .

(٢) ولأمر ما أراد الله عدم قتله، فلقد حسن إسلامه بعد ذلك، وكان له أثر طيب في الإسلام حيث كان صاحب المينة مع عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتح مصر، وافتتح أفريقية زمن عثمان رضي الله عنه وكان فتح أفريقية من أعظم الفتوح وولي مصر بعد ذلك...، وكانت له مواقف محمودة كثيرة في الفتوح، وتوفي سنة ٥٩ هـ، انظر الإصابة ٣١٧/٢ .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في المشورة برقم ٥١٢٨، والترمذي في الأدب، باب إن المستشار مؤتمن برقم ٢٨٢٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال عنه: حديث حسن، وله شاهد من حديث أم سلمة رضي الله عنه، برقم ٢٨٢٣، ومن حديث عبد الله بن الزبير عند الطبراني كما أفاده الهيثمي في المجمع ١٠٠/٨ قال: ورجاله رجال الصحيح .

المبحث الثاني

(خلق الوفاء)

الوفاء في اللغة: ضد الغدر، يقال: وفى بعهده وأوفى بمعنى، مأخوذ من قولهم: وفى الشيء وفياً، إذا تم وكثر، ويقال: أوفاه حقه ووفاه بمعنى، أي أعطاه وافياً، واستوفى حقه وتوفاه إذا أخذ حقه كاملاً (١).

وفي المفردات (٢) ما نصه: "وفى بعهده يفى وفاء وأوفى إذا تم العهد ولم ينقض حفظه، قال: واشتقاق ضده وهو الغدر يدل عليه".

وفي الاصطلاح هو: "ملازمة طريق المواساة ومحافظة عهود الخلطاء" (٣).

ويقال أيضاً: "هو أداء الحق" (٤).

منزلة خلق الوفاء في الأخلاق السلوكية :

والوفاء من أخلاق السلوك الاجتماعية العظيمة، التي كان للقرآن الكريم بها عناية فائقة لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس، وصفاء الفطر، وسلامة الإيمان.

قال الراغب: "والوفاء يختص بالإنسان فمن فقد فيه فقد انسلخ من الإنسانية كالصدق، قال: وقد جعل الله تعالى العهد من الإيمان وصيره قواماً لأمر الناس، فالتناس مضطرون إلى التعاون ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء، ولولا ذلك لتنافرت القلوب، وارتفع التعايش، قال: ولذلك عظم الله أمره فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّاي فَارْهَبُون﴾ [سورة البقرة: ٤٠]، وقال ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [سورة النحل: ٩١] (٥).

(١) الصحاح للجوهري ٢٥٢٦/٦ مادة (وفى)، وتاج العروس للزبيدي ٣٩٤/١٠ مادة (وفى).

(٢) ص ٥٢٨ مادة (وفى).

(٣) التعريفات للحر جاني ص ٢٥٣، ونقله المناوي في التوقيف ص ٧٢٩.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٧٣٠.

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٩٢.

وقد تحدث القرآن الكريم عن الوفاء بأساليب متعددة: أمرا به، ووتنويها بشأنه، وثناء على أهله في آيات كثيرة، بلغت عدتها نحو عشرين آية .

الأمر بالوفاء في القرآن الكريم :

أما الأمر به ففي نحو من إحدى عشرة آية في مجالات مختلفة من مجالات الوفاء، وهي العهود، والكيل والوزن، والعقود، والنذور، وهي التي يجري بها التعامل بين الناس غالبا.

الوفاء بالعهود :

أما العهود فهي قسمان: مع الله جل شأنه، ومع الناس .

العهود مع الله تعالى :

للعباد مع الخالق جل في علاه عهود عامة، وعهود خاصة يجب عليهم مراعاتها والوفاء بها .

العهود العامة :

أما العهود العامة فهي ما أخذ الله على البشرية في عالم النذر الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]، فهذه الآية الكريمة تقص علينا نبأ هذا العهد العام الذي أخذه الله تعالى على عباده من البشر، وتبين أن الله تعالى أخذ على جميع بني آدم العهد على الإيمان به عند إيجادهم في هذه الحياة، فلا عذر لأحد في التفريط فيه إذ لم يترك الله تعالى لأحد عذرا يتشبث به، فمن لم يؤمن بالله تعالى فقد نقض ما عاهد الله عليه واستحق العقاب المترتب على ذلك .

الأوامر القرآنية بالوفاء بالعهود العامة :

ولرحمته بعباده كي لا ينالهم عذابه المترتب على نقض العهود وعدم الوفاء بها، وإلى سبحانه أوامره لعباده بالوفاء بما عاهدوه عليه من الإيمان والعبودية، لما في الأوامر الإلهية من وازع على الوفاء بما تدخله في الرُّوع من خطر المخالفة مع الأمر الصريح الذي تقوم به الحجة، ولا تنفع معه المَعذرة .

والأوامر في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٢]، (والعهد المذكور هنا عام يشمل العهد بالإيمان، وما عهد الله به إليهم قبل هذه الآية من الوصايا، ويشمل أيضا عهود الإيمان والنذور أو أي عهد كان) (١) مما يشمل اسم العهد، فالآية الكريمة توجب الوفاء بسائر العهود مع الله ومع الناس، والمؤمن ليس بوسعه أن يترك ما أوجب الله عليه، فإن إيمانه يزعه عن ذلك، وبالتالي فإنه يحفظ نفسه من عذاب الله المترتب على عدم الوفاء بالعهد كما سيأتي بيانه.

وقد أكد طلب الوفاء بالعهد في هذه الآية بعدة أمور منها: الأمر الذي هو للوجوب "أوفوا"، ومنها: إضافة العهد إلى الله عز وجل تفخيما لشأنه، ومنها: توكيد الأمر بالوصية المسندة إلى الله تعالى وهي مقتضية للوفاء بنفسها فضلا عن الأمر. ومن الآيات الآمرة بالوفاء بعهد الله قوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النحل: ٩١]، فإن الخطاب في هذه الآية وإن كان موجها لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنه عام لكل من تتأتى مخاطبته من العقلاء، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم.

إذا الكل مكلف بشرع الله سواء كان ممن أجاب أو ممن عصى وكفر، ومن جملة شرائع الله الوفاء بالعهود، والعهد هنا عام لكل ما يجب الوفاء به مما أمر الله به أو نهى عنه، ويدخل فيه معاهدة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم للنبي صلى الله عليه وسلم على الإيمان والنصرة وغيرهما، وكذا عهود الإيمان دخولا أوليا (٢).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٤]

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢/٢٢١.

(٢) ذكر المفسرون أقوالا في المراد بالعهد هنا ومنها: أنه عام وهو الذي ارتأيته، انظر تفسير الفخر الرازي

فإنها أيضا عامة لكل عهد بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الناس (١) .

العهود الخاصة :

وأما الأمر بالوفاء بالعهود الخاصة، فمنها ما أخذها الله على أهل الكتاب من الموائيق على الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ورسالته، والكتاب الذي سينزله عليه وبيان ذلك للناس حتى يؤمنوا به، ولا يكتموا شيئا من ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (٢) [سورة آل عمران: ١٨٧] .

إلا أنهم نقضوا هذا الميثاق الذي واثقوا الله به كشأنهم في نقض الموائيق الأخرى التي أخذها الله عليهم، وجحدوا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحرفوا صفاته التي يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، وكتموا صدق نبوته على الناس، بل وافتروا عليه وعلى دينه الحنيف، فطالبهم الله تعالى بالوفاء بما عاهدوا الله عليه، وذلك بقوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ [سورة البقرة: ٤٠] غير أنهم لم يستجيبوا لأوامر الله ونداءاته المتكررة لهم، وإنما أصروا على جحودهم وضلالهم فاستحقوا غضب الله وأليم عقابه الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة المائدة: ١٣، ١٤]، أي: سوف يرون جزاء صنعهم الشنيع هذا، في الدنيا والآخرة .

وفي هذا الأسلوب الشديد من الوعيد ما فيه، حيث أبهم المنبأ به لتذهب النفس في

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٣٤/٥ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤٣٦/١ .

تفسيره أي مذهب، فإنها لن تخطيء؛ لأن الجرم كبير إذ هو نقض العهد الذي عاهدوا الله عليه .

وقد بينت آيات أخرى شناعة ذلك وجزاءه الأليم، ففي سورة البقرة يقول الله تبارك وتعالى في سياق حديثه عن بني إسرائيل: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧]، فحكم عليهم بالخسران، وهو شامل لخسران الدنيا والآخرة .

وفي آل عمران في سياق حديثه عنهم أيضا يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٧٧] .

وأي عقاب وجزاء أعظم من هذا، حيث نفى الله تعالى أن يكون لهم نصيب من نعيم الآخرة، ولا يكلمهم الله تعالى كما يكلم أهل طاعته في الدنيا، وأهل النعيم في الآخرة، وذلك لكامل الحنق عليهم، ولا ينظر إليهم نظر رحمة ولا يزكّيهم أي: لا يطهرهم من ذنوبهم، بل ينزل عليهم عذابه المؤلم، لا جرم إن هذا هو الخسران المبين، وما نالوا ذلك إلا لأنهم نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ٢٥] .

ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى أن يفوا بعهودهم حتى لا يكونوا عرضة لهذا العذاب الأليم فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: ٩٥]، والذي عند الله تعالى هو عظيم أجره وجزيل ثوابه، كما دل على ذلك الآيات بالوفاء .

الترغيب بالوفاء بالعهد :

فقد رغب الله تعالى بالوفاء بالعهود بما أعدّه الله لهم من الثواب وبما أثنى به عليهم في محكم الكتاب فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح: ١٠] وقد فصل في آيات أخرى عظمة ذلك الأجر فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ

يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ١٩ - ٢٤]، فترى أن ذلك الأجر العظيم لم يقتصر عليهم بل سرى إلى أصولهم وفروعهم وأهليهم وأي نعيم للمرء أكبر من أن يصحبه فيه أصوله وفروعه وأهليه، لا جرم لا يفرط عاقل بهذا الثناء وذلك الجزاء بعد أن يعلمه وهو قادر على أن يناله إلا أن يكون ممن غلبت عليه شقوته، وأولئك لهم سوء الدار .

الأوامر القرآنية بالوفاء بالكيل والوزن :

كل ما تقدم هو من ^{مجال} مجالات الوفاء الذي أمر به القرآن الكريم .

أما المجال الثاني: فهو الوفاء بالكيل والوزن، وهو المجال الذي يتعلق كلية بحقوق الآخرين، وما يترتب عليه من قوام حياتهم ومعاشهم، وهو المجال الذي لا سبيل إلى التساهل فيه؛ لأنه مبني على المشاحة والمقاصة، فالوفاء فيه يصلح للناس أحوالهم، ويحفظ لهم حقوقهم، ولهذا تكرر الأمر به في القرآن الكريم خمس مرات منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [سورة الإسراء: ٣٥] .

فانظر إلى الأهمية الكبرى التي يوليها القرآن الكريم على الوفاء بالكيل والوزن، إذ لم يكتف بمجرد الأمر بالوفاء، بل أن يكون بالقسط، وبالقسطاس المستقيم، والقسط هو العدل، والقسطاس الميزان، ويعبر به عن العدالة كما يعبر عنها بالميزان^(١) .

مع أن ذلك مفهوم من الأمر بالوفاء، ولكن جيء به لزيادة التأكيد، والحرص على الإبقاء في الكيل والوزن لما لهما من عظيم الأثر في إصلاح أحوال البشر .

ولما كان في مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، مما يجري فيه الحرج، والشرع الحنيف ينأى بأهله عن سلوكه، أو أن يكلفهم به، لذلك أتبع الأمر به في

(١) المفردات للراغب ص ٤٠٣ .

الآية الأولى وهي آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إشارة "إلى أن الواجب هو بلوغ الوسع في التحري، وأن ما وراءه مغفوء عنه" (١) تطيننا لقوبهم لئلا يشعروا بالحرج .

كما أتبع الأمر بذلك في الآية الثانية وهي آية الإسراء بالإغراء على تحري العدل بالوفاء في الكيل والوزن فقال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ والمعنى "أن إيفاء الكيل والوزن بالقسط المستقيم خير في الدنيا؛ لأنه سبب لرغبة الناس في معاملة فاعله وجلب الثناء الجميل عليه، وأحسن تأويلاً أي عاقبة، من آل: إذا رجع، لما يترتب عليه من الثواب في الآخرة" (٢) وذلك غاية ما يطلبه تجار الدنيا وطلاب الآخرة .

فالآيتان أمرتا أولاً بتحري القسط في الكيل والوزن، وذلك بحسب الجهد والطاقة بحيث لا يكون هناك تفريط في التحري، فإذا لم يكن تفريط من الكائل أو الوزان أو نحوهما، فلا حرج عليه . فيما يند عن إرادته بعد بذل الوسع في التحري . فتأمل مبلغ عناية القرآن الكريم في الوفاء بالكيل أو الوزن ونحوهما كالمساحة والمقدار، لما كان ذلك يتعلق بحقوق العباد، وذلك نظراً لما جُبلوا عليه من المشاحة في مصالح الحياة، وذلك ليعلم الناس عدم التساهل في حقوق العباد المادية مهما صغرت، وذلك لخطر مسئوليتها .

أما الأوامر الأخرى في الوفاء بالكيل والوزن فقد جاءت على لسان نبي الله شعيب عليه السلام وهو يدعو قومه أهل مدين الذين كان قد تفشّى بهم وباء تطفيف الكيل والوزن وبخسهما، بحيث أصبح ذلك لديهم عرفاً مقررًا، وقاعدة شائعة في كل تعاملهم . فكان من أول ما بدأ به في مرحلة دعوتهم أن دعاهم إلى اجتناب هذه الظاهرة السيئة، وخوفهم عاقبة أمرها من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة وقد قص الله تعالى من حاله معهم في هذا المجال مواقف متكررة يبدأها بعد دعوتهم إلى عبادة الله تعالى، بالدعوة

(١) الكشف للزمخشري ٤٨/٢ .

(٢) روح المعاني ٧٢/١٥/٥ .

إلى إيفاء الكيل والوزن بالقسط، وعدم بخس الناس أشياءهم، وذلك كقوله تعالى:
 ﴿وإلى مدينَ أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبُدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرِه قد جاءكم بينةٌ
 من ربكم فأوفُوا الكيلَ والميزانَ ولا تبخسوا النَّاسَ أشياءهم ولا تُفْسِدُوا في الأرضِ بعد
 إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين﴾ [سورة الأعراف: ٨٥]، وقوله عز شأنه على
 لسانه عليه السلام أيضاً: ﴿قال يا قوم اعبُدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرِه ولا تنقصُوا
 المكيالَ والميزانَ إني أراكم بخيرٍ وإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مُحِيطٌ * ويا قوم أوفُوا
 المكيالَ والميزانَ بالقِسطِ ولا تبخسوا النَّاسَ أشياءهم ولا تعثُوا في الأرضِ مُفسدينَ﴾
 [سورة هود: ٨٤، ٨٥]، وكذلك قال في سورة الشعراء: ﴿أوفُوا الكيلَ ولا تكونوا من
 المخسرينَ * وزنوا بالقِسطِ المستقيمَ * ولا تبخسوا النَّاسَ أشياءهم ولا تعثُوا في الأرضِ
 مُفسدينَ﴾ [١٨١-١٨٣].

فترى أنه عليه السلام أول ما دعاهم إليه بعد عبادة الله تعالى هو إيفاء الكيل والوزن
 "جريا على عادة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أنهم كانوا إذا رأوا قومهم
 مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالا أكثر من إقبالهم على سائر الأنواع، بدأوا بمنعهم
 عن ذلك النوع .

وكان قومه عليه السلام مشغولين بالبخس والتطفيف أكثر من غيره" (١)، بل لقد
 استشرى فيهم وتأصل في أفئدتهم حتى لم تؤثر فيهم تلك المواعظ البليغة من نبيهم شعيب
 «خطيب الأنبياء عليه السلام» (٢)، وإنما أنكروا عليه وقالوا له: ﴿يا شعيبُ أصلوتك تأمرُك
 أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعلَ في أموالنا ما نشاءُ إنك لأنتَ الحليمُ الرشيدُ﴾ [سورة
 هود: ٨٧].

(١) روح المعاني ١٧٧/٨/٣ .

(٢) عز ذلك ابن كثير في قصص الأنبياء ٢٤٢/١ إلى بعض السلف، قال: لفصاحته وعلو عبارته في دعاية قومه

إلى الإيمان برسالته . اهـ .

قالوا ذلك على سبيل التهكم به والسخرية ليكف دعوته لهم إلى الخير والهدى، ويذرهم وما هم عليه من الضلال والردى .

ولا غرو أن يكون اهتمامه عليه السلام بإيفاء الكيل والوزن بهذه المثابة فإن تطفيف الكيل والوزن يدل على أن فاعله متأصل في مساوئ الأخلاق، من مكر وخديعة وخيانة وطمع وغش وجور وظلم وعدم إنصاف، وبالتالي فهو معولٌ هدم لكرائم أخلاق المجتمع، ولذا كان عاقبة أمره شديدا كما دل عليه قوله سبحانه على سبيل العموم: ﴿ وَيَلُ لِّلْمُطَفِّينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة المطففين: ١-٦] .

والويل كناية عن شدة العذاب^(١) أو هو واد في جهنم لو سیرت فيه جبال الدنيا لماعت^(٢)، ولذلك لما أصر قوم شعيب على هذه الجريمة وغيرها، أهلكهم الله تعالى وصب عليهم مسوط عذاب حيث أخذتهم ﴿ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّلْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾ [سورة هود: ٩٤، ٩٥] .

الأمر بالوفاء بالعقود :

أما المجال الثالث من مجالات الوفاء الذي أمر به القرآن الكريم فهو العقود، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [سورة المائدة: ١] .
والعقود: جمع عقد وهو العهد الموثق، وأصله اللغوي: الجمع بين أطراف الشيء بحيث يعسر الانفصال بينهما، كعقد الحبال وعقد البناء، ثم استعير ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما^(٣) .

(١) فقد قال الزجاج: الويل: كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة، حكاه ابن الجوزي في زاد المسير

(٢) كما جاء عن عطاء بن يسار رحمه الله. انظر تفسير القرآن العظيم ١/١١٧، ولورد في تفسيره آثارا أخرى

انظرها هناك أو غيره من كتب التفسير بالمأثور عند الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٣) المفردات للراغب ص ٣٤١، وتفسير البيضاوي ص ١٣٩ يتصرف .

والمراد بها هنا: ما يعم العقود التي عقدها الله تعالى مع عباده وألزمهم بها من التكليف، وما يعقدونه بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به (١).

ومعنى الآية: يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود في إظهار طاعة الله، أوفوا بتلك العقود التي التزمتم بها .

"وإنما سمي الله تعالى هذه التكليف عقوداً؛ لأنه تعالى ربطها بعباده كما يربط الشيء بالشيء بالحبل الموثق" (٢) فالآية الكريمة تنادي الموصوفين بالإيمان أن يوفوا بالعقود التي التزموا بها، ووصفهم بالإيمان تهيئاً لهم على الوفاء بالعقود؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به .

الأمر بالوفاء بالنذر :

أما المجال الرابع من مجالات الأمر بالوفاء في القرآن الكريم، فهو الوفاء بالنذر حيث قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ (٣) وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿سورة الحج: ٢٩﴾ والنذور: جمع نذر وهو التزام قرينة لم تتعين في الشرع (٤)، ومنه ما وردت فيه الآية مما ينذره الحاج من أعمال البر في حجه من هدي ونحوه .

وهو ما شملته آية المائدة السابقة؛ لأنه عقد يعقده المؤمن مع الله تبارك وتعالى فيإفراده بالذكر من بين سائر العقود يدل على أهمية الوفاء به، وحتى لا يفرط فيه المؤمن فيتخلى عن عدم الإيفاء به لعدم المطالب به في الدنيا، إذا لا يزعم على الإيفاء به إلا قوة الإيمان . ولذلك كان تهديد الله تعالى للمفرطين به مخيفاً حيث قال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٠] فإذا كان النذر

(١) كما استظهره البيضاوي في تفسيره، وانظر روح المعاني ٤٨/٦/٢ .

(٢) التفسير الكبير ١٢٣/١١ .

(٣) أي: ليزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الشعر والظفر ونحوهما، تفسير الجلالين ٥٢/٢ .

(٤) الباقوت النفيس للشاطري ص ٢٦٤ .

يعلمه الله تعالى فإن العبد رهن المجازاة به أداء أو تفريطاً، فلا يخادع إلا نفسه إن هو لم يف به .

أما إذا وفَّى به فإنه يكون ذا مكانة عالية عند الله تعالى، كما يدل عليه تنويه الله تعالى بأهل هذا الخلق العظيم في كتابه الكريم .

تنويه القرآن الكريم بأهل الوفاء :

لقد كان تنويه القرآن الكريم بأهل هذا الخلق عظيماً وبالغاً، وذلك لعظم ما تحلوا به من خلق الوفاء الذي يعني أداء ما التزموا به للخالق والمخلوقين على النحو الأكمل، وهو الأمر الذي نكثه كثير من الناس فلم يفوا بما عاهدوا الله عليه، ولا بما التزموه لخليقته، فأخفقوا في عهودهم ومعاملاتهم .

ولما وفي هؤلاء بعهودهم ومعاملاتهم كان ذلك دليلاً على كمال أخلاقهم وعلو شأنهم فكانوا أهلاً لأن يُثنى عليهم وينوّه بمكانتهم عند الله تعالى، وكان ذلك في آيات كثيرة من الكتاب العظيم منها قوله سبحانه: ﴿... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [سورة الرعد: ١٩، ٢٠]

فنعتهم الله تعالى بأولي الألباب، أي: أصحاب عقول، حيث هدتهم عقولهم إلى وجوب احترام العهود والمواثيق التي التزموا بها لخالقهم في الإيمان والعبادة، والمخلوقين في المعاملات والسلوك، فلا ينقضون عهداً ولا ميثاقاً .

ومنها قوله سبحانه في سياق تعداد صفات أهل البر من عباده في سورة البقرة: ﴿... وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧] .

فوصف الله تعالى أهل هذه الأخلاق ومنها خلق الوفاء بأنهم أهل صدق وأهل تقوى؛ وذلك لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، واثقوا عذابه وعقابه الذي وعد به الناكثين والخائنين، فتأمل مبلغ هذا الثناء من الملك الجليل المتظمن للتنويه العظيم بأهل تلك الأخلاق الكريمة، تجد التعبير قاصراً عن إدراك كنهه، لما ينطوي عليه من الجزاء الكبير المعد لأولئك الموصوفين بهذه الصفات، إذ هو بحسب ^{مقام} المثني والمثيب، جعلنا الله تعالى ممن

نال حظاً من ثنائه وجزائه الكريم، فإن جزاءه الكريم هو الجزاء الأوفى .

ولا غرو أن ينال أهل الوفاء ذلك الثناء وذلك الجزاء العظيم، فإنهم قد تحلوا بذلك الخلق العظيم الذي هو من صفات الحق تبارك وتعالى، فإنه سبحانه ذو الوفاء الذي لا يدانيه وفاء، كما أخبر سبحانه عن نفسه وهو أصدق القائلين بقوله: ﴿ ومن أوفى بعهدِهِ من اللَّهِ ﴾ [سورة التوبة: ١١١] والاستفهام للتقرير، ومعناه: لا أحد أوفى بالعهد منه سبحانه، فمن تحلى به فقد تحلى بصفة من صفات مولاه جل وعلا، وإن لم يكن كما هو في المولى جل وعلا، إلا أنه يصدق عليه الوصف، وإن بُعد الفرق بين حقيقته في الخالق والمخلوق .

كما أنه من صفات أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام قد ضرب المثل في الوفاء، إذ وفى وفاءً لم يُعرف لأحد من البشر أن ابتلي بمثله، وذلك حينما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه فلذة كبده بيده قربانا له على نعمته عليه إذ أهله لأن يبني وابنه إسماعيل بيته الكريم - الكعبة المشرفة - فما كان منه إلا أن امتثل أمر ربه، وطاوعه ابنه على أمر ربه، وتلّه للجبين ليحقق أمر الله، فلما علم الله صدقه ووفاءه فداه بذبح عظيم، وناداه معبرا عن رضاه عنه وعن وفائه بقوله: ﴿ يا إبراهيمُ قد صدّقتَ الرؤيا إنّنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ [سورة الصافات: الآيات من ١٠١-١١٣] .

كما ابتلاه الله أيضا بكلمات من التكاليف الشرعية كالإمامة على الناس، وتطهير البيت ورفع قواعده، والإسلام^(١)، فأتمهن كما قصّ الله عنه بقوله: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهنّ، قال إنّني جاعلُك للناسِ إمامًا قال ومن ذُرِّيَّتِي قال لا ينال عهدِي الظالمين ... ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤] .

فاستحق بذلك أن ينوه الله تعالى بوفائه هذا فقال: ﴿ وإبراهيمَ الذي وفى ﴾ [سورة النجم: ٢٧] أي: وفى بجميع ما أمره الله به من التكاليف الشرعية .

وكذلك نبي الله يوسف عليه السلام فإن خلق الوفاء حملة على أن ينسى ما عمله إخوانه معه من مكر وخديعة بحيث كانوا يهدفون إلى أن يلقوه حتفه حينما ألقوه في

غِيَابَةُ الْجُبِّ، نَاهِيكَ عَمَّا أَوْرَثُوهُ أَبَاهُمْ نَبِيَّ اللَّهِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ حُزْنٍ عَمِيقٍ عَلَى فَقْدِ ابْنِهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمَّا وَفَدَ إِلَيْهِ إِخْوَانُهُ بَعْدَ أَنْ مَكَّنَهُ اللَّهُ مِنَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ قَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ: ٥٩] هَذَا هُوَ الْوَفَاءُ بِحَقُوقِ النَّاسِ عَامَةً، وَالْإِخْوَانُ وَالْأَرْحَامُ مِنْهُمْ خَاصَّةً، وَهَذَا هُوَ الْخُلُقُ اللَّائِقُ مِنْ نَبِيِّ كَرِيمٍ، وَلَا رَيْبَ فَهُوَ الْكَرِيمُ بْنُ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِمُ وَعَلَى بَنِيهِمَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ .

ما أعدّه الله تعالى لأهل الوفاء من الأجر والجزاء :

وقد أعد الله تعالى لأهل هذا الخلق العظيم أجرا كبيرا يدل عليه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [سورة الدهر: ٥-٧].

فسماهم الله تعالى أبراراً، ومعلوم أن الأبرار لهم صفات كثيرة تدل على عظمة إيمانهم وتعبدهم، ولكن لم يذكر الله تعالى في هذه الآية الدالة على مبلغ ثوابهم وأجرهم إلا صفة الوفاء والخوف، وذلك لأن هذا الوصف أبلغ في التوفر على أداء الواجبات؛ لأن من وفى بما أوجبه على نفسه لله، كان أوفى بما أوجبه الله عليه بالأولى^(١)، وذلك يدل على قوة الإيمان إذ لا يدفع إلى الوفاء بالنذر إلا قوة الإيمان، وتفاوت الناس عند الله تعالى إنما يكون بحسب قوة إيمانهم وضعفه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣]

جعلنا الله من أهل الوفاء والتقوى بمنه وكرمه آمين .

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل لليضاوي ص ٧٧٤ .

تمثل خلق الوفاء

في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كان خلق الوفاء من أخلاق النبوة، فما من نبي يصطفيه الله تعالى لنبوته ورسالته إلا غرس فيه من صفات الكمال ومعالي الأخلاق ما يكون بها جليلاً في نفسه، وموضع ثقة الناس به، ومصدر تأسيهم به، كما علمت مما قصه الله تعالى عن بعض أنبيائه كإبراهيم ويوسف عليهما السلام، وما ثبت لنبي من خصال الكمال يثبت لغيره من الأنبياء، لأنهم جميعاً في عناية الله ورعايته واصطفائه، وغرس خصال المكارم فيهم سواء، لذلك بعثوا كلهم بمكارم الأخلاق، وبعث سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارمها .

لذلك تمثل هذا الخلق العظيم فيه كأوفي ما يكون الوفاء وأعظمه في كل أحواله ومع كل من يتأتى له الوفاء: مع الله تعالى ومع أصحابه، ومع أزواجه، ومع أقاربه، ومع أعدائه، حتى مع الحيوان والجماد !! بحيث كانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها وفاءً وعرفانا، قبل البعثة وبعدها، وشواهد ذلك يطول ذكرها إن أريد استقصاؤها، ونخرجنا عن سنن الاختصار، فبحسبنا إذاً ذكر شيء منها ففي ذلك كفاية في الاستدلال .

وفاءه صلى الله عليه وسلم مع الله تعالى :

أما وفاءه عليه الصلاة مع الله تعالى، فهو وفاء عظيم بعهوده وطاعته، بامثال أمره واجتناب نهيه .

أما وفاءه بالعهود، وهي ما أخذها على عباده في عالم الذر من العهد على الإيمان به إذا هو سبحانه أوجدتهم إلى هذه الحياة، فقد كان صلى الله عليه وسلم في قمة الوفاء بذلك، حيث نشأ على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام ولم يسجد لصنم قط، بل نشأ على بغضها وبغض كل عمل من أعمال الجاهلية المخالفة لدين إبراهيم، ولقد نشأ على عبادة الله تعالى على ضوء ما وصله من بقايا دين إبراهيم فكان يدين لله تعالى بها، وظل يتحنث ويتعبد بذلك مدة حياته قبل أن يوحى إليه، وكان لفرط تعبده على تلك الحنيفية الباقية، يذهب إلى غار حراء ويتزود لذلك، فيظل فيه الأيام ذوات العدد، فإذا فني زاده رجع فتزود لمثلها حتى بعثه الله تعالى كما هو معلوم من قصة بدء الوحي، فلما بعثه

بالنبوة والرسالة والشرع الحنيف الذي أوحى به إليه ليلبغه عباده، كان أوفى الناس تطبيقاً لذلك؛ اتباعاً للمأمور واجتناباً للمحظور، بحيث كانت تطبيقاته لتلك التشريعات تبياناً لها وإيضاحاً، وتفسيراً لها وتكميلاً، كما قال الله جل ذكره: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٤٤] .

فهكذا كان وفاءه صلى الله عليه وسلم لربه في الإيمان والطاعة حتى تحقق بالعبودية وشهد الله تعالى له بها في غير ما آية، كما علمت مما تقدم في التواضع (١) .
وفاءه لأصحابه :

وأما وفاءه صلى الله عليه وسلم لأصحابه، فهو وفاء لم تسمع بمثله البشر، حيث كان عليه الصلاة والسلام يراعي حقوق هذه الصحبة مهما كانت الأحوال والمقتضيات لعدم مراعاة ذلك .

والأدلة على ذلك كثيرة شهيرة ومنها:

١ - وفاءه صلى الله عليه وسلم لحاطب بن أبي بلتعة (٢) رضي الله عنه، مع فعلته الكبرى التي فعلها، وهي إفشاء سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشد المواقف خطورة، وهو موقف الغزو، الذي لا تغفر البشرية لمثله؛ لأن ذلك تجسس وخيانة عظمى في سياسة الملوك والأمراء والقادة والدول القديمة والحديثة، فقد كتب حاطب إلى مكة يخبر أهلها بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم بجيشه يريد فتح مكة، وأرسل ذلك خفية مع ضعينة له (٣)، فلما أطلع الله نبيه على ذلك، ومكنه من إحباطه،

(١) ص ٣٩٩؛

(٢) بفتح الباء الموحدة والتاء المثناة الفوقية بينهما لام ساكنة، واسم أبي بلتعة: عمرو بن عمير، شهد بدرا والحديبية، وشهد الله له بالإيمان في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ توفي سنة ٣٠ هـ، في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر طبقات ابن سعد ١١٤/٣، وتهذيب الأسماء ١٥١/١، والإصابة ٣٠٠/١ .

جامع

(٣) الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج، هذا أصلها ثم جعلت المرأة إذا سافرت ظعينة. انظر الأصول ٣٦١/٨ .

ورأوده أصحابه منهم عمر رضي الله عنه في ضرب عنقه، قال عليه الصلاة والسلام: "إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله أطلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" (١) .

فانظر إلى مبلغ وفائه لأصحابه، وإن عظمت زلة أحدهم أو كبر خطؤه، ما لم يكن في حد من حدود الله، أو تهاون بشرع الله تعالى، فترى هل يدانيه وفاء أحد قط؟! فهل تتأسى به قادة الأمة الإسلامية اليوم؟ اللهم أرجو .
وليس هذا هو الموقف الوحيد في عظمة وفائه لأصحابه، بل مواقفه كانت كلها كذلك،

٢ - فقد كان يطلع على منافق معلوم النفاق، يجهد في العمل لهدم الإسلام وإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فيراود صلى الله عليه وسلم في قتله فيقول: "دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه" (٢) .

فهو عليه الصلاة والسلام لوفائه لأصحابه لا يحب أن يشاع عنه أنه يقتل أصحابه، حتى وإن كان القتل في الحقيقة لمن يستحقه من المنافقين، ولكن لما كان الناس لا يعرفون حقيقة المنافق ذاك، ولا يعرفون إلا ظاهر أمره، فهو صلى الله عليه وسلم يترك قتله أو تعزيره وفاء لاسم الصحبة التي يعرفها الناس .

٣ - ولم يكن ذلك الوفاء قاصرا على حال حياتهم، بل لقد كان وفاؤه لأصحابه بعد وفاتهم كذلك، وهو الوقت الذي لا يحفظ فيه الوفاء إلا عظيم الخلق .

فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا مات أحد من أصحابه على فراشه أو في الغزو شهيدا خلفه في أهله وأولاده خيرا، كما كان منه عليه الصلاة والسلام في قصة أم حبيبة بنت أبي سفيان، وحفصة بنت عمر، وأم سلمة رضي الله عنهن، وأولاد جعفر بن

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الفتح ١٨٤/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل

بدر برقم ٢٤٩٤، من حديث علي رضي الله عنه .

(٢) متفق عليه وتقدم في مبحث الصبر ص ٤٣٣

أبي طالب وهلّم جراً، مما سيأتي بيانه في مواضع متفرقة من هذا الكتاب . إن شاء الله تعالى .

وفأوه صلى الله عليه وسلم لأزواجه :

وأما وفأوه صلى الله عليه وسلم لأزواجه فكان عظيماً أيضاً وشواهد كثيرة :

١ - فهذه خديجة رضي الله عنها التي تزوجها وهي ابنة أربعين سنة، وكانت له في حياتها معه ظهيرا ونصيرا ونعم معين، قبل البعثة وبعدها، فكانت تعينه على ما يريد، وتشد من أزره، وتبذل له من مالها، وتفرّج من كربته، وتسليه في حزنه .. إلى أن توفاهها الله تعالى وهي في العقد السابع من عمرها، فحفظ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المواقف في حياتها وبعد وفاتها ؛

أما في حياتها فقد عاش معها وهو في ريعان شبابه ولم يتزوج عليها قط .

وأما بعد وفاتها فإنه لم يزل يذكر صنائعها وأياديها البيضاء معه مدة حياته، بحيث كان الأمر ما أخبرت عنه عائشة رضي الله عنها بقولها فيما ثبت عنها: "ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، قالت: فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد" (١) .

وفي رواية قالت: "ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، ولقد هلك قبل أن يتزوجني ثلاث سنين لما كنت أسمع يذكروها، ولقد أمره ربه عز وجل أن يشرها بيت من قصب في الجنة، وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها" (٢) .

(١) أخرجه البخاري في الفضائل، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها ٤٨/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة ٤٨/٥، ومسلم في

فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة رضي الله عنها برقم ٢٤٣٥ .

وفي رواية قالت: "استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف استئذان خديجة، فارتاح لذلك فقال: "اللهم هالة بنت خويلد" قالت: فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيراً منها" (١) .

وفي رواية أحمد قال لها: "ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء" (٢) .

فهكذا كان وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لزوجته التي قد واراها الثرى منذ زمن، فلم ينسها ولم ينس معروفها قط .

٢ - وكذلك كان وفاؤه لسائر أزواجه على السواء .

فلما أنزل الله تعالى آية التخيير وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُ مَا كُنْتُ تُرَدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالْأَرْوَاحُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٨، ٢٩] .

عندئذ بدأ فخير عائشة وطلب منها أن لا تستعجل حتى تستأمر أبويها، وذلك وفاء عظيم منه لهذه الزوجة التي هي حديثه السن، فقد لا تدرك من هي في سننها مصلحتها الكاملة وما هو خير لها وأبقى، فتغتر بزينة الحياة الدنيا، فتخسر الدنيا والآخرة، فقال لها: "لا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمر أبيك، وقد علم أن أبويها لم يكونا يأمرانها بفراقه" لما يعلمانه من صالح أمرها عاجلاً وآجلاً، ولما اختارت الله ورسوله من غير أن تستأمر أبويها، بل قالت: "ففي أي هذا أستأمر أبوي؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة" وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "أسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي

(١) أخرجه البخاري في الباب السابق ٤٨/٥، ومسلم كذلك برقم ٢٤٣٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد ١١٨/٦، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٧/٩ : وإسناده حسن .

قلت " لم يقبل منها عليه الصلاة والسلام هذا الطلب، بل وفى لمن كلهن وقال: "لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها" (١) .

وإنما كان يخبرهن بهذا الذي اختارته عائشة رضي الله عنها؛ لأنه هو الخير، وهو صلى الله عليه وسلم لا يريد لمن إلا الخير، وفاء لمن على صبرهن على لأواء المعيشة التي كان عليها، وطول الصحبة التي أمضيتها معه، وذلك هو ما وصَّى به القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧] .

وفاءه صلى الله عليه وسلم لأقاربه :

وأما وفاءه صلى الله عليه وسلم لأقاربه فقد كان على ذلك النحو من الكمال والعظمة، ومن ذلك :

١ - وفاءه لعمه أبي طالب الذي رباه منذ أن تُوِّفِّي جده عبد المطلب وهو في الثامنة من العمر إلى أن بلغ أشده واستقل بكيانه عند تزوجه من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ولما كلفه الله بالنبوة والرسالة، كان نعم المعين له في إبلاغ رسالة ربه، إذ كان يحمي ظهره ويمنع عنه سفهاء قومه، فلم يكن يخلص إليه سوء في حياته لحمايته له، وعلو منزلته بين بطون قريش، فلما حضرته الوفاة وهو مازال على دين آبائه وأجداده، اهتزت مشاعر الوفاء في النبي صلى الله عليه وسلم فحرص جد الحرص على نفعه وإنقاذه من النار، وعلى أن يكسبه خير الدنيا والآخرة بكلمة واحدة يقولها، وهي شهادة التوحيد، وذلك وفاء له على مواقفه العظيمة معه في صغره وعند بعثته، فجعل صلى الله عليه وسلم يناشده قائلاً: "أي عم، قل لا إله إلا الله أحاجُّ لك بها عند الله" أي يجادل بها عليه ليدخل بها الجنة من غير عمل يمكنه أن يعمل، حيث كان في الاحتضار، وكاد يستجيب له، لولا أن حال بينه وبين ذلك أدياء الكفر، وقالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٦/٦، ومسلم في الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا

يكون طلاقاً ألبتة برقم ١٤٧٥، ١٤٧٨ .

وما زالوا به حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، ومات على ذلك، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم عليه وجدا شديدا، لما يعلمه من العذاب الذي سيلقاه لموته على الكفر بعد أن بلغته الدعوة .

لكن عظيم وفائه عليه الصلاة والسلام لم يزل يغالبه حتى قال: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك" غير أن الله تعالى لم يشأ ذلك منه، فنهاه عنه حيث أنزل عليه ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة التوبة: ١١٣] فعندئذ لم يزد عليه الصلاة والسلام على أن قال: "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء" (١) .

فتأمل مبلغ وفائه له حيث بذل قصارى جهده في إنقاذه، فلما لم تفلح جهوده تلك، همَّ بأن يطلب من الله تعالى أن يغفر له، وما ذلك إلا وفاء منه لحدبه عليه وحمايته له، وقربه منه .

وفاءه لأقاربه من الرضاعة :

وقد كان وفاءه لأقاربه من الرضاعة على ذلك النحو كمالا وعظمة، حيث ظل عليه الصلاة والسلام يعترف لهم بالفضل، ويتحجج^{منه} فرص الوفاء كلما سنحت فرصة لذلك، وقد كان يفعل من ذلك وسعه، كما كان عليه الصلاة والسلام يوم حنين، حيث سبى المسلمون في ذلك اليوم من هوازن وثقيف النساء والذراري والأموال، وكان منهم من بني سعد بن بكر الذين تنسب إليهم حليلة السعدية مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رجل منهم فقال: إنا لو ملحننا - أي أرضعنا - للحارث بن أبي شمر (٢)،

(١) القصة في البخاري في تفسير سورة التوبة ٨٧/٦، والقصص ص ١٤١ من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه .

(٢) الغساني من أمراء غسان في أطراف الشام، كانت إقامته بغوطة دمشق، وأدرك الإسلام، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم كتابا بالدعوة إلى الإسلام، فأبى عليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم بئس ملكه، مات الحارث سنة ٨ هـ، انظر الأعلام ١٥٥/٢، وإعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون الدمشقي ص ١٠٢، والمصباح المضي في كتاب النبي الأمي لابن حديدة ٦٢٣/٢ .

والنعمان بن المنذر^(١)، لرجونا عطفه، ثم أنشد :

أُمنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وندخر
أُمنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك تملؤه من مخضها الدرر الأبيات
فلم يتأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوفاء الذي طال ترقبه إليه، بل قال:
"معي من ترون، وأحب الحديث إلي أصدقاه، فاختاروا إحدى الطائفتين، قالوا: إنا نختار
سبينا، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم
قال:

"أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وقد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب
منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من
أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا
عرفاؤكم أمركم" فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا^(٢) .

فهكذا كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم لمن يمتنون إليه بقرابة الرضاعة، لقد ظل مستأنيا
بهم، يريد أن يرد إليهم ما غنم منهم، ولما لم يأتوا، وتملكها الصحابة رضي الله عنهم
غنيمة حلالات طيبات، بذل جهده في إعادة السبي الذي هو أكرم لهم من المال وأعز، فانظر
أي وفاء أجل وأعظم من هذا !؟

(١) اسم لعدد من ملوك الحيرة، أشهرهم النعمان الثالث بن المنذر الرابع، ملك الحيرة إرثا عن أبيه، وكانت
تابعة للفرس، وأقره عليها كسرى إلى أن نقم عليه فسجنه، وتوفي مسجوناً سنة ١٥ قبل الهجرة، انظر
الأعلام ٤٣/٨ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾... ١٩٥/٥ من
حديث المسور بن مخرمة، وانظر الوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزي ٧٠٥/٢، ودلائل النبوة للبيهقي
١٩٥/٥، وخاتم النبيين لأبي زهرة ٦١/٢ .

وهناك صور أخرى كثيرة من وفائه صلى الله عليه وسلم لمراضعه وإخوانه من الرضاعة تعلم من كتب الحديث والشمال والسير (١) .

وفاءه صلى الله عليه وسلم لأعدائه :

وإذا كان خلق الوفاء عظيماً في النفس لم يفقد في سائر الأحوال، بل يظل طبعاً لها، يوجد عند المقتضي لوجوده ولو كان ذلك عدواً، وهذا من ثبات أخلاقه عليه الصلاة والسلام التي لا تكاد توجد عند غيره، فأعداؤه الذين جهدوا في إطفاء نور دعوته، وكادوا له ولصحابته مكاييد عظيمة ترى، لم يتخلف وفاءه لهم قط، ولقد شهدوا له بذلك وهم له معادون .

فأبو سفيان بن حرب لما سأله هرقل عن وفائه صلى الله عليه وسلم لم يستطع إخفاء ذلك مع بالغ حرصه على ذكر مطعن يدخله في إجاباته له عن أسئلته الكثيرة التي سأله عنها، وهي من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم كما كان يعلمها هرقل .

فقد سأله هرقل بقوله: هل يغدر؟ فأجابه أبو سفيان بأن: لا، فقال له هرقل: وكذلك الرسل لا تغدر (٢) .

(١) من ذلك وفاءه لأبيه وأمه من الرضاعة المخرج في سنن أبي داود في الأدب، باب باب بر الوالدين برقم ٤٩٤١، ٤٩٤٢، والبيهقي في الدلائل ٢٠٠/٥، وفي طبقات ابن سعد ١٠٨/١-١٠٩، قصة إكرامه لأخته الشيماء، وكذا في مكارم الأخلاق للطبراني ص ٢٦١ رقم ٤٠٥، وفي الدلائل للبيهقي ١٩٩/٥ خير بعثه إلى ثوية مولاة أبي لب، إحدى مراضعه عند الولادة بصلة وكسوة من المدينة، ثم إرادته أن يصل من بقي من قرابتها بعد موتها غير أنه قيل له لم يبق أحد منهم، وكذا في الروض الأنف للسيهلي ٦٧/٣ .

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٩٨ ونحو هذه الشهادة شهادة مكرز بن حفص حينما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن سبب حمله السلاح في عمرة القضاء وهم على عهد منه بعدم القتال، فقال له مكرز: ما عُرِفَتْ صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح على قومك، وقد شرطت لهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافرين: السيوف في القرب؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إني لا أدخل عليهم بالسلاح، فقال مكرز: هذا الذي تعرف به، البر والوفاء، انظر البداية والنهاية ٢٣١/٤ .

فأي شهادة أكبر من شهادة عدو حريص على إبداء المثالب لو وجدها، وطمس الحقائق لو قدر عليها؟ وقديما قالوا:

«والفضل لما شهدت به الأعداء»

أو من شهادة ملك عنده من نبأ المرسلين، فيقول الحق لا يمنعه عن ذلك رغبة أو رهبة؟!

ولقد كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأعدائه عظيما بحيث لا يقدر على مثله أحد غيره؛ لأنه ذو الخلق العظيم، وصور وفائه لأعدائه كثيرة ومنها:

١ - من أجلها وفاؤه لهم بشروط عقد صلح الحديبية في العام السادس من الهجرة، وهي الشروط التي امتنع منها كثير من الصحابة، ومنهم من أكابره، كعمر رضي الله عنه، وذلك لبالغ قسوتها على المسلمين، كما يترأى في بادئ الرأي، فلم تكن عقول الأكثرين تتصور قبول مثل ذلك، مع ما في المسلمين من قوة يومئذ، لاسيما وأنهم لم يجهتوا لقتال، وقريش تعلم ذلك، ومع ذلك أصرت على إملاء شروط مليئة بالعنجهية والكبر والأشر والبطر، مما يعظم على قلوب الأحرار التي لم يؤيدها الوحي قبول مثل ذلك، وكان من تلك الشروط القاسية «أن من أتى المسلمين من المشركين ردوه إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه» وما كاد عقد الصلح يمضي حتى جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو (١) - مندوب قريش لإجراء المفاوضة - يرُسف (٢) في قيوده مستصرخا،

(١) وكان من السابقين إلى الإسلام، ومن عذب بسبب إسلامه، ولما أعاده النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم إلى مكة ظل فيها إلى أن علم بقصة أبي بصر - الآتي ذكرها ففرَّ إليه وكان من أمرهما ما ستعلمه، وأول مشاهدته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح وأسلم أبوه فيها، ثم لم يزل مجاهدين في الشام إلى أن توفيا في خلافة عمر، رضي الله عنهم أجمعين. انظر الاستيعاب مع الإصابة ٣٤/٤، وأسد الغابة ١٦/٥، وتهذيب الأسماء ٢٠٦/٢.

(٢) الرسف: مشي المفيد إذا جاء يتحامل برجله مع القيد، النهاية ٢٢٢/٢.

يريد أن ينقذ من أيدي المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلايبه (١)، وقال: يا محمد قد لجأت (٢) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: صدقت، فردّه إليه، وأبو جندل رضي الله عنه ينادي: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ إنها لصرخة تهزّ الوجدان، ولكن هيهات أن تؤدّي إلى إخلال بالوفاء من صاحب الخلق العظيم!!

فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال له: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله وإنا لا نغدر بهم" (٣).

فأي وفاء أبلغ من هذا الوفاء الذي لم يكذب يقبله بعض كبار الصحابة لولا طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو الرجل المُلهم - يذهب تارة إلى أبي بكر وتارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: "ألسنا المسلمين؟ أليسوا المشركين؟ ألسنت رسول الله؟!! فعلام نُعطى الدّينة في ديننا؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني، ويقول أبو بكر: أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد كان من آثار ذلك الوفاء الفرج والمخرج الذي رجاه النبي صلى الله عليه وسلم حيث كانت هذه الشروط العاتية سببا للإدالة على قريش وفتح مكة والنصرة للمستضعفين، بما يطول ذكره هنا وسيأتي بيانه في أخلاقه القيادية إن شاء الله تعالى (٤).

وعندئذ فرح المؤمنون بنصر الله، وعلموا مبلغ حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) يقال: لَيْبَهُ وأَخَذَ بِتَلَابِيهِ، إذا جَمَعَتْ ثِيَابُهُ عِنْدَ صَدْرِهِ وَنَحَرِهِ ثُمَّ جَرَرَتْهُ، النّهاية ١٩٣/١.

(٢) أي: فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا.

(٣) والقصة أخرجه البخاري في الشُّرُوط باب الشُّرُوط في الجهاد ٥٢/٣ وأبو في المغازي، باب غزوة الحديبية ٢٥٨.

١٦٢/٥، وفي سيرة ابن هشام ٢٩٠، ٢٨/٤ مع الروض الأنف للسهيلى نحوه.

(٤) انظر ص ٩٧٧.

وأدركوا عاقبة الوفاء والطاعة، وما كانوا سيجنون تلك الثمار اليانعة بتلك البساطة والسهولة لو أنهم أدخلوا بخلق الوفاء .

٢- ومن وفائه عليه الصلاة والسلام لأعدائه على ذلك النحو، إرجاعه إليهم أبا بصير (١) رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به .

فانظر إلى مبلغ وفائه لهم حيث رد إليهم هذا الرجل المؤمن وقد فرّ بدينه، ولقد كان عاقبة هذا الوفاء: الفرج والمخرج له وإخوانه المستضعفين .

فقد خرج مع الرجلين الذين جاءا إليه "حتى بلغ ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيّداً، فاستلّه الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه، فضربه حتى برّد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه: "لقد رأى هذا دُعُراً" فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذِمَّتَكَ، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ويلٌ أمّةٍ مسعُرٌ حرب (٢)، لو كان له أحد" فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم لما أرسل

(١) واسمه عتبة بن أسد الثقفي، مشهور بكنيته، وستأتي قصته في سياق الحديث هذا، وتوفي في ساحل البحر حيث كان يقيم مع من فرّ إليه من المؤمنين، وذلك قبل فتح مكة، ودفن هناك، انظر أسد الغابة ١٤٩/٥،

والاستيعاب بهامش الإصابة ٤٥٢/٢، وتهذيب الأسماء ١٨٠/٢ .

(٢) أي: مولعها .

إليهم فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم" (١) .

فهكذا كانت عاقبة الوفاء، وهكذا تكون آثار الأخلاق العظيمة دائما وأبدا،

٣ - وكان من وفائه لأعدائه أيضا، ما أخبر عنه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بقوله:

"ما منعني أن أشهد بدرا إلا أنني خرجت أنا وأبي حُسَيل، قال: فَأَخَذْنَا كِفَارَ قَرِيشٍ وَقَالُوا: لَعَلَّكُمْ تَرِيدُونَ مُحَمَّدًا؟ قَالَ فَقُلْنَا: مَا نَرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لِنَنْصُرِفَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَا نَقَاتِلَ مَعَهُ، قَالَ: فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبْرَ، فَقَالَ: "انصرفا نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم" (٢) .

فتأمل مبلغ وفائه عليه الصلاة والسلام للكفار الذين يقاتلونه في مثل هذه الصورة، والتي لا يجب فيها الوفاء، لأنه يعني ترك الجهاد مع الإمام الذي تُقَدَّم طاعته على الالتزام بالوفاء للأعداء البغاة، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن لا يشيع عنه ولا عن أصحابه نقض العهد ولا عدم الوفاء، لما هو عليه من المحبة لمعالي الأخلاق وتحليه بعظيمها، لأن المشيع عليهم لا يذكر تأويلا ولا يعرف حكم الله تعالى في ذلك تفصيلا.

وكم له من مواقف الوفاء عظيمة مع أعدائه الذين أجهدوا أنفسهم لإطفاء نور الله الذي جاء به، وأجهدوه - بأبي هو وأمي - في دفعهم عن ذلك، وفي دعوته إياهم إلى الهدى والرشاد، كانت عواقبه محمودة، وثماره عظيمة جليلة .

كذلك كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم مع أبناء جنسه من البشر، وإلا ريب بأنك قد عجبت من مبلغ وفائه معهم على اختلاف أصنافهم وأحوالهم، وهو صلى الله عليه وسلم لا يتغير وفائه على كل حال .

(١) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٥٧/٣، من حديث

المسور بن مخرمة ومروان يصدق بعضها بعضا .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب الوفاء بالعهد برقم ١٧٨٧، وانظر شرح مسلم للإمام النووي ١٤٤/١٢ .

وفأوه صلى الله عليه وسلم للحيوان البهيم :

وإن تعجب فعجب وفأوه صلى الله عليه وسلم للحيوان البهيم أو الجماد، فإن الوفاء لمثل هؤلاء عزيز جداً ولكن كان من النبي صلى الله عليه وسلم سحياً لا تتغير .

ومن صور ذلك: ما ثبت أن ليلى امرأة أبي ذر رضي الله عنهما أقبلت بعد غزوة ذي قرد (١) فقالت: يا رسول الله إني نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "بئس ما جزيتها، أن حملك الله عليها ونجأك بها ثم تنحرنيها ١٩، إنه لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي فارجمي إلى أهلك على بركة الله" (٢) .

فلقد تعجب عليه الصلاة والسلام على هذه المجازاة التي جازت بها الناقة، إشارة منه إلى أنه كان ينبغي أن تفي معها بالإحسان إليها في الإطعام والرعاية، لا أن تنحرها، ثم لم يقرأها على ذلك النذر .

وفأوه صلى الله عليه وسلم للجماد :

وأما وفأوه صلى الله عليه وسلم للجماد، فمن ذلك ما كان للجذع الذي كان يخطب عليه، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة يخطب عليه، فقالت امرأة من

(١) وكانت سنة ست من الهجرة، وحزم البخاري أنها كانت قبل خير بثلاث ليال، انظر السيرة النبوية لأبي شعبة ٣٦٧/٢ .

(و(ذو قرد): ماء على مسافة ليلتين من المدينة، بينها وبين خير، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج إليها في طلب عيينة بن حصن حين أغار على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر مراصد الاطلاع ١٠٧٦/٣، وسيرة ابن هشام ٣/٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٤ وأصل القصة في الصحيحين .

وفي مقابل هذه القصة قصة المرأة التي جاءت إلى رسول^{الله} فقالت: يا رسول الله إني نذرت إن انصرفت من غزوتك سالماً غانماً، أن اضرب على رأسك الدف، قال: إن كنت نذرت فأوف بنذرك وإلا فلا" أخرجه أبو داود في الأيمان والنذور برقم ٣٣١٤، فأذن لها أن تفي بنذرها لما لم يكن في ذلك معصية .

الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لك منبراً؟ قال: "إن شئتم" فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاح الجذع صياح الصبي، ثم نزل صلى الله عليه وسلم فضمه إليه فسكن^(١).

فانظر كيف كان وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الجذع الجمد حيث نزل وضمه إليه ليسكن، فلما التزمه سكت، فقال عليه الصلاة والسلام: "والذي نفس محمد بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى يوم القيامة، حزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢)"، فلذلك كان ذلك الوفاء من النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الجمد الذي لا يعقل، والذي أنطقه الله تعالى بذلك الصوت، وهو الذي ينطق كل شيء سبحانه، ليكون دليلاً من دلائل نبوته، ومعجزة من معجزاته الكبرى، وهكذا يكون وفاء صاحب الوفاء العظيم دائماً وأبداً، فعليه من الله أفضل الصلاة والتسليم، ورزقنا الوفاء الكامل لله ولرسوله وللمؤمنين إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٢٣٧/٤، وفي الجمعة، باب الخطبة على المنبر

١١/٢ من حديث أنس رضي الله عنه، وانظر شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير ٢٩٨/١ —

٣١١ لتقف على طرقة الكثيرة.

(٢) كما في بعض طرق الحديث، انظر الشمائل لابن كثير ص ٢٢٩.

المبحث الثالث

(خلق الحلم والعفو والصفح)

الحُلْمُ في اللغة: ترك العجلة، قال ابن فارس: "الحاء واللام والميم أصول ثلاثة: أحدها: ترك العجلة ... وذكر الأصلين/ثم قال: فالأول خلاف الطيش يقال: حلُمْتُ عنه أحلُم، فأنا حلِيم" (١).

وفي القاموس المحيط (٢): "الحِلْم بالكسر: الأناة والعقل وجمعه أحلام وحلوم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ [سورة الطور: ٣٢] ويقال: هو حلِيم، وجمعه حلماء وأحلام، وقد حُلِمَ فلان بالضم حلما، وتحلَّم إذا تكلفه".

وفي الاصطلاح: هو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب مع القدرة على ذلك" (٣) ويقال هو: (الطمأنينة عند سَوْرَةِ الغضب) ويقال أيضا: (هو تأخير مكافأة الظالم) (٤). وجميع هذه التعاريف متقاربة من حيث دلالتها؛ إذ هي تعني عدم المسارعة بالانتقام عند سورة الغضب، والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ظاهرة، لأن الأناة وترك العجلة تنشأ عن ضبط النفس عن الطيش الذي يحدثه هيجان الغضب فيحاول إيصال النقرة إلى من أثار فيه ذلك الخلق السيء وهو الغضب.

غير أن المعنى الاصطلاحي الآخر الذي أفاده صاحب التعريفات يفيد معنى زائدا، وهو حصول الطمأنينة، وذلك غير الضبط المفاد أولا، لأن الطمأنينة تعني أن ذلك يكون سَجِيَّة في النفس، وأنها لا تحتاج إلى مغالبة، وهذا معنى راق في الحلم.

ويمكن توجيهه على أن الحلم درجات، فأول درجاته يكون بالمغالبة، وآخرها يصبح سَجِيَّة. وهذا فيمن كان حلمه مكتسبا، لكن هناك من يكون حلمه وهِيًّا وفطريا فهذا

(١) معجم مقاييس اللغة ٩٣/٢، مادة (حلم).

(٢) ٩٩/٤.

(٣) المفردات للراغب ص ١٢٩، وتهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٢٣.

(٤) التعريفات لجرجاني ص ٩٢.

لا يكون إلا طمأنينة، وهو ما كان لدى أنبياء الله ولدى من شاء الله له ذلك من العباد، ولا شك أن هذا الحلم أعلى مكانة، لأنه يكون من نفس كاملة الرضا بالله تعالى وبقضائه وقدره الأزليين .

منزلة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية :

والحلم من حيث هو كسبي أو وهبي يعد خلقا من الأخلاق القرآنية الحميدة التي يترتب عليها صلاح الحال وهدوء البال، وهو فرع من فروع الصبر الذي يترتب عليه محبة الله تعالى كما علمته في بابه .

وكما دل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس: "إنَّ فيك لخصلتين يجبهما الله ورسوله الحلم والأناة" (١) .

والأناة هي الثبوت والوقار (٢) .

عناية القرآن الكريم بالحلم :

ولما كان الحلم بتلك المكانة بحيث كان محبوبا لله جل وعلا، كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة، حيث وردت مادة (الحلم) نحواً من ثماني عشرة مرة منسوبة إلى الله تعالى، أو ثناء به على بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

وورد الحث عليه في آيات أخرى من معناه لا من لفظه، وثناء به كذلك على بعض عباده .

الحلم في جناب الله تعالى :

أما إثباته لله تعالى فقد ورد في إحدى عشرة آية مقترنا ببعض صفاته الأخرى، وهي: المغفرة والعلم والغنى والشكر، بحسب ما تقتضيه الآية من المناسبات البديعة .
وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٥] في خمس آيات، وقوله

(١) أخرجه مسلم وتقدم ذكره وتخرجه ص ٩ .

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٣٦/٤، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ١٩٧ .

تعالى: ﴿والله غني حلیم﴾ [سورة البقرة: ٢٦]، وكقوله تعالى: ﴿والله عليم حلیم﴾ [سورة النساء: ١٢] في ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿والله شكور حلیم﴾ [سورة النباين: ١٧].
فهذه الآيات تثبت صفة الحلم لله تعالى فنؤمن بها كما جاء عن الله على مراد الله سبحانه وتعالى.

وقال الراغب: "ومتى أطلق الحلم في حقه تعالى فإنه يراد به العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له" (١) غير أن مقتضى الحلم لا يقتصر على العفو الذي أفاده الراغب، بل أيضا على تأخير العقوبة كما هو مقتضى الدلالة اللغوية للفظ الحلم، وكما هو ظاهر الأثر من حلم الله تعالى على بعض عباده، فإنه تعالى قد يعفو مطلقا، وقد يؤاخذ بعد التأنى بصاحب الذنب كما هي سنته في أتباع الرسل وغيرهم من العصاة،
ولذلك قال الزجاج (٢): "وليس قول من قال: إن الحلیم هو من لا يعاقب بصواب، أما سمع قول الشاعر الفصيح:

حليما إذا ما نال عاقب مجملا أشد العقاب أو عفا لم يثرب" (٣)

التبويه بأهل خلق الحلم والثناء عليهم:

وأما الثناء به على بعض أنبيائه ففي مثل قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿إن إبراهيم لأواه حلیم﴾ [سورة التوبة: ١١٤]، وقوله فيه أيضا: ﴿إن إبراهيم حلیم أواه منيب﴾ [سورة هود: ٧٥].

وقد برز جانب الحلم فيه حينما أخذ يجادل الملائكة حينما أبلغوه بمهمتهم نحو قوم نبي الله تعالى لوط عليه السلام عقابا لهم على جرائمهم الشنيعة التي انتشرت فيما بينهم،

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٣٤٢.

وفي النهاية لابن الأثير قال: "في أسماء الله تعالى (الحليم) وهو الذي لا يستخفه شيء من عصبان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقدارا فهو منه إليه" ١/٤٣٣ هـ.

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج النحوي، إمام مجمع على إمامته في اللغة والنحو، أخذ عن المبرد وغيره، وطار صيته عند الخلفاء العباسيين فأكرموه، وألف مؤلفات كثيرة نافعة منها "معاني القرآن" توفي سنة ٣١١ هـ، انظر بغية الوعاة ص ١٧٩، والأعلام ٤٠/١ وغيرهما.

(٣) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص ٤٧.

وذلك رغبة منه في تأخير العذاب عنهم رجاء أن يتوبوا ويؤمنوا، ولم يكن يعلم أنه لا مَطْمَع في توبتهم وإيمانهم بعد ذلك، حيث قد نفدت أسباب الطمع في إيمانهم، كما قص الله تعالى هذه القصة في القرآن والتي جاء فيها قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مُرْدُودٍ ﴾ [سورة هود: ٧٤-٧٦] .

وكما وصف إبراهيم بهذا الخلق العظيم فإن ابنه إسماعيل (١) عليهما الصلاة والسلام قد وصف به أيضا حيث قال الله تعالى فيه: ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [سورة الصافات: ١٠١] . وقد قص الله تعالى صورة عظيمة من حلمه عقب وصفه بالحلم فقال عز شأنه: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آدَمُ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة الصافات: ١٠٢] .

فأي حلم أكثر من هذا الحلم أو مثله؟! إنه لحري أن ينال هذا الوصف وهذا الثناء . قال البيضاوي (٢): "وقيل: ما نعت الله نبيا بالحلم لعزّة وجوده، غير إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام" (٣) لكن قد أثنى على بعض عباده لاتصافهم بالحلم، وإن لم يكن من لفظ الحلم فمن معناه، ومن أولئك نبي الله هود عليه السلام فإن أذية قومه له وحلمه عن ذلك تعد صورة رائعة من صور الحلم فاضج إلى قول الله تعالى حيث يقول: ﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [سورة هود: ٦١-٦٤] .

(١) على أصح القولين عند أهل التأويل، انظر محاسن التأويل ١٢٣/١٤-١٢٤ .

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي الملقب بناصر الدين البيضاوي، قاض مفسر علامة، له

مؤلفات كثيرة في التفسير والفقه والأصول وغيرها توفي سنة ٦٨٥ هـ، انظر البداية والنهاية ٣٠٩/١٣،

والأعلام ١١٠/٤ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٥٩٤ .

[الأعراف: ٦٥-٦٨] فترى أن خلق الحلم منعه أن يطيش لشتائم هؤلاء الجهال، بل لم يزد على

أن نفى عن نفسه ما اتهموه به وأثبت لنفسه الصدق والأمانة التي تليق بجنداب النبوة .

ومثل هذا الحلم حلم نبي الله نوح عليه السلام حيث نسب إليه قومه نحوا مما جرى
لهود مع قومه فقد قالوا له: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ * قال يا قوم لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ
وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴿ [سورة الأعراف: ٦٠-٦٢]

فانظر كيف حلم عنهم ولم يخاطبهم بمثل خطابهم القاسي، أو أن ينتقم منهم بالدعاء
عليهم إلا لما يمس منهم بعد أن مكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فحيث قال:
﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [سورة نوح: ٢٦] .

وتستطيع أن تلمس هذا الخلق العظيم عند كل رُسل الله تعالى من خلال دعواتهم
لأقوامهم، وتحمل أذاهم وصبرهم على جهالاتهم، حيث ما كانوا يبادرونهم بالمغاضبة
وطلب النعمة إلا إذا يأسوا من صلاحهم وإيمانهم .

فهو إذاً خلق الأنبياء عامة، وهو فوق ذلك صفة من صفات الحق تبارك وتعالى .

وحيث إن الحلم بهذه المثابة، فإنه لحري بالمؤمن أن يتحلَّى به، ويصبح خُلُقاً ثابتاً له في
حياته، لأنه يسعى إلى معالي الأمور وشرائع الخلال، ولا أشرف من خلق وصف الله به
نفسه، ووصف به أنبياءه، ووصف به بعض عباده الصالحين .

وبذلك يكون ذكر الحلم بهذا الأسلوب ضرب من ضروب الحث على التحلي به من
جانب المؤمنين .

الثناء به على غير الأنبياء من المؤمنين :

أما وصف الكرام من عباد الله الصالحين به، فذلك في آيات كثيرة تنوّه بأخلاقهم
الكريمة ومنها خلق الحلم، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى
الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾... [سورة الفرقان: ٦٣-٧٥] .

فإن الله تعالى عدد في هذه الآية أوصاف المؤمنين وأخلاقهم، وكان التواضع والحلم في
محل الصدارة من هذه الأخلاق، اللذين دل عليهما المشي في الأرض هونا، وعدم مجارة

الجهلاء في مخاطبتهم، وإنما يقولون كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم، والعفو والصفح (١)، وقد ورد عن الحسن تفسير هذه الآية فقال: "حلماء لا يجهلون على أحد، وإن جهل عليهم حلموا" (٢).

وفي تصدر هذين الخلقين بالذكر على غيرهما دلالة على مكانتهما، وتنويه عظيم بهما وبأهلتهما، ولذلك كان جزاؤهما عظيماً حيث كان ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٧٥، ٧٦].

ومن التنويه بالحلم وأهله أيضاً قوله أيضاً: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَحَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

لأن كظم الغيظ هو الكف عن إمضاءه مع القدرة على تنفيذه، وذلك هو الحلم. وقد جعله الله تعالى من المسارعة إلى الخيرات التي يترتب عليها أمور: منها مغفرة الله تعالى والوعد بجنته، وحيازة صفة التقوى، وجعله في عداد المحسنين الذين نالوا محبة الله تعالى، وفي هذا من الحث على التحلُّم ما فيه، إذ رتب الله عليه أربع جزاءات كل واحد كفيلاً لأن يكون مغرياً على التخلُّق به، والصبر على مكابדתه.

وقد جاء أن جارية لعلي بن الحسين (٣) رحمه الله جعلت تسكب عليه الماء ليتوضأ للصلاة، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجّه، فرفع علي بن الحسين رأسه

انظر

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٢٧٢/١٢.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٣٤٥/٦ برقم ٨٤٥٢.

(٣) ابن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كان يلقب بـ "زين العابدين" كان يضرب به المثل في الحلم

والورع، توفي - رحمه الله - سنة ٩٤ هـ، انظر ترجمته الواسعة في طبقات ابن سعد ٢١١/٥ - ٢٢٢،

وشذرات الذهب لابن العماد ١٠٥/١، والأعلام ٢٧٧/٤، ونحوها.

إليها، فقالت الجارية: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَالكَائِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت الجارية: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فقال لها: عفا الله عنك، قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة" (١) .

فانظر كيف كانت هذه الآية الكريمة دافعة على تحمل الأذى، والإحسان على فاعله ، وهذا حلم وزيادة من هذا الإمام التقى العابد، سلاله النبوة الطاهرة، فرحمه الله تعالى رحمة الأبرار على تخلقه بخلق جده المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحلم وكظم الغيظ والعفو عن الناس .

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٣١٧/٦، برقم ٨٣١٧ .

العفو والصفح

ذلك هو حديث القرآن الكريم عن الحلم، أما حديثه عن العفو والصفح اللذين هما من مظاهر الحلم وصوره الحقيقية، لأنه لا يعفو ويصفح حتى يحلم، فهما حلم وزيادة، ولذلك جمعت بينهما في هذا المبحث،

فالعفو في اللغو: الترك والطلب، قال ابن فارس: "العين والفاء والحرف المعتل أصلان يدل أحدهما على ترك الشيء، والآخر على طلبه، قال: ومن الأول: عفو الله تعالى عن خلقه، وذلك تركه إياهم فلا يعاقبهم فضلا منه..." (١).

وفي القاموس وشرحه ما نصه (٢): "عفا عنه، وعفا له ذنبه: تركه ولم يعاقبه... والعفو: المحو والامحاء".

وفي الاصطلاح: هو (ترك المؤاخذه بالذنب) (٣) ومحوه من صفحة المؤاخذه مع القدرة على الانتقام.

أما الصفح فهو لغة: عُرِضَ الشيء وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجر (٤)، قال في معجم مقاييس اللغة (٥): (الصاد والفاء والحاء أصل صحيح مطرد، يدل على عَرْض وعِرْض، قال: ومن ذلك صفح الشيء عُرْضه، قال: والصفح: الجنب، وصفحاً كل شيء: جانباه، ومنه قولهم: صفح عنه إذا أعرض عن ذنبه؛ لأنه إذا أعرض عنه فكأنه قد ولّاه صفحته وُصفحه أي: عرضه وجانبه).

أما في الاصطلاح: فهو ترك التثريب (٦)، أخذاً من توليت صفحة الوجه إعراضاً عن

(١) معجم مقاييس اللغة ٥٦/٤ مادة (عفا).

(٢) القاموس المحيط ٣٦٤/٤، وتاج العروس ٢٤٦/١٠.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٣٤٢.

(٤) المفردات للراغب ص ٣٨٢.

(٥) ٢٩٣/٣.

(٦) المفردات للراغب ص ٢٨٢، والتثريب: هو الاستقصاء في اللوم، وثرب عليه تثريباً: قبح عليه فعله. مختار

الصحاح ص ٨٣.

الذنب؛ لأن الإنسان إذا أعرض عن الشيء ولأه صفحة وجهه، وصفح وجهه عنه أي: أعرضه (١) .

والفرق بينه وبين العفو: أن الصفح أبلغ من العفو؛ لأنه يعني ترك التأنيب، فهو عفو وزيادة، إذ قد يعفو المرء ولا يصفح (٢)، ولذلك جمع الله تعالى بين العفو والصفح في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩]، لأن الأمر بالعفو لا يستلزم الصفح، فأمر الله تعالى بهما لأجل أن يستل من الأنفس الحقد إلى جانب ترك المؤاخذة،

وكلاهما يعتبران من مظاهر الحلم الذي هو سيد الأخلاق (٣)، لأنه لا يعفو ويصفح حتى يكون قد حلم عمن يقتضيه حاله ذلك، وبذلك يظهر أثر الحلم من ترك المعاقبة، وترك اللوم عن الذنب، فالحلم خُلِقَ ذاتي في النفس يرهن عليه العفو والصفح .

منزلة خلق العفو والصفح في الأخلاق الاجتماعية :

ولهذا عني القرآن الكريم بهما عناية كبيرة أمرا بهما وحضاً عليهما، وتنوياً بشأنهما، وشأن أصحابهما .

حيث وردت مادة العفو الدالة على ترك المؤاخذة نحواً من ثلاثين مرة في القرآن الكريم، وورد الصفح ثماني مرات، وذلك دليل على كمال العناية بهذين الخلقين الكريمين .

ذكر العفو منسوباً إلى الله تعالى :

ولا عجب فإن العفو من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته العُلا، وقد وصف الله نفسه به ونسبه إليه في نحو عشرين آية من كلامه القديم، وذلك كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٤٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [سورة الحج: ٦٠، والمجادلة: ٢]، وقوله سبحانه:

(١) التحرير والتنوير ١٠/٦٧١ .

(٢) تاج العروس ١٠/٢٤٧ .

(٣) الذريعة ص ٣٤٢ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [سورة النساء: ٤٣]، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [سورة النساء: ٩٩] .

والملاحظ أن وصف الله تعالى نفسه بالعفو كان بصيغة التثنية (عَفُوًّا) على وزن فعول، للدلالة على كثرة عفو الله تعالى عن عباده الذين يذنبون فيستحقون المجازاة بالعقاب، لكنه سبحانه يترك مؤاخذتهم على كثرة ذنوبهم وجرائمهم لأنه عفو، وقد ذكر القرآن الكريم بعض ذنوب العباد التي تداركها الله تعالى بعفوه .

ومن ذلك قوله سبحانه في شأن نسخ تحريم الأكل والشرب والجماع في ليل رمضان بعد نوم المرء إذا ما نام، وقد كان في ذلك من المشقة ما فيها، حتى وقع لبعض الصحابة ما يناقض ذلك الحظر، فخفف الله تعالى عنهم وقال: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧] .

ومن ذلك عفوهُ تعالى عن من خالف أمر رسوله صلى الله عليه وسلم من الرِّمَّة يوم أحد استعجالاً لطلب الغنيمة فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ (١) بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَنْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢] .

ومن ذلك عفوهُ تعالى عن المؤمنين الصادقين الذين تولَّوا يوم أحد عن جيش المسلمين تحت وطأة الهزيمة فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٥] .

إلى غير ذلك من مواقف المؤمنين التي منَّ الله تعالى عليهم بعفوه معها، مما يدل على سعة عفو الله وعظيم رحمته بعباده .

(١) أي: تقتلونهم .

العفو بين المؤمنين :

وإذا كان العفو صفة من صفات الخالق جل وعلا فإنه من الجدير بالمؤمن أن يتحلى به؛ لأنه مما يزكي نفسه ويعلي قدره عند الله تعالى وعند الناس، كما جاء في الحديث "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" (١) .

ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى التخلق بهذا الخلق العظيم في غير ما آية بأساليب مختلفة أمراً وحضاً وتنويهاً في آيات كثيرة .

الأمر بالعفو :

أما أسلوب الأمر فكما في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩] .

وكما في قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النور: ٢٢] .

وفي هذا الأسلوب من الحث على التحلي بهذا الخلق ما فيه الكفاية؛ لأن الله عز وجل قد بين لعباده ما يترتب على عفوهم الذي أمرهم به حيث أشار سبحانه في الآية الأولى إلى ما سيؤول إليه أمرهم مع أعدائهم من اليهود والنصارى لأنه غياً طلب العفو بإتيان أمر الله، "وقد كان ذلك إما بالإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم" (٢) الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم

٢٥٨٨، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في التواضع برقم ٢٠٢٩، والإمام أحمد في المسند ٢/٢٨٦،

والدارمي في الزكاة ١/٣٩٦ .

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٢٣ .

ورسوله ولا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [سورة التوبة: ٢٩] .

أو الأمر: بإجلاء بني النضير وقتل بني قريظة الثابت بعموم الكتاب وصريح السنة كقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٦، ٢٧] .

وكقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ رضي الله عنه: "حكمت فيهم بحكم الملك" (١) وذلك لما حكم بقتل المقاتلة وسي الذرية .

أما الآية الثانية فقد رتب الله تعالى فيها على العفو عن زلات الأقربين والمساكين ونحوهم، رتب على ذلك مغفرة الله تعالى ورحمته للعافين جزاء لهم من جنس عملهم، لأنه أولى بالعفو منهم .

وثمار هذا العفو كافٍ في إغراء المؤمنين عليه، غير أن الإغراء لم يقتصر على ذلك، بل قد كان بأساليب أخرى منها الحض والتنويه .

الحض والعفو :

أما الحض ففي آيات كثيرة منها قوله تعالى في حث الأزواج على التنازل عما لهم من الحق في تشطير المهر إن هم طلقوا قبل المساس؛ لأن ذلك من حسن الخلق والفضل في المعاملة: ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيده عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧] .

حيث دلت الآية على أن العفو عنوان التقوى ودليله، ومن خير ما يتمناه المؤمن في

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب إذا نزل العدو على حكم رجل ٨١/٤، ومسلم في الجهاد، باب جواز

قتل من نقض العهد برقم ١٧٦٨ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وتقدمت الإشارة إلى

هذا الحديث في مبحث (الصبر) ص ٥٥٤

هذه الحياة هو أن يكون من المتقين، لينال بذلك محبة الله تعالى للمتقين وما أعد لهم من الثواب العظيم، وعفوه هنا شهادة إلهية بقربه من التقوى لا يفرض فيها من قدر عليها. ومن الخس على العفو أيضا قوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٤٩] حيث أشارت الآية إلى أن الله تعالى من شأنه العفو عن العاصي مع قدرته على مؤاخذتهم، ليكون ذلك حافزا للناس على العفو عند المقدرة، وإن كان على وجه الانتصار لدلالة الآية السابقة ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ...﴾ لأن ذلك من مكارم الأخلاق، فضلا عن أن الله تعالى قد آذن العافين من الناس بعفوه عنهم، كما أفاده جواب الشرط إذ تقديره: "يعف عنكم عند القدرة عليكم كما أنكم فعلتم الخير جهرا وخفية، وعفوتم عند المقدرة على الأخذ بحقكم".

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ دليل لذلك الجواب وعلة له، فجواب الشرط إذا وعده بالمغفرة لهم في بعض ما يقتربونه جزاء عن فعل الخير وعن العفو عمن اقترف ذنبا (١).

ومثل هذه الآية: حُضُّ الله تعالى المؤمنين على احتمال أذى أهل من الأزواج والأولاد والعفو والصفح عنهم بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة التغابن: ١٤]، فقله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ دليل جواب الشرط المحذوف المؤذن بالترغيب في العفو والصفح والغفر، والتقدير: وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم؛ لأن الله غفور رحيم، أي: للذين يغفرون ويرحمون (٢).

وترى أن الله تعالى لم يكتف بالحض على العفو فقط في هذا المقام، بل حث أيضا على الصصح الذي يعني ترك التوبيخ، والتشريب على الذنب، وعلى المغفرة التي تعني ستر الذنب

(١) انظر التحرير والتنوير ٧/٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/٢٨٥، وانظر روح المعاني ١٠/٢٨٦/١٢٦.

وعدم إشاعته، لأن المقام هنا مقام عداوة أقرب الأقربين من زوجة وولد، وذلك أشد مضاضة على المرء، وأدعى له للانتقام، وغالبا ما يكون قادرا على ذلك، فالصبر على هؤلاء، والجلم عنهم مرير، فلذلك كان الحز على الثلاثة الأمور لا للكف عن المعاقبة فقط، بل ليقطع من أفئدة المؤمنين جذور الكراهية والبغض الداعية إلى القطيعة التي نهى الله عنها .

ومن الحز على العفو أيضا قول الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٦] .

فإن الآية تدعو إلى المسارعة إلى نيل مغفرة الله تعالى المترتب عليها دخول الجنة المعدة للمتقين، وقد بينت الآية بعضا من صفات المتقين التي نالوا بها مغفرة الله تعالى والدخول في جنته، فذكرت ست صفات كان من أوائلها بعد الإنفاق في سبيله في السراء والضراء: كظم الغيظ، وذلك هو الصبر والحلم، والعفو عن الناس، وذلك هو أثر الحلم عمن ظلم، وقد رتب على ذلك: الجزاء العظيم الذي أفاده أول المقطع من هذه الآية، ثم أكد في آخره ليقرره في نفوس المتصفين بها فيزدادوا عليها حرصا، وبها تعلقا فقال: ﴿ أُولَئِكَ جزاؤهم مغفرةٌ ... ﴾ وهو جزاء عظيم يستوجب الغبطة والحرص عليه، ولذلك نوّه الله تعالى به بقوله: ﴿ وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ .

التنويه بأهل هذا الخلق :

أما تنويه القرآن الكريم بأهل هذا الخلق ، فهو تنويه عظيم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى في سياق تعداده لبعض صفات المؤمنين: ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَاءَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ... ﴾ [سورة الشورى: ٣٦-٣٧] .

حيث عدد الله تعالى بعضا من صفات الذين آمنوا، وذكر في ثالث صفاتهم أنهم

﴿إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يتجاوزون ويصفحون عمن أساء إليهم من إخوانهم المؤمنين لما هم عليه من التأخي والتحاب فيما بينهم، أما مع غيرهم فقد وصفهم بأنهم ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ لأنهم أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .

قال الفخر الرازي رحمه الله: "وإنما خص الغضب بلفظ الغفران؛ لأن الغضب على طبع النار، واستيلاؤه شديد، ومقاومته صعبة، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ" (١) .

وقد عدد الله تعالى صفاتهم هذه على سبيل التمدح والامتنان، حيث ذكرهم في معرض المقابلة مع الذين يجادلون في آيات الله الكونية أو التنزيلية، وينازعون فيها على وجه التكذيب، وهم المشركون اغتراراً بما عندهم من متاع الحياة الدنيا وهو متاع حقير وخسيس .

فنبه الله تعالى إلى أن الفريق المقابل لهم وهم المؤمنون خير منهم حالا ومآلاً، وقد أبان عن فضلهم والإشادة بهم بما أعده لهم من الأجر حيث قال: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (٢)

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [سورة الشورى: ٤٠-٤٣] .

فإن الله تعالى يعد العافين في هذه الآية بأجره العظيم الذي أفاده إطلاق الأجر الموعد، للدلالة على أنه لا يُقاس أمره في العظمة (٣)، ويصف عفوهم وصبرهم بأنه من عزم الأمور، أي: إن فاعل ذلك من ذوي عزم الأمور (٣)، (ووصف الأمور بالعزم من الوصف

(١) التفسير الكبير ١٧٦/٢٧ .

(٢) المرجع السابق ١٨١/٢٧ .

(٣) البحر المحيط ٥٢٤/٧ .

بالمصدر للمبالغة في تحقق المعنى فيها، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي: الأمور العازمة، وهذا الوصف مشعر بمدح الموصوفين به؛ لأن شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرا على النفوس؛ لأنها تعاكس الشهوات ومن ثم وصف أفضل الرسل بأولي العزم^(١). وقد أكد هذا الخير بمؤكدات كثيرة^(٢) للتنويه بهذا الوصف العظيم، والدلالة على علو منزلة صاحبه، وببالغ أهميته، حيث إنه يقدر على مغالبة نفسه، فكان من أهل العزم والعزائم، جعلنا الله تعالى ووالدينا ومشايخنا وأولادنا ومحبينا منهم بمنه وكرمه.

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/٢٥ بتصرف.

(٢) هي: اللام، وإن، واسم الإشارة، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر في قوله: (عزم الأمور).

تمثل خلق

الحلم والعفو والصفح في النبي صلى الله عليه وسلم

لئن كان القرآن الكريم قد أثنى ثناء بالغاً على بعض الأنبياء وبعض عباد الله الصالحين،
بخلق الحلم من هذه المادة أو من معناها في آيات كثيرة ،

فإنه قد أثنى به على رسول الله صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرات كذلك، وإن لم
يكن من مادة الحلم " فإنه من معناه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ
لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩] .

فإن في هذه الآية من الامتنان العظيم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرس
مكارم الأخلاق فيه، ما يدل على عظمة أخلاقه، حتى قال الحسن البصري رحمه الله
مفسراً لهذه الآية: "هذا خلق محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى به" (١) .

وكان من ذلك: الحلم الذي يدل عليه اللين، وعدم الفظاظة والغلظة؛

لأن كونه عليه الصلاة والسلام لا يستعمل الغلظة والفظاظة مع الناس، بل الرحمة
والعطف، ذلك هو عين الحلم الذي تدل عليه مادته، وهو ما دلت عليه الشواهد الكثيرة
من أحواله صلى الله عليه وسلم الاجتماعية .

ومع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من هذا الخلق العظيم الذي دلت عليه الآية
السابقة مقرر له فيه، وممتنة به عليه، فإنه سبحانه وتعالى لم يزل يحثه على التحلي بكماله،
والاستمرار على منواله، في كل أحواله وأقواله ،

وذلك بمثل قوله جل في علاه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
[سورة الأعراف: ١٩٩] .

فإن هذه الآية الجامعة لمكارم الأخلاق تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالتحلي بها، وذلك بالاستمرار والثبات على قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾ [سورة النساء: ١٣٦] .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٢٠/١ .

وإلا فقد شهد الله تعالى له بعظمة الخلق بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وامتَنَ عليه به في الآية السابقة،

وكان مما حثت الآية عليه من مكارم الأخلاق وعظيمها (الحلم) الذي يدل عليه قوله جل شأنه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ .

وتأمل كيف يكون امتثال النبي صلى الله عليه وسلم لذلك مع ما هو عليه بالفعل، إن في ذلك لدلالة على كمال عظمة تحليه به؛ لأنه أكمل الخلق امتثالا لأوامر ربه، وأعظمهم زكاء في خلقه معه سبحانه ومع أمته، فيترقى في ذلك كمالاته فوق كمال وعظمة فوق عظمة .

وهو ما دلت عليه شواهد أحواله صلى الله عليه وسلم في كل أطوار حياته التكليفية والاجتماعية، حيث حلم عن أعدائه، وحلم عن أصحابه، وحلم عن أهليه وذويه، في صور يفقد عندها حلم كل حلیم، "لأن كل حلیم قد عُرِفَ منه زلة، وحُفِظَتْ عنه هفوة، وهو صلى الله عليه وسلم لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما" (١)، ولذلك يقول الماوردي رحمه الله تعالى في وصف حلمه صلى الله عليه وسلم "فكان أحلم في النِّفار من كل حلیم، وأسلم في الخصام من كل سليم، وقد مُني بجفوة الأعراب، فلم توجد منه نادرة، ولم يحفظوا عليه بادرة، ولا حلیم غيره إلا ذو عشرة، ولا وقور سواه إلا ذو هفوة، فإن الله تعالى عصمه من نزعات الهوى، وطيش القدرة بهفوة أو عشرة، ليكون بأمته رؤوفا، وعلى الخلق عطوفا، قد تناولته قريش بكل كبيرة، وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم، ومعرض عنهم، وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم، ولا أراذلهم دون عظمائهم، بل تمالأ عليه الجِلَّةُ والدُّون، فكلما كانوا عليه من الأمر أشد وألح أعرض وأصفح، حتى قهر فعفا، وقدر فغفر" (٢) .

وقد كان حلمه عليه الصلاة والسلام قائما على منهج اتخذه لنفسه، وهو إسقاط حق

(١) الشفاء للقاضي عياض ١/ ١٠٤ .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٨٨ .

نفسه عن المؤاخذه مهما كانت الإساءة، ولا يقوم إلا لحق الله تعالى، فإذا انتهك حق الله تعالى لم يقم لغضبه شيء حتى يقيم حكم الله وينفذ شرعه، ويعيد للدين اعتباره وهيئته .
١ - كما دل على ذلك قول عائشة رضي الله عنها: "ما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها" (١) .

٢ - وفي رواية قالت: "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما قيل فيه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل" (٢) .

فإن هذا الحديث يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أسقط حق نفسه عمن يؤذيه في جسده في حياته ، ولم يصبح مهتماً إلا بدين الله وحرماته ، فإنه لا يتهاون فيه إذا انتهك أو أهمل .

وهذا المنهج الخبري هو الذي دلت عليه الوقائع العملية في حياته صلى الله عليه وسلم الدعوية والاجتماعية، حيث برز حلمه على ذلك النحو مع أعدائه، ومع أصحابه ومع أهل بيته، كما تدل عليه الوقائع والأحوال الآتية :

١ - حلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفوه وصفحته عن أعدائه :
الحلم عند محن الأعداء هو معيار مُدْعِي هذا الخلق العظيم، وقلماً يثبت عندها أحد؛ لأن الحلم لا يكون إلا عند المقدرة، كما أن خلق العفو لا يتحقق إلا بوجود ثلاثة شروط وهي :

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ٢٣/٤، ومسلم في الفضائل، باب مباحته صلى الله عليه وسلم للآثام واختياره من المباح أسهله أو انتقامه لله عز وجل عند انتهاك حرماته برقم ٢٣٢٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ٢٣٠/٤، ومسلم في الفضائل الباب السابق برقم ٢٣٢٨ .

١ - أن يلقي أشد الإساءة من أعدائه .

٢ - أن تدور الدائرة على هؤلاء الأعداء فيقبضونه ويصبحون تحت رحمته .

٣ - أن يملك هو القدرة على القصاص منهم (١) .

فإذا ابتلي المرء بعدو له في دينه أو دنياه، يَطْغَى عليه ويتكبر، ثم يسطو عليه فيؤذيه في ذاته أو دينه، ثم بعد ذلك يظفر به فيحلم عنه، ويعفو عن جرمه، يكون متحلياً بهذا الخلق بجدارة، ولكن أين يتمثل هذا الخلق على هذا النحو ؟ إنه عزيز الوجود في تاريخ البشرية، إلا عند أنبياء الله ورسله، فإن حياتهم كلها كانت حلماً وأناة، وعلى رأسهم سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فإنه قد نقل^{عنه} في ذلك الكثير مما يشهد على عظمة حلمه وكمال خلقه، من ذلك :

١ - حلمه عن ^{قريش} أهل الطائف الذين بلغ إيذاؤهم له - بنفسه هو وأبي وأمي - مبلغاً لا يطيقه غيره على ماتقدم بيانه في مبحث الصبر، ومع ذلك يرسل الله تعالى إليه جبريل عليه السلام فيقول له :

"إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً" (٢) .

فتأمل مبلغ حلمه على أعدائه الذين آذوه وأغروا به سفهاءهم فرجموه بالحجارة حتى أدموا عقبه، وردوا عليه رداً منكراً، وقد كان يعبر عن ذلك بأنه أشد ما لقيه من قومه، ومع ذلك يحلم عنهم، ولم يكافئهم ولم يطلب من الله عقابهم، وهم قد فعلوا ذلك الفعل الشنيع، بل مع ذلك رجا الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك

(١) انظر المثل الأعلى في الأنبياء ص ٢٢٧ .

(٢) متفق عليه، وتقدم ذكره وتخريجه في الصبر ص ٨٢ .

به شيئاً، فترى أن هذا حلم ليس وراءه حلم حلیم !!

٢ - ومن ذلك حلمه عن أهل مكة الذين آذوه أبلغ الإيذاء وهو يدعوهم إلى الله تعالى صباح مساء، ويحلم عن إيذائهم له، وكأنه لم ينل شيئاً كما هو معلوم من سيرة دعوته إياهم منذ فجر الرسالة.

ولما بالغوا في تحديهم له، وتأْيَيْبهم عن قبول دعوته، تحدّوه "أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم الجبال فيزدرعون" فجاء الوحي مجيئاً عن ذلك قائلاً: "إن شئت أن تستأنّي بهم، وإن شئت أن نعطيهم الذي سألوا، فإن كفروا أَهْلَكْتُهُمْ كما أَهْلَكْتَ من قبلهم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "بل أستأنّي بهم" (١).

فلم يشأ صلى الله عليه وسلم تعجيل إنزال العذاب عليهم، لعلمه بأنه واقع بهم لا محالة، لأنه يعلم أنهم متعنّتون لا غير كما قال الله عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِلًا * أَوْ تُنَزِّلَ السَّمُومَ كَالْهَبِّ أَوْ تَنْزِلَ عَلَيْنَا مَدِينًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفْرِكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [سورة الإسراء: ٩٠-٩٣].

فهو صلى الله عليه وسلم يعلم هذه الحقيقة فيهم، ومع ذلك لم يشأ معاجلتهم بالعقوبة، مع ما يبدو من ظاهر حالهم من استحالة هدايتهم كما تدل عليه هذه الآيات، ومع ذلك كله يقول صلى الله عليه وسلم: "بل أستأنّي بهم" فأى حلم أكبر من هذا؟! إنه حلم عظيم بلا ريب، ولا بدع فهو حلم نبوة!

٣ - ولئن كان حلمه عليه الصلاة والسلام كذلك قبل أن يؤمر بالجهاد، وهو الحال الذي قد يقول المرء إنه كان لسبب بقاء رجاءٍ في إيمانهم، وطمع في هداية الله تعالى لهم،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٥٨/١، من حديث ابن عباس موصولاً، وابن جرير في التفسير ١٥/١٠٨

موقوفاً على سعيد بن جبير وقتادة، وذكره ابن كثير في التفسير ٢٧/٣ موصولاً وموقوفاً، وقال الشيخ

أحمد شاكر في تعليقه على المسند رقم ٣٥٨٣: إسناده صحيح.

إلا أنا نقول: إن هذا هو حلمه دائما وأبدا، ولئن كان حلمه على ذلك النحو قبل أن يؤذن له بالجهاد، فقد كان بعد أن أذن له به كذلك أو أعظم اتضاحا، كما تدل عليه الوقائع والشواهد التالية :

١ - فقد أصيب يوم أحد إصابات كبيرة من أعدائه اللئام، حيث شجوا وجهه الشريف، وكسروا رباعيته في ذلك اليوم، بنفسه هو وأبي وأمي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك راوده أصحابه أن يدعو الله تعالى عليهم فقال: "إني لم أبعث لعنا، ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" (١) .

هكذا يقول وهو في ذلك الحال الذي ينظر له قلب المسلم، ويود أحد منا أن لو دعا الله عليهم فأهلكهم عن بكرة أبيهم، لبالغ أذيتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يريد أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو ما كان يطالب به الصحابة رضي الله عنهم كما علمت، وكما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ادع الله على المشركين، فقال: "إني لم أبعث لعنا، وإنما بعثت رحمة" (٢) .

فهو صلى الله عليه وسلم يأبى أن يدعو الله تعالى عليهم، ولم يقف عند ذلك حتى دعا لهم بالهداية والتمس لهم العذر بأنهم لا يعلمون، فأى حلم حلیم يكون كهذا الحلم ؟ لا جرم لم نسمع بمثله .

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢١٤/٣ من حديث سهل بن سعد، وفي الشعب ١٦٤/٢ برقم ١٤٤٨، وأصله في الصحيحين: البخاري في باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢١٤/٤، ومسلم في الجهاد، باب غزوة أحد برقم ١٧٩٢، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأنني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها برقم ٢٥٩٩، والبخاري في الأدب المفرد، باب لعن الكافر برقم ٣٢١، والبيهقي في الأنوار برقم ٢٥١ .

٢ - ولما ظفر عليه الصلاة والسلام بالثمانين رجلا في غزوة الحديبية من أهل مكة الذين هبطوا من جبل التنعيم متسلّحين يريدون غِرَّةَ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأخذهم النبي صلى الله عليه وسلم واستحياهم^(١) مع ما كان يقتضيه حالهم من القتل جزاء وفاقا، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم حلم عنهم، ولم يعاقبهم على ذلك .

٣ - ولما فتح مكة ودخلها ظافرا منتصرا منكسا لرؤوس الوثنية وطواغيتها وصناديدها، لم يفعل كما يفعل الملوك في مثل ذلك الموقف من إفساد الحرث والنسل ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النمل: ٣٤] .

وإنما دخلها وهو مليءٌ حلما وعفوا وصفحا، وهو يقول: "هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة" (٢) .

٤ - ولما تمكن من الفتح العظيم، وقبض على ناصية الجبابرة الطَّغَام وهم لا يدرون ما
يخبأ لهم غير أنهم يطمعون في حلمه وكرمه كما عهدوه فيه .
يوم ذاك قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أهل مكة! ما تظنون أني فاعل
بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم، عندئذ قال مقولته المشهورة الجارية مجرى
الأمثال شهرة واستفاضة: "إذهبوا فأنتم الطلقاء" (٣) .
وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: "مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته:

(١) كما دل عليه حديث مسلم في الجهاد، باب قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ برقم ٨٠٨، **وَبَنِي**

داود في الجهاد، باب في المن على الأسير برقم ٣٢٦٠، والترمذي في التفسير، باب من سورة الفتح برقم

. ३२६.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح ١٨٧/٥ من

حدیث

(٣) عزاه السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفاء ص ٦٢ رقم ١٧٩ إلى حميد بن زنجويه في كتاب

الأموال، وإلى النسائي من حديث أبي هريرة بزيادة عما هنا، وذكره ابن هشام في سيرته ٩٤/٤ وتاريخ

الخلفاء ص ٣٢٩، وذكره عامة أهل المغازي والسير وفي نسخة منقحة من بعض النسخة

المغربي إلى ص ٢٩٥

﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ [سورة يوسف: ٩٢]، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان قد توعد صناديد مكة : "فانفضحت حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم" (١) .

هكذا حلم وعفى وصفح عن هؤلاء الذين أذاقوه أنواع الإيذاء، واثمروا على قتله، وأخرجوه من أحب البلاد إليه، وحاربوه كأشد ما كانت تعرفه الحروب، وفعلوا معه ما لا يطاق وصفه، ومع ذلك كله فهو يحلم ويعفو ويصفح، بل ويكرم ويعطي ويجزل العطاء .

وكان بإمكانه وله الحق الكامل أن يعمل فيهم السيف قتلاً وتنكيلاً، فقد أحلت له مكة ساعة من نهار، ليزيق طغاتها جزاء عنادهم وإيذائهم وعداوتهم جزاء وفاقاً . ولكن حلم النبوة أبى عليه ذلك فقال لهم: "إذهبوا فأنتم الطلقاء" .

"إنك لا تجد قائداً في العالم مهما بلغ من جلال الإنسانية، ورفعة العلم، وذروة الخلق يخاطب أعداءه الذين استباحوا قتله بعد ما استباح قريش من دماء المسلمين، يخاطبهم حين ظنوا أنهم ألقي عليهم قيود السلطة والجبروت، وأنهم أصبحوا أسرى في يديه، يفعل بهم من جنس صنيعهم أو أشد يخاطبهم منكراً أنهم أسرى أو مقيدين فيقول: "إذهبوا ..."(٢) .

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة من حلمه صلى الله عليه وسلم عمن آذاه في جسده الشريف-بنفسي هو وأبي وأمي من الأمثلة التي يضيق بها الحصر في مثل هذا المقام (٣) .

(١) أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق رقم ٨٢ ص ٤٥، بإسناد رجاله ثقات إلا راويه عن عمر رضي الله عنه فإنه مجهول .

(٢) الإسلام والرسول في نظر منصفى الشرق والغرب لأحمد بن حجر آل بو طامي ص ١٧٢ من مقال نقله للكاتب الفرنسي (جان يرا) .

(٣) وذلك كحلمه عن شيبه بن عثمان بن طلحة الذي أراد الفتك به صلى الله عليه وسلم يوم حنين، وعن فضالة بن عمير الذي أراد ذلك أثناء طوافه صلى الله عليه وسلم بالبيت ... وستأتي ذكر أمثلة لذلك قريباً .

"ولو لم يكن من كرم عفوه ورجاحة حلمه إلا ما كان منه هذا اليوم لكان ذلك من أكمل الكمال وأوضح البرهان على مبلغ حلمه وعظيم عفوه وصفحه" (١) .

وبذلك تعلم أن حلمه عليه الصلاة والسلام وعفوه وصفحه كان فوق ما تتصوره العقول البشرية في أجناس البشر الذين من شأنهم الغضب والانتقام لاسيما عند المقدرة، وإن لم يكن دائما ففي الغالب أو الأحيان، لأنه ما من حليم إلا وقد حفظ عنه ذلك، وفي الحديث "لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة" (٢)، أما أن يكون حليما دائما وأبدا، فذلك ما لم يعرف إلا في رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أدركت من هذه الشواهد العظيمة، المقتضية للانتقام بكل جدارة واستحقاق، ومع ذلك فهو لم يفعل، فهذا هو الحلم الذي يضرب به المثل بلا ريب، إذ "لم يظهر العفو قط بصورته الكاملة في تاريخ أي من الأديان حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم، ولولاه لظلت هذه الفضيلة معطلة إلى الأبد" كما قاله بعضهم (٣) .

٢ - حلمه صلى الله عليه وسلم وعفوه وصفحه عمن يريد قتله :

وكم كان يحلم ويعفو عمن يريد الفتك به صلى الله عليه وسلم وذلك في كل محاولة اغتيال تجري له - بأبي هو وأمي - فيقابلها بالحلم والإغضاء والعفو والصفح، لابل بالحرص على هدايته ودعوته إلى الإسلام الذي فيه الهدى والرشاد،

١ - فعمير بن وهب أحد شياطين قريش وأشرارها المعروفين بشدة الأذى لرسول الله

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢٩/٢ .

(٢) أخرجه الترمذي في البر، باب ما جاء في التجارب برقم ٢٠٣٣، وأحمد في المسند ٦٩/٣، والحاكم في المستدرک ٢٩٣/٤، وابن حبان في صحيحه ٢٠٨/١ من الإحسان كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسنه الترمذي وقال عنه الحاكم: صحيح الإسناد وأقره الذهبي، وأقره كذلك الحافظ ابن حجر في إجابته عن الأحاديث التي سئل عنها في المصاييح كما هي في آخر كتاب المصاييح للبغوي . ١٧٨٦/٣

(٣) هو الأستاذ خوجه كما الدين في كتابه المثل الأعلى في الأنبياء ص ٢٢٧ .

صلى الله عليه وسلم وأصحابه حيث كانوا يلقون منه العناء الشديد في مكة، اجتمع مع صفوان بن أمية في حجر الكعبة المشرفة واتفقا على أن يقوم عمير بالسفر إلى المدينة، ويفتك عمير بالنبي صلى الله عليه وسلم، على أن يكفيه صفوان أمر دينه وأولاده، فلما ضمن له صفوان ذلك، خرج من حينه إلى المدينة بسيفه الصقيل المسموم، فلما وصل إليها وأبصره عمر رضي الله عنه لبَّه وقال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب شيطان من شياطين قريش ما جاء إلا ليفتك بك، فقال عليه الصلاة والسلام: "أرسله يا عمر" فأرسله فضمه النبي صلى الله عليه وسلم إليه، وكلمه وأخبره بما جرى بينه وبين صفوان، فأسلم وشهد شهادة الحق، ثم انصرف إلى مكة مسلماً^(١).

٢ - ولما كان عليه الصلاة والسلام في غزوة قبل نجد تسمى غزوة (ذات الرقاع)^(٢)، وأدركته القائلة^(٣) في واد كثير العِضاه^(٤)، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس في العِضاه يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سُمرة، فعلق بها سيفه، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: فمنا نومة ثم إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، قال: فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده" فقلت: "صلتا" فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: "الله" فها هو ذا جالس، قال جابر: ثم لم يعاقبه النبي صلى الله عليه وسلم^(٥).

(١) انظر سيرة ابن هشام ٧١، ٧٠/٣، والاستيعاب بهامش الإصابة ٤٨٥/٢، والإصابة ٣٦/٣، وسيأتي الكلام

عليها في الآثار ص ١٤٤٠

(٢) وكانت في السنة الرابعة من الهجرة، وسميت بذلك لأنهم كانوا يعصبون الخرق على أرجلهم لما نعبت

أقدامهم وسقطت أظفارهم، وقيل: غير ذلك، انظر الروض الأنف ٢٥٣/٣.

(٣) أي: وقت القيلولة، وهو وقت نصف النهار عند اشتداد الحر.

(٤) العِضاه: شجر عظيم له شوك، والواحدة عضة، انظر النهاية ٢٥٥/٣.

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد، باب غزوة ذات الرقاع ١٤٦/٥، ومسلم في صلاة المسافرين، باب صلاة =

٣ - وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "من يمنعك مني"؟ فقال: كن خير آخذ، قال: "أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله"؟ قال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك ولا مع قوم يقاتلونك، فخلّى سبيله، فجاء أصحابه فقال: جئتم من عند خير الناس" (١) .

٤ - وأرسلت إليه يهودية في غزوة خيبر بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك، فقالت: أردت قتلك، فقال عليه الصلاة والسلام: "ما كان الله ليسلطك على ذلك: أو قال: على مسلم، قال الصحابة: أفلا نقتلها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا، قال أنس: فما زلت أعرفها (٢) في لهوات (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) .

٥ - وسحره رجل من اليهود، فاشتكى ذلك أياما فأتاه جبريل فقال: "إن رجلا من اليهود سحرك فعقد لذلك عقدا، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فاستخرجها فجاء بها، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نشيط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا أراه في وجهه . قط" (٥) .

= الخوف برقم ٨٤٣، وفي الفضائل، باب توكله صلى الله عليه وسلم على الله وعصمة الله له من الناس بالرقم نفسه ورقم الكتاب ١٣ .

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٣٦٥، ٣٩٠، والحاكم في المستدرک ٣/٢٩، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٧٥ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٢) أي الأكلة .

(٣) جمع لهوة وهي اللحمة في سقف أقصى الفم، النهاية ٤/٢٨٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الطب، باب قبول هدية المشركين ٣/٢١٣، ومسلم في كتاب السلام، باب السم برقم

. ٢١٩

(٥) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم، باب سحرة أهل الكتاب ٧/١١٣، والإمام أحمد في المسند =

شهادة أعدائه صلى الله عليه وسلم له بالحلم :

ولقد حملهم ذلك الحلم العظيم والعفو الكريم على أن يشهدوا له به في مواقف متعددة من غير رغبة ولا رهبة، ولكن نطقا بالحق وشهادة العدل .

١ - فأبو سفيان الذي كان قائد الجيوش لمحاربتة في مواطن عديدة، وحامل لواء الحرب عليه صلى الله عليه وسلم لم يستطع إخفاء هذا الخلق العظيم في رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل قال له يوم الفتح وقد وقف بين يديه صاغرا ذليلا: "بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك" (١) .

٢ - وعمير بن وهب يقول مخاطبا صفوان بن أمية واصفا النبي صلى الله عليه وسلم بما هو فيه من الخلق العظيم ليشنيه عما هو عازم عليه من الفرار وذلك يوم فتح مكة يقول: "جئتك من عند أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزه عرك، وشرفه شرفك، ومملكه ملكك" فقال له صفوان: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم" (٢) .

وهذه شهادة عن تجربة وخبرة، فقد مضى لك عما قريب ما كان من نبأ عمير هذا ، وما دبره للنبي صلى الله عليه وسلم، وما قابله النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فهي شهادة من خبير ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [سورة فاطر: ١٤] .

حلمه صلى الله عليه وسلم عليه وسلم وعفوه وصفحه عن أصحابه :

ولئن كان الحلم عن الأعداء دليلا عظيما على ذلك الخلق العظيم في نفس المرء، فإن الحلم عن الأصحاب والإغضاء عن هناتهم وزلاتهم أولى أن يكون دليلا آخر، بل هو أوضح على كمال خلق المرء في حلمه وعفوه؛ لأنه قد يحلم عن العدو لسبب عداوته استعطافا له وروما لتألفه وتقريبه .

= ٣٦٧/٤، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٨١ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه . وأصله

في البخاري مطولا في كتاب الطب ١٧٦/٧-١٧٨ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(١) السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء لابن حبان البستي ص ٣٢٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٥/٤ مع الروض الأنف .

والصديق لا يحتاج معه إلى ذلك، وحقه أن يكون محافظاً على الآداب، وعارفاً بمواطن الرضا والسخط، وإذا فعل ما يخل بذلك كان جديراً بالتأديب والتعزير والتأنيب، أما أن يترك بلا تثريب، وكان المقتضي لذلك قائماً، فذلك دليل عظيم على حلم السيد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع الصحابة على ذلك الحال، يحلم عن إساءتهم، ويعفو عن زلاتهم، ويصفح فلا يؤنب ولا يثرب، ولكن غالباً ما يكون ذلك عن الأعراب الجفاة، أو المنافقين، فإن هؤلاء الذين تصدر منهم أفعال تنافي الأدب مع جناب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شخصه العظيم، أو سياسته الحكيمة للأمة والدولة الإسلامية .

أما سائر الصحابة ممن لم يطعنوا بنفاق، ولم يحفوا بالبادية، فإنهم كانوا على جناب عظيم من الأدب واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل إشارة أو عبارة، وإن حصلت من أحدهم هفوة فذلك نادر، والنادر لا حكم له .

ومن صور حلمه صلى الله عليه وسلم وعفوه عن بعض جفاة الأعراب ممن يشملهم اسم الصحبة :

١ - ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه بُردٌ نجْراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجَبَذَهُ بِرِدائه جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعِطَاءٍ (١) .

٢ - وفي رواية أخرى قال: "يا محمد احمل لي على بعيري هذين، من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب البرد والخيرة والشملة ١٨٨/٧، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء من سأل

بفحش وغلظة برقم ١٠٥٧، والبرد نوع من الثياب يكون من كساء ورداء، ونسبته إلى نجران لأنه موضع

صنعه، وقد تقدم تعريفه .

"لا، وأستغفر الله - ثلاثاً - لا أحمل لك حتى تقيدني من جذتك التي جذتني" فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فلما سمعنا قول الأعرابي، أقبلنا إليه سراعاً، فالتفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: عزمتُ على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامه حتى آذن له، ثم دعا رجلاً فقال له: احمل له على بعيريه هذين، على بعير شعيرا، وعلى الآخر تمرا، قال: ثم التفت إلينا فقال: انصرفوا على بركة الله" (١) .

فانظر كيف تجرأ هذا الأعرابي الجليف على مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وجبذه تلك الجبذة المنكرة، وذلك لعلمه بحلم النبي صلى الله عليه وسلم وسعة عفوه، وأنه لا ينتقم لنفسه، كما جاء في بعض الروايات أنه قال له: إنك لا تكافيء السيئة بالسيئة، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم لم يلبث أن أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم ما أراد منه وعفا عنه، ومنع عنه ما كان يمكن أن يفعله الصحابة رضوان الله عليهم مما يجدر به، لولا كمال حلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالغ عفوه وصفحه .
ولقد حلم النبي صلى الله عليه وسلم وعفا عن خطأين كبيرين ارتكبهما كان عليه من جرأتهما القود والتعزير :

أما الأول: فهو جبذته الشديدة التي أثرت في عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي تدل على طبع الأعرابي، وجفاء خلقه، وقلة أدبه .

والثاني: رفضه القصاص وهو حكم شرعي يجب عليه أن يسلم به، ويستسلم له، ولولا عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجب القود ولا بد .

وفي هذه القصة تقرير لأصل شرعي عظيم، وهو أن المال مال الله تعالى، جعله الله تعالى في يد الحاكم، ليتصرف فيه في مصالح المسلمين بالحكمة والغبطة، لا يملك منه إلا

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الحلم، وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٤٧٧٥، والنسائي في

القسامة، باب القود من الجبذة ٣٣/٨، وأحمد في المسند ٢٨٨/٢ من حديث أنس رضي الله عنه . بإسناد

ما يخصه بقدر عمله واستحقاقه، والباقي أمانة لديه .

ولعل هذا من دوافع ضحكته صلى الله عليه وسلم على ما جرى له من الأعرابي، وكأن فيه إشارة إلى أن الأعرابي فقه هذه الحقيقة الشرعية العظمى مع غلظه وجفائه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم كالمقر له أمام الصحابة ليفقهوا منه ذلك، ويكون تشريعا وتعلينا للأمة حكاما ورعايا .

ولو كان حكم الشرع بخلاف ذلك لأنكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوضح له الحكم الشرعي، من أنه لا يستحق، وأنه لا دخل له في هذا الشأن، وأنه يتصرف فيه كما يشاء عطاء ومنعا، ولكن لما سكت على ما جرى كان ذلك تقريرا .
وكم كان له صلى الله عليه وسلم من مواقف حلم وعفو وصفح مع هؤلاء الأعراب الجفأة :

٣ - فقد جاء ذات مرة رجل من تميم يدعى «ذو الخويصرة التميمي» وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: إعدل يا رسول الله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ويلك من يعدل إذا لم أعدل" ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني أضرب عنقه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .." (١) .
وفي لفظ قال: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية" (٢) .

٤ - وليس هذا هو العجب من حلمه صلى الله عليه وسلم ، وإن كان محل العجب بلا شك؛ لأن هؤلاء قد يشفع لهم طبع البادية الذي كان معهودا، ولا سبيل إلى تقويمهم سريعا مع ما ألفوه من الغلظ والجفاء .

(١) أخرجه البخاري في استنابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج لتألف وأن لا ينفر الناس عنه ٢١/٩،

وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم برقم ١٠٦٣ من

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه واللفظ للبخاري .

(٢) هذا لفظ مسلم .

ولكن الذي لا ينقضي منه العجب، هو حلمه وعفوه عن المنافقين الذين يساكنونه عليه الصلاة والسلام في المدينة، وللمدينة تأثير في سلوك الأدب والاحتشام، لاسيما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم مع ذلك يتركون كل آداب المدينة، ويسلكون سلوك المراءوغ الخائن لله ورسوله والمؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك منهم بإعلام الله تعالى له، ومع ذلك يحلم عنهم ويعفو يصفح، مع ما كان يؤذن له على سبيل التخيير في تأديبهم والتشديد عليهم، وما يكشفه الله تعالى من مؤامراتهم وخياناتهم في آيات كثيرة وسور خاصة .

وهنا تتجلى غاية حلمه وكمال عفوه صلى الله عليه وسلم على أولئك الأوغاد، إذ كلما أُذِنَ له في تأديبهم والتشديد عليهم، فتح لهم بابا من الرحمة، فكان يستغفر لهم ويدعو لهم، كما فعل مع رئيس المنافقين عبد الله بن أبي حتى أنزل عليه: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ [سورة التوبة: ٨٠] فقال: "خَيْرَني ربي فاخترت أن أستغفر لهم" ولما قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٨٠] فقال صلى الله عليه وسلم: سأزيده على السبعين، وقام يريد الصلاة عليه، فعندئذ لم يتمالك سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جادل النبي صلى الله عليه وسلم، وحاول أن يمنعه من الصلاة عليه وقال له: "أَتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ يعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "أُخِّرْ عني يا عمر" قال عمر: فلما أكثر عليه قال: "إِنِّي خُيِّرْتُ فاخترت، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها" قال: "فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [سورة التوبة: ٨٤] قال عمر: فعجبت بعد من جرأتني على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، والله ورسوله أعلم" (١) .

(١) أخرجه البخاري في الجنايز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين ١٢١/٢ وفي

٥ - وكان عليه السلام قد أعطاه قميصه ليكفن فيه، بعد أن سأله منه ابنه عبد الله (١)، لاجرم أن هذا حلم نبوة لم يسمع بمثله في سائر البشر .

دلالة حلمه صلى الله عليه وسلم على نبوته :

ولقد كان هذا الحلم علماً من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم التي كانت معلومة لأهل الكتاب من كتبهم المنزلة :

١ - فقد روى عبد الله بن سلام رضي الله عنه أن الله تعالى أراد هداية زيد بن سَعْنَةَ (٢) قال زيد: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتُها في وجه محمد صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه، إلا اثنتان لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ... ثم أقرض النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين ديناراً قال: فلما كان قبل المحل يوم أو يومين أو بثلاثة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة بالبقيع ومعه أبوبكر وعمر في نفر من الصحابة، فلما صلى على الجنازة، ودنا من الجدار جذبت برده جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبلت بوجهي جهم غليظ، فقلت: ألا تقضي بي يا محمد، فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطّل (٣)، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، قال زيد: فارتعدت فرائض عمر بن الخطاب رضي الله عنه كالفلك المستدير، ثم رمى ببصره، ثم قال: أيّ عدوّ الله تقول هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وتصنع به ما أرى؟ وتقول ما أسمع؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك! ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليّ في تَوَدّة وسكون، ثم تبسّم ثم قال: "لأنا وهو أحوج

(١) كما في رواية البخاري في الجنائز ٩٦/٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) الخير أحد أحبار يهود ومن أكثرهم مالا، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشاهد كثيرة، وتوفي في

غزوة تبوك أثناء رجوعه إلى المدينة، انظر أسد الغابة ٢/٢٣١، والإصابة ١/٥٦٦ .

(٣) أي: مماطلين، من مطله بدينه مطلاً: إذا سوفه بوعده الوفاء مرة بعد أخرى، المصباح المنير ٢/٢٤١ .

(٤) الفريضة: لحمه بين الجنب والكف، لا تزال ترعد من الدابة، وجمعها: فرائض وفرائض، والمراد هنا: عصب

الرقبة وعروقها؛ لأنها هي التي تثور عند الغضب، انظر النهاية ٣/٤٣١، ومختار الصحاح ص ٤٩٨ .

إلى غير هذا؛ أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه".

ثم قال لعمر رضي الله عنه: "أذهب به يا عمر، فاقضه حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رُعته (١) قال: فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعاً من تمر...، فلما تبين له ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم آمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة" (٢)، ومات في غزوة تبوك رضي الله عنه.

وما كان زيد بن سَعْنَةَ رضي الله عنه سيفرط . بيهوديته وهو حَر لولا إدراكه ما يعلمه من علامة نبوته من كتبهم ، فلما أدركها حقيقة لم يلبث أن آمن، وقد قال لعمر رضي الله عنه بعد أن عرفه بنفسه، فسأله عمر رضي الله عنه عما حمله على فعل ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله له ذلك القول الغليظ، فقال له زيد: يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا قد عرفتُها في وجه رسول الله تعالى صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه، إلا اثنتان لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد اختبرته، فأشهدك يا عمر أنني قد رضيت بالله ربا، وبمحمد نبيا، وأشهدك أن شطر مالي (٣) - فإني أكثرها مالا - صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال له عمر أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم، قال: أو على بعضهم (٤).

(١) بضم الراء أي: ما روعته، بمعنى: خوفته.

(٢) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمان ص ٥١٦ برقم ٢١٠٥، وأبو الشيخ في

الأخلاق ص ٨١-٨٣، والحاكم في المستدرک ٦٠٤/٣، والبخاري في الأنوار برقم ٢٢٦، وعزاه الهيثمي في

مجمع الزوائد ٢٤٣/٨ إلى الطبراني.

قال الهيثمي: ورجاله ثقات، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووثق رجاله أيضا الحافظ ابن حجر

في الإصابة ٥٦٦/١ عند ترجمته، وذكر له شاهدا من وجه آخر.

ولفظ الحديث هنا مختصر عما هو عليه في مواضع السابقة.

(٣) أي: نصفه.

(٤) هو تمة الحديث السابق.

ودلالة خلق الحلم والعفو والصفح على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت معلومة لأهل الكتاب، ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، قد جاءت مبينة في روايات كثيرة، رواها أولئك الأحبار الذين هداهم الله تعالى للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم والدخول في الإسلام .

٢ - فقد سأل ابن عباس رضي الله عنهما كعب الأحبار (١) عن نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال: "نجد محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومهاجره إلى طابة، ويكون ملكه بالشام، ليس بفحاش ولا بصخاب في الأسواق، ولا يكافىء بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر" (٢) .

٣ - وكان عبد الله بن سلام رضي الله عنه يقول: "إن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأمينين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا، وآذانا صمًا، وقلوبا غلفًا" وبلغ ذلك كعبا فقال: صدق عبد الله بن سلام" (٣) .

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: "والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأمينين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في

(١) التابعي المشهور، المتفق على كثرة علمه وتوثيقه، أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وأسلم في

خلافة أبي بكر وقيل: في خلافة عمر رضي الله عنهما، وكان من أحبار يهود في اليمن، وصحب عمر

وأكثر من الرواية عنه، وتوفي سنة ٣٢ هـ، في خلافة عثمان رضي الله عنه بمصر، انظر طبقات ابن سعد

٤٤٥/٧، وتهذيب الأسماء ٦٨/٢ .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٦٠/١، والبيهقي في الدلائل ٣٧٧/١ .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٦٠/١، والبيهقي في الدلائل ٣٧٤/١ .

الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عُميا، وآذانا صُمًا، وقلوبا غُلُفا" (١) .
إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة عنهم في كل كمال خلُقي منبىء عن نبوته ورسالته.
حلمه صلى الله عليه وسلم وعفوه وصفحه عن أهل بيته :

ولئن حلم المرء أو تحلّم عن أعدائه أو أصدقائه لأغراض نبيلة وأهداف عالية، فإنه لا يقدر على فعل ذلك مع أهل بيته الذين يعاشرهم صباحا ومساء، ولا بد أن تندّ منهم زلة يستاء منها المرء، وتستوجب الزجر والتأديب، حتى لا تتكرر مثل تلك الإساءة، وحلم الحليم يطيش عند ذلك ولا بد، إما عن غير قصد، أو بقصد لأجل التأديب .
ولم يعرف خلاف ذلك إلا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان حلمه وعفوه عن أهل بيته كما كان عن أعدائه وعن أصحابه لا يتغير أبدا وإن اختلفت الصور، فتمثل ذلك الخلق فيه صلى الله عليه وسلم لم يتغير .

ولما كان هذا النوع من الحلم شديد اللزوم للأخلاق الأسرية الآتي بيانها، فإنني أرجىء الحديث عنه هنا، ليكون هناك مع مناسبة ذكره، وذلك خشية الاضطراب إلى التكرار، والله الموفق (٢) .

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب كراهية الصعب في الأسواق ٨٧/٣ .

(٢) انظر ص ٧١١ .

المبحث الرابع

(خلق الرحمة)

الرحمة في اللغة: الرقة والمغفرة والتعطف، يقال: رحمه يرحمه، إذا رقى له وتعطف عليه^(١).

وحقيقتها : رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم .

وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة .

وإذا وصف بها الباري سبحانه فليس يراد بها الإحسان المجرد دون الرقة^(٢)؛ لأن الرقة تعني انفعالا في النفس يقتضي التأثير لحال المرحوم فيرحم، والله تعالى منزّه عن التأثير والانفعال^(٣) .

قال الراغب: "الرحمة منطوية على معنيين الرقة والإحسان، فركز تعالى في طبائع الناس الرقة وتفرد بالإحسان"^(٤)، كذا يقول الراغب وغيره، والصواب في أسمائه تعالى وصفاته سبحانه التي وردت في كتابه أو صحت على لسان نبيه أننا نمرها كما جاءت من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل .

منزلة خلق الرحمة في الأخلاق السلوكية :

وهي من الأخلاق القرآنية العظيمة التي كانت لها العناية الكبرى في القرآن الكريم من حيث ذكرها والتنويه بشأنها، لما لها من عظيم الأثر في الحياة الدينية والدينية .

الرحمة صفة من صفات الله تعالى :

وهي صفة من صفات الحق تبارك وتعالى التي وصف بها نفسه كثيرا في القرآن العظيم في نحو من مائتي، فضلا عن تصدر كل سورة بصفتي الرحمن الرحيم، وذلك في البسملة التي هي آية من كل سورة عدا سورة براءة^(٥) .

(١) القاموس المحيط ١١٧/٤، والصحاح للجوهري ١٩٢٩/٥، ومجمل اللغة لابن فارس ٤٢٤/٢ .

(٢) المفردات للراغب ص ١٩١ .

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٠٦/١، وتفسير الطاهر بن عاشور ١٧٠/١ .

(٤) المفردات ص ١٩١ .

(٥) وللعلماء كلام طويل في الفرق بين صفتي الرحمن والرحيم، وحاصله: أن الرحمن: رحمن الدنيا والآخرة =

وذلك للدلالة على مبلغ رحمته العظيمة وشمولها العام بعباده ومخلوقاته كما نطقت بذلك بعض آياته كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وقوله على لسان ملائكته الكرام وهم أعلم الخلق بربهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: ٧].
وعلم نبيه ومصطفاه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركون إن هم كذبوه ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٧] ليجمع لهم بين الرغبة والرغبة، فلعل الرغبة في المغفرة تحملهم على الإيمان، فإن لم تحملهم الرغبة فالرغبة كافية لزجرهم عن التماذي في الكفر.

ولقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أن الرحمة صفته الثابتة التي لا تزول عنه أبدا كما قال سبحانه: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤].

"وقد ظهرت آثار رحمته في الخليقة كلها، فما من أحد مسلم أو كافر إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا، فيها يتعايشون ويواخون ويوادون، وفيها يتقلبون لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة لا حظ للكافر فيها" (١).

مظاهر رحمته سبحانه بخلقه :

وقد كانت أجل مظاهر رحمة الله تعالى أن بعث لهم رسله تترى، ثم بعث خاتم أنبيائه وسيد رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه الذي امتن به على الأمة، وكشف به الظلمة، وأزاح به الغمة، وجعله رحمة للعالمين أجمعين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧].

وكما قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

وذلك لما في بعثته من الهداية إلى دين الله، والدلالة على معالم دينه، وطريقه المستقيم الذي من سلكه هُدي إلى النعيم المقيم، كما سيأتي مزيد بيان ذلك في الجانب التطبيقي لهذا الخلق العظيم .

ومن مظاهر رحمته سبحانه وتعالى أن خلق لعباده ما يسكنون إليه من الأزواج راحة لأنفسهم، وإحياء لأصلهم، وتكاثرا لنسلهم، كما امتنَّ عليهم بذلك حيث قال: ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون ﴾ [سورة الروم ٢١] .

ومظاهر رحمته بخليقته لا تُحصى، ويكفي أن نعلم أنه : (أرحم الراحمين) وأنه (كتب على نفسه الرحمة) كما أخبر عن نفسه بذلك في محكم آياته الكريمة .

وقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم عن رحمة الله تعالى ومبلغ سعتها وكنهها، وذلك فيما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: " إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: **إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**" (١) .

وما أخرجاه أيضا من حديثه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه" (٢) .

وما أخرجاه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله

(١) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٥٣/٩، وباب ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾

ص ١٦٥، ومسلم في التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه برقم ٢٧٥١ .

(٢) البخاري في الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء ٩/٨، وفي الرقاق، باب الرجاء مع الخوف

١٢٣/٨، ومسلم في التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه برقم ٢٧٥٤ .

صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب (١) ثديها، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لله أرحم بعباده من هذه بولدها" (٢).

وفي هذه الأحاديث ما يوضح سعة رحمة الله تعالى ويقرب إدراكها إلى العقول البشرية.

الرحمة من صفات المؤمنين وأخلاقهم :

وكما أن الرحمة صفة من صفات الله تعالى فإنه سبحانه قد أثبت لها لعباده المؤمنين وندبهم إلى التحلي بها .

فقد قال الله جل ذكره في شأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...﴾ [سورة محمد: ٢٩] .

كما أثبت لها بلازمها لهم ولمن اتصف بصفاتهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يردتكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعز على الكافرين...﴾ [سورة المائدة: ٥٤] إذ الذلة التي يتحلون بها فيما بينهم مسببة عن التراحم السائد بينهم، وهذا دليل على أن الرحمة من أجل صفات المؤمنين حيث كان حديث القرآن عن الرحمة لديهم في معرض الامتنان والثناء والمدح البليغ .

مما يدل على عظيم مكانة المتراحمين من المسلمين عند الله تعالى، وقد دل على ذلك ما أعده الله تعالى لهم من الأجر والثواب الذي أفصحت عنه آيات سورة البلد حيث قال الله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة﴾ [سورة البلد: ١٧، ١٨] ، أي أصحاب اليمين الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، والذين

(١) أي: اجتمع حليب ثديها فيه .

(٢) البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقيله ومعاقته ٩/٨، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله

وأنها سبقت غضبه برقم ٢٧٥٤ .

قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلِّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ [سورة الواقعة: ٢٧-٣٤] .

حض المؤمنين على التحلي بها :

ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى التحلي بالرحمة، وحثهم عليها في بعض مواطنها لكبير أهميتها في تلك المواطن، لينالوا أجرها وعظيم ثوابها ،

وذلك كالرحمة بالوالدين اللذين لهما الفضل الأكبر بعد الله تعالى في الإيجاد والإمداد والتربية، واللذين عظم الله شأنهما وقرن شكرهما بشكره، وطاعتهما بطاعته، فكانت الرحمة بهما لا سيما عند الكبير محتمة حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرِّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [سورة الإسراء: ٢٤] .

ونلاحظ أن الله تعالى لم يحث على مجرد الرحمة التي تعني الرقة والانكسار فحسب، بل أراد أكثر من ذلك وهو الذل والتواضع لهما، والخضوع بين يديهما بأبلغ تعبير وأعظم أسلوب، وهو أسلوب الاستعارة المكنية، حيث «صيغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشد منه؛ إذ يخفض جناحه له متذللاً، وذكرُ الجناح تخييلٌ، بمنزلة تخييل الأظفار للمنية في قول الشاعر:

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ ثَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وبمجموع هذه الاستعارة تصبح الاستعارة تمثيلية» (١) .

وقد بينت السنة المشرفة المواطن الأخرى الكثيرة للرحمة كما سيأتي ذكر طرف منها في التطبيق النبوي لهذا الخلق الكريم قريباً إن شاء الله تعالى .

مواطن الرحمة :

والرحمة وإن كانت مطلوبة في كل حال من أحوالها إلا أن مفهومها يختلف في بعض مواطنها، تبعاً لاختلاف النظر في آثارها ،

(١) التحرير والتنوير ٧٠/١٥ .

إذ الرحمة ليست رقة في القلب على المرحوم فحسب، بل كذلك على من يستدعي حاله الرحمة من أفراد المجتمع، فالذي نُهب ماله حقُّه أن يُرحم، والذي انتُهك عرضه حقُّه أن يُرحم، والذي أزهق روحه حقُّه أن يُرحم...، ورحمة أولئك تكون بكف يد الفساد التي فعلت بهم ذلك، والقصاص منهم، حتى يستتبَّ الأمن والاستقرار والنزاهة في المجتمع، ورحمة الجاني في هذه المواطن ليست حميدة، لذلك . نهى الله تعالى المؤمنين أن تأخذهم به رحمة حيث قال الله عز وجل: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة النور: ٢٠] .

وإنما نهى الله تعالى عن الرأفة بهم لما في عقابهم من ردعهم وردع أفعالهم عن الاستطالة إلى حقوق المؤمنين وأعراضهم وأرواحهم، فيطهر المجتمع من الفساد، ويصبح نقيًا راشدًا في ازدياد، كما قال الله تعالى في سر ذلك: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩] .

تمثل خلق الرحمة

في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد سبقت الإشارة إلى أن من أجل مظاهر رحمة الله بعباده هو بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي كانت بعثته رحمة للعالمين كما أخبر الله تعالى بذلك ممتنا عليهم بهذه النعمة الكبرى، والغبطة العظمى حيث قال سبحانه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧] ، وقال جل شأنه: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ (١) قل أذن خير لكم (٢) يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ [سورة التوبة: ٦١] .

وقال عز وجل واصفا له ولأخلاقه أيضا: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [سورة التوبة: ١٢٨] .
فترى أن الله تعالى وتقدس سمي نبيه المصطفى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة، في الآيتين السابقتين، وهي مصدر يفيد المبالغة، ويدل على أن هذا الوصف فيه متمكن لا يتغير .

وقد دل على هذا مظاهر رحمته الكثيرة على العالمين في أخلاقه وتشريعاته كما سيأتي بيانه، وفي الآية الثالثة وصفه الله تعالى باسمين من أسمائه الحسنى، وهما رؤوف رحيم "ولم يسم أحدا من أنبيائه بذلك، وذلك للدلالة على أنه أرحم الخلق وأعطفهم وأشفقهم وأرقهم قلبا .

فدلت الآيتان على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كله رحمة في شمائله وصفاته، في حياته ومماته، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم هو ذاته رحمة فكيف يتصور تمثل خلق الرحمة فيه ؟!

(١) أي: أنه يسمع كل قول يقال له ويقبله، فإذا حلفنا له أننا لم نقل صدقتا .

(٢) أي: كونه يسمع الخير، ويقبل الاعتذار خير لكم، فهو تصديق لهم بما وصفوه من مكارم الأخلاق وهم لا

يشعرون، ولكن لا على الوجه الذي أرادوه، بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، وقد فسر ذلك بقوله:

يؤمن بالله الآية. انظر تفسير البيضاوي ص ٢٥٨ والجلالين ٢٢٢/١ .

إن مظاهر رحمة من كان كذلك ينوء بها الحصر؛ لأنها تكون في كل شئونه في حياته، حتى بعد وفاته، كما قال عليه الصلاة والسلام: "إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها فجعله لها فِرطاً وسلفاً، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي فأهلكها وهو ينظر فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعضوا أمره" (١) .

وكما قال عليه الصلاة والسلام: "حياتي خير لكم ومماتي خير لكم" (٢) .
وقد كان صلى الله عليه وسلم يفصح عن حقيقته التي جعله الله تعالى فيها فيقول: "يا أيُّها الناس إنما أنا رحمة مهداة" (٣)، ويقول: "إنِّي لم أبعث لعانا إنما بعثت رحمة" (٤) .
ورحمته صلى الله عليه وسلم عالمية كما أخبر الله تعالى، فما من أحد من الجن والإنس إلا وقد نال حظاً من رحمته صلى الله عليه وسلم، المؤمن بالهداية، والمنافق بالأمن من القتل، والكافر بتأخير العذاب (٥)، بل إن جميع العوالم داخلية في هذه الرحمة لمقتضي

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها برقم ٢٢٨٨ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) عزاه الهيثمي في الجمع ٢٧/٩ إلى البزار من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: ورجاله رجال الصحيح، وعزاه السيوطي في مناهل الصفا برقم ٨ إلى الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث بكر بن عبد الله المزني .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٥/١، وعزاه الهيثمي في الجمع ٢٦٠/٨ إلى البزار، وإلى الطبراني في الأوسط والصغير، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الهيثمي: ورجاله البزار رجال الصحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وقال العراقي في تخريج الإحياء ١٤٨/٤: ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي، فقد ضعفه كثيرون، قلت: ولذلك ضعفه الألباني في الضعيفة برقم ٩٧٥، ولكن تصحيح من صححه واعتماد مسلم للراوي المتكلم فيه وتوثيق ابن معين له، أقوى من تضعيف من ضعفه، والله أعلم .

(٤) صحيح تقدم ذكره في مبحث الوفاء ص ٥٨٣

(٥) الشفاء للقاضي عياض ١٧/١ .

الدلالة اللفظية (للعالمين) فإنه/عالم^{جميع}، والألف واللام فيه لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم، والعوالم كثيرة، هذا هو ظاهر اللفظ، ولا ينبغي أن يصرف اللفظ عن ظاهره إلا إذا استحال حمله عليه وأيدته الدلائل على صرفه عنه .

فكيف به إذا كانت الدلائل تشهد بصحة حمله على ظاهره كما سيأتي قريباً في مظاهر رحمته، ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧] أنه على عمومته، وفيه على هذا التقدير وجهان :

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه، فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عجل لهم قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر .
وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له .

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان حقن دماءهم وأموالهم وأهليهم واحترامهم، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها .
وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سبحانه وتعالى رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته .

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة وانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون لهم رحمة، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لهذا المرض^{لكن} (١).

(١) جلاء الأفهام في الصلاة والصيام على خير الأنام ص ٩٠، وانظر التحرير والتنوير ١٧/١٦٧ .

مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم :

إذا علمت هذا فاعلم أن رحمته صلى الله عليه وسلم أضحت ماثلة لذي عينين، في صور كثيرة، نجتزئ منها على ما يلي :

أولا رحمته بالمؤمنين :

أما رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين فقد دل عليها صريح الكتاب حيث قال الله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾ [سورة التوبة: ١٢٨] .

وقال: ﴿... ورحمةٌ للذين آمنوا منكم﴾ [سورة التوبة: ٦١] .

وقد كانت رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين عظيمة حيث كان أرف بهم من أنفسهم كما قص الله تعالى عنه ذلك بقوله تعالى: ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم...﴾ [سورة الأحزاب: ٦] يعني أنه أرف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم من أنفسهم، كما كان يقول ذلك عن نفسه فيما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فأبما مؤمن ترك مالا فليترثه عصبته ما كانوا، وإن ترك دنيا أو ضياعا (١) أو عيالا فليأتني فأنا مولاه" (٢) .

وشواهد رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين يضيق بها الحصر هنا، ولكن لا بد من ذكر طرف منها فيما يأتي :

١- رحمته بهم في العبادة:

حيث لم يكلفهم منه ذلك ما يجهدهم أو يشق عليهم بل كان يقول :

١ - "يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يعمل حتى تملوا، وإن أحب

(١) الضياع: العيال، وذكر العيال بعدها كما في رواية البخاري شك من الراوي أيهما سمعه .

(٢) البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٥/٦، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته برقم

الأعمال إلى الله ما دام وإن قل" (١) .

٢ - ويقول: "إنَّ هذا الدين يُسر ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغُدوة والروحة وشيء من الدُّجَّة" (٢) .

٣ - ودخل مرة المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: "ما هذا الحبل ؟ فقالوا: حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا، حلوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقع" (٣) .

٤ - وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال رحمة لهم فقالوا: إنك تواصل فقال: "إنِّي لست كهيتكم إني يطعمني ربي ويسقيني" (٤) .

هـ- وكثيرا ما كان يقول: لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم بكذا؛
كقوله صلى الله عليه وسلم: "لولا أن أشقَّ على أمتي، أو على الناس لأمرتهم

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه ١٨/١، وفي الرقاق، باب القصد والمداومة في العمل ١٢٢/٨، من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم في الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل برقم ٧٨٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الدين يسر ... ١٧/١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله برقم ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان، باب الدين اليسر ١٢١/٨ .

... ولا لدُّجَّة: سير الليل، والمراد به العمل في الليل، وقوله: "وشيئا من الدُّجَّة": إشارة إلى تقليبه،

والمشادة: مفاعلة من الشد أي: لن يغلب، ولن يقاوي أحد الدين إلا غلبه، جامع الأصول لابن الأثير ٣٠٩/٨

(٣) أخرجه البخاري في أبواب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة ٦٧/٢ من حديث أنس رضي الله عنه، وأبو داود في الصلاة، باب النعاس في الصلاة برقم ١٣١٢، والنسائي في قيام الليل، باب الاختلاف على عائشة في إحياء الليل ٢١٩-٢١٨/٣ .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم برقم ١١٠٥ .

بالسَّوَاك عند كل صلاة" (١) .

وقوله: "لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم أن يُؤخِّروا العشاء إلى ثلث الليل ، أو قال: نصفه" (٢) .

٦- وكثيرا ما كان يترك العمل وهو يؤدُّ أن يعمل به خشية أن تقتدي به أمته فيفرض عليها ثم لا تستطيعه كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحبُّ أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم" (٣) .

وكما دل على ذلك قصةُ امتناعه صلى الله عليه وسلم عن الخروج في الليلة الثالثة لصلاة القيام لما رأى الصحابة قد تجمَّعوا يريدون أن يأتمُّوا به، فلما أصبح قال لهم: "قد رأيت الذي صنعتُم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيتُ أن تفرض عليكم" (٤) .

٧- وقد كان من رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته أنه كان يدخل في الصلاة التي هي قرَّة عينه، وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي فيتجوَّز فيها مراعاة لأمه لما يعلمه من شدة وجدها عليه لبكائه، كما قال عليه الصلاة والسلام: "إنني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه" (٥) .

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، باب السواك يوم الجمعة ٥/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في تأخير صلاة العشاء الآخرة برقم ١٦٧، والنسائي في المواقيت،

باب ما يستحب من تأخير العشاء ٢٦٦/١، وابن ماجه في الصلاة برقم ٦٩١، والحاكم في المستدرک

١٤٦/١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأحمد في المسند ٤١٠/٥، وقال عنه الترمذي: حسن

صحيح .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم على قيام الليل ٦٢/٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ص ٦٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ١٧١/١، ومسلم في الصلاة، باب

أمر الأئمة بتخفيف الصلاة برقم ٤٧٠، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري .

٨- وقد حدث مالك بن الحويرث (١) رضي الله عنه عما لمسه من رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لما أتاه ومن معه من قومه يريدون الهجرة والبقاء لطلب العلم ونصرتة صلى الله عليه وسلم، فرحم غربتهم وأذن لهم بالرجوع إلى أهلهم، كما قال مالك رضي الله عنه: "أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببة (٢) متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة فظن أنا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمّن تركنا في أهلنا، فأخبرناه - وكان رفيقا رحيمًا - فقال: "ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم" (٣).
إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على عظيم رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته، والمذكورة في أبواب متفرقة من كتب الحديث والشمال.

تنبيه:

والذي تنبغي الإشارة إليه هنا هو أن ما تقدم من رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته في العبادة، وكرهية أن يشق عليه فيها، كان القصد من ذلك هو كراهيته الغلو في التعب والإفراط فيه. حتى يضر المرء بجسمه وواجباته الأخرى، فيفترط في حقوق أخرى كثيرة، كما قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل، صم وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينيك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا...".

(١) الليثي سكن البصرة وتوفي بها سنة ٩٤ هـ، انظر الاستيعاب ٣/٣٧٤ مع الإصابة ص ٣٤٢، وتهذيب الأسماء ٨٠/٢.

(٢) جمع شاب، مثل بار وبررة، الفتح ٢٢/٢٢١.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان، باب من قال: ليؤذن في السفر مؤذن واحد ١/١٥٣، وفي الأدب، باب رحمة

الناس والبهائم، ومسلم في المساجد، باب من أحق بالإمامة برقم ٦٧٤.

(٤) أي: لضيئك.

وفي رواية قال له: "إنك إذا فعلت ذلك هجمت (١) له العين، ونفّثت (٢) له النفس، لا صام من صام الدهر" (٣).

وكما علمت من الحديث السابق "خذوا من الأعمال ما تطيقون".

أما الاجتهاد في العبادة في حدود الطاقة والمداومة عليها فذلك ما كان يرغب فيه صلى الله عليه وسلم ترغيباً حثيثاً، ويطلبه منهم طلباً أكيداً، كما علمت من المباحث التعبدية المارة في بابه.

٢- رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته في الآخرة :

ولم تقتصر رحمته صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من أمته في الدنيا فقط، بل وفي الآخرة أيضاً؛

١ - حيث إنه صلى الله عليه وسلم اختبأ دعوته التي وعده الله تعالى أن يستجيب له فيها قطعاً إلى يوم القيامة، ليدعو بها لأمته، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الشيخين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً" (٤).

قال الإمام النووي: "معناه: أن كل نبي له دعوة متيقنة الإجابة، وهو على يقين من إجابتها، وأما باقي دعواتهم فهم على طمع في إجابتها، وبعضها يجاب، وبعضها لا

(١) أي: غارت ودخلت في موضعها.

(٢) أي: أعييت وكلت.

(٣) أخرجه البخاري في الصيام في عدة أبواب ٥١/٣-٥٣، وأبواب أخرى من كتب متفرقة وبألفاظ مختلفة، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقاً.. برقم ١١٥٩ من عدة طرق.

(٤) البخاري في الدعوات ٨/٨٢، وفي التوحيد، باب المشيئة والإرادة ٩/١٧٠، ومسلم في الإيمان، باب اختباء

النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته برقم ١٩٨.

يجاب، قال: وفي هذا الحديث بيان كمال شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته رأفة بهم، واعتناؤه بالنظر في مصالحهم المهمة فأخر دعوته لأتمته إلى أوقات حاجاتهم^{أهم} (١).

٢ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمِنْ أَتَّبَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [الآية: سورة إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: "اللهم أمّتي أمّتي وبكى" فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما ييكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال - وهو أعلم - فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك" (٢).

فانظر إلى كمال شفقته صلى الله عليه وسلم بأتمته ورأفته بهم ورحمته إياهم، فإن رحمته بهم لم تنفك حتى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لَكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: ٣٤-٣٧]، ويوم يقول كل نبي: نفسي نفسي، وهو صلى الله عليه وسلم مهتم بأتمته ولا يقر عيناً حتى تدخل أمته الجنة، جعلنا الله من أهلها ووالدينا ومشايخنا ومحبينا، وحشرنا في زمرة وتحت لوائه بمنه وكرمه آمين.

٣- رحمته صلى الله عليه بالأهل والعيال:

فإنه صلى الله عليه وسلم كان أرف خلق الله تعالى وأرحمهم بأهله وعياله، بل وغير عياله،

١ - كما قال أنس رضي الله عنه: "ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان إبراهيم - يعني ولده صلى الله عليه وسلم من ما ربه القبطية رضي الله عنها - مسترضعاً له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل

(١) شرح مسلم ٧٥/٣، وانظر فتح الباري ١١٣/٢٣.

(٢) أخرجه مسلم في الشفاعة، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأتمته وبكائه وشفقته عليهم برقم ٣٤٦.

البيت وإنه ليدخن، وكان ظئره - أي: زوج مرضعته - فيأخذه فيقبله ثم يرجع، قال: فلما توفي إبراهيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن إبراهيم ابني وإنه مات في الثدي وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة" (٢).

٢ - وفي حديث آخر عنه رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سيف القين (٣)، وكان ظئراً لإبراهيم، قال: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان، فقال عبد الرحمن بن عوف (٤) رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله (٥)؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "يا ابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى (٦) فقال: "إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا،

(١) الظئر: بكسر الظاء هي المرضعة ولد غيرها، وزوجها ظئر لذلك الرضيع، فيقع على الذكر والأنثى، شرح مسلم ٧٦/١٥.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال وتواضعه برقم ٢٣١٦.

(٣) أبو سيف هو زوج مرضعة إبراهيم، واسمه البراء بن أوس، وكان حدادا، والقين: الإصابة ٩٨/٤.

(٤) الزهري، من السابقين إلى الإسلام، أسلم على يد أبي بكر رضي الله عنهما، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد أهل الشورى الذين عيّنهم عمر رضي الله عنه عند موته، مناقبه كثيرة توفي سنة ٣٢ هـ، انظر طبقات ١٢٤/٣، وتهذيب الأسماء ٣٠٠/١ وغيرهما.

(٥) أي: وأنت تبكي، وقد نهيتنا عن البكاء، لظنه أن ذلك مما شمله نهيه صلى الله عليه وسلم كما وقع في حديث عبد الرحمن نفسه، وقال الطبري: فيه معنى التعجب، والواو تستدعي معطوفاً عليه، أي: الناس لا يصبرون على المصيبة، وأنت تفعل كفعالهم، كأنه تعجب لذلك منه، مع عهده أنه يحث على الصبر وينهى عن الجزع، فأجابه بقوله: إنها رحمة، أي: الحالة التي شاهدها مني هي رقة القلب على المولود لا ما توهمت من الجزع. ا.هـ فتح الباري ٢١١/٦-٢١٢.

(٦) أي: أتبع الدمعة الأولى بدمعة أخرى، وقيل: أتبع الكلمة الأولى الجملة وهي قوله "إنها رحمة" بكلمة أخرى مفصلة وهي قوله: (وإن العين تدمع) فتح الباري ٢١٢/٦.

وإنا لفراقك يا إبراهيم لحزونون" (١) .

٣ - ولقد كانت رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال والأطفال مثار تعجب ودهشة في مجتمعه الذي لم يكن يعهد مثل رحمته صلى الله عليه وسلم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقلنا: نعم، فقالوا: لكننا والله ما نقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أو أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة" (٢) .

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنها أن الأقرع بن حابس (٣) أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه من لا يرحم لا يرحم" (٤) .

٥ - ولقد كانت رحمته بالعيال تحمله على أن يصلّي وهو حامل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، بنت ابنته زينب رضي الله عنها (٥)، إذ كانت جارية، فكان إذا سجد

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب قوله صلى الله عليه وسلم "وإنا بك لحزونون" ١٠٥/٢ ومسلم في

الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان والعيال برقم ٢٣١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانفته ٩/٨، ومسلم في الفضائل، باب رحمته صلى

الله عليه وسلم بالصبيان ... برقم ٢٣١٨ واللفظ له .

(٣) ابن عقال التميمي، شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة، وحينما حصار الطائف، وشهد

مع نخالد بن الوليد فتح العراق والأنبار، وكان شريفا في الجاهلية والإسلام لما حسن إسلامه بعد أن تألفه

النبي صلى الله عليه وسلم بالعطاء الوفير، توفي شهيدا بجوزجان هو والجيش الذي كان معه، وذلك في

زمن عثمان رضي الله عنه. انظر تهذيب الأسماء ١٢٤/١، والإصابة ٥٨/١ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانفته ٩/٨، ومسلم في الفضائل، باب رحمته صلى

الله عليه وسلم بالصبيان ... برقم ٢٣١٩ .

(٥) كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبها كثيرا، تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد وفاة فاطمة

رضي الله عنها بوصية منها، ثم تزوجها بعد علي المغيرة بن نوفل وماتت عنده، انظر أسد الغابة

٢٤٤/٤، والإصابة ٢٣٦/٤، وتهذيب الأسماء ٣٣١/٢ .

وضعها، وإذا قام رفعها كما ثبت ذلك في الصحيحين (١) .

٦ - وكذا فعله مع الحسن بن علي رضي الله عنه كما جاء من حديث عبد الله بن شداد عن أبيه رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتي العشي وهو حامل حسنا أو حسينا، فتقدم النبي صلى الله عليه وسلم فوضعه ثم كبر للصلاة فصلّى فسجد بين ظهرائي صلاة سجدة أطالها، قال: قال أبي: فرفعت رأسي فإذا صبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهرائي صلاة سجدة أطالها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك، قال: «كلُّ لم يكن، ولكن ابني هذا أرغمني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته» (٢) .

فتأمل مبلغ رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال حيث يجعله أن يمكنهم من امتطاء ظهره وهو في الصلاة، فلا يجب أن ينازعهم في ذلك حتى يكونوا هم التاركين له، فمن يتأسى به صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الرحمة اليوم !؟ .

ولذلك لما علم منه الصحابة رضي الله عنهم ذلك المبلغ من رحمته بالصبيان، كانوا يأتونه بالصبيان فيرك عليهم، ويحنّكهم، من غير أن يتحرّجوا من ذلك لعلمهم بحاله صلى الله عليه وسلم في رحمته بالصبيان .

٧ - فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة ١/٢٠٠ ، وفي الأدب ، باب

رحمة الولد وتقيله ومعانفته ٨/٨ ، ومسلم في الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة برقم ٥٤٣

من حديث أبي قتادة .

(٢) أخرجه النسائي في افتتاح الصلاة ٢/٢٢٩ باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، وأحمد في

المسند ٣/٤٩٤ ، والحاكم في المستدرک ٣/١٦٦ ، وصححه ووافقه الذهبي .

يؤتى بالصبيان فيرك عليهم ويحنكهم، فأتي بصبي فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله" (١) .

٨ - وأتت أم قيس بنت محصن (٢) بابل لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه في حجره فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه ولم يغسله (٣)، ولم يتبرم عليه الصلاة والسلام من بوله ولا ثرب ولا عنف من أتى به .

٩ - وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعطني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: "اللهم ارحمهما فإني أرحمهما" (٤) .

على هذا النحو كانت رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال، والشواهد على ذلك غير ما ذكر كثيرة مشهورة .

وأما رحمته صلى الله عليه وسلم بالأهل فلعلها قد علمت من مبحث تواضعه من خلال ما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم في بيته من أعمال خدمة لأهله ومعونة معهم، حيث كان صلى الله عليه وسلم يخيظ ثوبه ويخسف نعله، ويعمل ما يعمل

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب وضع الصبي في الحجر ١٠/٨، وفي العقيقة، باب تسمية المولود ...

وتحنيكه ١٠٨/٧، ومسلم في الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله برقم ٢٨٦ .

(٢) أخت عكاشة بن محصن، كانت ممن أسلم قديماً بمكة، وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن رسول

الله صلى الله عليه وسلم كما في نص رواية مسلم السابقة، دعا لها النبي صلى الله عليه وسلم بطول

العمر، قال الراوي: فلا نعلم امرأة عمرت ماعمرت، انظر: الإصابة ٤/٤٨٥، والاستيعاب بهامشها

كذلك .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء، باب بول الصبيان ٦٣/١، ومسلم في الطهارة، باب حكم بول الطفل

الرضيع برقم ٢٨٧ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب وضع الصبي على الفخذ ١٠/٨، والإمام أحمد في المسند ٢١٠/٥

واللفظ للبخاري، ولفظ أحمد "اللهم إني أحبهما فأحبهما" .

الرجال في بيوتهم كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (١)، وعندما سئلت عما كان يصنع في أهله ؟ قالت يكون في خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة (٢) .

وقد تقدم بيان كل ذلك في مبحث تواضعه لعلاقتها هناك فلا حاجة لإعادتها فتتظر هناك .

ج- رحمته صلى الله عليه وسلم بضعفاء المسلمين :

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رحمته بضعفاء المسلمين من المساكين واليتامى والأرامل ونحوهم من المنكسرة قلوبهم في هذه الحياة .

فلقد كان لهذا الفريق من المسلمين عناية خاصة ونظرة حانية من قلبه الرؤوف الرحيم، إضافة إلى أن الله تعالى قد وصّاه بهم خيرا وأرشده في آيات كثيرة إلى ما ينبغي أن تكون عليه معاملتهم لتستن به أمته من بعده، حيث قال الله تعالى له صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف: ٢٨] ، وذلك حينما طلب منه أشراف قريش أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخبّاب وابن مسعود لاستئنائهم عن مجالستهم (٣)، فطمع النبي صلى الله عليه وسلم في إيمانهم، وأراد أن يجيبهم اتكالا على إيمان أصحابه، فنهاه الله عن ذلك بهذه الآية (٤) .

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه في مبحث التواضع ص ٤٥٧

(٢) حديث صحيح تقدم تخريجه في مبحث التواضع ص ٤٥٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨٠/٣ .

(٤) أخرج مسلم رحمه الله في فضائل الصحابة رقم ٢٤١٣ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في =

وأرشده في آية أخرى إلى ما ينبغي أن تكون عليه معاملة اليتيم فقال جل شأنه في خطابه له: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [سورة الضحى: ٩، ١٠] .

فلذلك أولاهم النبي صلى الله عليه وسلم كامل رحمته وعظيم تحننه ورأفته ؛

١ - "فكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته" كما جاء في حديث النسائي وغيره (١) .

٢ - وعن سهل بن حنيف (٢) رضي الله عنه «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم» (٣) .

٣ - وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : « إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتلق به حيث شاءت » (٤) .

= نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فأُنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [سورة الأنعام: ٥٢] .

(١) ^{وهو} أحسن أو صحيح لا تقدم في الذكر ص ٣٦٤ .

(٢) ابن وهب الأنصاري، شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفي سنة ٣٨ هـ، بالكوفة وصلى عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر طبقات ابن سعد ٣/٤٧١، وتهذيب الأسماء ١/٢٣٧، والإصابة ٢/٨٧ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢/٤٦٦، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٨٧٧ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب الكبر ٨/٢٤ .

وهذا من كمال رأفته ورحمته بالضعفة هؤلاء، وإلا فقد كان عليه الصلاة والسلام كامل العز في نفسه بحيث إذا جد الجدد فهو الإمام المقدام، ولا يقوم لعزمه أحد ،
٤ - ولقد كان من كمال رحمته بهؤلاء الضعفة أنه كان إذا صلى الغداة جاء خدام المدينة بأنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، قال: فرمما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها» (١) وذلك للتبرك به صلى الله عليه وسلم .

وما كان صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك إلا لكمال رأفته بهم، ليطيب نفوسهم وإن كان في ذلك عناء له من شدة البرد في الشتاء، كما يعلمه من يعرف برد المدينة، وفي هذا ما يوجب التأسي به صلى الله عليه وسلم في أحوال الضعفة من المسلمين؛ لأن الأمة معنية باقتفاء آثار نبيها في كل شيء سوى ما خص به عليه الصلاة والسلام .

تبيينه صلى الله عليه وسلم لأمته مكانة هؤلاء الضعفاء عند الله تعالى :

وقد كان صلى الله عليه وسلم يبين مكانة هؤلاء الضعفاء عند الله تعالى، وعظيم فضلهم ومنزلتهم لديه سبحانه ليرغب أمته على مزيد رحمتهم وإكرامهم، وأحاديثه صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة :

١ - منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه «أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد، أو قال: شابا، قال: ففقدتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنها، أو عنه، فقالوا: مات، قال: "أفلا كنتم آذنتموني" فكانهم صغروا أمرها أو أمره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دُلُونِي عَلَى قَبْرِهِ، فدلوه فصلى عليها، ثم قال: "إن القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله تعالى ينورها لهم بصلاتي عليهم" (٢) .

٢ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له:

(١) أخرجه مسلم وتقدم في مبحث التواضع ص ٤٥٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الصلاة على القبر بعد ما يدفن ١١٣/٢، وفي الصلاة ١١٧/١، ومسلم

في الجنائز، باب الصلاة على القبر برقم ٩٥٦، واللفظ لمسلم .

"هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم" (١) .

٣ - وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:
"إبغوني (٢): ضعفاءكم فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم" (٣) .
إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تدل على فضلهم، وترغب الناس في
الإحسان إليهم والرحمة بهم .

ثانياً: رحمته صلى الله عليه وسلم بالكافرين :

أما مظهر رحمته صلى الله عليه وسلم بالكافرين، فذلك برفع عذاب الاستئصال عنهم
في الدنيا، كما كان يجري للأمم السابقة التي تكذب أنبياءها ورسلاها، كما قص الله
تعالى من أخبار قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم .
أما كفار هذه الأمة فإن الله قد أنالهم نصيباً من الرحمة المهداة، حيث أمتهم من عذاب
الاستئصال كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وما كان الله ليُعَذِّبهم وأنتَ فيهم وما كان الله
مُعَذِّبهم وهم يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٢٣] وما ذلك إلا تكربة لهذا الرسول الكريم الذي
أرسله الله تعالى رحمة للعالمين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]
قال: "من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله
ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف" (٤) .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ٤/٤٤، والنسائي في الجهاد،
باب الاستنصار بالضعيف ٦/٤٠ .

(٢) أي: اطلبوا .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في الانتصار برقم ٢٥٩٤، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في
الاستفتاح بصعاليك المسلمين برقم ١٧٠٢، والنسائي في الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف ٦/٤٥، ٤٦،
وقال الترمذي عنه: حسن صحيح .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره بسنده إليه ١٧/١٠٦، وذكره ابن كثير في تفسيره ٣/٢٠٢ وعزاه لابن أبي
حاتم من طريق آخر، وذكر أيضاً ما عزاه إلى الطبراني مسنداً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله
عنهما، قوله: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يتلى به سائر الأمم
من الخسف والمسخ والقذف .

وقد كان من رحمته صلى الله عليه وسلم بهم أنهم آذوه وقتلوه وشجوا وجهه الشريف وكسروا رباعيته، فعرض عليه إهلاكهم فقال: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً" (١) وطلب منه أن يدعو عليهم فقال: "إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة" (٢) .

ولم تقف رحمته عند الإعراض عن أذيتهم، والعفو والصفح عنهم، والحلم عن جهالاتهم، بل إنها تعدت ذلك إلى حد الحرص العظيم على هدايتهم، وإبعادهم عما يوجب لهم عذاب الله وأليم عقابه، إذ لم يفتأ يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ليجنبهم بذلك ما لا طاقة لهم به من العذاب .

ولم يزل ذلك دأبه صلى الله عليه وسلم، ودأبهم معه حتى أجهد بدنه، وأتعب نفسه حتى عاتبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَنْ لَا يُكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٣] ، والمعنى: أشفق على نفسك أن تقتلها، فإن الهداية ليست بيدك، ولكنها بيد الله، كما قال في آية أخرى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة فاطر: ٨] .

ثالثاً، رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان :

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان .

لقد سبقت الإشارة إلى أن عموم رحمته صلى الله عليه وسلم تقتضي أن تكون للحيوانات

حظ منها، لمقتضى الدلالة اللفظية، ولأن الدلائل النقلية تؤيد ذلك :

فلقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم تحنُّنٌ على الحيوانات، ورحمة ورأفة لم تعرفها البشرية لأحد غيره، حيث كان يرأف بها بنفسه، ويوصي بذلك أمته حتى رقت لها أفئدتهم ورأف بها عتاتهم، وكم في ذلك من شواهد ودلائل، وإليك طرفاً منها :

(١) تقدم تخريجه ٨٣ -

(٢) تقدم أيضاً ٦٤ -

(٣) أي: قاتل نفسك .

١ - فعن سهل بن الحنظلية^(١) رضي الله عنه قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لحق ظهره ببطنه - يعني من الجوع - فقال: "اتَّقُوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة"^(٢) .

٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمْرَةً^(٣) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمْرَةُ فجعلت تفرش^(٤)، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها" قال ورأى قرية أحرقناها فقال: "من أحرق هذه؟ فقلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يُعذب بالنار إلا ربُّ النار"^(٥) .

٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم أن تتخذوا دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم"^(٦) .

٤ - ودخل يوما حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي صلى الله عليه

(١) الحنظلية أمه، وقيل: هي أم جده، وهو سهل بن الربيع بن عمرو الأنصاري الحارثي الأوسي، كان ممن بايع تحت الشجرة، وكان فاضلاً عالماً معتزلاً عن الناس، كثير الصلاة والذكر، لا يجالس أحداً، سكن الشام، مات بدمشق في أول خلافة معاوية، ولا عقب له. اهـ، انظر الاستيعاب ٩٥/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم برقم ٢٥٤٨ بإسناد صحيح كما قال الإمام النووي في رياض الصالحين ص ٣٥٣ باب أدب السير والنزول والمبيت .

(٣) هي نوع من العصافير، أحمر اللون .

(٤) أي: تفرش جناحيها وتقرب من الأرض وترفرف .

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب كراهية حرق العدو بالنار برقم ٢٦٧٥، وفي الأدب، باب في قتال الذر برقم ٥٢٦٨، وأحمد في المسند ٤٠٤/١، والحاكم في المستدرک ٢٣٩/٤، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه

الذهبي .

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد برقم ٢٥٦٧، وإسناده صحيح كما قال الألباني في الصحيحة برقم ٢٢ .

وسلم حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه (١) فسكت، فقال: "من ربّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدبّيه" (٢) أي: تتعبه في العمل .

فهذه التوجيهات النبوية مفعمة بالرحمة والرأفة بالحيوانات التي ما كانت لتعلم لولا بيانه صلى الله عليه وسلم، وما كنت البهائم ستنال حظها من الرحمة لولا ذلك .

ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم أساليب أخرى في الإبانة عن رحمته بالبهائم لأتمته للتأسى به في ذلك، وذلك بإخباره صلى الله عليه وسلم ما يترتب على الرحمة بالحيوانات من الثواب والأجر والمغفرة، وما يترتب على عدم ذلك من العقاب .

١ - ومن أخباره صلى الله عليه وسلم عما يترتب على الرحمة من الثواب وذلك في أحاديث كثيرة ومنها :

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث (٣) يأكل الثرى (٤) من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل كبدٍ

(١) أي: أصل أذنيه .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم برقم ٢٥٤٩، والحاكم

٩٩/٢، وأحمد في المسند ٢٠٤/١ من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما وقال الحاكم: صحيح

الإسناد على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأصله في مسلم دون قصة الجمل .

(٣) أي: يخرج لسانه من شدة العطش والحر .

(٤) أي: الزراب الندي .

رُطْبَةُ أَجْرٍ (١) .

٢ - ومن أخباره صلى الله عليه وسلم عما يترتب على عدم الرحمة بالحيوانات من العذاب ما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من نخشاش الأرض" (٢) .

وضع الرحمة في مكانها المناسب :

ومع ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الرحمة والرأفة في كل شئونه ومع الخلق كافة إلا أن من يتعدى حدود الله وينتهك محارمه فيبلغه أمره لم يكن له حظا من رحمته صلى الله عليه وسلم عملا بقول الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ...﴾ [سورة النور: ٢] فكان يقيم الحد عليهم قصاصا أو رجما أو قطعاً أو جلداً أو صلباً، لا تأخذه بهم رأفة في دين الله تعالى، وهذا ما يرشد إليه العقل السليم كما قال الشاعر :

فقسى ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

ذلك لأن المجتمع الذي يهدف إلى إصلاحه هو أحق بالرحمة من الواحد الذي هو نفسه بحاجة إلى التطهير .

على أن تطهيره بإقامة الحد عليه هو في حد ذاته رحمة به، لما ينال به من التطهير من دنس المعصية، ودرأ عذاب الله تعالى الذي لولا إقامة الحد عليه لأصابه، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة بل لا مقارنة بينهما .

(١) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه منها في الأدب، باب رحمة الناس والبهائم ١١/٨، ومسلم في

السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها برقم ٢٢٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري في مواضع منها في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢١٥/٤، ومسلم في البر، باب

تحريم تعذيب الهرة برقم ٢٢٤٢ .

وحشاش الأرض: هي هوامها وحشراتنا .

ألا ترى إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في حق ماعز الذي أقام عليه حد الزنى: "لقد تاب توبة لو قُسمت بين أمة لوسعتهم" (١) وما قاله في حق الجُهنية التي أقام عليها حد الزنى: "لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم" (٢) ومعلوم أن التوبة تغسل الحوبة، فرفع وبال معصيتهم، وتطهيرهم من وحل المعصية، وما يترتب عليها من العذاب الأليم في حقيقته رحمة؛ لأن ذلك هو أخف الضررين .

مع أن عاطفة الرحمة قد كانت تغالبه صلى الله عليه وسلم عند إقامة الحدود فيهم، فكان يفسح لهم المجال، وذلك بالأساليب التي كان يتخذها مع من كانوا يبادرون بطلب تطهيرهم بإقامة الحد الشرعي عليهم، حيث كان صلى الله عليه وسلم لا يبادر بإقامته بمجرد الاعتراف، بل لقد كان يتفحص أحوالهم النفسية، ويحاول أن يجد لهم مخرجا من صارم العقوبة التي ستحل بهم، وينكر على أصحابه إذا لم يكتفوا بالحدود من تكذيب نفسه، كما هو ثابت معلوم .

١- فقد ردَّ صلى الله عليه وسلم ماعزا مرارا قبل أن يستفصله عن حقيقة ما يقول، فلما أصر على طلب إقامة الحد سأل قومه عنه: "أبه جنون؟" فقالوا ما نعلم به بأسا إلا أنه أصاب شيئا يرى أنه لا يُجزئه منه إلا أن يقام فيه الحد.

٢- ورد الغامدية كذلك ثم قالت له: "لم تردني؟ لعلك تردني كما رددت ماعزا؟ فوالله إني لحبلى، فقال لها: "إمّا لا فاذهبي حتى تلدي"، فلما ولدت قال لها: "اذهبي فأرضعيه حتى تطفميه" فلما فطمته أته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يانبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، ولما سبها خالد قال له صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له" ثم أمر بها فصلي

(١) أخرجه مسلم وتقدم في مبحث التوبة ص ٢٢٢

(٢) أخرجه مسلم وتقدم أيضا في مبحث التوبة ص ٢٢٣

عليها ودفنت (١) .

٣- وفعل صلى الله عليه وسلم نحو ذلك مع الرجل الأسلمي فلما شهد على نفسه أربع شهادات قال له: «أَنْكِتْهَا؟» بصريح العبارة لا يَكْنِي، قال: نعم، قال: «حتى غاب ذلك منك في ذلك منها؟» قال: نعم، قال: «كما يغيب الميل في المكحلة، والرشاء في البئر؟» قال: نعم، قال: «هل تدري ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من أهله حلالا، قال: «فما تريد بهذا القول؟» قال: «إني أريد أن تطهرني، فأمر به فرجم... الحديث (٢) .

٤ - وجاء في بعض روايات قصة ماعز أنه لما ذَلَّقَتْهُ (٣) الحجارة، وفي رواية: فلما وجد مَسَّ الحجارة فرَّ يشتد، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال: «هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّه أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ» (٤) .

٥ - وفي بعض روايات قصته أيضا قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لَعَلَّكَ قَبَلْتَ، أَوْ غَمَزْتَ، أَوْ نَظَرْتَ؟» قال: لا يا رسول الله، قال: «أَنْكِتْهَا؟» لا يَكْنِي، فعند ذلك أمر برجمه (٥) .

إلى غير ذلك من وقائع الأحوال التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يحاول فيها رحمة

(١) ساق مسلم قصتها مع سياق قصة ماعز، وقد تقدمت الإشارة إليه، وأخرجها أبو داود منفصلة في باب

المرأة التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم برجمها من جهينة برقم ٤٤٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في المحارين، باب سؤال الإمام المقر ٢٠٧/٨، ومسلم في الحدود، باب من اعترف على

نفسه بالزنا برقم ١٦٩١، وأبو داود في الحدود، باب ما جاء في رجم ماعز برقم ٤٤٢٨، واللفظ له،

وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أي: أجهدته وأتعبته، يقال: أذلَّقه الأمر إذا بلغ منه الجهد والمشقة حتى قلق .

(٤) هي إحدى روايات أبي داود والترمذي .

(٥) هذه رواية البخاري في المحارين، باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت ٢٠٧/٨، ومسلم في

إحدى رواياته .

أولئك المعترفين بارتكاب الحدود كي لا تطبق عليهم الأحكام إلا بعد التيقن التام، ليعلم أمته درأ الحدود بالشبهات، ويبين لهم رغبة الشارع في حفظ المهج والأطراف والستر على الأعراض، وذلك لكمال رحمته صلى الله عليه وسلم بهم .

فترى أن إقامته صلى الله عليه وسلم للحدود كانت مليئة بالرحمة والعطف، من غير إهدار لها؛ لأنه إذا ثبتت الجرائم وُرفعت إلى الحاكم فلا بد لرحمة المجتمع كله من تطبيق العقوبات .

كما كان عليه الصلاة والسلام يقول: "تعافوا الحدود (١) فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب" (٢) .

وكما قال لمن رفع إليه حد سرقة، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقطع يده، فقال: "إني لم أُرِدْ هذا يا رسول الله وهو عليه صدقة، فقال صلى الله عليه وسلم: "فهلّا قبل أن تأتيني به" (٣) .

فكانت الحدود إذا بلغته أقامها مع الرأفة والرحمة في تنفيذها، والتماس المخارج لأصحابها خشية أن يخطيء في العقوبة، لأن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة. وهذه هي الرحمة الغامرة من الرؤوف الرحيم صلى الله عليه وسلم .

(١) أمر بالعفو وهو التجاوز عن الذنب، أي: أسقطوا الحدود فيما بينكم ولا ترفعوها إلي .

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان برقم ٤٣٧٦، والنسائي في السارق،

باب ما يكون حرزا وما لا يكون ٧٠/٨ من حديث عبد الله بن عمرو بإسناد حسن .

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود، باب من سرق من حرز برقم ٤٣٩٤، والنسائي في السارق، باب الرجل

يتجاوز للسارق عن سرقة بعد أن يأتي به الإمام ٧٠/٨ من حديث صفوان بن أمية وصححه الألباني في

إرواء الغليل ٣٤٥/٧ .

المبحث الخامس

(خلق الكرم)

الكرم في اللغة: ضد اللؤم (١) .

وهو في الاصطلاح: "إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلا كان أو كثيرا" (٢) .

وقال الراغب: "الكرم إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، قال: ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه" (٣) .

فهو بهذا المعنى أعم مما ذكره غيره من تخصيصه بالعطاء، إذ جعله شاملا للنوال وسائر كرائم الأفعال والأقوال، فهو "جامع لمكارم الأخلاق، فكل خصلة من خصال الخير، أو نخلة من خلال البر، أو سجية تضاف إلى محاسن الطباع والأعراف، يصدق عليها اسم الكرم" (٤) .

ولا بدع فإن صاحب الخلق الكريم يكون كريما في أخلاقه الذاتية والاجتماعية، إذ كرم نفسه يأبى عليه خلاف هذه الحقيقة، وما كرم النوال إلا صورة لكرم النفس، ومن هنا سُميت الأخلاق الحسنة بمكارم الأخلاق، وقد أشار إلى ذلك كله قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣] .

فجعل الله تعالى أكرم المؤمنين هم المتقين، والتقوى: اسم جامع لكل معاني البر والخير.

غير أن الذي يعيننا ذكره هنا هو كرم النوال والعطاء، إذ هو المشهور عند الإطلاق العام لهذا الخلق، وهو الخلق الذي كان له عناية كبرى في القرآن الكريم أمرا به وحضا عليه وتنويها بأهله، ونهيا عن ضده وهو البخل واللؤم، وذما لهم في آيات كثيرة من

(١) الصحاح للجوهري ٢٠١٩/٥، والقاموس المحيط ١٧٠/٤ .

(٢) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ١٦٨ .

(٣) المفردات ص ٤٢٨ .

(٤) الخلق الكامل ل محمد أحمد جاد المولى ٢٦٠/٤ .

القرآن الكريم ، وذلك وإن لم يكن من مادة الكرم، فإنه مما يدل عليه من الألفاظ الأخرى المؤدية لمعناه كالإنفاق والأحسان والإيتاء ونحوها كما ستعلمه فيما يأتي:
الأمر به :

أما الأمر به ففي مثل قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شُفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٤] .
ففي هذه الآية يأمر الله تعالى عباده الذين بأيديهم ما ينفقون منه أن يبدلوه للمحتاجين إليه ولا يمسكونه بأيديهم، وأخبرهم بأن ما ينفقونه اليوم هو زاد لهم لذلك اليوم الذي تنقطع فيه الوسائل التي يمكن للمرء أن ينفع بها نفسه من مال أو صدقة أو شفاعاة، وفي هذا الأسلوب من الحث على الكرم ما يحمل عليه بلا تردد، فضلا عن الأمر الصريح الذي صدرت به الآية، ومقتضى الأمر للوجوب، وهو شامل لما يجب إنفاقه كالزكاة وما يندب كالصدقة.

فهو أمر يحمل على الكرم والتحلّي بهذا الخلق الكريم ما دام المرء قادرا على أن يتحلّى به، بامتلاكه ما يقدر على إنفاقه .

والآيات الآمرة بالإنفاق غير هذه كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ...﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧] .

وهذه الآية تشترط أن يكون الإنفاق لله، والله طيب لا يقبل إلا طيبا، كما أنها وسّعت دائرة ما ينفق منه، حيث نصّت على وجوب الإنفاق مما يخرج من الأرض من أصناف الزراعة، لأن الحاجة إلى ذلك داعية كالحاجة إلى النقد ونحوه.
ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ﴾ [سورة ابراهيم: ٣١] .

ومنها قوله تقدّس شأنه: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة المنافقون: ١٠] .

فإن هذه الآيات تحث على الإنفاق وبالغ الكرم بهذا الأمر المتضمن الترهيد في الدنيا

والترغيب في الآخرة، مما يحمل على المبادرة إلى مضمونه من غير تردد عند من يلقي السمع وهو شهيد .

إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالإِنْفَاق^٩، وَالْإِنْفَاقُ ابتغاء مرضاة الله تعالى هو الكرم بعينه، لأنه يكون بسماحة نفس وسخاء، ولا يصحبه من ولا أذى .

الحض على الكرم :

أما الحض على الكرم في القرآن الكريم ففي آيات كثيرة، وهي الآيات التي ترغّب في الإِنْفَاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله سبحانه، وذلك كآيات التي تدل على عظيم أجر الإِنْفَاق في سبيل الله تعالى كقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١] وفي هذه الآية الكريمة من الحض على الإِنْفَاق ما لا يتوانى عند سماعه موقن بوعد الله موفق للخير، حيث إن الله تعالى وعد المنفق في سبيله - وسبيله هي طاعته في أنواع البر والقربات - وعدهم ذلك الجزاء العظيم الذي يضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلم عددها إلا الله تعالى .

لا جرم أن المؤمن بالله تعالى واليوم الآخر عندما يعلم هذا ينفق الجزل ويعطي الكثير، طلباً لأجر ذلك اليوم الذي يضاعف فيه الأجر إلى تلك الأضعاف البالغة حدا لا يوصف ولا يعد، ولا يبقى في نفسه تردد، ولا يدخر وسعاً في البذل إن كان له حظ من التوفيق . والآيات الواعدة بمثل هذا الأجر العظيم كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٦] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سورة سبأ: ٣٩] .

ولذلك نرى أن آيات أخرى تجعل المؤمن هو المسئول عن نفسه في المسابقة إلى هذا الأجر في ذلك اليوم إن هو أكرمها أو ضيعها وذلك كقوله جل شأنه: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٢] .

أي: إن إنفاقكم هو لنفع أنفسكم لأن الله تعالى يوفي لكم الأجر إن أنتم أنفقتم ابتغاء وجهه، ثم لا تظلمون شيئاً مما قدمتموه عن أجره الوفير الكثير .

ومن الآيات الحاضرة على الكرم تلك الآيات التي تجعل بذل المرء ابتغاء رضوان الله تعالى قرضاً لله جل وعلا يوفيه إليه وهو أحوج ما يكون إليه، وذلك كقوله تعالى:

﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٥] .

وفوله سبحانه: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ [سورة الحديد: ١١] ، وقوله سبحانه: ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً

يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ [سورة الحديد: ١٨] . إلى غير ذلك من الآيات .

فترى أن الله تعالى جعل الإنفاق في سبيله قرضاً حسناً، والقرض الحسن يستلزم القضاء فإذا أقرض المرء كريماً، كان قضاؤه موفوراً أحسن من القرض، فكيف به إذا أقرض أكرم الأكرمين؟ ولقد نص سبحانه على أنه سيكون مضاعفاً إلى أضعاف كثيرة، وأن مقرضه سيكون له أجر كريم، فلم يحدد قدر القضاء، ولا كمية الأجر؛ لأنه فوق ما يتصوره المرء، لكونه قضاء وأجراً من أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى، فيكون بقدر كرمه لا بقدر من يعطيه من المؤمنين .

وهذا الأسلوب يحمل على بالغ الكرم وقصاراه، إن صادف مؤمناً بالله واليوم الآخر ووعده ووعيده؛ لأن الله تعالى قد ضمن للبازل ماله القضاء المضاعف والأجر الكريم .

التنويه بأهل الكرم :

لقد كان تنويه القرآن بأهل الكرم عظيماً بحيث لم ينله فيما أعلم صاحب أي خلق كريم آخر على انفراده، وذلك لأن هذا الخلق يجمع مكارم الأخلاق كما علمت قبل .

لذلك كان تنويه القرآن الكريم بالمتحلين به بالغاً مبلغاً عظيماً،

وقد كان هذا التنويه من أول القرآن الكريم حيث يقول سبحانه في مستهل ثاني سورة بعد البسملة: ﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون

بالغيب وقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ [سورة البقرة: ١-٥]، فوصف المتقين بالإيمان بالغيب،

والمقيمين الصلاة، والمنفقين مما رزقهم الله، والمؤمنين برسل الله وباليوم الآخر، وصفهم بثلاث صفات هي التقوى والهداية والفلاح، وذلك على سبيل التنويه والإشادة، حيث كان على سبيل القصر الدال على تمكن تلك الصفات فيهم .

وإنفاق العبد مما رزقه الله تعالى وعدم تحجره عليه سواء كان واجبا أو مندوبا هو عين كرمه إذ لو كان بخيلا لثيما لما طوعت له نفسه وهي قد جبلت على الشح أن ينفق من ماله قليلا أو كثيرا، ولكن لما كان يغلب نفسه على الإنفاق، فذلك دليل على أن خلق الكرم مهيمنا عليها، فكان جديرا بالثناء .

وكم في القرآن الكريم من ثناء عليهم من غير هذه الآية كمثل قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [سورة البقرة: ٢٦٢] .

وقوله سبحانه: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٤] .

وقوله: ﴿... والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويद्रؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [سورة الرعد: ٢١-٢٤] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في مختلف سور القرآن الكريم مكية ومدنية .

ذم البخيل :

وكما كان حديث القرآن العظيم عن الكرم كثيرا ومستفيضا، فكذلك كان حديثه عن نقيضه وهو البخل كثيرا، وذلك على سبيل النهي عنه، والذم له ولأهله لما يعنيه من رذالة في الأخلاق متمثلة في الشح على المال والجشع على المادة، وعدم الوثوق بوعد الله ووعيده المترتب على الإنفاق والبخل .

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٠] .

ففي هذه الآية ينعى الله تعالى على أهل البخل بخلهم، ويبين لهم ما يؤول إليه أمر المال الذي بخلوا به من أنه ينقلب عليهم بالشر والسوء من حيث لا يشعرون، في الوقت الذي كانوا يظنون أن الخير فيه، وفيها من الوعيد الشديد على البخل ما لا يطاق وصفه، حيث إن أموالهم تلك تُطَوَّقُ بها أعناقهم يوم القيامة فيعذبون بحملها مع ما يضخم الله تعالى جرم تلك الأموال ووزنها كما جاء في الحديث: "من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين" (١) .

وهذه الآية يوضحها أيضا قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [٣٤، ٣٥] .

فانظر ما في هذه الآية من هول الوعيد والعقاب الشديد المترتب على البخل، وإن كان هذا فيمن لا يؤدي الزكاة، إلا أن الذي يحمل على ذلك هو البخل، فهو السبب في إكساب صاحبه ذلك المصير المؤلم، إذ لو كان جوادا كريما لما بخل بما أوجبه الله تعالى. فتبين أنه أدواء الداء وعضل البلاء الذي يكسب صاحبه سوء الجزاء، ولذلك كان الإنسان مسئولا عن نفسه إن هو أوبقها بهذا الخلق الدنيء الذي يُورده تلك الموارد الموبقة، وقد حمّله القرآن الكريم مسئولية ذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٨] .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ماجاء في سبع أرضين ١٣٠/٤، ومسلم في المساقاة، باب تحريم الظلم

وغضب الأرض وغيرها برقم ١٦١٢ من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها .

والمعنى: أن وبال بخله عائد عليه فلا يلومن إلا نفسه عندما يلاقي الجزاء السيء والمصير المؤلم، إذ كان بوسعه أن يزكّي نفسه ويطهرها من دنس البخل وسيُكرم غاية الإكرام كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَسُجِّنَبُهَا الْأَتَقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ [سورة الليل: ٥-١٨] .

ولكنه لما رضي بالبخل والشح نخيذة، واللؤم غريزة، فعليه أن يوطن نفسه لآثار ذلك ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء: ٨٨، ٨٩] .

نسأله تعالى أن يهدينا لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنا سيئها فلا يصرف عنا سيئها إلا هو، وأن يزكّي أخلاقنا ويطهرها من البخل والشح وسائر مساوئ الأخلاق بمنه وكرمه .

تمثل خلق الكرم

في النبي صلى الله عليه وسلم

ولئن كان الكرم جامعا لمكارم الأخلاق، فإن الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون تمثلاً لهذا الخلق فيه بالغاً مبلغ الكمال والعظمة؛ لأن كل مكارم الأخلاق فيه قد كانت كذلك، وكرم النوال أولى أن يكون أوفى وأكمل في جنبه العظيم، وذلك ما يدل عليه شهادة الله تعالى له بعظمة الخلق عموماً، وبالكرم خصوصاً، فقد قال الله جل ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤]، وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ...﴾ [سورة الحاقة: ٣٨-٤١] .

فوصف الله تعالى نبيه الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات التي أقسم فيها بالمشاهدات والمغييات على صدق ما جاء به من عند الله تعالى، وصفه بالكرم دون غيره من أخلاقه العظيمة كالصدق والأمانة ونحوها، وذلك لتكون كل تلك الأخلاق مندرجة فيه، فأخلاقه كلها عظيمة كريمة، ومن ذلك كرمه في البذل والعطاء والإنفاق والجود والسخاء، وهو ما كان معروفاً به من قبل أن يأتيه وحى السماء .

١ - فقد وصفته خديجة رضي الله عنها بقولها: "إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ، وَتُكْسِبَ (١) الْمَعْدُومَ، وَتُقْرِى الضَّيْفَ، وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" (٢) .

وهذه الأخلاق كلها ناشئة عن بالغ الكرم وعظيم الجود، إذ هي كلها تعني البذل والعطاء في هذه الخلال الحميدة .

فصلة الرحم، وحمل الكَلَّ "وهو الثقل من كل ما يتكلف من عيال ونحوهم" (٣) للغير

(١) بضم أوله وكسر ثانيه كما هي إحدى روايات الحديث، وهو الأوجه في ضبطها كما رجحه النووي في

شرح مسلم، ومعناها: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك .

(٢) متفق عليه وتقدم ص ٦١

(٣) النهاية ١٩٨/٤ .

أو للنفس، وإكساب الناس ما لا يوجد عند غيره من نواذر الأموال والمتاع وعزيزه ونفيسه، وقِرَى الضيف بكريم الطعام، وإعانة الناس على مصائب الدهر ونوازل الأيام، كل ذلك ناشئ عن عظيم الكرم، وبالغ الجود والعطاء .

فهي تصفه بهذه الصفات البالغة عظمة وخطورة التي كان عليها قبل بعثته ورسالته، ولم يكن قد تحمّل أعباء أمته، ولا قد أضفت عليه النبوة زيادة كمال وعظمة، فكيف به بعد ذلك كله؟ ألا جرم أن كرمه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك سيكون بالغاً ذروة الدُّرى في كرم الأنبياء وسائر البشر، وهو ما دلّت عليه الدلائل النّقلية الكثيرة .

وصف الصحابة رضي الله عنهم جود رسول الله صلى الله عليه وسلم:

١- فقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجودّ الناس وكان أجودّ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريلُ، وكان يلقى جبريل في كلّ ليلة من رمضان فيُدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجودّ بالخير من الريح المرسلة" (١) .

والمعنى: أن جود رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يُضاهى، ولم يكن أي جواد يباري رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما بلغ جوده واشتهر، لا سيما إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان حينما يدارسه جبريل القرآن، الذي جاء به من عند ربه، والذي كان يتمثل أخلاقه ويُسارع إلى تطبيقه فكان كأنه قرآن يمشي على الأرض، وهو يحث على الإحسان والكرم والمسارة إلى البذل والعطاء، وسائر مكارم الأخلاق، فيتجدد عندئذ العهد بمزيد غنى النفس، لا سيما في ذلك الموسم العظيم موسم الخيرات الذي تزداد فيه نعم الله على عباده، فيزداد الشاكرون لها شكراً، فكان جود رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ أسرع من الريح (٢) .

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٦/١، ومسلم في الصلاة، باب الاستماع للقراءة برقم ٤٤٨ .

(٢) انظر فتح الباري ٦٨/١، ولطائف المعارف لابن رجب ص ١٩٥ .

٢ - وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وكان أجود الناس وكان أشجع الناس.." (١) .

٣ - وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "ما رأيت أحدا أجود ولا أنجد ولا أشجع ولا أَرْضَى من رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٢) .

٤ - وقال جابر رضي الله عنه: "ما سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا" (٣) يعني: لا يرد سائله ويقول له: لا أعطيك، بل يُرحب به، ويعطيه سؤله، أو ما يقدر عليه، أو يعده، أيا كان حاله موسرا أو معسرا .

٥ - وقال أنس رضي الله عنه: "ما سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئا إلا أعطاه" (٤) .

هكذا يقول الصحابة رضي الله عنهم عن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقوالهم في ذلك كثيرة إذ ماترك منها أكثر مما ذكر، ومنها تعلم أن جود رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالغ كرمه كان مستفيضا عند أصحابه، يشاهد كل منهم ذلك الكرم الفياض في سائر أحواله فنقلوه إلينا حتى بلغ مبلغ التواتر، وهذه الشهادات الخيرية تبين مدلولها، ويوضح معناها، الوقائع والأحوال التي كانت تجري منه صلى الله عليه وسلم في الجود والعطاء في مختلف الأحوال، وقد نقل إلينا من ذلك في دواوين السنة وكتب الشرائع الكثير الطيب، سنأتي على ذكر بعض منها الآن :

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الحمائل وتعليق السيف ٤/٤٧، وفي الأدب ٨/١٦، ومسلم في الفضائل،

باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة برقم ٢٣٠٨ واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الإخلاص برقم ٨٨، والدارمي في سننه ١/٥٩، ورجال إسناده ثقات، ويشهد له أيضا الأحاديث المذكورة قبله .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ٨/١٦، ومسلم في الفضائل،

باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا، برقم ٢٣١١ .

(٤) أخرجه مسلم في الباب السابق برقم ٢٣١٢ .

شواهد ووقائع أحواله صلى الله عليه وسلم في الكرم :

تلك هي الدلائل الخيرية المبنية على الاستقرار والتتبع لأحواله صلى الله عليه وسلم، والخيرة الكاملة بها، وهي كافية لمعرفة مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم وكمال جوده وعظيم سخائه من غير امتراء .

غير أننا بحاجة إلى أن نعرف وقائع عملية لنذكر من خلالها معاني أكثر دلالة على تمثيل هذا الخلق العظيم فيه صلى الله عليه وسلم، وليكون لها أعظم الأثر في التأسّي بأخلاقه صلى الله عليه وسلم، ولنقدم من ذلك وقائع أحواله في الكرم عندما لا يكون موسراً؛ لأنه أبلغ في الدلالة على الكرم، فمن ذلك :

١ - ما رواه سهل بن سعد^(١) رضي الله عنه، قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ببردة فقالت: يا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فأكسنيها ؟ فقال: نعم، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي صلى الله عليه وسلم، لعلّي أكفن فيها" وفي رواية قال سهل: "فكانت كفنه"^(٢) .

ومن خلال هذه الصورة تدرك معنى حديث جابر رضي الله عنه: ما سئل عن شيء قط فقال: لا، إذ هي برهان عملي جلي على عدم ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم للسائلين، وإن كان به حاجة شديدة إلى ما يطلب منه، فهو يعني كمال الإيثار الذي نال

(١) الساعدي الخزرجي الأنصاري، كان اسمه حزناً فسماه النبي صلى الله عليه وسلم سهلاً، وهو من مشاهير

الصحابة، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة سنة ٨٨ هـ، وقيل: سنة ٩١ هـ، انظر تهذيب الأسماء

٣٢٨/٦، والإصابة ٨٨/٢، والاستيعاب ٩٥/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ١٦/٨، وأحمد في المسند

٣٣٣/٥، والبخاري في الأنوار برقم ٣٧٢ .

به الأنصار الكرام رضوان الله عليهم بالغ الثناء من الله تعالى وذلك في قوله جل شأنه:
﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ
حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

٢ - وتذكر معنى ذلك الحديث أيضا من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي
جاء فيه: أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يُعطيه فقال: "ما
عندي ما أعطيك، ولكن اتبع عليَّ شيئا (١)، فإذا جاءني شيء قضيتُه" فقال عمر: يا رسول
الله قد أعطيتُه (٢) فما كَلَّفَكَ الله ما لا تقدر عليه؟ فكره النبي صلى الله عليه وسلم قول
عمر فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا، فتبسم
رسول الله وعُرف التبسم في وجهه لقول الأنصاري وقال: "بهذا أُمِرْتُ" (٣).
فانظر كيف سُرَّ بقول الأنصاري لما كان يوافق ما هو عليه من خُلُق الكرم البالغ،
الذي حمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يشفق عليه منه، فما أجدره حينئذ بقول
القائل:

(١) أي: اشتر شيئا دينا علي .

(٢) أي: فيما مضى له من مطالب، أو الميسور من القول الحسن، وهو اعتذارك له بعدم وجود شيء تعطيه .

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ٣٣٨، والبغوي في الأنوار برقم ٣٦٧، وعزاه الهيثمي في الجمع
١٠/٢٤٤ إلى البزار، وقال: فيه إسحاق بن إبراهيم الحسني، وقد ضعفه الجمهور، وثقه ابن حبان وقال:

يخطئ، وضعفه الألباني في مختصر الشمائل برقم ٣٠٥ قال: وسكت عليه ابن كثير، يعني: لأنه ضعفه في
هذا الباب . إذ هو في السير التي يتجاوز فيها عن اشتراط الصحة، ويقبل فيها الصحيح وغيره مما لم
يصل إلى مرتبة الضعف الشديد، ثم إن معناه صحيح يشهد له كرم النبي صلى الله عليه وسلم ووقائع
أخرى من كرمه .

تعوّد بسط الكفّ حتى لو أنّه ثناها لقبض لم تجبه أنامله
تسراه إذا ما جيئته متهلّلاً كأنك تُعطيه الذي أنت نائله
هو البحر من أيّ النواحي أتيتّه فلجّته المعروف والجود ساحله
ولو لم يكن في كفّه غير روحه لجاد بها فليتّق الله سائله (١)

فإذا كان هذا هو عطاؤه صلى الله عليه وسلم في حال عسره فكيف يكون عطاؤه عند اليسار؟! إن عطاؤه عند ذلك سيكون بالغ السخاء، وبالغا في الكثرة حدا لا يضاهي .

صور من وقائع أحواله صلى الله عليه وسلم في الكرم عند اليسار:

وصور كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة لا يأتي عليها الحصر في مثل هذه العجالة، فنذكر ما اشتهر منها، فمن ذلك :

١ - ما جاء عن الرُّبَيْع بنت مَعُوذ بن عَفراء (٢) رضي الله عنها قالت: أتيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بَقِنَاع (٣) من رُطْب، وأَجْرٍ من قَنَاء زُغْبٍ (٤)، فأعطاني ملء كفّه حُلِيًّا أو قالت ذَهَبًا، وقال: "تحلّي بهذا" (٥) .

وهذا يدل على مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم حيث يقبل هذه الهدية المتواضعة، ويكافئها تلك المكافأة العظيمة، وقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم أنه: "كان

(١) عزاه ابن رجب في لطائف المعارف ص ١٩٥ لبعض الشعراء يمدح فيها بعض الأجداد، قال: وما تصلح

إلا أن تكون للرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) الأنصارية النجارية، كانت من المبايعات بيعة الشجرة، وربما غزت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،

انظر الإصابة ٣٠٠/٤ .

(٣) القناع: الطبق الذي يؤكل عليه .

(٤) الأجر جمع جرو الصغير من القنأ، والزغب جمع أزغب وهو صغار الريش أول ما يطلع، شبه به ما على

القنأ من زغب، النهاية ٣٠٤/٢ .

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ١٩٣، ١٩٤، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١١٦/٩ إلى الطبراني،

وأحمد في المسند ٣٥٩/٦، وابن حجر في المطالب العالية ٢٧/٤، إلى أبي يعلى، وأخرجه البغوي في

الأنوار برقم ٣٦٨، وقال الهيثمي: إسناده حسن .

يقبل الهدية ويثيب عليها" (١) .

وكانت إثابته على هذا النحو من الكرم، إذ جعل مقابل الطبق من الرطب والقثاء ملء كفه حلياً من أحجار كريمة أو ذهب، إن هذا هو الكرم العظيم .

٢ - ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما جاءه مال البحرين وكان أكثر ما أتى به رسول الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: "أنثروه في المسجد، فجاء العباس رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أعطني إنني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً (٢)، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «خذ» فحثا في ثوبه ثم ذهب يُقله فلم يرفعه، فقال: أمر بعضهم يرفعه لي، قال: ولا، قال: فارفعه أنت علي، قال: «لا» (٣) فنثر، ثم احتمله على كاهله ثم انطلق، قال أنس: فما زال يتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه، قال: فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثم منها درهم" (٤) .

وفي هذه القصة شاهدان عظيمان على مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم: أولهما: حيث لم يعترض على العباس رضي الله عنه مع بالغ نهيمه وحرصه، بل تركه يأخذ ما يقدر عليه، ولو قدر على أخذ المال كله لفعل، ولم يعترض عليه النبي صلى الله عليه وسلم بشيء، وذلك لكمال طيب نفسه، وبالغ سماحته وجوده .
وثانيهما: أنه لم يقيم من مجلسه حتى أنفق ذلك المال العظيم الذي كان قدره سبعين

(١) أخرجه البخاري في الهبة، باب المكافأة على الهدية ٢٠٦/٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) يعني: من الأسر الذي حصل لهما في غزوة بدر، وكان مجموع ما دفعه العباس عشرين ومائة أوقية من الذهب .

(٣) لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفعه عليه؛ لأن العباس رضي الله عنه شره وطمع أكثر من اللازم، ولكمال كرم النبي صلى الله عليه وسلم لم يعترض عليه، وتركه يغترف ما شاء حتى عجز، ولم يمنعه من ذلك .

(٤) أخرجه البخاري في الجزية، باب ما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم من البحرين ..، ١٢٠/٤، أخرجه تعليقا بصيغة الجزم من حديث أنس رضي الله عنه .

ألفاء، ولم يدخر النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه من ذلك المال شيئاً مع احتياجه الشديد لشيء من ذلك وإن قل، وهذا هو الكرم البالغ والسخاء العظيم، الذي لم يكن مثله لجواد مشهور من العامة أو الملوك .

وهذا الحديث يدل على حقيقة ما كان يقوله عليه الصلاة والسلام:

٣ - "ما يسُرني أنَّ عندي مثلَ أحدٍ ذهباً تمضي علي ثلثةٌ، وعندِي منه دينارٌ إلا شيئاً أرصده لِدين، إلا أن أقول به في عباد الله: هكذا، وهكذا، وهكذا، عن يمينه وشماله ومن خلفه..."

٤ - وفي رواية: ^{كان} لوأ عندي مثلُ أحدٍ ذهباً لَسَرَّني أن لا يمر علي ثلاثُ ليالٍ وعندِي منه شيءٌ إلا شيئاً أرصده لِدين" (١) .

والأدلة على الواقع العملي لما تدل عليه هذه الأحاديث، غير ما ذكر من قصة العباس رضي الله عنه كثيرة، ومن ذلك:

١ - ما كان منه صلى الله عليه وسلم من العطاء والجود يوم حُنين، حيث كان يُعطي عطاءً من لا يخشى الفقر. فعن أنس رضي الله عنه قال: "ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام شيئاً إلا أعطاه قال: فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين (٢)، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يُعطي عطاءً لا يخشى الفاقة" (٣) .

٢ - وعن جُبَيْر بن مُطعم (٤) رضي الله عنه أنه بينا هو مع رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً

١١٧/٨، ومسلم في الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة برقم ٩٩١ من حديث أبي ذر رضي

الله عنه .

(٢) أي: بالغة في حد الكثرة بحيث لو كانت بين جبلين للمأته .

(٣) تقدم تخريجه قريباً من حديث مسلم ٦٣٦ .

(٤) ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، أسلم قبل عام خيبر، وقيل: أسلم يوم فتح مكة، وكان من

علماء قريش وساداتهم، وتوفي سنة ٥٤ هـ، انظر تهذيب الأسماء ١/١٤٦، والإصابة ١/٢٢٥،

والاستيعاب ١/٢٣٠ .

وسلم ومعه الناس مقبلا من حنين علقت رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرّة، فخطفت رداءه، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أعطوني ردائي فلو كان عدد هذه العِصاه (١) نَعْمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذوبا ولا جَبَانًا" (٢) .

٣- وقد كان يعطي مثل هذا العطاء الجزل، وهو يستشعر ما هو عليه من هذا الخلق العظيم خلق الكرم، كمال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسَمًا، فقلت: يا رسول الله، لغير هؤلاء كانوا أحقّ بها منهم، قال: "إنهم خيرٌ مني أن يسألوني بالفُحش أو يُخَلُوني ولَسْتُ بياخل" (٣) .

على أن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ينتظر حتى يأتي سائل فيسأله، بل كان يتدبّر بالنوال قبل السؤال، كلّمَا وجد عنده المال، كما علمت من قصة مال البحرين وغيره .

٤- وكما يدل عليه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتصدّق بذهب كان عندي في مرضه، قالت: فأفاق فقال: ما فعلتي؟ قالت: شغلني ما رأيت منك، قال: فهلُمّ بها، قالت: فجئت بها إليه سبعة أو تسعة دنانير، فقال حين جئت بها: "ما ظنّ محمد لو لقي الله وهذه عنده" (٤) .

٥- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سَاهِم (٥) الوجه، قالت: فحسبت ذلك من الوجع، فقالت له: يا رسول الله، مالك

(١) أي: شجر العِصاه، وقد تقدم التعريف به .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم

١١٥/٤ .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظ برقم ١٠٥٦ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٨٦/٦، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٠١٤ .

(٥) أي: متغير الوجه .

ساهم الوجه؟ فقال: من أجل الدنانير السبعة التي أُتينا بها أمس، أمسينا وهي في خصم (١) الفراش" وفي رواية: "أتتنا ولم ننفقها" (٢).

ومن هذا تعلم أن حرص النبي صلى الله عليه وسلم كان على الإنفاق والبذل، لا على الادخار والجمع، ولذلك كان يتضايق من بقاء المال عنده إذا لم يتهياً له إنفاقه.

٦- وهذا يؤكد الحقيقة التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه بقوله: .. وإنما أنا قاسم والله يعطي" (٣).

٧ - وفي رواية: "إنما أنا خازن فمن أعطيته عن طيب نفس فيبارك له فيه، ومن أعطيته عن مسألة وشره كان كالذي يأكل ولا يشبع" (٤).

فكان صلى الله عليه وسلم ينزل نفسه من المال الذي يأتي إليه منزلة الأمين في القسمة أو الحفظ، ومنزلة الوالي من مال اليتيم، لا يدخر لنفسه منه شيئاً، إنما هو أمانة بين يديه يتصرف فيه بموجبها كما يأمره الله تعالى،

وهذا من كمال زهده وكرمه وجوده وسخائه، حيث ينفق كل ما أتى إليه ولا يخص نفسه بشيء حتى ما خصه الله تعالى به وهو الخمس، فإنه يردّه على المؤمنين كما قال عليه الصلاة والسلام:

٨ - "والذي نفسي بيده مالي مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم" (٥).

(١) خصم كل شيء: طرفه وجانبه، وجمعه: خصوم وأخصام. النهاية ٣٨/٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٣/٦، ٣١٤، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤١/١٠ أيضاً إلى أبي يعلى قال: ورجاهما رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري في العلم، باب من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين ٢٨/١، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة برقم ١٠٣٧ من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٤) هذه إحدى روايات مسلم للحديث السابق.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الجهاد، باب ما جاء في الغلول ٣٠٤/١ من حديث عمرو بن شعيب مرسل =

فترى أن صلى الله عليه وسلم لم يكن يقتني حتى الخمس الذي أعطاه الله تعالى إياه بقوله سبحانه: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول...﴾ [سورة الأنفال: ٤١].

حيث كان يرده على المؤمنين فيعطي سائلهم ويقضي ديون موتاهم ويرفد بها وفودهم...

فأين هذا مما كان عليه رؤساء العرب وزعمائوها الذين كانوا يستأثرون في المغامر بجل الأموال ويمنعون سائرهم خيارها، ولا يعطونهم إلا النزر اليسير .
وكانوا يفتخرون بذلك حتى إنه يقول أحد شعرائهم في ذلك مخاطبا بعض أولئك الزعماء على سبيل المدح والثناء:

لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول (١)
فأين هذا من قوله صلى الله عليه وسلم: "مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مرود عليكم".

إن هذا هو الكرم البالغ الذي لم تعرف البشرية كرما مثله .
ولهذا يقول الماوردي رحمه الله في سياق مكارم أخلاقه الدالة على نبوته:
"الخصلة الثانية ما منح من السخاء والجود حتى جاد بكل موجود، وأثر بكل مطلوب ومحبوب، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على آصع من شعير لطعام أهله، وقد ملك

= ووصله النسائي في قسم الفيء من حديثه عن أبيه عن جده ١٣١/٧، وإسناده حسن كما بينه الألباني في

الإرواء ٧٤/٥، وقد جاء عن جماعة من الصحابة، انظر المرجع السابق .

(١) البيت لعبد الله بن عتبة الضبي يخاطب فيها بسطام بن قيس كما في تفسير القرطبي ١٣/٨ .

والمربع: ربع الغنمة، والصفايا: جمع صفة، وهي ما يختاره الرئيس لنفسه من الغنمة مما يطيب له أخذه،

والنشيطه: ما أصاب الرئيس قبل أن يصل إلى مجتمع الحي، والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح

القسمة على عدد الغزاة، وانظر لسان العرب لابن منظور ١٠١/٨ .

جزيرة العرب، وكان فيها ملوك وأقيال^(١)، لهم خزائن وأموال يقتنونها ذُخراً، ويتباهون بها فخراً، ويستمتعون بها أشراً وبطراً، وقد حاز مُلْكُ جميعهم، فما اقتنى ديناراً ولا درهماً، لا يأكل إلا الخشن، ولا يلبس إلا الخشن، ويعطي الجزلَ الخطير، ويصل الجمل الغفير، ويتجرع مرارة الإقلال، ويصبر على سغب الاختلال، وقد حاز غنائم هوازن وهي من السبي ستة آلاف رأس، ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير، ومن الغنم أربعون ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، فجاد بجميع حقه وعاد خِلْواً، فهل لمثل هذا الكرم والجود كرماً وجوداً؟ هيهات^(٢) .

فصلى الله وسلم عليه، ورزقنا التخلق بأخلاقه والتأسي به في أقواله وأفعاله، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

(١) جمع قيل، وهم ملوك اليمن دون الملك الأعظم، واحدهم قيل، يكون ملكاً على قومه ومخلافه، اللسان

٥٧٦/١١ .

(٢) أعلام النبوة للماوردي ص ٣٠٢ .

البَابُ الرَّابِعُ

الأخلاق القرآنية الاجتماعية
والتطبيقات النبوية لها

وفيه ثلاثة فصول:

- ١ - في الأخلاق الاجتماعية الأسرية .
- ٢ - في الأخلاق الاجتماعية العامّة .
- ٣ - في الأخلاق الاجتماعية الماديّة .

الفصلُ الأوَّلُ

الأخلاق الاجتماعية الأسرية

وفيه تمهيد وسبعة مباحث:

- ١ - تحري ذات الدين .
- ٢ - الخطبة .
- ٣ - النكاح .
- ٤ - الصداق .
- ٥ - العشرة بالمعروف .
- ٦ - الإنصاف والإحسان عند الاختلاف .
- ٧ - معاملة ذوي القربى والأرحام .

تمهيد :

لقد كانت عناية القرآن الكريم بإصلاح المجتمع مضاهيةً لعنايته بإصلاح الفرد، دل على ذلك عنايته الكبرى بالأخلاق الاجتماعية: تشريعاً وحشاً وترغيباً وترهيباً وعظة وتمثيلاً ... ابتداءً من بداية تكوين الأسرة إلى نهاية الحياة .

وذلك لأنه بصلاح المجتمع يتم للأمة الاستقامة على دينها، والتقيد بشرع الله الذي ارتضاه لعباده، ولذلك كانت التشريعات القرآنية عامة إلا ما خص منها وهو القليل النادر، وامتنان الله على عباده بهذا الدين عام كذلك، فإننا نسمع كلام الله عز وجل يقول: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصىنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... ﴾ [سورة الشورى: ١٣] .

ويقول: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ... ﴾ [سورة المائدة: ٣] .

فتجد أن الله تعالى إنما يخاطب المجتمعات الإيمانية لأن معالم دينه وإقامة شريعته لا تظهر على وجهها الصحيح إلا فيهما .

كما أن وسطية هذه الأمة تكمن في قيام مجتمعات صالحة تأمر بالخير وتحث عليه، وتنهى عن الشر وتحذر منه، كما قال الله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣] .

ومعنى كونها أمة وسطاً: أي خياراً عدولاً مزينين بالعلم والعمل (١) .

وكما قال جل شأنه: ﴿ ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤] .

وكما قال سبحانه: ﴿ كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠] .

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٢٩ .

فترى خصائص خيرية هذه الأمة محددة بالإيمان بالله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأجل قيام مجتمعات صالحة تقيم شعائر الله ومعالم دينه وتوطد الهداية والسعادة الدينية والدنيوية للأمة الواسعة التي بعث لها رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وإنَّ بدء صلاح المجتمعات وتهذيب قيمها تكمنُ في بناء أسرة صالحة مهذَّبة متخلِّيةٍ عن الرذائل، متخلِّية بالفضائل، لأن الأسرة هي نواة المجتمع الكبير،
ولذلك كانت عناية القرآن الكريم بالأخلاق الأسرية كبيرة متعددة الأنحاء سنأتي على أهمها في المباحث الآتية :

المبحث الأول

(تحري ذات الدين)

لما كان الهدف الأسمى من الزواج في نظر الإسلام هو أن يكون المرء منه أسرة راقية في صلاحها وأخلاقها، لكي تكون جزءاً فعالاً في مجتمع صالح كريم الأخلاق والعادات، كان لا بد أن يُرشد باني هذه الأسرة وهو الزوج إلى كيفية بناء هذه الأسرة من الأساس، وذلك بأن يُحسن اختيار حجر الزاوية وهو المرأة، بناء على مواصفات عالية وهو الدين والخلق؛ لأن البناء لا يطلع صحيحاً قوياً مؤدياً واجبه لخالفه ومجتمعه إلا إذا كان كذلك، وإلا كان بناء الأسرة على شفا جُرف هارء يوشك أن يتداعى، وتبقى آثاره سلبية في المجتمع من نسل فاسد وأخلاق سافلة في الذات والمجتمع .

لذلك كان إرشادُ الله تعالى عباده إلى ما ينبغي لهم فعله من حسن الاختيار، القائم على أساس متين وهو الدين والأخلاق،

فقد قال الله جل ذكره: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يُدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢١] .

فنهى الله عن تزوج المشركات، كما نهى عن تزويج المشركين بنساء المسلمات للعلّة التي ذكرها وهي قوله: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ ومعنى كونهم يدعون إلى النار، أنهم يدعون إلى الإشراف بالله تعالى والكفر به، ويؤثرون بدعوتهم تلك على وجه الخصوص على المسلم أو المسلمة، وعلى الأطفال الذين يولدون على الفطرة فيجعلهم أولئك المشركون مثلهم، حيث ينشئونهم على الإشراف بالله تعالى، فيكون كل ذلك موجِباً لعذاب النار بينما الله عز وجل يدعو عباده إلى أن يدخلوا الجنة وذلك بأن يجتنبوا الإشراف به، ويقوموا بواجب العبادة (١)، ولما كان الإيمان به سبحانه سبباً لذلك، جعله

(١) ذكر الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره التحرير ٢/٣٦٣ علة عدم جواز تزويج المسلمة يهودياً =

معيّار الخيريّة في الأزواج والزوجات حيث قال: ﴿وَلَا أَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ... ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ .

والمعنى: "أن الأمة المؤمنة مع ما بها من حساسة الرق وقلة الخطر، خير من مشركة مع ما لها من شرف الحرّية ورفعة الشأن، فإن نقصان الرقيّة فيها مجبور بالإيمان الذي هو أجل كمالات الإنسان.

وكذلك العبد المؤمن مع ما به من ذلّ الرقيّة، هو خير من مشرك ولو أعجبكم بداعي الرغبة فيه الدنيوية، فإن ذهاب الكفّاءة بالكفر غير مجبور بشيء منها" (١) .

وهذا إغراء منه سبحانه وتعالى لعباده في جعل الإيمان معيار الاختيار في التزّوج المراد، وذلك بعد النهي الصريح عن تزويج المشركات أو تزويج المشركين لما ذكر من علّة الدعوة إلى النار .

ونحو هذه الآية قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: ٣٢] . حيث أرشد الله تعالى عباده إلى أن يكون صلاح الدين وتقوى الله تعالى حاملاً لهم على تزويج عبيدهم وإمائهم، وأنفسهم من باب أولى، من غير نظر إلى مراعاة الأحوال المادية ونحوها لأن المال غاد ورائح، ولا عبرة له بقيمة المرء عند الله تعالى، إنما القيمة عند الله هي التقوى والصلاح، ووعدهم أنهم إذا ما راعوا في تزواجهم جانب الدين والصلاح والتقوى فإن الله تعالى سيغنيهم من فضله، ولم يقيد ذلك بمشيئته للإشارة إلى

= أو نصرانيا مع تجويزه العكس فقال: "أباح الله تعالى للمسلم أن يتزوج الكاتبة، ولم يبح تزويج المسلمة من الكاتبة للاعتداده بقوة تأثير الرجل على امرأته، فالمسلم يؤمن بأنبياء الكاتبة وبصحة دينها قبل النسخ، فيوشك أن يكون ذلك جالبا إياها إلى الإسلام؛ لأنها أضعف منه جانباً، أما الكافر فهو لا يؤمن بدين المسلمة ولا برسولها، فيوشك أن يجرها إلى دينه" .

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٢١٨/٣ .

أن هذا الوعد ينجز لهم لا محالة، وذلك ليقطعوا عن أنفسهم النظر السطحي إلى المادة ومتاع الدنيا، ليراعوا الذي هو خير من الصلاح والتقوى، وهكذا يرغبُ الله عباده ويحثهم على تحري الدين في بناء الأسر لتكوّن من ذلك أجيالاً تعرف الله تعالى وتعبده، وتكون مستقيمة على شرعه الحنيف القائم على كمال السلوك الأخلاقي الفردي والاجتماعي، لأن الدين هو جماع مكارم الأخلاق، فطالما كان المرء ديناً، تحلّى في نفسه وحلّى أسرته بما ندب إليه دينه الاسلامي من أخلاق فاضلة وعادات جميلة، بكل سهولة وأريحية؛ لأنه يفعل ذلك تديناً فيرجو ثوابه عند الله ويدخّره لنفسه إلى يوم يلقاه، ونعم الذخر للمؤمن يوم القيامة هو الخلق الحسن؛ لأنه يكون أثقل موازين أعماله كما علمت من قبل .

تطبيق النبي

صلى الله عليه وسلم لتحري الدين في تزوجه وتزويجه

ذلك هو: هدي القرآن الكريم للمؤمنين، وندبه لهم ما ينبغي لهم مراعاته عند إرادة الزواج أو التزويج، وهو هدي واضح الدلالة، ومفهوم المراد .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق أمثالا له، كيف لا وهو المبين عن الله مراده من عبادته، فيبين ذلك بفعله وقوله في أحوال وأقوال كثيرة .

بيانه صلى الله عليه وسلم لذلك بفعله :

أما فعله صلى الله عليه وسلم، فقد كان زواجه لأمهات المؤمنين، وتزويجه بناته قائما على أساس الدين،

١ - فقد تزوج عددا من أمهات المؤمنين لا لغرض، إلا غرض مراعاة ديانتهم وسبقهن للإسلام، وفقدتهن من كان يعولهن من أزواج، فحفظ لهن مكاتهن ورحم ضعفهن واحتياجهن إلى من يعولهن، وأحب أن يجبر كسرهن بفقدتهن أزواجهن فتزواجهن، وذلك كأم سلمة وأم حبيبة وحفصة بنت عمر رضي الله عنهن .

٢ - وقد تزوج أيضا غيرهن لأغراض نبيلة كما سيأتي بيانه في مقاصد نكاحه صلى الله عليه وسلم، ولكن ما يلبس أن يقتبس من نور النبوة ما يتمكن به الإيمان حتى يصبحن من أكمل النساء إيمانا وتقوى، وذلك كما كان من تزوجه جويرية، وصفية رضي الله عنهما .

أما تزويجه صلى الله عليه وسلم بناته على ذلك الأساس من الديانة والإيمان والتقوى، فقد كان على ذلك الوصف بكماله، حيث زوّج بناته فاطمة وأم كلثوم ورقية رضي الله عنهن من أفاضل الصحابة وأكملهم دينا وتقى وأخلاقا .

١ - ففاطمة رضي الله عنها زوجها ممن رباه في حجره، وأدبه وأحسن تأديبه، ونشأ على الإيمان والإسلام بحيث لم يسجد لصنم قط، ولا عرف غير الله ربا منذ نعومة أظفاره، إنه ابن عمها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزوّجها عليه لا لابتغاء مال ولا غيره، غير

الدين والخلق، فقد زوجه عليها وهو لا يملك غير درعه الحِطْمِيَّة (١) فقَدَّمها صداقا لها، ثم بقي لا يجد ما يقوم بأعباء الوليمة حتى كانت وقعة بدر فنال من المغنم شارفا (٢) وشارفا آخر من الخمس، فأراد أن يحمل عليها إذ خيراً لبيعه من الصَّوَّاعين فيستعين به على وليمة العرس، غير أنه لم يتهياً له ذلك، لما فعله حمزة بالشارفين من العقر بسبب نشوته من الخمر قبل أن تحرم، كما هو مبين في الصحيحين (٣).

٢- وزوج رُقِيَّة رضي الله عنها من عثمان بن عفان رضي الله عنه وذلك قبل البعثة، وقد كان عثمان رضي الله عنه من أكمل الرجال أخلاقاً وعقلاً، كما يدل عليه أسبقيته إلى الإسلام وصلابته في دينه حيث لم يقدر عمُّه الحكم بن العاص أن يثنيه عن الإسلام مع شدة غلظته عليه وقوة وثاقه له، وقال له: ترغب عن ملة أبائك إلى دين محدث؟ والله لا أدعك أبداً حتى تدع ما أنت عليه، فقال له عثمان رضي الله عنه: "والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه" فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه (٤).

ثم كانت له اليد الطولى في نصرة الإسلام والمسلمين بنفسه وماله حتى أنه جهَّز جيش العسرة، وهي غزوة تبوك وضمن له النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الجنة حيث قال: "من جهَّز جيش العسرة فله الجنة" (٥) فجهَّزه عثمان رضي الله عنه.

ولقد كان من كمال محبة النبي صلى الله عليه وسلم له أن زوجه ابنته الأخرى هي أم كلثوم، وذلك بعد وفاة رقية رضي الله عنهما، ولم يجمع أحد ابني نبي غيره، فلذلك

(١) منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم: حطمة بن محارب، كانوا يعملون الدروع، وقيل غير ذلك.

انظر النهاية ٤٠٣/١.

(٢) أي: ناقة مسنة.

(٣) انظر البخاري كتاب المغازي، باب رقم ١٢، ١٠٥/٥، ومسلم في الأشربة، باب تحريم الخمر برقم

١٩٧٩ من حديث الحسين بن علي رضي الله عنه عن أبيه.

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٨/١، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٥٠.

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب مناقب عثمان رضي الله عنه ١٧/٥ من حديثه تعليقا بصيغة الجزم.

لقب بذي النورين، وما ذلك إلا لكمال دينه وخلقه، وقد كان صلى الله عليه وسلم يخبر عن فضله وكريم خلقه فيقول: "ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة" (١). والحياء من أعظم شعب الإيمان ودليل كماله كما علمته في مبحثه" (٢).

٣- وأما زينب رضي الله عنها فقد زوّجها من أبي العاص بن الربيع قبل البعثة، وقد كان من رجال مكة المعدودين مالا وتجارة وأمانة، حتى كان يقال له: الأمين، وكان مواجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومصافيا، وكان ابن خالة زينب، وضغط عليه كفار قريش أن يطلقها بعد دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم إلى الإسلام فأبى، لنبل أخلاقه ووفائه مع شركه" (٣).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثني عليه بعد البعثة لوفائه وأخلاقه فكان يقول: "حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي" (٤) يشير بذلك إلى ما وعده به بعد أن أُسر في بدر أن يرسل له بزینب فوفى له بذلك .

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يتزوج ويزوج قبل البعثة وبعدها . فكان قبل البعثة يعتبر الأخلاق والأصالة، وبعد البعثة يعتبر الديانة، وظهر لك من اعتباره صلى الله عليه وسلم للأخلاق قبل البعثة ما دل على أن الأخلاق الكريمة تهدي صاحبها إلى الدين الحق، واتباع الشرع القويم .

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل عثمان برقم ٢٤٠١ .

(٢) انظر ص ٤٧٩

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٥٧/٢، والاستيعاب ١٢٥/٤، والإصابة ١٢١/٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في المهر عند عقدة النكاح ٢٤٩/٣، وفي مناقب الصحابة،

باب ذكر أصهار النبي صلى الله عليه وسلم منهم أبو العاص بن الربيع ٢٨/٥ من حديث المسور بن

وهذا النهج هو الذي كان يحث أمته عليه بأقواله كما حثهم على التأسي به في أفعاله، وأقواله في ذلك كثيرة تأتي منها بطائفة صالحة إن شاء الله تعالى .

أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على تحري الدين في التزوج :

أما أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على تحري الدين دون غيره، فمنها ما هو حث لمريدي الزواج من الرجال، ومنها ما هو حث لأولياء أمور النساء، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحث الفريقين على اعتبار الدين والخلق معياراً أساسياً في اختيار الزوجات أو الأزواج، لما لا اعتبار ذلك من مصالح تعود على بناء الأسرة المسلمة بالخير والصلاح .

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم في حث مريدي النكاح من الرجال على اعتبار الدين

أساساً لاختيار الزوجات :

١- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تُنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها (١) وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك" (٢) .

٢- وفي رواية: "تُنكح المرأة على مالها، وتُنكح المرأة على جمالها، وتُنكح المرأة على دينها، خذ ذات الدين والخلق تربت يمينك" (٣) .

فبين عليه الصلاة والسلام رغبات الناس ومطامحهم في النكاح بأنها لا تعدو هذه الخصال الأربع.

ثم أرشد الراغب في النكاح إلى ما ينبغي أن يقع عليه اختيار المرأة وهو الدين، لما للدين من صلاح الحال والمآل، وبناء الأسرة على ما يرضي الملك المتعال، من مكارم الأخلاق وجميل الفعال.

(١) حسب الإنسان: ما يعده من مفاخر آبائه، وقيل: هو شرف النفس وفضلها. النهاية ٣٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب الأكفاء في الدين ٩/٧، ومسلم في الرضاع، باب استحباب نكاح ذات

الدين برقم ١٤٦٦ .

(٣) أخرجه ابن حبان ١٣٧/٦ الإحسان، والحاكم في المستدرک ٦١/٢، من حديث أبي سعيد الخدري، وقال

الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

ولقد كان من كمال تحريضه عليه الصلاة والسلام على تحري الدين أن: قال: "تربت يداك" لأن هذه الكلمة تقال للمبالغة في التحريض على الشيء والتعجب منه، من غير نظر إلى معناه الأصلي، وهو الدعاء بالتصاق اليدين بالتراب (١).

وكما وجه النبي صلى الله عليه وسلم الخطاب إلى مراعاة الدين والخلق فيمن يرغب في النكاح من الرجال، فإنه قد وجه كذلك أولياء المخطوبات إلى أن يتحرروا ذوي الأخلاق والدين فيمن يرغب نكاح موليّاتهن، من بنات وأخوات ونحوهن، لما في أهل الدين والأخلاق من إكرام لهم ومحافظة على دينهن ودنياهن، ناهيك عما يحرصون عليه من تربية الأولاد تربية دينية صالحة قائمة على صحة الإيمان ومكارم الأخلاق، وذلك لاستشعارهم المسؤولية الملقاة على أعناقهم نحو أسرهم وأبنائهم ومجتمعاتهم، وكان مما قاله صلى الله عليه وسلم في ذلك :

١- مارواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخُلُقه فزوّجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض" (٢).

٢- وفي حديث آخر يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلُقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد". قالوا يا رسول الله وإن كان فيه (٣) ؟ قال: "إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلُقه فأنكحوه، ثلاث مرات" (٤).

(١) انظر النهاية ١/١٨٤.

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء "إذا جاءكم من ترضون دينه فزوّجوه برقم ١٠٨٤، وابن ماجه

برقم ١٩٦٧، وهو حديث حسن بشاهده الآتي كما في إرواء الغليل ٦/٢٦٦.

(٣) يعني: قلة في المال، أو عدم الكفاة في الحسب ونحوه.

(٤) أخرجه الترمذي أيضا في الباب السابق برقم ١٠٨٥، وقال عنه: حسن غريب، وهو شاهد للذي قبله

فيقوي بعضهما بعضا، وهو من حديث أبي حاتم المزني رضي الله عنه.

فترى أنه صلى الله عليه وسلم لم يجعل معيار الاختيار إلا الدين والخلق، وأغفل كل معيار ماديٍّ آخر، مع تكرار تنبيه المخاطبين إليه، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يحرص كلَّ الحرص على مراعاة الدين والخلق عند التزويج أو التزوج في نفسه، ويحث أمته عليه، وذلك لبالغ أهمية الدين والخلق في تكوين الأسر .

المبحث الثاني

(الخطبة وما يلحق بها)

تعريف الخطبة :

الخطبة بكسر الخاء: فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أو قول، يقال: خطبها يخطبها خطبا وخطبة، ورجل خطاب: كثير التصرف في الخطبة، ومنه قول الشاعر :

برح بالعينين خطاب الكذب يقول إني خاطب وقد كذب

وإنما يخطب عسا من حلب (١)

والخطيب: الخاطب .

والخطب: الرجل الذي يخطب المرأة، ويقال أيضا: هي خطبه وخطبته التي يخطبها (٢). وهي مأخوذة من الخطب أو المخاطبة أو التخاطب التي تعني المراجعة في الكلام، وأصلها الحالة التي يكون عليها الإنسان إذا خطب، نحو الجلسة والقعدة، فهي مصدر يدل على الهيئة .

وفي الاصطلاح : هي طلب نكاح المرأة (٣)، ويقال: التماس النكاح ممن يعتبر منه (٤).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي :

وسمّي ذلك الطلب بالخطبة، لما يتم فيه من المراجعة في الكلام عند التخاطب . والخطبة هي طريق الوصول إلى بناء الأسرة، أو هي الخطوة الأولى لبناء مجتمع صغير يكون نواة لبناء مجتمع كبير .

(١) الكذب: جمع كنية، وهي: كل قليل جمعه من طعام أو لبن أو غير ذلك، والعس: بضم العين: القدح

الضخم، يريد: أن الرجل يجيء بعله الخطبة وهو يريد القرى .

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٨٩/٢، ولسان العرب لابن منظور مادة (خطب) ٦٣٠/١ .

(٣) المفردات للراغب ص ١٥٠، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ٩٣/٣ .

(٤) حاشية القليوبي على المحلى شرح المنهاج ٢١٣/٣ .

فيجب إذاً أن تبدأ هذه الخطوة بما يرجى أن تكون عليه الأسرة من الفضل والكمال الأخلاقي وذلك بمراعاة أخلاق الإسلام فيها التي تهدف إلى ذلك الزكاء الأخلاقي والصفاء الزوجي للمجتمع الإسلامي .

وقد بين القرآن الكريم بعض هذه الآداب والأخلاق، وتولت السنة بيان البعض الآخر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أوتي القرآن ومثله معه .

بيان القرآن الكريم لبعض أخلاق الخطبة وآدابها :

أما ما بينه القرآن الكريم من أمر الخطبة فهي مسألة خطبة المعتدة، حيث أرشد من يرغب في خطبة المعتدة ويخشى أن يسبقه غيره في الخطبة، أرشده إلى الكيفية التي ينبغي له أن يسلكها، الجامعة له بين تحقيق مأربه والوقوف عند حدود الله، حيث حظر عليه الخطبة في حال العدة لما يترتب على ذلك من مفساد، وذلك بقوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم عليم الله أنكم ستذكرونهنَّ ولكن لا تواعدوهنَّ سرا إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفورٌ حلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٥] .

فإن هذه الآية الكريمة تدل على ثلاث مسائل في مجال خطبة ذوات العدة من النساء :
إحداها: تشريع أصل الخطبة .

وثانيها: الإرشاد إلى كيفيتها .

وثالثها: تحريم التصريح بها لمن لم تنته عدتها بعد .

أما تشريعها: فهو مفهوم من رفع الجناح عنها عند عدم المانع المذكور في الآية وهو أن لا تكون المخطوبة في أثناء العدة، وذلك دليل على مشروعيتها .

وأما الإرشاد إلى كيفيتها، فقد كان بالنسبة لمن هي معتدة، حيث بينت الآية ما يمكن للمرء أن يحجز به المرأة لتكون زوجاً له قبل أن يسبق إليها، وذلك بالتعريض (١) في

(١) وهو القول المفهم لمقصود الشيء، وليس بنص فيه، مأخوذ من عرض الشيء وهو ناحيته، كأنه يحوم على

النكاح ولا يصرح. أحكام القرآن لابن العربي ٢١٢/١ .

رغبته فيها إذا ما انتهت عدتها كأن يقول: إنك لصالحة، أو إن الله لسائق إليك الخير إن شاء الله، أو من يرغب عنك؟ أو إن حاجتي في النساء، أو نحو ذلك، مما لا يجعلها تستيقن مزاده من ذلك حتى لا تستعجل أمرها وتدعي ^{لنقض} النقصاء العدة قبل انقضائها بالفعل (١).

وأما تحريم التصريح بخطبة المعتدة فقد بينته الآية بنهيين جازمين وهما قوله تعالى: ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًا﴾ وقوله: ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾، ومطلق النهي يقتضي التحريم، ولذلك "أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها وتنبيه لا يجوز، وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وكذلك ما أشبهه، وجوز ما عدا ذلك" (٢). ثم لم تكتف الآية بذينك النهيين حتى حذرت منه أبلغ تحذير، حيث قال الله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ وهذا نهاية التحذير من الوقوع فيما نهى عنه سبحانه.

وفي الآية دليل على أن المنهي عنه جدٌ خطير، وحرى به ذلك، فإن الأمر يتعلق بحفظ الأنساب، وصيانة النسل من الاختلاط ولا يتم ذلك إلا بالحِطة الكبرى له، وذلك بالعدة التي فرضها الله تعالى لبيان استبراء الرحم من الزوج الأول.

ولهذا تعاقب نهيان على ذلك، الأول: النهي عن المواعدة الصريحة بالسر للتأكيد على ما أباحه من التعريض في الخطبة، فأفاد عباده بأنهم لا يتجاوزون الرخصة بالتعريض التي كانت رافة بهم لما يعلمه تعالى من عدم مقدرتهم على كتمان ما يختلج في صدورهم من الرغبة في نكاحهن، إلى الوعد الجازم عن طريق السر بالنكاح أو الجماع، ثم عاد فأكد ذلك بقوله سبحانه: ﴿إلا أن تقولوا قولًا معروفًا﴾ والقول المعروف هو: ما أبيح من التعريض السابق بيانه.

(١) انظر المجموع: شرح المذهب ٢٥٨/١٧، وأحكام القرآن لابن العربي ٣١٢/١-٣١٣.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٣٠٤/٢، وأجامع ^{النظر} أحكام القرآن للقرطبي.

والنهي الثاني: عن العزم بعقدة النكاح، أي: عقده، فقال تعالى: ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ وذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي: ولا تعزموا عقد عقدة النكاح ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ وذلك هو انتهاء العدة بالأشهر إن كانت من ذوات الأشهر، أو الأقراء إن كانت من ذوات الأقراء^(١)، أو وضع الحمل إن كانت حاملا، كما هو مبين في مواضعه من كتاب العدد في الكتب الفقهية المختلفة.

الجوانب الأخلاقية في الآية الكريمة :

وفي هذه الآية الكريمة جوانب أخلاقية عظيمة أرشدت المؤمنين إليها، وهي تدل بمجموعها على بالغ نظر الإسلام إلى الأخلاق حيث يصبغ تشريعاته بها، ويوليها عنايته، وهذه الجوانب هي :

١ - مراعاة الجانب النفسي والإنساني عند الخطبة، فالمعتدة بالوفاة أو بالطلاق تكون غالبا في ظروف نفسية صعبة، فهي بحاجة في هذا المجال إلى الملائمة في القول وعدم تهيج نفسها إلى الحزن السابق، وذلك يكون بالتعريض للنزيه، والعبارة الجميلة .

وفي ذلك أيضا مراعاة لأهل الزوج الأول إذا كان متوفى، حيث لا يجرح شعورهم ولا يجدد الأسى في نفوسهم، والمؤمنون متراحمون فيما بينهم، فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

٢ - في الآية إشارة إلى ضبط النفس وعدم إطلاق العنان لها فتسرح فيما تهوى، وهذا معنى أخلاقي عميق يستفاد من قوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ .

٣ - الحث على الالتزام بالأدب الأخلاقي في الحديث، فلا ينحدر المسلم إلى مواعدة المرأة بالجماع ونحوه، بل ينبغي أن يختار قول المعروف المصبوغ بالأدب والحشمة والعفة، فيكسو ألفاظه أجملها .

(١) أي: المعتدة بالأطهار، أو الحيض .

٤ - في الآية إشارة إلى أن على المؤمن أن لا يسبق الأحداث، والأشياء قبل أوقاتها، بل عليه أن يضبط نفسه، فلا يطلب الأشياء إلا في أوقاتها ومواعيدها المعتبرة، ويرشد إلى ذلك قول الله جل في علاه: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ﴾ .
إلى غير ذلك من أسرار الكتاب العزيز الذي لا تفنى عجائبه، ولا تُدرك فرائده، ولا تنتهي أسرارهِ ولطائفه، وفقنا الله لتدبره وفهمه، وتلاوته على النحو الذي يرضيه سبحانه .

تمثل آداب الخطبة وأخلاقها

في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين القرآن لأمته بأقواله وأفعاله وسلوكه، فيوضح أحكامه، ويبين تشريعاته في الأحكام والآداب بما يناسب طبيعة الحال من قول أو فعل أو هما معا .

وفي هذا المقام بين النبي صلى الله عليه وسلم ما شرعه الله تعالى لأمته من أمر الخطبة، وفصل لهم أحكامها وآدابها في الأحوال^{تلك} ، وزاد على ذلك ما أوكل الله تعالى إليه بيانه وتفصيله مما لم يأت به كتابه الكريم .

وكان من بيانه صلى الله عليه وسلم لأحكام الخطبة وآدابها التي تضمنتها الآية السابقة المتضمنة لإباحة التعريض بالخطبة لذوات العدة: الوقائع التالية :

١ - عندما أراد عليه الصلاة والسلام أن يزوج أسامة بن زيد رضي الله عنهما من فاطمة بنت قيس (١) رضي الله عنها، وذلك حينما تأيمت من زوجها الذي بت طلاقها وهو أبو عمر بن حفص، فإنها جاءت تستفتيه في أمر نفقتها في العدة فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس لك عليه نفقة" (٢) .

وأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم (٣) رضي الله عنه، وقال لها: "فإذا حللت

(١) الفهرية القرشية، كانت ذات جمال وعقل وكمال، وكانت من المهاجرات الأول، وفي بيتها اجتمع

أصحاب الشورى عند مقتل عمر رضي الله عنه، انظر الاستيعاب ٣٨٣/٤، والإصابة ٣٩٤/٤، وتهذيب

الأسماء ٣٥٣/٢ .

(٢) لأنها مطلقة طلاقا بائنا كما جاء في بعض الروايات أنه طلقها ألبتة الطلاق كله، وهو الثلاث التطليقات،

وانظر شرح مسلم للإمام النووي ٩٥/١٠ .

(٣) هو عمرو بن قيس بن زائدة العامري القرشي، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، استخلفه النبي صلى

الله عليه وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة، وأنزل الله تعالى فيه صدر سورة (عبس) ، ومناقبه شهيرة،

وتوفي شهيدا في القادسية حيث كان يحمل اللواء، وقيل عاد إلى المدينة وتوفي بها. انظر تهذيب الأسماء =

فَأَذِنَنِي" وفي رواية أرسل إليها يقول: "لا تسبقيني بنفسك".

قالت أم شريك رضي الله عنها: فلما حُلْتُ ذُكِرَتْ له أَنَّ معاوية بن أبي سفيان، وأبا جهم خطباني، فقال صلى الله عليه وسلم: "أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه (١)، وأما معاوية فُضِّلَ عليك لا مال له، إنكحي أسامة بن زيد" قالت: فكرهته ثم قال: "إنكحي أسامة" قالت: فنكحته فجعل الله فيه خيرا واغْتَبَطْتُ (٢).

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم مع ما كان يضره في نفسه من خطبتها لأسامة بن زيد رضي الله عنه إلا أنه لم يصِّرْ لها بذلك، وإنما عَرَضَ لها تعريضا بقوله: "لا تسبقيني بنفسك" وكان هذا أصرح تعريض له صلى الله عليه وسلم في الخطبة، لما فيه من الإشارة إلى أنه سيكون له معها شأن في اختيار الزوج الذي يودُّه لها، وقد كان كذلك حيث أرشدها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هو أصلح لها في مستقبل أمرها، وهو نكاح أسامة الذي كرهته في بادئ الأمر لعدم كفاءته لها في الجمال والحسب، لكن سرعان ما صارت به مغتبطة لكمال الدين والخلق الذي أسعد مستقبل حياتها، وجعلها تعيش معه عيشة كريمة وتغبط معه، وهذا هو سر اختيار النبي صلى الله عليه وسلم أسامة رضي الله عنه، لأنه لا يدُّها إلا على الذي هو خير، والخيرية في الدين والخلق لا في غيرهما.

٢ - أما ما كان من خطبته صلى الله عليه وسلم لنفسه، فإنه كان إذا أراد خطبة امرأة وأراد أن يعرض لها بذلك لم يكْدُفِصح عن مراده في تعريضه، كما كان منه لما خطب حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، فإنه صلى الله عليه وسلم لما رغب في تزوجها بعد أن

= ٢٩٥/٢، والاستيعاب ٥٠١/٢، والإصابة ٥٢٣/٢.

وإنما أمرها بالاعتداد في بيته؛ لأنه لا يبصرها ولا يتردد إلى بيته كثير من الناس، وهي مع ذلك مأمورة بأن

تغض بصرها عنه. انظر شرح مسلم ٩٦/١٠.

(١) كناية عن أنه كثير الضرب للنساء، وقيل: إنه كثير الأسفار.

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق برقم ١٤٨٠ من طرق كثيرة، وأبو داود في نفقة المبتوتة برقم ٢٢٨٤، وبقية

أصحاب السنن.

تَأَيَّمْتُ، لم يزد على أن ذكرها لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان الأمر في غاية السَّرية، بحيث إنه لم يفش ذلك لعمر رضي الله عنه عندما عرض عليه عمر رضي الله عنه تزويجه بها، بل سكت مما حمل عمر رضي الله عنه على أن يغضب عليه، فلما انقضت عدتها خطبها النبي صلى الله عليه وسلم من عمر فأنكحه إياها، وعندئذ اعتذر له أبو بكر رضي الله عنه عَمَّا جرى له من السكوت عن إجابته أو عدم إبداء الرغبة في ذلك، وقال له: "إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أنني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلتها" (١) .

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يفعل إذا أراد أن يخطب معتدة، تارة يتبع الرخصة فيعرض، وتارة يأخذ بالعزم فلا يعرض، بل يكتف في نفسه ما يريد أو يسر لأحد أصحابه بذلك، فلا يفشي، ومن هنا تعلم مدى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأداب الله تعالى التي أدب بها عباده، واتباع رخصه من غير إفراط ولا تفريط، مع أنه من أهل العزم، وذلك ليعلم أمته ما كان يندبهم إليه من اتباع رخص الشرع التي جاء بها هذا الدين الحنيف؛ لأن الله تعالى يؤد ذلك من عباده، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه" (٢) وفي رواية: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معاصيه" (٣) .

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب عرض الإنسان ابنته وأخته على أهل الخير ١٧/٧ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٥/٣ إلى الطبراني في الكبير والبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ورجال البزار ثقات، وكذلك رجال الطبراني .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٠٨/٢، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الهيثمي في المجمع ١٦٥/٣: ورجاله رجال الصحيح، وعزاه أيضا إلى البزار والطبراني في الأوسط قال: وإسناده حسن، وذكر له شواهد كثيرة فلتنظر .

فكان صلى الله عليه وسلم يفعل مثل ذلك لتستن به أمته في اتباع ما رخص الله فيه، وإلا فقد كان يغالب أحواله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالعزائم؛ لأنه من أهل العزم، وغالبا ما كان زواجه صلى الله عليه وسلم يأتي عفوياً من غير سابق تقدير، وذلك كلما يرى مصلحة كبرى تكمن في زواجه بإحدى سيّدات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن . هكذا كان عليه الصلاة والسلام يبين أخلاق القرآن الكريم، وقد علمت أنه صلى الله عليه وسلم أوتي القرآن ومثله معه (١)، وأن سنته هي ثاني مصدر التشريع، لذلك فقد بين لأمة آداباً أخرى للخطبة ليتحقق للأسرة ما ينبغي أن تكون عليه من الكمال الأخلاقي والصفاء الروحي الذي يريده لها الإسلام الخفيف وذلك كالنظر إلى المخطوبة قبل الخطبة، وخطبة الخطبة، والنهي عن الخطبة على الخطبة، وسأبين هذه الخلال بإيجاز تميماً للفائدة .

أ - النظر إلى المخطوبة:

لما كان الخاطب يهدف إلى أن يقيم علاقة زوجية، وحياة طويلة، وبناءً أسرياً متماسكاً، بينه وبين مخطوبته، كان لا بد أن يعرفها معرفة جيدة حتى يقدم على ما أراده وهو على بصيرة من أمره، لا أن يعقد صفقة غرر، لا يدري عنها شيئاً فتكون عاقبة أمرها خسراً .

والنبي صلى الله عليه وسلم وإن كان يعلم أمته على أن الخلق القرآني يقوم على غض البصر من الرجل والمرأة، كما سيأتي بيان ذلك في حينه، إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أمته أن هذا ليس على إطلاقه، فبين لهم أن هذا الخلق العظيم هو في غير الخطبة التي يترتب عليها بناء أسرة وتكوين كيان صالح؛ لذلك فقد ندب صلى الله عليه وسلم الخاطب إلى أن ينظر إلى مخطوبته، ويتعرف عليها بما أمكنه في حدود ما رخص الله تعالى فيه حتى

(١) كما جاء من حديث المقدم بن معديكرب الكندي عند أحمد في المسند ١٣١/٤، وأبي داود في الأئمة

برقم ٤٦٠٤، والدارمي في السنن ١٤٤/٨، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة رقم

١٦٣، وغيره .

يقدم عليه وهو على بينة من أمره، وذلك تأكيداً لمعنى المودة التي دعا إليها القرآن الكريم وأسس عليها الحياة الزوجية كما قال سبحانه: ﴿وجعل بينكم مودةً ورحمةً﴾ [سورة الروم: ٢١].

١ - فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنظرتُ إليها؟ قال: لا، فقال له: "أنظر إليها فإنَّ في أعينِ الأنصار شيئاً" (١) - يعني الصَّغر - .

وهذا المعنى الأخلاقي الذي قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضحه الحديث الآتي:

٢ - عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه خطب امرأة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدَمَ بينكما" (٢) أي: أحرى أن تدوم المودة بينكما إذا تزوجتها عن رضا واقتناع سابقين، حيث لا يشعر بغبن ولا خديعة .

٣ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظرَ منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعَل" قال جابر: فخطبت امرأةً فكنت أتحبُّ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها" (٣) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يحث في هذه الأحاديث الراغبين في النكاح إلى ما يؤمِّن

(١) أخرجه مسلم في النكاح، باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزويجها برقم ١٤٢٤، والنسائي

في النكاح، باب إذا استشار رجل رجلاً في المرأة هل يخبره بما يعلم ٧٧/٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة برقم ١٠٨٧ وحسنه، والنسائي في

النكاح، باب إباحة النظر قبل التزويج ٦٩/٦، وابن حبان في صحيحه ١٢٣٦ كما في موارد الظمآن .

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح، باب الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها برقم ٢٠٨٢، وقال الحافظ ابن

حجر في بلوغ المرام برقم ١٠٠٠: رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم ١٦٥/٢ وصححه ووافقه الذهبي،

وأخرجه أحمد في المسند ٣٣٤/٣ .

حياتهم الزوجية غالباً، وذلك بالتعريف على المراد نكاحهن عن طريق النظر إليهن فيما يدعو إلى نكاحهن، من الوجه الذي يدل على الجمال ومبلغ العمر، واليدين الذين يدلان على نعومة الجسد وضده، ولا يتعداه إلى غيره، فإن النظر إلى المخطوبة في أصله محرم؛ لأنه نظر إلى أجنبية، وإنما أيجح للضرورة، والضرورة تقدر بمقدارها (١).

أما الخلوة بالمخطوبة أو السفر بها للتعرف عليها ونحوه مما جرت به العادة في هذه الأزمان في كثير من البلدان، مما لا يخفى أمره على كثير من الناس، فذلك غلو في الإفراط فيما أباحه الشرع، وتكون عواقبه وخيمة كما هو معلوم، وتكون تلك العواقب جزاء للأولياء الذين فرطوا في آداب الشرع، يبقى عارها وشنارها عليهم ما عاشوا، ولا يلام فيها الشرع الحكيم الذي جعل كل شيء بمقدار معلوم، فمن تعداه فقد أساء وظلم ولا يلوم إلا نفسه.

٤ - وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعنى بالنظر في من يريد نكاحها كما جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه "أن امرأة جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي، قال: فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه..." الحديث (٢).

٥ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله عليه وسلم: «رأيتك في المنام يجيء بك الملك في سرقعة (٣) من حرير، فقال لي: هذه امرأتك، قال: فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنت هي، فقلت: إن يك هذا من عند الله يُحبه» (٤).

وهذه وإن كانت رؤيا منامية إلا أن رؤيا الأنبياء حق كاليقظة، ولذلك أوردها

(١) هذا ما ذهب إليه الجمهور، وقال الأوزاعي: يجتهد وينظر إلى ما يريد منها إلا العورة، وقال ابن حزم: ينظر

إلى ما أقبل منها وما أدبر... انظر الفتح ٢١٨/١٩، ومعالم السنن للخطابي ٢٥/٣.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب النظر إلى المرأة قبل التزويج ١٩/٧.

(٣) أي: في قطعة من جيد الحرير.

(٤) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٩/٧.

البخاري للاستدلال بها على جواز النظر إلى المخطوبة، بل صدرَ بها أدلة ذلك، وذلك من كمال فقهه رحمه الله تعالى .

وفي فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا وأقواله السابقة، قُدوة لمن يريد أن يقدم على الزواج حتى لا يقع فيما لا تحمد عقباه، كما أن في ذلك تأسيًا للأولياء فلا تمنعهم العادات من تمكين الراغب في نكاح مولاتهن من النظر إذا علموا صدق الراغب وأمانته .

ب - خُطبة الخُطبة:

ومن الآداب التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام خُطبة الحاجة عامة، وخُطبة النكاح خاصة .

١ - فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خُطبة الحاجة:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (١) [سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

لما في هذه الخُطبة من الوصية بالتقوى، ومراقبة الله في أول خطوة من خطوات الحياة

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في خطبة النكاح برقم ٢١١٨، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح برقم ١١٠٥ وحسنه، والنسائي في كتاب الجمعة، باب كيف الخطبة ١٠٥/٣، واللفظ للنسائي، وهو حديث صحيح بطرقه الكثيرة، وقد بين ذلك الشيخ الألباني في رسالة خاصة أسماها: خطبة الحاجة، واللفقهاء صيغ أنيقة أخرى في خُطبة الخُطبة انظر حاشية إعانة الطالبين ٢٦٥/٣ .

الزوجية، لتكون الحياة بعد ذلك سائرة من منطلق التقوى والمراقبة الإلهية، وذلك من أكبر العوامل على جعل الحياة الزوجية سعيدة راقية في أخلاقها وتعاملها فيما بينها .

وقد كانت الخطبة عند خطبة النكاح معلومة ومتبعة حتى قبل البعثة، كما جاء في قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة رضي الله عنها، فإن أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم نهض معه وخطب خطبة عصماء جاء فيها: «أما بعد: فإن محمداً ممن لا يُوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونُبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قِلٌّ فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك».

فقال عمرو بن أسد عم خديجة رضي الله عنها مجيباً له: «هو الفحل الذي لا يُقدِّع (١) أنفه» فأنكحها منه (٢) .

جـ - الخطبة على الخطبة:

ومما أرشد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أدب اجتماعي مهم يدل على مراعاته على استخفاف بحقوق الآخرين، وإضاعة للحقوق الإيمانية الاجتماعية، ويترب على ذلك مفسدات كبيرة من خصومات وهتك أعراض وإحنا ونحوها .

ذلك هو الخطبة على خطبة أخ له قد سبق إلى المخطوبة وأجيب بالقبول .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الإخلال بهذا الحق وحذر من التفريط فيه لعظم خطر ما يترب عليه ذلك في أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلي :

١- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يُخطب على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب" (٣) .

(١) فسر ابن الأثير في النهاية ٢٤/٤ هذا اللفظ بقوله: يقال: قدعت الفحل وهو أن يكون غير كريم، فإذا أراد

ركوب الناقة الكريمة ضرب أنفه بالرمح أو غيره حتى يرتدع أو ينكف. أ.هـ .

(٢) الروض الأنف للسيهلي ٢١٣/١ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب لا يُخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ٢٤/٧ وفي غيره، ومسلم

في النكاح، باب تحريم خطبة الرجل على خطبة أخيه برقم ١٤١٢ .

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يخطب الرجل على خطبة أخيه" (١) .

٣- وعن عتبة بن عامر رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل للمؤمن أن يتنازع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر" (٢) .

فهذه الأحاديث تنهى نهى تحريم (٣) عن انتهاك حق الآخرين في السبق إلى المخطوبة لما في ذلك من بذر بذور الفساد الاجتماعي الذي ينشأ من ذلك، فهو يولد الضغينة بين الخاطبين، والحقد الدفين ومحاولة الانتقام، والغيبة بينهما، والشعور من أحدهما بالتحدي ومن الآخر بالإهانة، إلى غير ذلك، وكل ذلك مما حرمه الإسلام وحذر منه ولذلك كان نهى النبي صلى الله عليه وسلم مقرونا بالتنبيه إلى الأخوة الإيمانية (٤) لأجل أن تراعى من كلا الجانبين .

(١) أخرجه البخاري في الشروط، باب ما لا يجوز من الشروط في النكاح ٢٤٩/٣، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه برقم ١٥١٥، وأبو داود باب كراهية أن يخطب الرجل على خطبة أخيه برقم ٢٠٨٠ .

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن أو يترك برقم ١٤١٤ .

(٣) على الصحيح من مذاهب أهل العلم في ذلك، فقد قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم ١٩٧/٩ معقبا على النهي بقوله: هذه الأحاديث ظاهرة في تحريم الخطبة على خطبة أخيه، قال: وأجمعوا على تحريمها إذا كان قد صرح للخطاب بالإجابة ولم يأذن ولم يترك ...

وذهب الخطابي إلى أن النهي للتأديب، وليس بنهي تحريم يبطل العقد عند أكثر الفقهاء، وتعقبه الحافظ في الفتح ٢٣٩/١٩ بأنه لا ملازمة بين كونه للتحريم، وبين البطلان عند الجمهور، بل هو عندهم للتحريم، ولا يبطل العقد، ثم فصل الخلاف في ذلك كالنوي بما يطول ذكره، فينظر هناك، وينظر معالم السنن للخطابي ٢٤/٣ .

(٤) وهي هنا مخرجة مخرج الغالب، وإلا فإن غير المؤمن تحرم الخطبة على خطبته أيضا للعلة التي ذكرت من فساد ذات البين في المجتمع، وهذا ما ذهب إليه الجمهور وإن خالف في ذلك الخطابي رحمه الله وغيره. انظر شرح مسلم للإمام النووي ١٩٨/٩، وفتح الباري ٢٣٩/١٩ .

المبحث الثالث

(النكاح)

النكاح في اللغة: الضم والجمع، يقال: تناكحت الأشجار إذا تمايلت وانضم بعضها إلى بعض (١).

وفي الاصطلاح: هو عقد يتضمن إباحة وطء بلفظ نكاح أو تزويج أو ترجمته (٢).
وسمي هذا المعنى الشرعي نكاحا لما فيه من ضم أحد الزوجين إلى الآخر (٣).
والعرب تستعمل لفظ النكاح بمعنى العقد والوطء جميعا لكنهم إذا قالوا: نكح زوجته أو امرأته لم يريدوا إلا المجامعة (٤).

وهو من سنن المرسلين، ومن الشرائع القديمة، شرعه الله تعالى لبقاء الجنس البشري وتكاثر نسله، ليستخلفه في الأرض لعبادته تعالى وعمارة الأرض.

وجعل الله تعالى فيه الراحة النفسية، وإشباع الغريزة الجنسية، وحصول السعادة والأنس من المودة والاجتماع، ولذلك كان من نعم الله تعالى الكبرى التي تقتضي بالغ الامتنان من مُسديها وهو الله تعالى على عباده، ولطالما ذكر سبحانه وتعالى عباده بهذه النعمة على سبيل الامتنان والتعظيم، وذلك كقوله جل شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٩].

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [سورة النحل: ٧٢].

(١) القاموس المحيط ١/١٦٣، وشرحه تاج العروس ٢/٢٤٢، والصحاح ١/٤١٣.

(٢) مغنى المحتاج للخطيب الشربيني ٣/١٢٣، والياقوت النفيس للشاطري ص ١٤١.

(٣) حاشية إعانة الطالبين للملياري ٣/٢٥٥.

(٤) مغنى المحتاج للخطيب ٣/١٢٣.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: ٢١] .

إلى غير ذلك من آيات الامتنان بهذه النعمة العظمى وهي نعمة خلق الزوج من جنس بني آدم ليكون سكنا للرجل، به يأنس وعنده يطمأن ويرتاح ويُسبِّح به غريزته، ويكون له من النسل والذرية التي يظل ذكره بها، وتكون عوناً له عندما يكون أحوج إلى المساعدة والمظاهرة .

وأجل من ذلك الراحة النفسية والطمأنينة القلبية التي يجدها عندما يأوي إليها فتكون لباساً له، ومثلجة لصدره، وقائمة بحقوقه وواجباته وشئون بيته وأولاده .

وتلك نعمة لا يعدها نعمة بعد نعمة الإسلام والإيمان ونعمة الصحة .

وذلك ما لا يختلف فيه ذوو العقول السليمة، فكل واحد من بني آدم لا يجد راحة نفسه، ومستقر حياته، إلا إذا كان ذا زوج يأوي إليه، يجد فيه السكن النفسي والطمأنينة القلبية .

ولا يرى لنفسه سعادة غامرة وحياة مطمئنة إلا إذا قضى شهوته، ونال وطّره، فعندئذ يرى نفسه أنه أسعد الناس حظاً وأكثرهم نعمة .

ولهذا كان قول الله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ...﴾ [سورة آل عمران: ١٤] ، إخباراً بحقيقة بني آدم في هذه النعمة، من أنهم يرونها أجمل متاع الحياة الدنيا .

وقد أقرهم القرآن الكريم على ذلك، إلا أنه دلهم على ما هو خير وأفضل مما يرونه من هذه النعمة، وهو نعيم الآخرة، وذلك بقوله سبحانه: ﴿قُلْ أُوْثِقُوا بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ آتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥] .

وذلك ليدلهم على أن ما نالوه مما رأوه نعيماً في الدنيا، ما هو إلا نزر يسير ورمز حقير لنعيم الآخرة، فإن كانوا قد تنعموا بهذا فليحرصوا على ما هو أفضل منه في الآخرة، وسينالونه إن كانوا من أهله، بأن كانوا في الدنيا ممن يتقون الله تعالى فلا يشركون به ولا يستحلّون معاصيه .

ولما كان أمر النكاح لدى بني آدم بتلك المثابة، غريزة، كان لا بد من تشريع ينظمه كي لا يكون أمره فوضى فتختلط الأنساب وتضيع الأحساب، ولا يحصل الغرض من فطر الناس عليه في بناء الأسر وغرس مكارم الأخلاق في النشء، وإقامة المجتمعات على الطهر والعفاف والفضيلة كما هو الحال في المجتمعات الإباحية التي لا تحكم بما أنزل الله ولا تقيم شرعه في الدول الشرقية والغربية .

لذلك أولاه القرآن الكريم عنايته الكبيرة في تشريع أحكامه، حيث أربت آياته على عشرين آية، وذلك ليكون على وفق مرضاة الله تعالى من وضعه في حله مع الطهر والعفاف والمحافظة على حدوده، من غير ميل ولا إجحاف، فأمر به أمر إباحة، وجعل له حدا يقف عنده فلا يتجاوز عنه، ونظم ما يترتب عليه من علاقة أُسْرِيَّة، وما قد يحوج إلى التخلّي عنه من خلع أو طلاق، إلى غير ذلك مما هو معروف في فقه الأحوال الشخصية، والعلاقة الأسرية .

كل ذلك بما يتفق مع مكارم أخلاق الإسلام، وسموّه ووسطيّته .
وسأبحث جوانب من هذا الباب مما تمس الحاجة إليه في مكارم أخلاق القرآن الكريم، وذلك مع الإيجاز غير المخل إن شاء الله تعالى .

تشريع النكاح

أما تشريع أصل النكاح فقد كان في آيات من كتاب الله الكريم منها قوله تعالى:
﴿... فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوِلُوا﴾ وآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿[سورة النساء: ٣٤]

فهذه الآية تدل على إباحة النكاح عند الاستطاعة على مؤنه إلى حدود أربع نسوة بمجتمعات، وهو أمر إباحة لمن قدر عليه، فليتزوج إن شاء واحدة، وإن شاء اثنتين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً، ولا يجوز له الزيادة على ذلك، لأن ذلك هو حد الطاقة التي يمكن لبني آدم أن يحتاجوا لها أو يقدرُوا عليها، وقيموا العدل بينهن، وإن ظنوا عدم القدرة

على إقامة العدل بينهن فالواجب عليهم حينئذ الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت أيمانهم من الإماء، وذلك للمحافظة على ذلك الخلق الاجتماعي العظيم وهو العدل (١) .

وهذا تشريع إلهي عظيم لأمر النكاح قائم على مكارم الأخلاق ووسطية التشريع، حيث لم يقتصر به على حده الأدنى، ولم يجر فيه العدد الكثير، وإنما أجاز عددا معقولا، مقيدا بالعدل في القسمة بين الزوجات فيما يقدر على قسمته من بيت ونفقة ..

ونحو هذه الآية في الدلالة على تشريع النكاح قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمَنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ... ﴾ [سورة النساء: ٢٥] .

حيث أباحت نكاح الإماء المؤمنات عند العجز من الفقر عن نكاح الحرائر المؤمنات . والآيات الدالة على مشروعية النكاح غير ما ذكر كثيرة كآيات الامتنان به، السابق ذكر بعض منها .

والآيات التي عنيت ببيان أحكامه من صداق وعشرة وخلع وطلاق وإرث وغير ذلك كثيرة لا يخفى أمرها .

(١) انظر بحث هذه الآية ودلالاتها في تفسير الفخر الرازي ١٧٩-١٧٢/٩ .

تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم

لتشريع النكاح

وكما كان تشريع النكاح بكتاب الله تعالى في آيات كثيرة منه، فقد كان كذلك أيضا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية، التي ورد منها ما يتجاوز العد في مثل هذا البحث، ولنأت على ذكر طائفة منها :

طائفة من أقواله صلى الله عليه وسلم في تشريع النكاح:

فمن ذلك:

- ١- ما أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" (١).
- والباءة بالمد والهمز هي: "مؤن النكاح، بأن يتوق، إليه ويجد مهر المثل، وكسوة فصل ونفقة يوم وليلة، وقيل: هي القدرة على الجماع، لكن ينافيه قوله بعد ذلك: ومن لم يستطع... الخ، إذ العاجز عن الجماع لا يحتاج لصوم" (٢).
- ونلاحظ أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم به كان مقرونا ببيان فائدته الأخلاقية العظيمة، وهي أنه يحمل على غض الطرف عن النظر إلى المحرمات، ويحفظ الفرج عن الوقوع في موبقات الآثام.
- ٢- ومنها ما أخرجه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم" (٣).

(١) البخاري في الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٣/٣٤، وفي مواضع أخرى من صحيحه،

ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تآقت نفسه إليه، برقم ١٤٠٠.

(٢) الإفصاح عن أحاديث النكاح لابن حجر ص ١٢.

(٣) أبو داود في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم تلد من النساء برقم ٢٠٥٠، والنسائي في النكاح، باب

كراهية تزويج العقيم ٦/٦٥، وإسناده حسن، وله شاهد عند أحمد من حديث أنس، وصححه ابن حبان

كما في موارد الظمان للهيتمي برقم ٢٢٨.

٣- ومنها ما أخرجه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه في قصة النفر الذين تقالوا عبادتهم، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا، فجاء إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني" (١)، "أي ليس من أهل طريقي المقتدين بي، وهذا فيما إذا كان الحامل للرغبة في الإعراض عنه، هو الإعراض عن العمل بالسنة فحسب، أما إذا انضم إلى ذلك الإعراض احتقار السنة فإن المعنى حينئذ يكون: إنه ليس من أهل ملتي وهي الإسلام؛ لأن ذلك حينئذ كفر" (٢) والعياذ بالله تعالى .

وقد جاء هذا المعنى في أحاديث أخرى :

٤ - منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم قال: "من أحب فطرتي فليستن بسنتي، وإن من سنتي النكاح" (٣) .
سنته صلى الله عليه وسلم الفعلية في تشريع النكاح :
وقد كانت سنته صلى الله عليه وسلم أن تزوج وأكثر من الزواج في آخر عمره، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(١) متفق عليه وتقدم ص ٣٣٦ .

(٢) الإفصاح عن أحاديث النكاح لابن حجر الهيتمي ص ١٥ .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى في كتاب النكاح ٧/٧٨، وعزاه الهيتمي في المجمع ٤/٢٥٥ إلى أبي يعلى قال: ورجاله ثقات غير أنهما أخرجاه من حديث عبيد بن سعد، ولذلك علق الهيتمي صحته بصحة صحبة عبيد بن سعد قال: وإلا فهو مرسل، غير أن البيهقي بعد أن أورده من مسند عبيد، قال: وروى ذلك عن أبي حرة عن الحسن عن أبي هريرة، وعليه فيكون الحديث جاء من طريقين، وقد صحت طريق عبيد بن سعد إليه، ويبقى النظر في طريق أبي هريرة فإن كان أبو حرة هو حنيفة الرقاشي فهو ثقة كما في التقريب رقم ١٥٨٨ وإن كان واصل بن عبد الرحمن فهو صدوق، وقد كان يدللس عن الحسن كما أفاده الحافظ في التقريب عند ترجمته برقم ٧٣٨٥ وهذا هو الأظهر والله أعلم .

١ - «حُبِّبَ إِلَى النَّسَاءِ وَالطُّيْبِ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (١) .

٢ - وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «إن خير هذه الأمة أكثرها نساء» (٢)
يعني النبي صلى الله عليه وسلم حيث توفي عن تسع نسوة، وكان قد فارق غيرهن بموت
أو طلاق .

مقاصد النبي صلى الله عليه وسلم من تزوجه عددا من النساء :

ولم يكن ذلك لمجرد إشباع الغريزة، أو بدافع الشهوة البشرية كما يزعم أعداء الدين
من الكفرة والمستشرقين ومن شايعهم من الملحدين، بل كان ذلك لأغراض نبيلة، ومقاصد
عظيمة، تتفق مع جنابه العظيم، وعظيم رسالته، وهي مقاصد في غاية الأهمية لبعثته
المباركة ورسالته العامة الخالدة، وهي تعود إلى أربعة مقاصد :

١ - مقاصد تعليمية .

٢ - مقاصد تشريعية .

٣ - مقاصد اجتماعية .

٤ - مقاصد إصلاحية .

وقد حقق النبي صلى الله عليه وسلم نتائج هذه المقاصد كلها على أحسن وجه وأكمل
صورة، بحيث إنها لم تكن لتحقيق إلا عن طريق زواجه المبارك بأمهات المؤمنين المباركات
رضي الله عنهن، كما شاء الله تعالى ذلك، وكما سيأتي بيانه في الآتي :

١ - المقاصد التعليمية :

أما المقاصد التعليمية فهي أهم المقاصد لتعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم حيث إنه
عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الرجال والنساء، واختُصت النساء بأحكام خاصة لا يقدر
ذو الخلق العظيم الذي كان أشد حياء من العذراء في خدرها أن يعبر عنها، كما أن
شريعته الغراء عيّنت بالأحكام الأسرية الخاصة التي لا يُطلَع عليها عادة في الظاهر،
كعنايتها بالأحكام الاجتماعية والفردية الظاهرة .

ولا يمكن أن تنقل الأحكام النسوية الخاصة تلك، أو الأسرية هذه إلا عن طريق

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه في الصلاة ص ٦٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب كثرة النساء ٤/٧ .

الأزواج، ولا يمكن أن تفي واحدة منهن بالقيام بهذه المهمة نظرا لكثرة تشريعها، فكان لا بد من أن يتزوج صلى الله عليه وسلم عددا من النساء للقيام بهذه المهمة .

وقد قمن بذلك خير قيام والشواهد على ذلك كثيرة معلومة؛

الشواهد على قيام أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بنقل تشريعات الأحكام الأسرية :

ومن النوع الأول ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن غسلها من المحيض ؟ فأمرها كيف تغتسل ثم قال: «خذي فرصة من مسك - قطعة من مسك - فتطهري بها، قالت: كيف أتطهر بها ؟ قال: تطهري بها، قالت: كيف أتطهر بها ؟ قال: سبحان الله ! تطهري بها، قالت عائشة رضي الله عنها: فاجتذبتها إليّ فقلت: تَبَّعي بها أثر الدم» (١) .

وفي رواية قال لها: «خذي فرصة ممسكة وتوضئي ثلاثا» ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم استحيا فأعرض وجهه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبي صلى الله عليه وسلم .

فانظر إلى الدور الذي قامت به عائشة رضي الله عنها، إذ لولاها لأدى الحال إلى أحد شيئين: إما إلى أن يُخرج النبي صلى الله عليه وسلم في التعبير الذي لا يساعده حياؤه العظيم عليه، أو إلى أن ترجع المرأة من غير أن تدرك الحكم الشرعي الذي استفتت عنه. وكم كان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل مثل هذه الحالات حتى قالت عائشة رضي الله عنها: "نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين" كما في بعض طرق هذا الحديث عند مسلم .

وأما النوع الثاني: وهي الأحكام الأسرية أو الذاتية الفردية التي تجري غالبا في البيت، ولا يطلع عليها إلا الزوجة والولد ونحوهما، كالتهجد والقيام والمناجاة وقراءة القرآن والصيام، حيث كان يصبح فيقول: هل عندكم شيء ؟ فإن قالوا: لا، قال: إني إذا

(١) البخاري في المحيض، باب ذلك المرأة نفسها إذا تطهرت في الحيض ٨٢/١، وأبوابا أخرى، ومسلم في

الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم برقم ٣٣٢ .

صائم، ونحو ذلك، وغشيان الأهل وآدابه، وأحكام الجنابة والغسل، وما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في بيته وغالب شمائله وأحواله ...

إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة فإنها ما نقلت إلا عن طريق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وخدامه ومواليه، ثم أصبحت شرعا لأمته، ولولا تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم لما استطاعت الواحدة والاثنتان غير العدد الذي كن عليه القيام بذلك الدور، إذ إن هذه الأمور تُمثِّل شطر الدين؛ لأن الشريعة الإسلامية ذات شطرين: شطر أعمال ظاهرة، وشطرها الآخر أعمال خفية سرّية، فإذا كانت الأعمال الظاهرة نقلها ذلك الجسم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم، فإن الأعمال الخفية تحتاج إلى عدد كثير يحملها، وقد كان العبء الأكبر على أمهات المؤمنين، وإن شاركن غيرهن في ذلك من رجال ونساء، فيما اطلعوا عليه، فهو قليل .

ومن صور ذلك مثلاً: حكم من أصبح جنباً في نهار رمضان، فقد كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي هريرة رضي الله عنه يقولون بعدم صحة صوم من أصبح جنباً، حتى علموا حكم ذلك من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

كما أخرج ذلك مسلم رحمه الله تعالى من حديث أبي بكر بن عبد الرحمن قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يَقْصُ يقول في قَصْصِهِ: من أدركه الفجر جنباً فلا يصم، قال: فذكرت ذلك لعبد الرحمن بن الحارث فأنكر ذلك، فانطلق عبد الرحمن وانطلقت معه حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، فسألتهما عبد الرحمن عن ذلك قال: فكلتا هما قالت: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يُصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم ...» الحديث، إلى أن قال: فقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت ذلك من الفضل ولم أسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فرجع أبو هريرة عما كان يقول في ذلك (١) .

(١) أخرجه مسلم في الصيام باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم ١١٠٩ .

فانظر مبلغ الفائدة والرافة والرحمة التي حصلت للمسلمين في هذا الحكم الذي كان يخفى على صحابي جليل كأبي هريرة؛ لأنه مما لا يطلع أمثاله عليه، وإنما هو من خصوصيات ربات المنزل .

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يرشح أمهات المؤمنين للقيام بهذه المهمة المناطة بهن، فقد جاءه رجل يسأله: أيقبل الصائم؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سل هذه» لأم سلمة، فأخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ذلك... (١) .

٢ - المقصد التشريعي:

وأما المقصد الثاني وهو المقصد التشريعي فهو ما حصل من زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزینب بنت جحش رضي الله عنها التي كانت زوجا لمُتَبَّأه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقد كان من عاداتهم، وما يروونه دينا متوارثا، أن يتبنَّى الرجلُ الرجلَ فيُدعى ابنه وينسب إليه، ويرث كل منهما الآخر، ويحرم على كل منهما ما يحرم بالبنوة الحقيقية من زوجة المتبنَّى - بالفتح - والمتبنَّى - بالكسر - إلى غير ذلك من عاداتهم في هذا المجال، وما كانت هذه العادة الراسخة في نفوسهم ستقتلع إلا بتشريع فعلي يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما حصل بالفعل (٢) .

على أن الحقيقة في أمر زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزینب رضي الله عنها، ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم فيه خيرة، إنما كان بأمر الله تعالى وقضائه المبرم الذي ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم وسع في مخالفته، حيث زوّجه بها من فوق سبع سموات، كما كانت تفتخر به زينب رضي الله عنها على ضراتها (٣)، وقد شاء الله تعالى أن يكون تشريعه لهذه المسألة بتلك الصورة التي جرت عليها، وأنزل فيها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة. ويتضمن عتابا شديدا للنبي صلى الله عليه وسلم على ترده في ذلك، لما خشي

(١) أخرجه مسلم في الصيام، باب أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته برقم ١١٠٨ .

(٢) وقد تقدم تخريج القصة في مبحث الحياء ص ٤٧٣

(٣) كما سيأتي تخريجه قريبا ص ٦٨٣

على عرضه من قالة السوء التي سيرددها أهل الباطل من منافقين ويهود بقصد النيل منه صلى الله عليه وسلم وهو العفيف الكريم، اقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ (١) وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ (٢) أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ (٣) مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ (٤) وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٧] .

وقد كانت زينب رضي الله عنها تفتخر على ضراتها من نسائه صلى الله عليه وسلم وتقول: «زَوَّجَكُنْ أَهَالِيكُنْ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ» (٥) .

٣ - المقاصد الاجتماعية :

أما المقاصد الاجتماعية: فهي كثيرة ومهمة وتعود لأغراض نبيلة فاضلة منها :

أ - ترسيخ المحبة بينه صلى الله عليه وسلم وبين من تزوج منهم، بله عن إعطائهم مزية خاصة بين أصحابه ليكون ذلك بمثابة ترشيحهم لأمر عظيم سيتحملونه، وذلك كتزوجه صلى الله عليه وسلم من أبي بكر رضي الله عنه ابنته عائشة رضي الله عنها، ومن عمر ابنته حفصة رضي الله عنهما، حيث كانا له صلى الله عليه وسلم بمثابة وزيري صدق، وكان لهما من السبق إلى الإسلام والتضحية في سبيله وعظيم المحبة له صلى الله عليه وسلم ما يوجب لهما المزية على غيرهما، وليس هناك سبيل لأن يعطيها النبي صلى الله عليه وسلم تلك المزية أفضل من أن يكون عن طريق التزوج منهما، لما في التزوج من

(١) أي: بالإسلام .

(٢) أي: بالعتق .

(٣) أي: مما قد اطلعك الله عليه من أنها ستكون زوجتك .

(٤) أي: أن يقولوا تزوج زوجة ابنه .

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد، وكان عرشه على الماء ١٥٢/٩، وانظر مرشد المختار لابن طولون ص ٢٨٧

امتزاج الصلات، واختلاط الوشائج، بحيث يصبح المتزوّج والمتزوّج منهم كأنهم لحمٌ واحد .

وتأمل امتنان الله تعالى على عباده بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٥٤] .

تجد من أسرار ما تولده المصاهرة من أواصر المودة والنصرة والمؤازرة التي هي أصل نظام الاجتماع البشري لتكوين القبائل والشعوب، وتعاونهم على الحق أو الباطل مما جاء بهذه الحضارة المرتقية مع العصور والأقطار، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾ (١) [سورة الحجرات: ١٣] .

وقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب مع كبار أصحابه بالتزويج منهم تارة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أو تزويجهم تارة أخرى كعثمان وعلي رضي الله عنهما، وهم الأربعة الذين ولوا الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم، وكان فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بمثابة دليل على كمال رضاه عنهم، وتزويجهم، ومنقبة يمتازون بها على من سواهم .

ب - القيام بما ينبغي أن يقوم به شخص كالنبي صلى الله عليه وسلم نحو من ضحوا بأنفسهم في الدفاع عن رسالته، أو كان له سابق فضل في الاستجابة لها والنصرة، وتحمل الأذى والعناء، ثم تركوا أزواجهم وأولادهم لا عائل لهم غير الله تعالى .

حيث كان صلى الله عليه وسلم يقوم بما يقدر عليه نحو أولئك الأرامل والأيتام، فإن رأى الزوج هو الأنسب فعل، كما في قصة تزوجه صلى الله عليه وسلم من سودة بنت زمعة رضي الله عنها، التي كانت قد تأيمت من السكران بن عمرو، وكان لها فضل السبق إلى الإسلام والهجرة إلى الحبشة (٢) .

وكما في قصة تزوجه صلى الله عليه وسلم بأُم سلمة رضي الله عنها لما تأيمت من

(١) التحرير والتنوير ٥٦/٩، ومحاسن التأويل ٢٦٨/٢ .

(٢) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيتمي ص ١٣٧ .

أبي سلمة رضي الله عنه، الذي كان قد توفي شهيدا إثر أحد؛ لأصابة حلت به في المعركة، وكان من السابقين إلى الإسلام وهاجر الهجرتين، وكانت قد تعلت بعلل، منها أنها ذات عيال، فأخبرها النبي صلى الله عليه وسلم بأن عيالها هم عياله .

وكما في قصة زواجه صلى الله عليه وسلم من حفصة بنت عمر رضي الله عنهما لما تأيمت من خنيس بن حذافة السهمي الذي توفي شهيدا من جراحات أصابته ببدر .
وكما في قصة زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت خزيمة بن الحارث الملقبة بـ"أم المساكين" لكثرة برها بهم، التي تأيمت من عبيدة بن الحارث الذي قتل ببدر شهيدا، وقيل: من عبد الله بن جحش الذي استشهد بأحد، ثم ماتت في حياته صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول سنة أربع، بعد مُضيّ ثمانية أشهر من زواجها به صلى الله عليه وسلم (١) .

فهؤلاء النسوة الأرمال رضي الله عنهن ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم كبير حاجة بهن لولا وفاؤه العظيم لأصحابه الذين سقطوا شهداء في سبيل نصره دين الله تعالى، وتبليغ رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولو كان الدافع لذلك رغبة جنسية لاختار العرب الأبكار ونحوهن من المحبات إلى الرجال، كما كان يحث أصحابه بقوله: «هَلَّا بَكْرًا تَلَاعِبَهَا وَتَلَاعِبَكَ» (٢) .

غير أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن له غرض ولا قصد بذلك، وإنما كان غرضه وقصده هو إعفاف تلك الأرمال، وإعالة أولادهن إن كان لهن أولاد، وفاء لهن ولأزواجهن على السبق للإسلام، وعلى التضحية والجهاد في سبيل نصرته صلى الله عليه وسلم ونصرة دينه .

فكان صلى الله عليه وسلم الوفي الحميد الذي يَخْلُفُهُمْ في أهليهم وأولادهم وما وُلُوا .

(١) مرشد المختار إلى خصائص المختار لابن طولون ص ٢٦١-٢٦٢ .

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في الجهاد، باب استئذان الرجل الإهام ٦٣/٤ ، وورد بلفظ: (هلا جارية) في

النكاح، باب الثيبات ٦/٧، وفي النفقات، باب عون المرأة زوجها في ولده ٨٥/٧، وفي المغازي

١٢٣/٥، ومسلم في الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين برقم ٧١٥ من حديث جابر .

٤- المقصد السياسي :

أما المقصد السياسي فقد كان مهماً وذا أثر إيجابي عظيم، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم: قد يهدف من زواجه بإحدى النسوة اللاتي أصبحن أمهات للمؤمنين لأمر بعيد شأوه، جليل خطره، من تأليف القلوب عليه، وجمع القبائل حوله، التي تولده المصاهرة كما مر غير بعيد، أو الرغبة في المن والترغيب في الإسلام، فكان يتحقق ذلك على خير وجه وأكمله .

فقد تزوج عليه الصلاة والسلام بأم حبيبة - رُملة بنت أبي سفيان - صخر بن حرب، وهي بعيدة عنه حيث كانت بأرض الحبشة مهاجرة إلى الله فررا بدينها من أبيها الذي كان من أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم وزعمائهم، وذلك بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش، الذي كان قد هاجر معها أيضاً للغرض نفسه ثم لم يلبث أن ارتد إلى النصرانية ثم مات، وعيذاً بالله من خاتمة السوء .

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه (١) يطلب منه أن يزوجه بها ففعل بعد أن وكلت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وأمهرها النجاشي عنه صلى الله عليه وسلم أربعمئة دينار ، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وقيل سنة ست ولها من العمر بضع وثلاثون سنة، فلما بلغ أبا سفيان ذلك قال: "هو الفحل لا يقدح أنفه" (٢) ، كناية عن افتخاره بهذه المصاهرة. فكان هذا الزواج سبباً لتخفيف الأذى عنه صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه المسلمين، لما حصل له من

(١) واسمه أصحمة بن أبجر النجاشي، والنجاشي لقبه، وكان قد أسلم وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم عندما

هاجر إليه المسلمون في هجرتهم الأولى، وذلك لما عرض عليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الإسلام

وصفات النبي صلى الله عليه وسلم، ولما مات النجاشي أعلم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم

فصلّى عليه صلاة الغائب كما هو ثابت في الصحيحين، وانظر الإصابة ١/١٠٩ .

(٢) مضمي تفسير هذا اللفظ ص ٦٧١ ، ويروى: (لا يقرع) ومعناه واضح .

تأليف قلبه وقلب قومه وعشيرته (١) .

ناهيك عن الغرض الآخر الذي هدف إليه النبي صلى الله عليه وسلم من تزوجه بها رضي الله عنها، وهو جبر قلبها لما نالها من شدة العناء في الهجرة إلى أرض الحبشة، ثم ردة زوجها ووفاته، وأصبحت وحيدة فريدة غريبة وهي بنت سيد قومها، فما كان أجدرها بأن يجبر كسرهما بمثل هذا الجبران الذي نسيت به كل شدة نالتها، كما دل على ذلك فرحها العظيم الذي عبّرت عنه بعبائها الكريم، لأبرهة التي زفّت إليها البشري تلك، البالغ قدره خمسين ديناراً، غير أنها أبت قبوله، بأمر من النجاشي نفسه رضي الله عنه.

فتأمل المقصد السامي الذي حققه رسول الله صلى الله عليه وسلم بزواجه الميمون من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، تدرك بعد نظر النبي صلى الله عليه وسلم وكمال حكمته، وتعلم أنه لم يقصد الشهوة قط، فقد تزوجها وهي بعيدة عنه في أرض الحبشة فلم يكن لو كان قصده قضاء الوطر ليدع القريبات منه ويتزوج تلك المرأة البعيدة، والتي يعلم أن مجيئها محفوف بخطر الموت في الأسفار والبحار، ولكنه الوفاء لمثل هذه المهاجرة الغريبة، وبعد النظر في مصالح الدعوة ومصالح الأمة لا غير .

وكما حقق النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الزواج غرضاً سياسياً مهماً، ووفاء عظيماً لأتباعه، فقد حقق من زواجه بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، وصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني قريظة مقاصد سياسية مهمة أيضاً .

أما جويرية بنت الحارث رضي الله عنها فقد تحقق للنبي صلى الله عليه وسلم من

(١) انظر طبقات ابن سعد ٩٦/٨ - ١٠٠، ومرشد المختار لابن طولون ص ٢٦٨، والسيرة النبوية في ضوء

القرآن والسنة لأبي شهبه ٣١٥/٢، وشبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم

للصابوني ص ٣١-٣٢، وانظر إصلاح المجتمع للبيحاني ص ٢٩٦-٢٩٧، ومحمد صلى الله عليه وسلم

لمحمد أحمد جاد المولى ص ٢٥٢ - ٢٦٠، وحياة محمد صلى الله عليه وسلم لمحمد حسين هيكل ص ٣١٥

زواجه بها غرض سامي طالما تشوّف الشارع إليه، ألا وهو العتق حيث إنها بعد أن سببت في غزوة بني المصطلق سنة خمس أو ست، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، الملقب بخطيب الأنصار رضي الله عنه (١) فكاتبها على تسع أواق فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها فلما دخلت عليه قالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، وقد كاتبت على نفسي، فأعني على كتابتي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أو خير لك من ذلك؟ أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك" قالت: نعم. ففعل ذلك، فبلغ الناس أنه قد تزوجها، فقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلوا ما كان في أيديهم من الأسارى والسبايا. قالت عائشة رضي الله عنها: "فلقد أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم منها على قومها بركة" (٢) .

فترى الهدف الأسمى الذي تحقق من زواجه صلى الله عليه وسلم بجويرية الذي ما كان يستحق لولا تزوجه صلى الله عليه وسلم بها، وهذا يدل على سياسة حكيمة بالغة الحكمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى مبلغ منزلته صلى الله عليه وسلم في قلوب أصحابه، حيث لم يطبقوا استبقاء الأرقاء والسبايا ممن أصبحوا أصهارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إكراما له وإجلالا .

(١) وكان ممن شهد أحدا وما بعدها، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، واستشهد يوم اليمامة، وكان له قصة بعد موته مع من أخذ درعه النفيسة عليه بعد استشهاده، انظرها في تهذيب الأسماء ١٤٠/١، والإصابة ١٩٥/١، ونحوهما .

(٢) طبقات ابن سعد ١١٦/٨، وسيرة ابن هشام ٤/٨، والاستيعاب بهامش الإصابة ٢٥٨/٤، والإصابة ٢٦٥/٤، ومرشد المختار ص ٢٦٥، والقصة أخرجها أبو داود في العتق، باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة برقم ٣٩٣١، والإمام أحمد في المسند ٢٧٧/٦، والحاكم في المستدرک ٢٦/٤، وصحح الألباني إسناده ابن هشام في تعليقه على فقه السنة ص ٢٩٦ .

(٣) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

أما صفية بنت حيي رضي الله عنها فإن المقصد السياسي من زواجها كان عظيما ومهما، إذ لولا مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم بزواجها لحصلت مفسد كثيرة في مجتمع أصحابه رضي الله عنهم. فقد كانت نسيج وحدها من سبايا خير جمالا وشرفا، وكان دحية الكلبي^(١) رضي الله عنه قد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعطني جارية من السبي فقال له: "اذهب فخذ جارية" فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا بني الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أدعوه بها، فجاء بها فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "خذ جارية من السبي غيرها"^(٢).

فترى كيف غار الصحابة على دحية ونفسوه أن يتميز عليهم بسيدة بني قريظة والنضير، ولم يكونوا يرونه أهلا من بينهم لأن يتميز بذلك دونهم، وكاد يستفحل الخلاف بينهم وبينه لولا تدارك النبي صلى الله عليه وسلم الموقف، ونزع فتيل الخلاف الذي كاد يشتعل.

وقد بين أهل العلم وجه استرجاع النبي صلى الله عليه وسلم صفية من دحية رضي الله عنها.

فقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "يحتمل ما جرى مع دحية وجهين:

أحدهما: أن يكون ردَّ الجارية برضاها، وأذن له في غيرها.

والثاني: أنه إنما أذن له في جارية من حشو السبي، لا أفضلهن فلما رأى النبي صلى الله

(١) هو ابن خليفة بن فضالة بن فروة الكلبي، أسلم قديما وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد

كلها بعد بدر، وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى هرقل، وكان من

أجل الناس وكان جبريل يأتي على النبي صلى الله عليه وسلم في صورته، وتوفي في خلافة معاوية رضي

الله عنه. انظر الاستيعاب ٤٧٢/١ مع الإصابة، وتهذيب الأسماء ١٨٥/١.

(٢) انظر مرشد المختار ص ٢٧٢، والحديث أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر ١٦٨/٥، ومسلم في

النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها برقم ١٣٦٥، من حديث أنس رضي الله عنه.

عليه وسلم أنه أخذ أنفسهن وأجودهن نسبا وشرفا في قومها وجمالا استرجعها لأنه لم يأذن له فيها، ورأى في إبقائها لدحية مفسدة ؛

لتمييزه بمثلها على باقي الجيش ،

ولما فيه من انتهاكها مع مرتبتها وكونها بنت سيدهم ،

ولما يخاف من استعلائها على دحية بسبب مرتبتها، وربما ترتب على ذلك شقاق أو غيره، فكان أخذ النبي صلى الله عليه وسلم إياها لنفسه قاطعا لكل هذه المفاسد المتخوفة، ومع هذا فعوض دحية عنها^(١) .

وجاء في بعض روايات الحديث أنه صلى الله عليه وسلم اشتراها منه بسبعة أرؤس، يعني أعطاه بدلها سبعة أنفس تطيبا لقلبه، لا أنه جرى عقد بيع كما تدل عليه الروايات الأخرى للقصة^(٢) .

فانظر إلى عظيم حكمته صلى الله عليه وسلم وبديع سياسته وبعد نظره، إذ قطع دابر الفتنة بما لا يبقى لأحد في نفسه أدنى تردد في حسن صنعه وكمال حكمته والتسليم له بذلك .

ناهيك عما كان في تزوجه صلى الله عليه وسلم صفية من مقصد آخر كان صلى الله عليه وسلم يحرص على مثله، ألا وهو تأليف قلوب من بقي من اليهود الذين كانوا بالأمس قوة كبيرة في شبه الجزيرة العربية، لها ثقلها العظيم، ووزنها الكبير، الذي يحسب له حساب، ثم ما لبثوا أن انهزموا هزيمة منكرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم. غير أن لهم جذورا وفروعا متفرقة في بقاع كثيرة من بقية الجزيرة وأطراف الشام، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤلف قلوبهم علَّ الله أن يهديهم للإسلام، أو يكفُّوا عنه أذاهم ويُعطوا الجزية، وأقرب سبيل لذلك وأحسنه هي المصاهرة التي تدل على القرب، وتؤدي إلى الود والنصرة، لا سيما من ابنة زعيمهم، إضافة إلى أن في تزوجه صلى

(١) شرح النووي على مسلم ٢٢٠/٩ نقلا عن المازري رحمهما الله تعالى .

(٢) شرح النووي على مسلم ٢٢٠/٩ نقلا عن المازري رحمهما الله تعالى .

الله عليه وسلم من ابنت سيدهم تكريماً بليغا لها، وصونا لها عن أن ينقص بهام منزلتها فإنها من سلالة نبوة كريمة، وبذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسليها ويبين فضلها فيقول لها: "إِنَّكَ لَأَبْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنْ عَمَّكَ لَنَبِيٍّ، وَإِنَّكَ لَتَحْتَ نَبِيٍّ .." (١) .

فما كان مصابها بأبيها وزوجها وأخيها سيحبها وهي الكريمة إلا بمثل ذلك التكريم العظيم، الذي نسيت به كل مصاب، وهكذا كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم مع كرماء الناس وساداتهم .

وقد ذكر العلامة ابن طولون (٢) وجوها في حكمة تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم قد أتينا على معظمها وأهمها، ولكن نذكر عبارته في ذلك لمزيد الفائدة، ومعرفة وجوه أخرى من ذلك، فقال:

"أحدها: أنه كان صلى الله عليه وسلم مأمورا بنشر الشريعة وتبليغ الأحكام فأمر بكثرتهم لينقلن عنه الأخبار قولاً وفعلاً قال تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا نَمُوتُ وَأَنَّا نَحْيَا﴾ واذكُرْنِ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴿سُورَةُ الْأَحْزَابِ: ٣٤﴾ .

وقد نقلت عائشة رضي الله عنها من ذلك الكثير الطيب، وقد أوضح بعضهم هذا فقال: السر في إباحة أكثر من أربع أن الله تعالى أراد نقل بواطن الشريعة وظواهرها وما يستحي من ذكره وما لا يستحي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، فجعل الله تعالى له نسوة ينقلن من الشرع ما يرينه من أفعاله، ويسمعنه من أقواله التي قد يستحي من الإفصاح بها بحضرة الرجال ليكمل نقل الشريعة، فكثرة عدد النساء لنقلهن عنه من الأفعال ما يستحي هو من التلفظ به .

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٣٨٩٤ من حديث أنس، وقال عنه: حسن صحيح .

(٢) هو محمد بن علي بن أحمد بن طولون الدمشقي الصالح الملقب بشمس الدين، كان عالماً متفناً وعابداً صالحاً، له مؤلفات كثيرة في السيرة والتاريخ والفقه وغير ذلك، منها: مرشد المختار، وإعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين توفي سنة ٩٥٣ هـ، انظر الأعلام ٦/٢٩١ .

وأيضاً: فقد نقلن ما لم يعقله غيرهن مما رأينه في منامه، وحال خلوته، من الآيات البيّنات الدالة على نبوته، ومن جده واجتهاده في العبادة، ومن أمور يشهد كل ذي لُبّ بأنها لا تكون إلاّ لنيي، وما كان شاهداً غيرهن فحصل بذلك خير عظيم .

وأيضاً: فإن الله سبحانه وتعالى أراد نقل محاسنه الباطنة كما اطلع الرجال على محاسنه الظاهرة ليكون مكمل الظاهر والباطن ، وقد تزوج بأُم حبيبة وأبوها ذلك الوقت عدوه، وصفية، وقد قتل أباهما، وغيرهما فلو لم يطلعن من باطن أحواله على أنه أكمل الخلق لكانت الطباع البشرية تقتضي ميلهن إلى أبائهن وقرابتهن وأن يذكرن ما يرينه، فلما كان مكمل الباطن وشاهدنه، زاد إيمانهن بمحبته صلى الله عليه وسلم .

ثانيها: أنه صلى الله عليه وسلم كان يدّعي فيه الكفار أنه ساحر، فنفاه الله عنه بكثرة النساء؛ لأن من عادتتهن نقل ما يرينه مما لا يمكن خفاؤه، وانظر قصة عائشة وحفصة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا...﴾ [سورة التحريم: ٣] نجد لذلك الإفشاء حكمة لطيفة ...، ثم نقل عن أهل العلم ما يؤيد ذلك (١) .

ثالثها: أنه صلى الله عليه وسلم كان كثير الحلم، واسع الصدر، حسن الخلق، يصبر على تحمل أذى النسوة، بخلاف أحاد الأمة، فلذلك مُنعوا من الزيادة (٢) .

فهذه الوجوه التي ذكرها ابن طولون وجبهة جدا، وهي تؤيد ما سبق استنتاجه من مقاصد نكاحه صلى الله عليه وسلم .

وقال الشيخ تقي الدين السبكي (٣) رحمه الله تعالى:

(١) قال: "ولمّا أشار ابن يونس في كتابه "نهاية النفاسة" فقال: وإنما حجب إليه النساء ليطلعن على ما لديه، فينفين ما نسب إليه مما لا يجوز عليه، قال في شرح التعجيز: فيظهر كذب من رماه بأنه كاهن أو شاعر أو مجنون .." .

(٢) مرشد المختار إلى خصائص النبي المختار ص ٢٥٢-٢٥٣ .

(٣) هو الإمام الفقيه المحدث الحافظ المفسر الأصولي النحوي اللغوي المجتهد تقي الدين أبو الحسن ^{عليه} عبد الكافي السبكي الشافعي، صاحب التصانيف الكثيرة منها: شرح المنهاج الفقهي، ومنها: فتاواه المشهورة =

« السرُّ في إباحة أكثر من أربع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أراد نقل بواطن الشريعة وظواهرها، وما يستحي من ذكره وما لا يستحي منه، وكان رسول الله عليه وسلم أشد الناس حياء، فجعل الله تعالى له نسوة ينقلن من الشرع ما يرينه من أفعاله، ويسمعنه من أقواله التي قد يستحي من الإفصاح بها بحضرة الرجال، ليكتمل نقل الشريعة، وكثرة عدد النساء ليكثر الناقلون لهذا النوع، ومنهن عرف مسائل الغسل والحيض والعدة ونحوها، قال: ولم يكن ذلك لشهوة منه في النكاح، ولا كان يحب الوطء للذة البشرية معاذ الله، وإنما حب إليه النساء لنقلهن عنه ما يستحي هو من الإمعان في التلفظ به، فأحبهن لما فيه من الإعانة على نقل الشريعة في هذه الأبواب .

وأيضاً فقد نقلن ما لم ينقله غيرهن مما رأيته في منامه، وحالة خلوته من الآيات البينات على نبوته، ومن جده واجتهاده في العبادة، ومن أمور يشهد كل ذي لب أنها لا تكون إلا لني، وما كان يشهدا غيرهن، فحصل بذلك خير عظيم" (١) .

ولست أقصد مما قدمت: دحض شبهات الأعداء الألداء من ملحدين ومستشرقين، الموجهة لصاحب العصمة الإلهية، والهداية الربانية، والتصرفات السديدة صلى الله عليه وسلم، فإنها شبهات مغرصة لا تنطلي على من له أدنى إلمام بالشريعة الغراء، التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما على من في قلبه عمى، وفي أذنه وقْر عن سماع الهدى، فإني قد كُفيت عن ذلك بما كتبه جهابذة أفذاذ، حازوا قصب السبق إلى ذلك، ولهم القُدح المَعلى في العلم، وجودة الكتابة وإحكام نقض الشبهات، ودحض المفتريات (٢)، وإنما قصدت أن ألمح إلماحة سريعة إلى هذه القضية، حتى لا يظل القاريء

= توفي سنة ٧٥٦هـ، انظر البداية والنهاية ٢٥٢/١٤، وطبقات الشافعية لابنه تاج الدين ١٤١/٦ ط

الحسينية، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٢٥، وغيرها .

(١) نقله السيوطي في حاشيته على سنن النسائي ٦٤/٧ .

(٢) وذلك كفضيلة الشيخ محمد أبي زهرة في كتابه "خاتم النبیین" ١٤٩٥/٢ - ١٥١٢، والشيخ سعيد حوى في

كتاب "الرسول" صلى الله عليه وسلم ص ١٥٩ - ١٧٢، والدكتور محمد حسين هيكل في كتابه =

متلهفا إلى الإجابة، إن كان قد وسوس إليه الشيطان بعض الشكوك، أو سمع بعض الإفك، ذلك لأنه من المعلوم بداهة أن من يهدف إلى إشباع نزواته وشهواته، أن لا يرضيه إشباعها إلا بأحسن الوجوه، وأكمل الأحوال، لا سيما إن كان ذلك متيسرا له، ولا يخفى على دارس تأريخه صلى الله عليه وسلم أنه لم يتزوج إلا بعد بلوغه من العمر خمسا وعشرين سنة، وذلك هو عنفوان شبابه، وأوج قوة غريزته، وقد اختار لنفسه في هذا الحال امرأة ثيبة ذات عيال، في الأربعين من عمرها، وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومكث معها لا يبغي بها بديلا حتى وافاها الأجل المحتوم بعد مضي خمس وعشرين سنة وهي في عامها الخامس والستين، وهو صلى الله عليه وسلم في الخمسين من عمره المبارك، فعلام يدل هذا ؟!

فلما لحقت بباريها في العام العاشر من النبوة تزوج امرأة أخرى نحو الأولى في الكبر والثبوة والعيال، وهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية رضي الله عنها، وذلك لما تأيئت من الشكران بن عمرو رضي الله عنه، الذي مات في مكة في العام العاشر من البعثة، بعد أن عاد من هجرته من الحبشة، وخلف أرملته المسكينة بين أهلها الكفار، ثم عقد على عائشة رضي الله عنها، ولكنه لم يدخل بها إلا بعد الهجرة على رأس ثمانية أشهر من مهاجره، وهي الوحيدة من نسائه صلى الله عليه وسلم التي تزوجها وهي جارية بكر، وذلك بعد أن جاوز سن الشباب، ودخل في سن الكهولة^(١)، ثم لما بدأت مرحلة الكفاح العملي المستمر بعد هجرته والإذن له صلى الله عليه وسلم بالجهاد، بدأ صلى الله عليه وسلم يوالي بين زوجاته للأغراض السامية التي مر الحديث عنها.

= "حياة محمد" ص ٣١٥ - ٣٢٦، وفضيلة الشيخ الدكتور محمد بن محمد أبي شهبه في كتابه "السيرة النبوية

في ضوء القرآن والسنة ٢/ ٢٩٤ - ٣٠٦، وعباس محمود العقاد في كتابه عبقرية محمد ص ١٠٤ - ١٠٧.

ولفضيلة الشيخ محمد بن علي الصابوني رسالة خاصة في ذلك إسمها: "شبهات وأباطيل حول تعدد

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم". وانظر أيضا فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٢٥٢، وعظمة

الرسول صلى الله عليه وسلم محمد عطية الإبراشي ص ٣٤٢ - ٤٧٠ وغيرهم كثير.

(١) وقد اختلف العلماء في أيهما التي تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم قبل، سودة أم عائشة رضي الله =

فهل هذا يدل على أغراض شخصية من تعدد الزوجات ؟! فأين مكان اللهو والفراغ في حياة رجل توزع ليله ونهاره بين الجهاد المستمر، وبين العبادة وقيام الليل إلى أن تورمت قدماءه، وبين تلقي الوحي والسهر على مصالح الدولة الناشئة، وبين تربية الأمة، وتلقي الوفود، والفصل بين قضايا المسلمين ... إلى غير ذلك من مسئوليات الرسالة التي لا تدع لصاحبها فرصة في راحة أو منفذاً لهدوء . فأين مكان الشهوة وحظ الجسد ممن هذه ظروفه وتلك مهامه ؟! ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [سورة الكهف: ٥] .

= عنهما، وقد لخص ابن طولون في مرشد المختار الخلاف وحقق المسألة بقوله:

"فرجح النووي وابن سيد الناس وجمع من الحفاظ أن سودة هي التي تزوجها بعد خديجة، وهو قول قتادة وابن قتيبة وطائفة.

وقيل: بل عائشة ورجحه آخرون. انظر مرشد المختار ص ٢٥٦-٢٥٧ .

المبحث الرابع

(الصَّدَاق)

قال الراجز في المفردات: "صَدَاق المرأة، وِصْدَاقُها، وَصُدِّقَتْها: ما تُعْطَى من مهرها" (١).

وفي الصحاح قال: "الصَّدَاق والصَّدَاق: مهر المرأة، وكذلك الصدقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [سورة النساء: ٤]، قال: والصدقة: مثله بالضم وتسكين الدال، وقد أَصْدَقْتُ المرأة: إذا سَمِيتَ لها صداقا" (٢).

فالصداق: هو المهر، "وهو في اللغة - أي المهر - ماوجب بنكاح".

وفي الشرع: ما وجب بنكاح، أو وطء (٣)، أو تفويت بضع قهرا، (٤).

ويحصل الصداق بكل ما صح كونه مبيعا، عوضا أو مُعَوَّضا (٥).

ومنه تعلم أن الصداق عوض يدفع للمرأة مقابل الانتفاع بِبُضعها.

وقد أوجبه الشارع الحكيم بقوله جل ذكره: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [سورة النساء: ٤] (٦)، وقوله جل شأنه: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٤].

(١) المفردات للراجز ص ٢٧٨.

(٢) الصحاح للجوهري ١٥٠٦/٤.

(٣) أي: وطء شبهة، أو كان العقد فاسدا.

(٤) كأن كان له زوجة كبرى، وعقد على بنت رضية، فأرضعتها زوجته الكبرى خمس رضعات متفرقات،

فإنه ينفسخ نكاح الاثنين، ويجب على الكبرى نصف مهر الصغيرة للزوج.

(٥) الباقوت النفيس للشاطري ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٦) أي: عطية عن طيب نفس. اهـ، تفسير الجلالين ٩٤/١.

وقوله تعالى في الآية التالية لهذه: ﴿... فانكحوهنَّ بإذن أهلهنَّ وآتوهنَّ أجورهنَّ بالمعروف﴾ [سورة النساء: ٢٥] .

وفي هاتين الآيتين سماه أجرا؛ لأنه في مقابل المنفعة، كما سماه فريضة أيضا .
فهذه الآيات الثلاث توجب للمرأة على الزوج مهرا بما استحلت بضعها، ليكون فارقا بين الزواج الشرعي والمخادنة المحرمة، وأيضا ليكون له اليد في القوامة عليها مقابل ما بذل من ماله وجهده كما قال سبحانه: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [سورة النساء: ٣٤] .

ولما في ذلك أيضا من جبر لخاطر المرأة، وتسلية لها عما تقدمه بعد ذلك من بذل نفسها له، وبذل جهدها في خدمته، وترتيب بيته، وتربية أولاده .
إلى غير ذلك من المصالح الكبرى التي يحققها بذل المهر .

وجعله فرضا خاصا بالنساء وحقا لمن ليس لأحد سلطان عليه من قريب لها أو بعيد، وذلك ليحقق الغرض الذي بذل من أجله، إذ أنها هي التي تصبح فراشا للزوج، ومنها تنشأ آثار النكاح، ولذلك جعل لها كامل التصرف فيه، فإذا أعطت منه لزوجها عن طيب نفس ورضى، فهو حلال يأكله هنيئا مريئا؛ لأنه تصرف من تام الملك، ومختار التصرف، وكامل الإرادة .

والقرآن الكريم يقرر في الآيات السابقة، ويؤكد على أحقية المرأة للمهر، لينهي بذلك ما كانت عليه الجاهلية القديمة، والجاهلية الحديثة من سطو أولياء المرأة من أب أو أخ أو نحوهما على مهرها فيأخذوه ويأكلوه، ولا يرى للمرأة الزوجة حقا في ذلك، فجعله القرآن الكريم حقا لها وحدها دون مشاركة أحد لها فيه، وبذلك يكون قد منع الأولياء من سطوة التعدي عليها في حقها .

وكما منع الأولياء من ذلك، فقد منع أيضا الأزواج من محاولة استرداده عند عدم الوثام، واضطرارهم إلى المفارقة وفك عرى الزوجية، فقال في ذلك: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهنَّ قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بُهتاناً وإثماً مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذنَّ منكم ميثاقا غليظا﴾ [سورة النساء: ٢٠، ٢١] .

وفي هاتين الآيتين بالغ الزجر للأزواج عن الرجوع فيما يعطون لزوجاتهم من مهر، ولو كان قنطاراً وهو كناية عن الكثرة الكثيرة .

فإنه سبحانه صدر ذلك بالنهي الصريح المقتضي للتحريم، ثم التأكيد عليه بـ "شيئاً" وهو نكرة في سياق النهي يقتضي عموم النهي عن الرجوع في الحقيـر والجليل .

ثم أكد على ذلك النهي بالإنكار الشديد عن الرجوع فيه، حيث سماه بهتاناً وإثماً مبيناً، وساق ذلك مساق الاستفهام الإنكاري التوبيخي، ثم أكد هذا الإنكار باستفهام إنكاري تعجبي آخر هو أشد منه وقعا وأمضى أثراً في النفس فقال: ﴿ وكيف تأخذونه... ﴾، والمعنى: "ليس من المروءة أن تطمعوا في أخذ عوض عن الفراق بعد معاشرة امتزاج، وعهد متين" (١) .

وذلك كله لتأكيد أحقية المرأة بمهرها، وعدم إقرار أحد أن ينازعها فيه، سواء كان ولياً أو زوجاً، ولو كان بعد مرحلة الوفاق وإرادة الفراق، فإنها بتمكينها نفسها ولو مرة واحدة، استوجبت كل ما بذل لها من مهر مهما كثر، لا يحل انتزاعه منها إلا عن طيب نفس وقناعة بإهداء أو مخالعة .

وهذه الآيات دعوة إلى مكارم الأخلاق في معاملة النساء من بنات وأخوات وزوجات، إذ فيها حث على عفة النفس عن حقوقهن، وإلهاباً لمشاعر الحنان عليهن، لما هن عليه من الضعف، وتذكير بالموءدة التي تكون بين الزوجين قبل تنافر القلوب، وحث على الوفاء لهن على ذلك، إلى غير ذلك مما تدل عليه هذه الآيات الكريمات من حقوق زوجية وأسرية .

إِصْدَاقُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ

تلك هي نظرة القرآن الكريم لصداق المرأة، وقد علمت ما فيه من بالغ الدلالة على تعظيمه لشأنه، وذلك من خلال أوامره المتكررة بإيجابه، والتحذير من التعدي على المرأة فيه، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الناس وأولهم امتثالاً لتلك الأوامر القرآنية كلها، حيث كان إذا تزوج امرأة أصدقها بما يقدر عليه كما تدل عليه الأدلة الآتية :

١ - سئلت عائشة رضي الله عنها: كم كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: "كان صداقه لأزواجه اثني عشرة أوقيةً ونِشًا، قالت: أتدري ما النِّش؟ قال: لا، قالت: نصف أوقية، فذلك خمسمائة درهم" (١) .

٢ - وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ".. ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه، ولا أصدق امرأة من بناته أكثر من اثني عشرة أوقية" (٢) .

كان ذلك صداقه صلى الله عليه وسلم لنسائه كما علمت، وهو مبلغ وسط غير كبير مفرط، ولا قليل مجحف، وقد رضي بقدر هذا المبلغ لابنته فاطمة رضي الله عنها حينما زوجها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما تقدم أنه أعطاها درعه الحطمية، وكان قيمتها أربعمائة درهم (٣)، وكما علمت من أثر عمر الآنف الذكر، وهو يدل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يدفع للمرأة مهرها، أيًا كان الحال، من غنى وفقر، فهو صلى الله عليه وسلم ما كان يتوانى عن دفع المهر، مع كمال رغبة من يتقدم

(١) أخرجه مسلم في النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن برقم ١٤٢٦، وأبو داود في النكاح، باب

الصداق برقم ٢١٠٥، والنسائي في النكاح، باب القسط في الأصدقة ١١٦/٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب الصداق برقم ٢١٠٦، والترمذي في النكاح، باب رقم ٢٣ برقم

١١١٤، والنسائي في النكاح، باب القسط في الأصدقة ١١٧/٦، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٣) انظر ص ٦٥٤.

لخطبتهن بزواجه من غير مطالبة منهن بصداق لو أنه أراد ذلك، إذ كمال سعادة المرأة وبالع حظها أن تحظى بزواجه صلى الله عليه وسلم، كما يدل على ذلك ما كان يجري من أمهات المؤمنين اللاتي يخطبهن من كمال الفرح والغبطة عند علمهن بذلك،

١ - فحديجة بنت خويلد رضي الله عنه كان بالغ سعادتها أن يرضاها النبي صلى الله عليه وسلم زوجها له، كما يدل على ذلك عرض نفسها عليه (١) .

٢ - وسودة بنت زمعة رضي الله عنها ما تماكنت أن قالت حينما علمت برغبة النبي صلى الله عليه وسلم في خطبتها: "وددت ذلك" (٢) .

٣ - وعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ما لبث أبوها حينما جاءته خولة بنت حكيم لتبلغه رغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عائشة، ما لبث أن قال لها: "قولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليأت" (٣) .

إلى غير ذلك من قصص تزوجه صلى الله عليه وسلم بنسائه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن واحدة واحدة، ومع ذلك كان يبذل لهن المهر اللائق بهن من غير وكس ولا شطط، إلا صفية بنت حبي، فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها، وجعل عتقها صداقها، وذلك أفضل من أي مال يمكن أن يدفع، إذ أمهرها حرية نفسها، وكذلك فعل بجويرية بنت الحارث المصطلقية كما مضى تقريره وبيانه قريبا .

وكما كان يحرص على دفع المهر لنسائه فإنه كذلك ما كان يتوانى عن طلبه لبناته عند تزويجهن، ولو كان الزوج معسرا، كما كان من حال علي رضي الله عنه، وذلك ليقرر لأمتة هذا الحق اللازم للزوجة على زوجها فتأسى به فيه، فيبذل الأزواج مهور نسائهم عن قناعة ورضى وطيب نفس، تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢١٣/١ .

(٢) انظر السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيتمي ص ١٦٢ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٥٥ .

تقريره لذلك بقوله :

وكما كان صلى الله عليه وسلم يقرر ذلك بفعله، فقد كان يقرره أيضا بقوله، حيث كان يأمر مبريدي الزواج من أصحابه ببذل الصداق مهما كان حالهم من الفقر، ولكن على قدر ميسورهم، فما كان يكلف أحدا فوق طاقته، وإنما يكلفه بذل ما يقدر عليه،

١ - فقد جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا، جلست فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوّجنيها، فقال له صلى الله عليه وسلم: هل عندك من شيء؟ قال: لا والله يا رسول الله، فقال: "اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا"، فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انظر ولو خائفا من حديد"، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خائفا من حديد، ولكن هذا إزارى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تصنع بإزارك، إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء" فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه النبي صلى الله عليه وسلم مولى فأمر به فدعي، فلما جاء قال: "ماذا معك من القرآن؟" قال: معي سورة كذا وسورة كذا، عددها، فقال: "تقرؤون عن ظهر قلبك؟" قال: نعم، قال: "اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن" (١) .

فترى أنه صلى الله عليه وسلم لم يملكه إياها، بمعنى أنه لم يزوجه بها حتى بذل مهرا، وكان المهر لما أعوزه العين، منفعة عظيمة، هي تعليمه إياها القرآن الذي في صدره، ويحفظه عن ظهر قلب، وذلك دليل على أنه لا بد من بذل المهر وإن قل، وهو ما أجمع

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب تزويج المعسر ٨/٧، ومسلم في النكاح بالصداق وجواز كونه تعليم

القرآن برقم ١٤٢٥ من حديث سهل بن سعد .

عليه أهل العلم (١) .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم مع ذلك يكره المغالات في المهور، ويحبّذ بقاءها في مستوى متوسط، فقد جاء إليه رجل وقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار فأعني على مهرها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل نظرت إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً؟" (٢)، قال: قد نظرت إليها، قال: "على كم تزوّجتها؟" قال: على أربع أواق، قال: "على أربع أواق؟! كأنكم تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه، فبعث عينا إلى بني عبّس فبعثه معهم" (٣) .

هكذا كان صلى الله عليه وسلم يكره المغالة في المهور؛ لأن في ذلك إجهاداً للزوج، وعاملاً على عدم القدرة على الزواج الذي كان يحث عليه، ويندب إلى الإكثار منه .
وذلك ما فهمه سيدنا عمر رضي الله عنه من هديه صلى الله عليه وسلم في الصداق، حتى خطب الناس في إمارته وقال: "ألا لا تغالوا في صدقات النساء، فإن ذلك لو كان مكرومة في الدنيا، وتقوى عند الله، كان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه، ولا أصدقته امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية" (٤)

وما بذله الرجل قد كان أقل مما بذله النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان بقدر الثلث فقط، ومع ذلك فقد عده صلى الله عليه وسلم كثيراً؛ لأن ذلك فوق طاقته، حتى احتاج إلى أن يستعين بالنبي صلى الله عليه وسلم في دفع المهر الذي تحمله، وذلك

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٤/٥ .

(٢) يعني بذلك صغر العين .

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها برقم ١٤٢٤ من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) تقدم تخريجه قريباً، وهو حديث صحيح .
ص ٦٩٩

إرشاد منه صلى الله عليه وسلم على أن يبذل كل واحد بقدر طاقته فقط.
وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصدق نساءه، ويوجهه على أمته لما في
الصدّاق من مكارم أخلاقية عظيمة، كالإشارة إلى قِوامة الرجل، والصدّاق في المعاملة،
والإحساس بشعور المرأة، والتكريم لها، وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه .

المبحث الخامس

(العشرة بالمعروف)

بعد أن عرفنا تلك المباحث المهمة في النكاح ومقدماته من تحرر، وخطبة، وصداق، وغير ذلك مما تقدم ذكره من أبحاث، تعين أن يعلم المرء الحال الذي ينبغي أن يكون عليه في حياته الزوجية، ويتمثل ذلك بأهم الأخلاق الأسرية وهي العشرة بالمعروف التي تتم بها السعادة الزوجية، والحياة الاجتماعية المرضية .

ولنبداً بتعريف العشرة بالمعروف لنعلم ما تعنيه هذه الكلمة من مدلولات سامية .
فالعشرة لغة: المخالطة، يقال: عاشره معاشرةً وتعاشروا واعتشروا: إذا تخالطوا، والمعاشرة مفاعلة منها (١) .

أما المعروف: فهو اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه، وضده المنكر (٢) .
ومعناها بعد تركيبها: « الإنصاف في القسَم والنفقة والإجمال في القول والفعل (٣) »
وهو المعنى الذي ندب إليه القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿ وعاشروهنَّ بالمعروفِ فإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ [سورة النساء: ١٩] .
قال الحافظ ابن كثير: "أي: أطيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله كما قال تعالى: ﴿ ولهنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروف ﴾" [سورة البقرة: ٢٢٨] (٤) .

وقال القرطبي: "وذلك - أي العشرة بالمعروف - توفية حقها من المهر والنفقة، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقاً في القول، لا فظاً ولا غليظاً، ولا مظهرًا ميلاً إلى غيرها" إلى أن قال: "فأمر الله سبحانه بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي ٩٠/٢، والصاحح للجوهري ٧٤٧/٢ .

(٢) المفردات للراغب ص ٣٣٠ .

(٣) روح المعاني ٢٤٣/٤/٢ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٦٦/١ .

أدمة ما بينهم وصحبتهم على الكمال، فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش، قال: وهذا واجب على الزوج ولا يلزمه في القضاء" (١) .

فهذا ما تعنيه هذه الكلمة في عرف الشرع كما جاء على لسان أهله .
وهي بهذا المعنى تعني التحلي بمكارم الأخلاق في معاملة الزوجة، من صبر على ما قد ييدر منهن أو تقصير في أداء واجباتهن، ومن حلم عن إيذائهن في القول أو الفعل، وعفو وصفح عن ذلك، ومن كرم في القول والبذل، ولين في الجانب، ورحمة في المعاملة إلى غير ذلك مما تعنيه مكارم الأخلاق التعاملية الأسرية .

حث القرآن الكريم على معاملة الزوجات بالمعروف :

وكم في القرآن من حث الأزواج على معاملة الزوجات بالمعروف في جميع مراحل الحياة الزوجية من وفاق وفراق، حيث ابتدأ توجيه القرآن الكريم إليه من أول مراحل بناء الأسرة وهو بذل المهر، حيث أمر ببذله بالمعروف كما قال سبحانه: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: ٢٥]، أي: بغير مطل أو اضرار أو نقصان" (٢) .

- وعند تعذر الحياة الزوجية، واختيار أبغض الحلال إلى الله وهو الطلاق ، يقول سبحانه: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩] ويقول: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ...﴾ [سورة البقرة: ٢٣١]، والإمساك بالمعروف هو "بالمراجعة وحسن العشرة، والتسريح بالإحسان أو بالمعروف يكون بالطلقة الثالثة، وبأن لا يراجعها حتى تبين" (٣) .
- وعند اختيار الطلاق يرشد المولى عباده ألا يكون الطلاق هو سيف القطيعة الصارم، فأرشدهم إلى المتعة التي تخفف من صولة الوحشة بين الزوجين فقال: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ

(١) جامع أحكام القرآن ٩٧/٥ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ١٠٩ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٥١ .

على الموسيع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴿[سورة البقرة: ٢٣٦]، وقال: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ [سورة البقرة: ٢٤١] .

- وعند اختيار الزوجين العودة إلى حياتهما الزوجية بعد أن تفرقا بالطلاق، أرشد المولى جل وعلا الأولياء إلى أن لا يكونوا حرج عشرة عن العودة إلى الألفة والاجتماع الأسري فيقول: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف...﴾ [سورة البقرة: ٢٣٢] .

- إلى غير ذلك من الآيات الحاثّة على انتهاز المعروف في الحياة الزوجية لتكمل هذه الحياة السعادة الروحية، مما يدل على أن مبنى الحياة الزوجية على العشرة بالمعروف في كل أطوارها وأحوالها، وهو ما نصت عليه الآية السابقة ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ .
ثم إن هذه العشرة هي الأصل في الحياة الزوجية التي جعلها الله تعالى على المودة والرحمة كما قال: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة﴾ [سورة الروم: ٢١]، فمن اتصف بها فقد حقق معنى الحياة الزوجية الصحيحة التي جعلها الله بين الزوجين .

على أن حسن العشرة لا تعني كف الأذى عنهن فقط، بل احتمال الأذى منهن، والحلم عند طيشهن وغضبهن، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كانت أزواجه يراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن إلى الليل كما سيأتي بيانه في التطبيق إن شاء الله .

ثم أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح والملاعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجة عقولهن في الأعمال، كما جاء أنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها في العدو (١) .

غير أنه لا ينبغي أن يتبسط في الدعابة واللين إلى حد يفسد خلقها، ويسقط بالكلية

(١) سيأتي تحريجه قريباً ص ٧٠٨ .

هيئته عندها، بل يراعي الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكرا، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألّبتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تغير وامتنع، لأن ذلك هو معنى القوامه التي جعلها الله تعالى في يده، فإذا لم يكن سهلا في مواضع السهولة، حازما في مواضع الحزم، فقد أفلت القوامه من يده، وبدل نعمة الله كفرا، وله في رسول الله أسوة حسنة، فقد كان خير الناس لأهله، ولكنه لم يترك الشدة معهن إذا ما اقتضى الأمر ذلك كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

تمثل خلق العشرة بالمعروف عند النبي صلى الله عليه وسلم

لم تعرف المرأة عشرة زوجية بالمعروف، كما تعنيه هذه العشرة، من كمال لأحد من البشر كما عرفته لرسول الله صلى الله عليه وسلم المبين للقرآن بحاله وقاله وأفعاله .
حيث "كان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم معهن أنه جميل العشرة دائم البشر يداعب أهله ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه حتى أنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في البرية في بعض سفراته يتودد إليها بذلك، قالت: "سابقني رسول الله فسبقته وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقتة بعد ما حملت اللحم فسبقني فقال: "هذه بتلك" (١) وكان يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها (٢)، وكان ينام مع المرأة من نساءه في شعار واحد يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار (٣)، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام يؤنسهم بذلك صلى الله عليه وسلم" قاله الحافظ ابن كثير (٤) رحمه الله تعالى .
ولقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم معيار خيرية الرجال في حسن عشرة الزوجات

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في السبق على الرجل برقم ٢٥٧٨، وأحمد في المسند ٢٦٤/٦، والنسائي في عشرة النساء ص ٢٨، وابن ماجه في النكاح، باب حسن معاشره النساء برقم ١٩٧٩ من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال العراقي في تخريج الإحياء ٤٤/٢: إسناده صحيح، وصححه الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ١٣١ .

(٢) يدل لذلك حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم في الرضاع، باب القسم بين الزوجات ... برقم ١١٦٢ .

(٣) ثبت ذلك في حاله صلى الله عليه وسلم مع عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، انظر السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيتمي ص ٩٠ - ١٤٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٦٦/١ .

فقال: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي" (١).

وذلك لأن التَّصَنُّع والتَّظَاهِر بمكارم الأخلاق تضعف حين يشعر الإنسان بأن له سلطة ونفوذاً، ثم تشتد ضعفاً حينما تطول معاشرته لمن له عليه السلطة، فإذا ظل الإنسان محافظاً على كماله الخُلقي في مجتمع له عليه سلطة، وله معه معاشرة دائمة ومعاملة مادية وأدبية، فذلك من خيار الناس أخلاقاً (٢).

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خير الناس لأهله، فإن معاشرته لهم لا بد أن تكون مثالية حقاً، في كل ما تغنيه الخيرية من كمال خُلقي في السُّلوك، والتَّعامل الأدبي، والتَّعامل من محبة وملاعبة، وعدل، ورحمة، ووفاء، وغير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية في جميع أحوالها وأيامها، كما أوضحت ذلك كتب السنة والشمائل والسيرة، وذلك هو ما دلت عليه السنة المشرفة بأحاديثها الكثيرة من سلوكه صلى الله عليه وسلم معهن ومعاملته لهن.

أ - فعن محبته لهن يحدث أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول:

١ - "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبَّيْ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ والطِّيبُ وجعل قرعة عيني في الصلاة" (٣).

٢ - وسأله عمرو بن العاص رضي الله عنه قائلاً: "يا رسول الله من أحبُّ الناس إليك؟ قال: "عائشة" قال: من الرجال؟ قال "أبوها" (٤).

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٣٨٩٥ من حديث عائشة رضي الله عنها وقال: حسن غريب صحيح من حديث الثوري، وقال: ما أقل من رواه عن الثوري، وأخرجه ابن ماجه في النكاح، باب حسن عشرة النساء برقم ١٩٧٧، وابن حبان في صحيحه ٣٣٠/١، ١٨٩/٦ الإحسان.

(٢) انظر الأخلاق الإسلامية للميداني ٤٤/١ - ٤٥.

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ٢٥٣.

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها برقم ٣٨٨٥ وقال: حديث حسن صحيح.

ب - وأما ملاعبته أهله فتحدثنا عنه عائشة رضي الله عنها فتقول:

١- كنت أَلْعَبُ بالبنات عند النبي صلى الله عليه وسلم وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يتقمم - أي يتغيب - منه فيُسربهن إلي فيلعبن معي" (١) .

٢- وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا عائشة أتعرفين هذه؟ قالت: لا يا بني الله، فقال: "هذه قينة - أي مَغْنِيَة - بني فلان، تُحِبُّ أَنْ تُغَيِّبَكَ؟ قالت: نعم، قال: فأعطاها طبقاً فغنتها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قد نفخ الشيطان في منخريها" (٢) يعني لما اشتدت نشوة غنائها.

٣- وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفقان وتضربان، والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه، فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه فقال: "دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد" وتلك الأيام أيام منى (٣)،

٤- وقالت عائشة رضي الله عنها رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فزجرهم عمر رضي الله عنه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "دعهم، أمانة بني أرفدة" يعني من الأمن (٤) .

وفي لفظ قالت: "لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على حجري، والحبشة يلعبون بحرابهم، في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه،

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب الانبساط إلى الناس ٣٧/٨ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٩/٣، والنسائي في عشرة النساء برقم ٧٤ من الكبري، وعزاه الهيثمي في الجمع

١٣٣/٨ إلى الطبراني وأحمد وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب قصة الحبش وقول النبي صلى الله عليه وسلم يا بني أرفدة ٢٢٥/٤ .

(٤) أخرجه البخاري في العيدين، باب إذا فاته العيد يصلي ركعتين ٢٩/٢، ومسلم في صلاة العيدين، باب

الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد برقم ٨٩٢، وهو المراد باللغو هنا .

لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو".

٥- وقد مر معك (١) حديث مسابقتي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها الدال على لعبه صلى الله عليه وسلم مع نسائه بنفسه الشريفة تلطفاً بهن، وتأنيساً لهن، لكريم عشرته وعظيم رأفته ورحمته.

٦- ومن حسن عشرته وكريم خلقه صلى الله عليه وسلم ما أفادته السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: "كنتُ أشرب من الإناء، وأنا حائض ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فيّ فيشرب، وأتعرّف العرف (٢) وأنا حائض، ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فيّ" (٣).

وفي رواية: "كنتُ أتعرّف العرف وأنا حائض فأعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وكنتُ أشرب من القدح فأناوله إياه فيضع فمه في الموضع الذي كنتُ أشرب (٤).

ج- وأما حلمه صلى الله عليه وسلم عن إساءتهن وصبره على أذيتهن فهو في ذلك المثل البشري الأعلى، بحيث لم يُسمع بأحد كان أحلم عن نسائه كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك مع عظيم جنابه، ورفيع قدره، وسُمُو منزلته عند الله تعالى وعند الناس، ولقد مرَّ بك من الدلائل على ذلك في مبحثي الصبر والحلم ما فيه

(١) ص ٧٠٨.

(٢) بفتح العين وإسكان الراء: هو العظم الذي عليه بقية من اللحم، يقال: تعرقته واعترقته: إذا أخذت منه اللحم بأسنانك. شرح مسلم ٢١١/٣.

(٣) أخرجه مسلم في الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها برقم ٣٠٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب في مؤكلة الحائض ومجامعتها برقم ٢٥٩، والنسائي في الطهارة، باب مؤكلة الحائض والشرب من سورها ١٤٨/١ وإسناد أبي داود صحيح.

الكفاية للاستدلال على ما قلت عموماً (١)، لكني أزيد هنا ما هو أَمَس في الدلالة على الموضوع فمن ذلك ما يلي :

١ - فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار، إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، قال: فصَحِبْتُ على امرأتي فراجعتني؛ فأنكرت أن تراجعني، قالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم إلى الليل، قال: فأفرعني ذلك وقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن، قال: ثم جمعت عليّ ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها: أي حفصة، أتغاضب إحداكن النبي صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل؟ قالت: نعم، قال: فقلت: قد خبت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فتهلكي؟... (٢) الحديث .

فانظر كيف انزعج عمر رضي الله عنه من مراجعة بسيطة راجعته بها زوجته، والنبي صلى الله عليه وسلم يقبل مراجعة نساؤه، بل ويتحمل غضبهن عليه، حتى يهجرنه من الكلام، وهو النبي الكريم والإمام العظيم، وما ذلك إلا لعظيم حلمه وبالع صبره صلى الله عليه وسلم .

٢ - والأعجب من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان مع ذلك الحال يلاطفهن في القول، وكأنه لم يصدر منهن شيء ذو بال، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله عليه وسلم: "إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبي" قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: "أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبي قلت: لا ورب إبراهيم" قالت: أجل والله يا رسول الله ما

(١) انظر ص ٥٩٦ مشلا .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ٣٦/٧ .

أهجر إلا اسمك" (١) .

٣ - وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحيفة، فانفلقت فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحيفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحيفة، ويقول: "غارت أمكم" ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند النبي هو في بيتها، فدفع الصحيفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت (٢) .

فانظر إلى مبلغ حلمه صلى الله عليه وسلم على أزواجه، حيث تظل إحداهن هاجرة له اليوم كله حتى تهجر اسمه الشريف، وتستطيل إحداهن بين يديه على ما يخالف الواجب في حقه عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فهو يَغْضِي عن ذلك ويحلم ويصبر ويصفح، وهو القادر على أن يفارقهن، فيبدله ربه خيراً منهن مسلمات مؤمنات قانتات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً، كما وعده ربه سبحانه إن هو طَلَّقَهُنَّ، ولكنه كان رؤوفاً رحيماً، يعفو ويصفح ولا يزيده كثرة الجهل عليه إلا حلماً .

ح - وأما الوفاء لمن فعله قد علم مما تقدم عن خلق الوفاء، وتطبيق النبي صلى الله عليه وسلم له في بابه، لاسيما مع زوجه خديجة رضي الله عنها، حتى بلغ من وفائه أن غارت منها عائشة رضي الله عنها وهي لم تدر كها ولم تضارها حتى قالت :

١ - "ما غرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها وثنائه عليها" (٣) .

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب غيرة النساء وَوَجَدْنَهُنَّ ٤٧/٧، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل

عائشة رضي الله عنها برقم ٢٤٣٩، والإمام أحمد في المسند ٦١/٦، ٢١٣ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب الغيرة ٤٦/٧، وأبو داود في البيوع والإجازات، باب فيمن أخذ شيئاً

يغرم مثله برقم ٣٥٦٧ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب غيرة النساء وَوَجَدْنَهُنَّ ٤٧/٧، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل

خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها برقم ٢٤٣٢ .

٢ - ومن صور وفائه معهن أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت آية التخيير ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا...﴾ [سورة الأحزاب: ٢١] بدأ بعائشة وقال لها: «إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمرني أبويك...» (١) خشية منه أن تختار زينة الحياة الدنيا لصغر سنّها، فتخسر الخير الكثير في الدنيا والآخرة، لكنها كانت أحرص على خير نفسها من أبويها، فقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "أفي هذا أستأمر أبوي؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة".

ثم استقرأ الحُجَرَ (٢) يخبر نساءه ويقول لهن: «إن عائشة رضي الله عنها قالت: كذا وكذا فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة، رضي الله عنهن كلهن . وكانت عائشة رضي الله عنها قد قالت له بعد ما اختارت الله ورسوله: وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لم يعثني مَعْنَةً ولا متعتنا، ولكن بعثني معلما ميسرا، لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها" (٣) . فاختزن الله ورسوله والدار الآخرة، ^{ذلك} وأيدل على أنهن رضي الله عنهن كنَّ قد تخلقن بأخلاق النبوة، فأصبحن يخترن ما اختاره صلى الله عليه وسلم لنفسه من الزهادة في الدنيا والرغبة في الآخرة، وذلك لبالغ تأثرهن بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت محل العظمة والكمال .

د - أما عدله صلى الله عليه وسلم بين أزواجه، فهو على نحو ما قلت من حبه وملاعبته وحلمه ووفائه، عدل ناشئ عن الشعور بالمسئولية، ومن فطرة الله تعالى له على الحق والعدل وبعثه بهما .

١ - فقد كان صلى الله عليه وسلم كما قالت عائشة رضي الله عنها: «لا يفضل

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٦/٦ .

(٢) جمع حجرة، وهن البيوت .

(٣) متفق عليه تقدم تخريجه في مبحث الوفاء ص ٥٥١ .

بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم يأتي إلا وهو يطوف علينا جميعا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلِّغ^{إلي} التي هو يومها فيبيت عندها» (١) .

٢ - ولم يكن يتغير حاله صلى الله عليه وسلم في العدل تبعا لتغير أحواله سفرا وحضرا، بل لقد كان يعدل في سفره كما يعدل في حضره، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأَيَّتُهُن خرج سهمها خرج بها معه، قالت: وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم تبتغي بذلك رضا رسول الله عليه وسلم» (٢) .

تعني بذلك لما كبرت، وأضحت لا إربة لها في الرجال .

٣ - وكان من عدله صلى الله عليه وسلم بينهن أنه كان إذا تزوج ثيبا أقام عندها ثلاثا لإيناسها، ثم يقسم لها كسائر نسائه، كما روت أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام عندها ثلاثا، وقال لها: "إنه ليس بك على أهلك هوان، إن شئت سبعت لك - أي: أقمت عندك سبعا - وإن سبعت لك سبعت لنسائي" قالت: ثلث (٣) .

٤ - ولقد بلغ به الحال في عدله صلى الله عليه وسلم أنه لم يفرط فيه حتى في مرض موته، حيث كان يطاف به عليهن في بيوتهن كل واحدة في نوبتها، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم، واشتد به وجعه استأذن

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في القسمة بين النساء برقم ٢١٣٥، وإسناده صحيح .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها... ٢٠٧/٣، وأبو داود في النكاح، باب القسمة بين

النساء برقم ٢١٣٨ .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع، باب قدر ما تستحقه البكر والثيب من إقامة الزوج عندها عقب الزفاف برقم

١٤٦٠، ومالك في الموطأ، كتاب النكاح، باب المقام عند البكر والأيم ٥/٩، وأبو داود في النكاح، باب في

المقام عند البكر برقم ٢١٢٢ .

أزواجه في أن يمرض في بيتي فأذن له ... الحديث (١) .

٥ - وفي رواية قالت: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: أين أنا غدا؟ يريد يوم عائشة، قالت: فأذن له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها، قالت: فمات في اليوم الذي كان يدور عليّ فيه في بيتي، فقبضه الله وإن رأسه لبين نحري وسحري (٢) وخالط ريقه ريقى (٣) .

٦ - ومع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال العدل بين نسائه في كل ما يقدر عليه مما هو في يده، فإنه مع ذلك كان يعتذر إلى الله تعالى فيما لا يقدر عليه مما هو خارج عن نطاق التكليف، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل ويقول: "اللهم هذا قسّمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" (٤) وهو يعني بذلك القلب كما فسره به أبو داود، وقيل: يعني الحب والمودة، كما فسره الترمذي، والمعنى: أن القسمة الحسّية قد كان صلى الله عليه وسلم يوفّي بها على الوجه الأكمل لأنها بيده، لكن القلب بيد الله، وقد جعل فيه حب عائشة أكثر من غيرها، وذلك خارج عن قدرته وإرادته .

ومع ذلك فهو يضرع إلى الله أن لا يلومه على ما ليس بيده، مع أن الأمر القلبي لا يجب العدل فيه، وإنما العدل في المبيت والنفقة، ولكن هذا من باب قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٠] .

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب الغسل والوضوء في المحضب والقدح...، ٥٩/١ .

(٢) السّحر: الرّقة، أي: أنه مات وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سحرها منه، وقيل: السحر ما لصق بالحلقوم من أعلى البطن، أ.هـ، النهاية ٣٤٦/٢ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب إذا استأذن الرجل نساءه في أن يمرض في بيت بعضهن فأذن له ٤٤/٧ .

(٤) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في القسم بين النساء برقم ٢١٣٤، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر برقم ١١٤٠، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٦٤/٧، والحاكم في المستدرک ١٨٧/٢، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني

في الإرواء ٨٢/٧ برقم ٢٠٨١ .

مما يدل على أن أمر العدل بين الزوجات خطير كما بينه صلى الله عليه وسلم في حديث آخر حيث قال: "من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط" وفي رواية: (مائل) (١).

وفي عشرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أسوة للمؤمنين، وعليهم معرفتها والتأسي بها لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]، لأن فعله صلى الله عليه وسلم كقوله وتقريره، تشريع لأُمَّته، وهدى لهم، يجب عليهم الاقتداء به ما لم يكن الفعل خاصا به.

حثه صلى الله عليه وسلم الرجال على حسن معاشرة أزواجهم :

ومع ذلك فقد دل النبي صلى الله عليه وسلم أُمَّته إلى ما تنبغي أن تكون عليه العشرة الزوجية بقوله، كما دلهم على ذلك بفعله، والثابت عنه صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أحاديث كثيرة أقتطف منها ما يأتي، من ذلك:

١- ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإذا ذهب تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا".

وفي رواية عند مسلم: "وإن ذهب تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها" (٢).

بين النساء

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، باب القسم، برقم ٢١٣٣، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين

الضرائر برقم ١١٤١، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٦٣/٧ من

المجتبى وابن حبان في صحيحه ٢٠٤/٦ الإحسان، والحاكم في المستدرک ١٨٦/٢، وصححه على

شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٨٠/٧ برقم ٢٠١٧.

(٢) البخاري في النكاح، باب الوصاة بالنساء ٣٤/٧، وفي غيره، ومسلم في الرضاع، باب الوصية بالنساء

برقم ١٤٦٨، والترمذي في الطلاق، باب ما جاء في مداراة النساء برقم ١١٨٨.

فانظر كيف جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الوصية بينهما وبين حقيقة، ليكون ذلك أدعى إلى قبول وصيته، لأنه إذا كان طبعها العوج، فإن من الواجب على الرجل أن يصبر عليها: ولا يؤمل أن تكون مستقيمة على الصراط، فإنها تصير إلى ما جُبلت عليه ولا بد، ولذلك كان طلب استقامتهن على النحو الأعدل مثار تعجب الشعراء حتى قال بعضهم :

هي الضَّلَعُ العوجاء لست تُقيمها ألا إنَّ تقويم الضُّلوع انكسارُها
وقال آخر فيما هو أعم منه :
ومكَلَّف الأشياء غير طبايعها متَطَلَّب في الماء جَذوة نار

٢ - وما زال النبي صلى الله عليه وسلم يكرر هذه الوصية كلما حانت الفرصة، ففي خطبة حجة الوداع أفرز لها جانبا كبيرا من خطبته العظيمة حيث قال صلى الله عليه وسلم: "ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عَوَانٌ - أي: أسيرات - عندكم، ليس تملكون شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن ذلك فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرِّح^(١)، فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، ألا وإن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وإن حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن"^(٢).

وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكرر وصيته بالنساء، لما يعلمه من حالهن الذي بينه في الحديث السابق، وهو الحال الذي قد لا يقدر على تحمُّله بعض الرجال الذين لا يملكون أنفسهم عند الغضب فيحمله عوج المرأة إلى أن يفارقها فيتفرَّق شمله، وتشتت أسرته وأهله .

(١) أي: غير مؤثر .

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم برقم ١٢١٨، من حديث جابر بن عبد الله

رضي الله عنه، والترمذي في تفسير التوبة برقم ١٣٠٨٧، واللفظ له .

ولذا أرشد النبي صلى الله عليه وسلم الأزواج في حديث آخر إلى ما فيه صلاح حاله مع أسرته بقوله:

٣ - "لا يَفْرِك - أي: لا يُبغض - مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر" (١).

٤ - وقال لهم أيضا: "إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلُقًا وألطفهم بأهله" (٢).

٥ - وقال: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي" (٣).

٦ - وقال: "كل شيء ليس من ذكر الله عز وجل فهو لهو، أو سهو، إلا أربع خصال:

مشي الرجل بين الغرضين (٤)، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، وتعليم السباحة" (٥).

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المعلومه الحاثه على انتهاج الأخلاق الحميدة مع الأهل والعشيرة.

تأديبه صلى الله عليه وسلم نساءه إذا اقتضى الأمر ذلك :

ومع تلك المعاشرة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتهجها مع أهله أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، ورحمة ورأفة وعطفا وتلطفا، إلا أنها لم تكن على ذلك الحال في جميع

(١) أخرجه مسلم في الرضاع، باب الوصية بالنساء برقم ١٤٦٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان برقم ٢٦١٢، وأحمد في المسند ٤٧/٦، ٩٩،

من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو مرسل من حديث أبي قلابة عن عائشة، وهو لم يسمع من

عائشة، ولكن للحديث شواهد بمعناه، منها الحديث الذي بعده، وهو حديث صحيح، فدل على أن

للحديث أصلا، ولذلك صححه الترمذي مع تصريحه بعدم سماع أبي قلابة من عائشة، وقال: وفي الباب

عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه قريبا ص ٧٠٩.

(٤) أي: بين الهدفين في تعلم الرماية، أو عند التحام القتال .

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء برقم ٥٢، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٧٢/٥ إلى الطبراني

في الأوسط والكبير، وإلى البزار قال: ورجال الطبراني رجال الصحيح خلا عبد الوهاب بن بخت وهو

ثقة، وذكر شواهد أخرى للحديث .

الأحوال؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حكيماً يضع كل تصرف في مكانه اللائق به، فحيث كانت تلك العشرة أجدى وأولى انتهجها، وإذا كان التأديب والزجر والمهجر هو الأجدر: اتخذها لأنه كما قيل :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوارد تحمي صفوه أن يُكدر^(١)

فالنساء بما فطرن عليه من الاعوجاج، وحدة العاطفة، يحتجن حتماً إلى تقويم وتربية وتأديب، ولأجل هذا خول الله تعالى الرجال هذه المسئولية حيث قال: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ (٢) حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ (٤) بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ [سورة النساء: ٣٤] .

والنبي صلى الله عليه وسلم في عشرته مع أهله لم يستغن عن اتخاذ هذا الأسلوب ليكون أسوة لأئمة في التربية والتأديب .

فإنه عليه الصلاة والسلام لما سأله نساؤه النفقة الخارجة عن حده، وأردن التوسع في الدنيا ولذاتها، خلاف ما اختاره لنفسه منها، هجرهن وآلى من الدخول عليهن شهراً، حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمَحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [سورة الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، فخيرهن النبي صلى الله عليه وسلم في البقاء معه على الكفاف، أو المفارقة فاختزن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كما تقدمت الإشارة إلى ذلك من حديث أنس وأم سلمة وابن عباس في الصحيحين وغيرهما .

(١) البيت للناطقة الديباني في أبيات أنشدها النبي صلى الله عليه وسلم، انظر مجمع الزوائد ١٢٩/٨ .

(٢) أي: مطيعات لأزواجهن .

(٣) أي: لفروجهن وغيرها في حال غيبة أزواجهن .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام إذا جد الجد في معاملته لهن ، بأن أخطأت خطأ لا يمكن التغاضي عنه، وذلك بأن كان دينياً، فإنه لا تأخذه في الإنكار عليهن وزجرهن في الله لومة لائم، فكان يعظ، ويوجّه، ويخوف، ويغضب، .. بحسب مقام كل قضية مما هو معلوم ولا يخفى أمره .

وهذا مما يدل على تكافؤ أخلاقه صلى الله عليه وسلم وتوازنها، حيث يضع كل أمر في نصابه ومحله اللائق الذي لا ينبغي غيره، كما تقدم لك بيانه وإيضاحه في المدخل فتذكره .

المبحث السادس

(الإنصاف والإحسان عند الاختلاف)

قد علمنا أن الحياة الزوجية ينبغي أن تكون مبنية على المودة والرحمة وحسن العشرة؛ لأنها حياة اجتماعية طويلة بين أطراف مختلفة لا يراعى فيها قرابة قريبة، ولا رحم موصولة غالباً، وحيث كانت كذلك في الغالب، فإنه لا يمكن أن تثمر وتؤتي أُكْلَهَا من الهدف الذي بنيت من أجله، إلا أن تكون على ذلك الحال من المودة وحسن العشرة .

ولكن الشرع الحنيف بما يحويه من شمولية لا يُنكر أن بناء الزوجية على ذلك قد يتعذر في بعض أفراد المجتمع أو قد يحدث له أن ينهار، وفي هذه الحالة كان لا بد من أن يضع له تشريعاً لائقاً يتلاءم مع سماحته وأهدافه، ومع الحالة التي وصل إليها هذا الزواج أو البيت الأسري الذي تصدعت أركانه (١) .

حديث القرآن الكريم عن الإنصاف والإحسان عند الاختلاف:

وقد شرع القرآن الكريم لهذه الحالة تشريعات مفعمة بالرحمة والإصلاح، حيث كانت بمثابة إرشادات جليلة لإبقاء الحياة الزوجية متماسكة، وإعادة شملها بعد ظهور التصدع، إذ أنه لم يجز الإسراع في فِصم عُرَى الزوجية على الفور، بمجرد اندلاع الشقاق بين الزوجين، وإنما شرع تشريعات أولية لمحاولة رأب الصدع، وإعادة الشمل: من الوعظ، فالهجر، فالضرب التأديبي اليسير، فالتحكيم، فالطلاق أو الخلع في نهاية المطاف، وعند الوصول إلى هذه المرحلة التي تعتبر بغیضة لدى الشرع المطهر؛ لما لها من آثار وخيمة، لم يكتف بمحاولاته السابقة في الإبقاء على الحياة الزوجية، والتسليم بالأمر الواقع عند نفاذها، وإنما كانت له هنا محاولات قد تثمر إيجابياً في إعادة الأمر إلى وضعه الطبيعي، وذلك أن جعل الطلاق على كيفية خاصة وعلى مراحل متعددة.

(١) انظر الطلاق في الشريعة الإسلامية والقانون للدكتور أحمد الغندور، ط الأولى، دار المعارف بمصر سنة

أما الكيفية: فأن يكون في طهر لم يجامعها فيه، وأما المراحل: فأن يكون بطلقة واحدة رجعية، وهي في هذه الحال في حكم الزوجة من حيث السكنى والنفقة والميراث عدا المعاشرة الزوجية، فيحق له أن يراجعها في أي وقت ما دامت في العدة بغير عقد ولا مهر وإنما بقوله: أرجعت زوجتي فلانة إلى عصمتي، والإشهاد عليه عند الشافعية ومن وافقهم، فإن انقضت العدة ولم يراجع بانت منه، وحصل الغرض من الفرقة، ولا ترجع إليه بعدها إلا بمهر وعقد جديدين وترجع على ما بقي معها من عدد الطلقات.

أما إذا راجع فيها فإنها تعود إلى العصمة وتبقى معه بطلقتين، وترجع لها كل حقوقها الزوجية، وما يترتب عليها من تشريعات عند فساد العشرة ثانية على النحو الذي أشرت إليه آنفاً، إلى أن تتم عدة الطلقات الثلاث فحينئذ لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره. هذا مجمل ما أتت به الشريعة الغراء من أحكام تشريعية لمعالجة ما يطرأ على الحياة الزوجية من شقاق، وعند استقراء كتاب الله تعالى نجد هذه التشريعات مبينة فيه أكمل بيان.

حيث تحدث عن ذلك في نحو ثلاث عشرة آية، بين فيها جميع مسائل الحياة الزوجية عند الاختلاف على النحو الذي تقدم عرضه.

وذلك يدل على حرص الشريعة الإسلامية على إبقاء أوامر الزوجية متماسكة، والحفاظ عليها من الانهيار، الذي يترتب عليه أضرار ومفاسد عظيمة للزوجين أنفسهما، ولأولادهما ومجتمعهما.

وسأذكر بيان هذه التشريعات في الكتاب الكريم على سبيل الإيجاز.

ويمكن أن أعيد هذه التشريعات إلى مرحلتين: مرحلة محاولة الوفاق، ومرحلة الفراق.

مرحلة الوفاق :

أما المرحلة الأولى وهي مرحلة محاولة الوفاق، فقد جاءت في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ [سورة

فهذه الآية تضمنت ما ينبغي القيام به عند خوف فساد العشرة لظهور بوادر الشقاق بنشوز المرأة عن زوجها، وهو عصيانها وتعاليلها عما أوجب الله عليها من الطاعة لزوجها، حيث أرشد الله تعالى الأزواج إلى محاولة إصلاح شأنهما بأحسن الوسائل، وهي: الوعظ فالهجر فالضرب على الترتيب، لا يرتقي إلى مرتبة مهما حصل الغرض بالمرتبة الأخف، بل يجب الاكتفاء بها، ولم يجز الإقدام على المرتبة الأشق .

أما الوعظ: فبالتخويف بالله تعالى وأليم عقابه إن هي أصرت على نشوزها، وبيان عظم حقه عليها، وذلك كأن يقول لها: اتقي الله فإن لي عليك حقا، وارجعي عما أنت عليه، واعلمي أن طاعتي فرض عليك، ويذكرها بقوله صلى الله عليه وسلم: "لو كنتُ أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها" (١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: "إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح" (٢) .

فإن كان نشوزها جهلا بحقه، أو كان ينفعها الذكرى، كان هذا الوعظ كافيا لها، فلا يتعداه إلى المرحلة الثانية التي هي الهجر .

فإن أصرت على ذلك النشوز فعند ذلك يهجرها في المضجع، أي: في فراش النوم، كأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، فإن الزوج إذا أعرض عن فراشها إن كانت محبة للزوج فذلك يشق عليها، فترجع للصالح، وتترك النشوز، وإن كانت تبغضه وافقها ذلك الهجران، فكان ذلك دليلا على كمال نشوزها .

وعندئذ يكون قد عاملها بالتي هي أحسن فلم ينجع معها ذلك، فحقه أن ينتقل إلى الطور الأخير في هذه المرحلة وهو الضرب الذي هو آخر العلاج في هذه المرحلة .

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة برقم ١١٥٩ من حديث أبي هريرة،

وقال الترمذي: حسن صحيح، وله شاهد عند داود بنحوه في النكاح، باب حق الزوج على المرأة برقم ٢١٤٠

من حديث قيس بن سعد .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ٣٩/٧، ومسلم في النكاح برقم

١٤٣٦ من حديث أبي هريرة .

فإنه هو الذي يصلحها له، ويحملها على توفية حقه، والضرب المراد هنا هو ضرب الأدب غير المبرح وهو الذي لا يكسر عظما، ولا يُشِين جارحة، ويحتنب الوجه؛ لأنه يجمع المحاسن، ويكون مفرقا على بدنهما، ولا يوالي به في موضع واحد لئلا يعظم ضرره؛ لأن المقصود منه هو الصلاح لا غير، فإذا حصل بذلك العود إلى الطاعة فقد حصل المقصود (١)، وإن لم يحصل بذلك، وكان النشوز منهما معا فعليهما أن يلتمسا إصلاح أمرهما من آخرين غيرهما، بأن يحكّم كل واحد منهما حكما، يجتمعان فيبحثان قضيتهما ويحكمان بما يريانه من اجتماع بالتي هي أحسن، أو فراق كذلك كما قال الله تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما ..﴾ [سورة النساء: ٣٥] .

فإن اجتماعا على أمر وجب المصير إليه اجتماعا أو افتراقا، أما إذا اختلفا لم يلزم أحدهما شيئا، وهذا التحكيم هو آخر محاولة جادة لإعادة اللّحمة الأسريّة إلى وضعها اللائق، فإن فشل فليس وراءه إلا التفريق إن لم يفرق الحكمان أنفسهما .

وهنا ينبغي أن يُعلم أن هذه المحاولة الجادة بُذلت لما كان إفساد العشرة ناشئا من قبل الزوجة بالأخص، وأيضا لما استفحل الشقاق فصار منهما معا .

أما إذا كان فساد العشرة ناشئا من قبل الزوج، فإن القرآن الكريم قد أعطى المرأة الحق في الخلاص من زوجها بالمخالعة منه، وهو ما يكون في المرحلة الثانية من التقسيم السابق، التي هي مرحلة الفراق، والتي جاء درو الحديث عنها الآن .

المرحلة الثانية: مرحلة الفراق :

وهذه المرحلة تكون في ثلاث حالات :

- ١ - يأس الرجل من صلاح زوجته .
- ٢ - يأس الحكّمين من إصلاح حالهما .
- ٣ - كراهة المرأة لعشرة زوجها .

(١) انظر تفسير هذه الآية في تفسير القرطبي ١٧١/٥-١٧٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٩٠/١٠، وتفسير

القرآن العظيم لابن كثير ٤٩٢/١، ومحاسن التأويل للقاسمي ١٣٤٣/٥، ونحوها .

أما الحالتان الأوليان فقد علمنا كيف شرع الإسلام محاولة جادة لبقاء العصمة الزوجية، وأنه لم يُبق وسيلة للإصلاح إلا طردها، فإذا نفدت تلك الوسائل فإنه لا جناح على الزوج أن يفصم العروة الزوجية، إذ أنه لا خير في بقاء زوجية متناحرة بل عليهما أن يتفرقا، فلعل كل واحد منهما أن يتهيأ له بناء حياة زوجية أخرى يعيش في ظلها آمناً هادئاً كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ [سورة النساء: ١٣٠].

ولكن يجب أن يكون التفرق على النحو الذي شرعه الله تعالى من العدل والإنصاف بغير ضرر ولا إضرار وذلك بأن يكون على النحو الآتي :

١ - أن يوقع الطلاق في طهر لم يجامعها فيه لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [سورة الطلاق: ١] أي: مستقبلات العدة بأن تكون المرأة قد طهرت من الحيض أو النفاس وقبل أن يمسه الزوج فيه، لأن في ذلك تبرئة لرحمها من الحمل، وتقصيراً لزمان عدتها؛ لأن زمن الحيض أو النفاس لا يحسب من العدة، فلو طلقها وهي حائض أو نفساء كان قد ضارها بتطويل العدة عليها، وليس ذلك من الإحسان أو المعروف الذي أمر الله تعالى به بقوله: ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرِوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ولذلك قال هنا: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ إشارة إلى وجوب مراقبة الله تعالى في عدم مضارة الزوجة، والإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى يعلم ذلك إن أراد الزوج، وفي هذا من ترتيب المهابة بالتذكير بالله ما لا يخفى .

وأما إذا قد جامعها في الطهر فإنه لا يطلقها فيه أيضاً؛ لأنه قد يندم على فعل ذلك، إذ لعلها قد تحمل من ذلك الجماع فيؤدي ذلك إلى ضياع المولود، ولو علم ذلك لعله يُشفق عليه، فيمتنع عن الطلاق، أو لعله إنما أراد الطلاق لعدم حمل المرأة، فإذا ما طلق والحالة هذه فليعلمها تكون قد علقت منه في جماعه ذاك، فإذا علم حملها وقد فارقها فإنه سيندم ندماً شديداً على ما أقدم عليه، ناهيك عن أنه يجعل المرأة في حيرة، إذا لا تدري سريعا بحالها وشأن عدتها، أهي حاملة فتعتد بوضع الحمل، أم هي حائل فتعتد بالأطهار .

على أن هناك حكمة أخرى خفية لمنع الطلاق في الحيض أو الطهر الذي مُست فيه المرأة، وهي رغبة الشارع في تحاشي الطلاق والإبقاء على الحياة الزوجية ما أمكن؛ لأن الزوج إذا أراد الطلاق ومنعه الشارع من إيقاعه في هذه الفترة فلربما تروى في هذه الفترة، وأحجم عما أراده فيعود حالهما إلى سالف عهدهما وثاماً ومحبة^(١)، ولذلك يقول المولى جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [سورة الطلاق: ١].

والعدة التي أمر المولى أن تطلق النساء فيها هي الطهر الذي لم تُمس المرأة فيه^(٢). وقد علَّل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي: «لا تدري أيها المتعدي عما قبة الأمر، لعل الله يحدث في قلبك بعد ذلك الذي فعلت من التعدي أمراً يقتضي خلاف ما فعلته، فيبدل ببغضها محبة، وبالإعراض عنها إقبالا إليها»^(٣).

٢- إذا ما تحرَّى الحالات السابقة ثم عزم على الطلاق فعليه أن يطلق طلاقاً واحدة فقط، ليكون الطلاق رجعياً يمكنه أن يرجع فيه إذا مسَّ ألم الفراق، ومرارة الوحشة، فيعودان إلى الصفاء الروحي، والهدوء العائلي، والمودة المتبادلة . وهذا ما أذن الله تعالى به بقوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ

(١) انظر الزواج والطلاق في الإسلام لزكي الدين شعبان ص ٩٤، ٩٣ ط القاهرة ١٣٨٤ هـ ، وأبغض الحلال

إلى الله تعالى لنور الدين عتر ص ٧٠، ٦٩، ومحاسن التأويل للقاسمي ١٩٢/١٦ .

(٢) كما يدل لذلك قصة تطليق عبد الله بن عمر زوجته وهي حائض، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم

بمراجعتها، ثم تطليقها في الطهر إن شاء، وقال له: "فإنه العدة التي أمر الله عز وجل أن يطلق لها النساء"

أخرجه الشيخان؛ البخاري في أول كتاب الطلاق ٥٢/٧، ومسلم في الطلاق برقم ١٤٧١.

(٣) محاسن التأويل ١٩١/١٦ .

بإحسان... ﴿[سورة البقرة: ٢٢٩] أي: أن التطلق الشرعي يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة (١) ، وهو الطلاق الرجعي الذي يتمكن به المطلق من إعادة مطلقته إلى عصمته .

وفي هذا «توسعة على الناس ليرتأوا بعد الطلاق ما يليق بحالهم وحال نسائهم، فلعلهم تعرض لهم ندامة بعد ذوق الفراق، ويحسُّون ما قد يغفلون عن عواقبه حين إنشاء الطلاق عن غضب أو عن ملالة كما قال تعالى: ﴿ لا تدري لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً ﴾ [سورة الطلاق: ١] (٢) .

قال الفخر الرازي: «الحكمة في إثبات حق الرجعة أن الإنسان مادام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشقُّ عليه مفارقتة أو لا، فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة، قال: ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة فلا جرم أثبت تعالى حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك قد جرَّب الإنسان نفسه في تلك المفارقة، وعرف حال قلبه في ذلك الباب، فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه، قال: وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده» (٣) .

فإذا تحرى الزوج هذا النحو في طلاقه، أعني زمن الطلاق وعدده، كان طلاقه سُنِّيًّا، وكان قد راعى التيسير الذي شرعه الله تعالى له رحمة به ورأفة، وكان أملك لأمره، ولم يقدم على هذا الشأن الخطير إلا عن دراية بأبعاده ومصالحه ومفاسده، فيقلُّ بذلك ضرره وخطره، وأما إذا لم يراع ذلك فطلق طلاقاً بدعياً، كان قد ضيَّق على نفسه، وفرَّط في أمره، ولعله يندم ندامة الكسعيِّ، ولكن لا ينفعه ذلك الندم، فالطلاق ينفذ وإن كان

انظر

(١) تفسير البيضاوي ص ٥٠، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٩٦/٦ .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤٠٦/٢ .

(٣) التفسير الكبير ٩٨/٦ .

بدعياً، وهذا عند الجمهور خلافاً لأهل الظاهر ومن وافقهم^(١)، وعليه إنَّه تعدى حدود الله التي حددها لعباده، وعظَّم شأنها حيث قال بعد تشريعہ: ﴿وتلك حدودُ الله ومن يتعدَّ: حدودَ الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعلَّ الله يُحدثُ بعد ذلك أمراً﴾ [سورة الطلاق: ١].

الجوانب الأخلاقية التي يجب مراعاتها بعد الطلاق:

وإذا ما وقع الطلاق سواء كان سُنيّاً أو بدعياً فإنه يترتب عليه حقوق كبيرة، وجوانب أخلاقية عظيمة تمثل كمال العدل والإنصاف والفضل والإحسان في الحياة الأسرية وهذه الحقوق والواجبات هي:

١ - على الزوج أن لا يضارَّ زوجته بعد الطلاق، بأن لا يراجعها إلا إذا كان راغباً في إعادة الحياة الزوجية إلى سابق عهدها من الإنصاف والإحسان بصدق، لا أن يراجعها عند قرب انقضاء عدتها لا لرغبة فيها بل لقصد مضارَّتها كأن يمنعها من التزوج بغيره أو نحو ذلك، كما كان يفعلُه أهل الجاهلية، وقد نهى الله تعالى عن ذلك وزجر وحذر من ارتكابه فقال سبحانه: ﴿ولا تمسكوهنَّ ضرراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آياتِ الله هُزُواً..﴾ [سورة البقرة: ٢٣١]

فسمَّى الله تعالى ذلك الفعل ظلماً للنفس، واستهزاء بآيات الله تعالى، وهذا يدل على كمال الخسة في الأخلاق، ولذلك كان جزاؤه عظيماً كما قال سبحانه: ﴿وإذا علمَ من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُواً أولئك لهم عذابٌ مُهين﴾ [سورة الجاثية: ٩]

٢ - أن يمتنع متاعاً حسناً من ماله، جبراً لو حششتها التي أصابتها من جرّاء الفراق لقوله تعالى: ﴿وللمطلقاتِ متاعٌ بالمعروف حقّاً على المتقين﴾ [سورة البقرة: ٢٤١] وقوله سبحانه: ﴿.. ومَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمَقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٦]

وهذه دعوة إلى التحلّي بمكارم الأخلاق، لأن في المتعة هذه دليل على الوفاء وعدم

(١) وانظر بحث هذه المسألة في أبغض الحلال إلى الله ص ٩٨-١١٨ ونحوه .

نسيان المعروف، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧] والكرام من الناس لا ينسون ولا يتجاهلون مثل تلك العشرة التي كانت حميمة وامتزجت بالروح .

٣ - أن لا يستردَّ شيئاً مما كان قد بذله لها من مهر ونحوه إذا كان قد دخل بها؛ لأن ذلك في مقابل ما استمتع بها، ولأن في ذلك دليلاً على التدني في مكارم الأخلاق، بل على فقدانها فيه؛ لأنه لا يقدم على طلب ذلك إلا لدنو همته، وعدم شعوره ومبالاته في رفعة الله تعالى له درجة عن المرأة، ولذلك أضحى يتنكر للجميل السابق، وينسى العشرة التي مرت في يوم ما معها على أحسن الوجوه وحقه أن يظل وفيّاً لذلك، ولا يتنكر بمجرد تغير حال المرأة؛ لأن ذلك هو كماله ورفعته، ولهذا حظر الله تعالى على الأزواج الرجوع في شيء مما قدّموه، وذلك لما يدعو إليه من مكارم الأخلاق وما يريده من المؤمنين من التحلي بكَمالاتها، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بُهتاناً وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ [سورة النساء: ٢٠، ٢١] .

نعم إذا كان الطلاق واقعاً قبل المسس، وكان قد سمى لها مهراً فإن له أن يرجع بنصف المسمى فقط؛ لأنه لم تحدث علاقة اتصال ووثام كاملين، فلم يكن هناك معروف يذكر ولا جميل يكفر، عدا أمر يسير ربما كان عند الخطبة، وربما لم يكن شيء من ذلك .

ولذلك أباح له الله تعالى الرجوع في نصف المهر فقال: ﴿وإن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧]، وذلك مراعاة لحاله ورحمة به لكونه لم يحقق مأرباً، ولا قضى وطراً من نكاحه ذاك، ولكي لا يكون إضرار به وإجهاد، ولربما لم يكن معه ما يمهر به امرأة أخرى غيره .

وقد كان الواجب عليه أن يوفي المهر كاملاً لكونه قد التزم به وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة: ١] (١) .

قال في التحرير والتنوير (١): "وتسمية هذا الإسقاط عفوا ظاهرة، لأن نصف المهر حق واجب على المطلق للمطلقة قبل البناء بما استخف بها، أو بما أوحشها فهو حق وجب لغرم ضرر فإسقاطه عفوا لا محالة".

ومع ذلك فالأولى أن لا يرجع في شيء لندب الله تعالى ذلك له حيث قال: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وحضه عليه بقوله: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

وإن كان هذا الخطاب عاما للرجال والنساء وحثا لهما معا على العفو، وبيان أن من عفا منهما فإن له الفضل على الآخر،

إلا أن من حق الزوج الذي له فضل الرجولة أن يكون هو العافي، فإن من أقبح ما يكون فيه، أن يحمل المرأة على استرجاع ما آتاها لعموم قوله تعالى: ﴿وَوَاتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ (٢).

وهذا ما فهمه السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فقد حكى الزمخشري رحمه الله تعالى عن جابر بن مطعم رضي الله عنه أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال: أنا أحق بالعفو.

ودخل جابر رضي الله عنه على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فعرض عليه بنتاً له فتزوجها، فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملاً، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها عليّ فكرهت رده، قيل: فلم تبعث بالصداق. فقال: فأين الفضل (٤).

(١) ج ٤٦٣/٢.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٢٨١/٣.

(٤) انظر الكشف ١٤٧/١، وأصل القصة في السنن الكبرى للبيهقي ٢٥١/٧، وفي تفسير الطبري ٥٤٦/٢،

وذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء ٩٨/٣.

٤ - يجب على المطلق لمطلقته : السكنى والنفقة مدة العدة إذا كانت مطلقة بعد الدخول، وكان الطلاق رجعياً، للمعنى الذي تقدم في المتعة، من جبر الكسر والعرفان بالجميل، وأيضاً لمحاولة العودة بالحياة الزوجية إلى سابق عهدها إذا أحس كل من الزوجين بألم الفرقة، وقررا العودة إلى عصمة النكاح، وهذا إذا كان الطلاق رجعياً .

أما إذا كان بائناً وكانت غير حامل فإن الواجب حينئذ هو النفقة فقط دون السكنى لذهاب رجاء العودة إلى عصمة النكاح عنده، ولم يبق إلا جبر الخاطر وحسن العهد، ويحصل ذلك بالمتعة والنفقة وذلك ما بينه القرآن الكريم في محكم آياته .

أما السكنى فهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ [سورة الطلاق: ١] والفاحشة المبينة: هي الزنا، فتخرج في هذه الحالة ليقام عليها الحد، وقوله تعالى: ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ... ﴾ [سورة الطلاق: ٦].

وأما النفقة فإن كانت حاملاً فللدلالة الآية الكريمة: ﴿ فإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ... ﴾ [سورة الطلاق: ٦] .

وإن كانت حائلاً فللدلالة السنة المشرفة عليه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما النفق والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى" (٢) .

وهكذا عني القرآن الكريم بما ينبغي بل بما يجب أن تكون حالة الأسرة الزوجية عند الاختلاف، من العدل والإنصاف والإحسان والفضل .

أما الحالة الثالثة من المرحلة الثالثة وهي مرحلة الفراق، وهي حالة كراهية المرأة العشرة مع زوجها لأغراض دينية أو خلقية أو خلقية، فإن الإسلام في هذه الحالة قد جعل لها

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦٨/١٨ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٧٣/٦، ٤١٥، ٤١٦، من حديث فاطمة بنت قيس وهذا لفظه، والبخاري

في الطلاق ٧٤/٧، وإسناد أحمد صحيح كما بين ذلك الألباني في الصحيحة ٢٨٨/٤ .

وقد اختلف السلف في نفقة المطلقة البائن وسكنائها؛ فقال الجمهور: لا نفقة لها ولا سكنى، وذهب أحمد

وإسحاق وأبو ثور إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى على ظاهر حديث فاطمة بنت قيس ... انظر تفصيل

المسألة وأدلة الفرقين في فتح الباري ١٦٤/٢٠ .

الحق في تخلص نفسها مما لا طاقة لها بالعشرة معه، انطلاقاً من مبدئه العام في عدم التكليف فيما لا طاقة للمرء به، وقد دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩] .

وإقامة حدود الله هي ما يجب على الزوجين القيام به من حسن الصحبة وجميل العشرة، وترك إقامة هذه الحدود يكون باستخفاف المرأة بحق زوجها وسوء طاعته إياها (١) .

فإذا ما فعلت المرأة ذلك كانت قد ضارّت زوجها الذي جهد في الحصول عليها، إذا كان سوء العشرة آتياً من قبلها، وإذا كان من قبله فلم تصبر عليه ولم تطق تحمله، فإن عليها في الحالين أن تخلص ربقتها منه بالمخالعة التي دلت عليها الآية السابقة؛ بأن تفدي نفسها وتبذل له ما يرضيه من المال، سواء كان ما بذله لها وغيره قليلاً أو كثيراً، مما يرضيه حتى يطلقها، وإذا ما فعلت ذلك وفعل هو الطلاق، ملكت نفسها به، وكانت بائنة منه بينونة كبرى، لا يملك عليها الرجوع إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره، ورغبت في ذلك (٢) .

هكذا بين القرآن الكريم أحوال الأسرة الزوجية عند اختلافها بيانا شافيا كافيا، مصبوغا بمكارم الأخلاق، في كل مراحلها من الوفاق والفراق .

ومنه تعلم بالغ عنايته بمكارم الأخلاق حيث لم يعف أحدا منها في كل شئونه وأحواله، مما يؤكدهما تقدم تقريره من أن الأخلاق الإسلامية، أصل من الأصول المهمة، أولها القرآن الكريم عنايته كعنايته بالعقائد والعبادات والمعاملات، بل وأكثر من ذلك حيث صبغ كل تلك الأصول بالصبغة الأخلاقية الكريمة كما علمت من قبل .

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٣٨/٣ .

(٢) انظر منهاج الطالبين للإمام النووي بشرحه مغني المحتاج ٢٦٢/٣ - ٢٦٧ ونحوه من كتب الفقه .

تمثل خلق الإنصاف والإحسان

عند الاختلاف في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد ناط الله تعالى برسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بيان القرآن الكريم كما قال جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل: ٤٤] فقام عليه الصلاة والسلام بهذا الواجب خير قيام .

حيث بين القرآن الكريم مدة حياته بأقواله وأفعاله وتقريراته وسلوكه، فأصبحت سنته صلى الله عليه وسلم مفسرة للقرآن وشارحة له، وكان من بيانه للقرآن الكريم بيانه للأحكام الأسرية التي تضمنها القرآن الكريم في كل مراحلها كما تقدمت الإشارة إلى بعضها، وستأتي الإشارة إلى البعض الآخر .

ومن هذه الأحكام، الأحكام الأسرية ذات الصلة بحال الاختلاف بين الزوجين التي يدور الحديث عنها في هذا المبحث .

فقد بينها النبي صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله بما يطول ذكره، لكثرة ما احتوته كتب السنة من أدلة على ذلك، وسأذكر منها ما يتعلق بالجانب الأخلاقي في معاملة الزوجين عند الاختلاف، على ضوء عرض نقاط العرض المتقدم لهذا الموضوع في القرآن الكريم الذي قسمناه إلى مرحلتين: وفاق وفراق .

بيانه صلى الله عليه وسلم لذلك في مرحلة محاولة الوفاق :

أما مرحلة محاولة الوفاق التي تنشأ عن مخافة نشوز المرأة أو حدوثه بالفعل، فإن سيرته الشريفة لم تشتمل على ما يدل على حدوث شيء من ذلك من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، اللاتي اختارهن الله تعالى ليكوننَّ نَقْلَةً لأحواله صلى الله عليه وسلم الباطنة، التي لا يطلع عليها غيرهن، فلقد كن أحرص الناس على طاعته والتسابق إلى مرضاته ومسرَّاته، فلم تنشز واحدة منهن عليه صلى الله عليه وسلم، ولم تتعال عليه على النحو الذي يمكن أن يحدث من النسوة كما مضى شرحه، لذلك لم أجد في سيرته صلى الله عليه وسلم وشماله الشريفة ما يدل على وعظه إياهن أو هجره لهن أو ضربهن رضي الله عنهن؛ لأجل النشوز عليه، وذلك يدل على كمال أخلاقهن في معاملتهن لصاحب الخلق

العظيم صلى الله عليه وسلم، فإنهنَّ مع طبيعتهن البشرية والنسوية، الشديدة التأثير لاسيما مع وجود الضرات وقلة ذات اليد الذي اختاره النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه، وهما العاملان المهمان في سبب النشوز والشقاق الذي يجري بين الزوجين، إلا أنهن تجاوزن ذلك بكل هدوء وأريحية، لما تعلمنه من النبي صلى الله عليه وسلم من كرم الأخلاق في السلوك والمعاملة ولا ريب فإن كل قرين بالمقارن يقتدي .

نعم قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه وعظهن وهجرهن، ولكن كان ذلك لغير نشوز منهن، ولا قلة احتشام معه، أو سوء عشرة، وإنما لأمر أخرى سأبينها في الآتي:
وعظه صلى الله عليه وسلم نساءه ونساء المسلمين :

أما وعظه عليه الصلاة والسلام فقد كان عاما لكل النساء، يحثهن فيه على طاعة الأزواج في كل الأحوال والظروف ما لم تكن هناك معصية الله، وحذرهن تحذيرا شديدا من التفريط في ذلك، ويُنَّهن ما يترتب على ذلك من غضب الله تعالى وأليم عقابه، وذلك في أحاديث كثيرة منها:

١ - ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح" (١) .

٢ - وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها" (٢) .

وجاء في حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

٣ - "إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فلتأتته وإن كانت على التنور" (٣) .

(١) متفق عليه تقدم تخريجه في هذا البحث ص ٧٢٤. نحوه .

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها برقم ١٤٣٦ .

(٣) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب في حق الزوج على المرأة برقم ١١٦٠ من حديث طلق بن علي رضي =

٤ - وجاء من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تُؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا" (١) .

٥ - ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحية أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار، فقلن: لم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة منكم مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، قال: أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى، قال: وذلك من نقصان دينها" (٢) . وفي هذه الأحاديث من الوعظ والإرشاد إلى سلوك سبيل الاستقامة في أداء الحقوق الزوجية، ما يحمل على ذلك من غير توان، وذلك فرارا من الوعيد المترتب على أذية الزوج بأي نوع من أنواع الأذية .

ترغيبه صلى الله عليه وسلم في إطاعة الزوجة زوجها :

وكما وعظهن بذلك الأسلوب الترهيب، فقد وعظهن على ذلك أيضا بأسلوب الترغيب الذي يحمل على الإقدام على الطاعة برغبة كبيرة ابتغاء أجرها عند الله تعالى . ووعظه صلى الله عليه وسلم للنساء بهذا الأسلوب وارد في أحاديث كثيرة نذكر منها ما يأتي:

= الله عنه، وابن حبان ١٨٥/٦ من الإحسان، وأحمد في المسند ٢٢/٤، والبيهقي في السنن ٢٩٢/٧، وقال

عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٩٩/٣ .

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب رقم ١٩، برقم ١١٧٤، وابن ماجه في النكاح، باب في المرأة تؤذي

زوجها برقم ٢٠١٤، وأحمد في المسند ٢٤٢/٥، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في

الصحيحة ٢٨٥،١ برقم ١٧٣ .

(٢) البخاري في الحيض، باب ترك الحائض الصوم ٨٠/١، ومسلم في العيدين في فاتحته برقم ٨٨٩ .

- ١- فمن ذلك ما جاء عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة" (١).
 - ٢- ومنه ما أخرجه النسائي وغيره عن حصين بن محصن (٢) أن عمة له دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض الحاجة فقضى حاجتها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أذات زوج أنت؟ قالت: نعم، قال: كيف أنت له؟ قالت: ما آلو إلا ما عجزت عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انظري أين أنت منه، فإنه جنتك ونارك" (٣).
 - ٣- ومنه ما جاء عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت" (٤).
- وفي هذا من الترغيب على القيام بطاعة الزوج ومحاولة إرضائه، وعدم النشوز عنه، ما يحمل عليه بكل رغبة وقناعة، وذلك طمعا في رضوان الله تعالى.

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة برقم ١١٦١، والحاكم في المستدرک ١٧٣/٤، وابن ماجه في النکاح، باب حق الزوج على المرأة برقم ١٨٥٤، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وتعبه الألباني في الضعيفة ٦١٦/٣ برقم ١٤٢٦، وقال: انه منکر.

(٢) الأنصاري الخطمي، اختلف في صحبته، واتفقوا على أنه ليس له رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما روايته عن عمته، انظر الإصابة ٣٣٨/١، وتقريب التهذيب ص ١٧٠ برقم ١٣٨٤.

(٣) أخرجه النسائي في عشرة النساء من السنن الكبرى برقم ٧٦-٨٣، وعزاه الهيثمي في الجمع ٣٠٩/٤ إلى الطبراني في الكبير والأوسط قال: ورجاله رجال الصحيح خلا حصين، وهو ثقة، وأخرجه أحمد في المسند ٣٤١/٤ من مسند حصين بن محصن، وفي ٤١٩/٦ من مسند عمته ولم يسمها.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١٩١/١، وعزاه الهيثمي في الجمع ٣٠٩/٤ إلى الطبراني في الأوسط قال: وفيه ابن الهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، كذا قال، والصواب في ابن الهيعة أن حديثه ضعيف لاختلاطه بعد احتراق كتبه. والله أعلم.

على هذا النحو كان وعظه صلى الله عليه وسلم لنسائه ونساء المؤمنين، وعظ عام، وإن لم يخص به نساءه لما لم يكن هناك مقتضى، غير أنه يشملهن وتدخل فيه نساؤه من أمهات المؤمنين دخولاً أولياً، فما تعلم به واحدة منهن إلا بادرت لمقتضاه رغبة ورهبة، غير أن الله حماهن عن التفريط في حقه صلى الله عليه وسلم فلم يبق بعد ذلك إلا الذكرى التي تنفع المؤمنين.

وأما الهجر: فقد حدث منه صلى الله عليه وسلم أن هجر نساءه شهراً ولكن لم يكن ذلك عن نشوز منهن، وإنما كان تأديباً لهن لما أردن أن يؤثرن الحياة الدنيا وزينتها، ويخرجن رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أراده لنفسه من التقلل في الدنيا والزهادة فيها، وذلك حين نصره الله تعالى ورد عنه الأحزاب، وفتح عليه "قريظة" و "النضير" فقعدن حوله وقلن له: "يا رسول الله: بنات كسرى وقيصر في الحُلِيِّ والحُلُلِ والإماء والخول - أي الخدم والحشم - ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق" فألمن قلبه الشريف الطاهر بمطالبتهم له بتوسعة الحال، كما دل على ذلك حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه وإجماعاً (١) ساكتاً، فقال: لأقولن شيئاً أضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة - يعني زوجته - سألتني النفقة فقلت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "هن حولي كما ترى يسألني النفقة، فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها يجأ - أي يطعن - عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده؟! فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً أبداً ليس عنده، قال: ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمَحْسَنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

(١) الواجم: هو الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام. شرح النووي على مسلم ٨١/١٠.

قال: فبدأ بعائشة رضي الله عنها، فقال: "يا عائشة إنني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعلمي فيه حتى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: "لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يعثني معنّا ولا مُتَعَنّا ولكن بعثني معلّما ميسرا" (١).

فهذه الحادثة المشهورة من هجره صلى الله عليه وسلم لنسائه، وهناك حادثة أخرى غير مشهورة أخرجها أبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها "أنه اعتلّ بعير لصفية بنت حيي رضي الله عنها وعند زينب فضلٌ ظهر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزینب: أعطِها بعيرا، فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم عليها فهجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر" (٢).

ومن هذه الرويات يتبين لنا معان سامية في أخلاقه صلى الله عليه وسلم العظيمة، وهي أنه لم يكن يغضب ولا يهجر لمصلحة نفسه، كما هو شأنه ونهجه في عدم الغضب لنفسه الذي دل عليه قول عائشة رضي الله عنها: "وما انتقم رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ١٩٥/٦، ومسلم في الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن برقم ١٤٧٩، وانظر الوفاء لابن الجوزي ٦٥٢/٢-٦٥٥.

(٢) أبو داود في السنة، باب ترك السلام على أهل الأهواء برقم ٤٦٠٢، وأخرجها النسائي في عشرة النساء من الكبرى برقم ٢٨٠، من حديث أنس رضي الله عنه، والإمام أحمد في المسند ٣٣٧/٦ من مسند صفية رضي الله عنها، كلاهما في قصة مفصلة، وقال الهيثمي في المجمع ٣٢٤/٤ بعد عزوه لأحمد: وفيه سمية، روى لها أبو داود وغيره ولم يضعفها أحد قال: وبقي رجاله ثقات.

قلت: وسمية هذه ذكرها الذهبي في الميزان ٦٠٧/٤ برقم ١٠٩٦٧ في فصل النسوة المجهولات التي قال عنهن: (وما علمت في النساء من اتهمت ولا من تركوها) وقال عنها الحافظ ابن حجر في التقريب برقم ٨٦١٠: بصرية مقبولة.

وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى" (١) وتدل عليه هاتان الواقعتان دلالة واضحة، حيث إنه صلى الله عليه وسلم هجر في الحالتين تأديبا وتعلیما، لمعنى من معاني الإسلام وأخلاقه العظيمة.

ذلك أن طلب زيادة النفقة من الزوج خاصة إذا كان حاكما على الأمة، مؤثما على مالها يدفع الزوج إلى الاستدانة المرهقة، أو الخيانة المهلكة، وكلاهما أمر ينافي الأخلاق العالية في الإسلام من الصبر والأمانة، ولا ريب بأن الحامل على ذلك وهم الزوجات يجدر بهن التأديب والزجر والتأنيب، وهو ما فعله صلى الله عليه وسلم علاجا شافيا لهذه الظاهرة الخطيرة، وفي هجره عليه الصلاة والسلام لزینب علیها السلام معنى أخلاقي عظيم طالما حث الإسلام عليه وندب أهله إلى التحلي به، ألا وهو عدم التفاخر في الأنساب والأحساب الذي أبطلها الإسلام، وجعل الأصل الذي يوزن به المسلمون هو: (التقوى) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

ونادى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ به القاصي والداني فقال: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم... " (٢).

فزینب رضي الله عنها غفلت عن هذه الحقيقة، ونسيت هذا الخلق العظيم، كان لا بد أن تزجر عن ذلك حتى لا تعود لمثلها، ولا يعود لمثل ذلك أحد.

وفي هذا دليل على أن مكارم الأخلاق من الدين التي كان يقوم صلى الله عليه وسلم لها فيغضب عند انتهاكها، وينتقم لها بكل وسيلة ممكنة، لا يمنعه من ذلك قرابة زوجية، ولا مودة روحية.

(١) متفق عليه وتقدم في الحلم ص ٥٧٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤١١/٥ وإسناده صحيح، وهو من حديث أبي نضرة عمن سمع النبي صلى الله عليه وسلم

يخطب في عرقه، وصححه الألباني في غاية المرام ص ١٩٠ رقم ٣١٣.

فهذا ماجاء عن هجره صلى الله عليه وسلم نساءه، ومنه علمت أنه لم يكن عن نشوز، وإنما كان زجرا وتأديبا لمن لتصرفهن غير اللائق في بعض الأحيان بمقام النبوة العظيم ومقامهن كذلك، فإنهن لسن كسائر النساء فضلا ومكانة وديانة ورزاة . وهذا دليل على أن الهجر سلاح ماض في إصلاح الزوجات، وتقويم اعوجاجهن، كما حصل منه صلى الله عليه وسلم مع زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن في مثل هذين الموقفين .

وأما الضرب: فهو علاج العاتية من النساء التي لم تنفع معها وسائل الإصلاح المعروف، ومعلوم أنه لم يكن في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من تستأهل مثل هذا من حيث هن أمهات المؤمنين، اختارهن الله تعالى ليكن كذلك، ليقمن بدورهن في تبليغ الشريعة التي يدركنها، كما تقدم بيانه، ولذلك لم تنشر واحدة منهن وتخرج عن طاعته قط، بل كن يتبارين في المسابقة إلى مسراته ومرضاته والإحسان إليه بقدر طاقتهن كما لا يخفى أمره .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فهو أجل من أن يضرب نساءه وهو خير الناس لأهله، وأكرم الناس عشرة، وأعظمهم رافة ورحمة، وهذا ما حدث به عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه مسلم وغيره قالت: "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نزل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم الله عز وجل"^(١)

فهذا خبر عائشة رضي الله عنها عن معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لها ولضراتها، وهي صاحبة الشأن في هذه المعاملة، ولا يُنبئك مثل خبير، ولا غرو في أن لا يضرب صلى الله عليه وسلم نساءه فإنه قد قال عن الضاربين نساءهم: "ليس أولئك بخياركم"^(٢) يعني

منفق عليه

(١) وتقدم في مبحث الحلم ص ٥٧٩.

النساء

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب ضرب، برقم ٢١٤٦ من حديث إياس بن عبد الله أبي ذباب، والنسائي

في عشرة النساء من الكبرى برقم ٢٨٥، وابن حبان ١٩٦/٦ من الإحسان، والحاكم في المستدرک

١٩١٤/١٨٨/٢ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

أن خير الأزواج هو الذي لا يضرب زوجته، وهذا تفسير لحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم: "خيرُكم خيرُكم لأهله وأنا خيرُكم لأهلي" (١) فخيرُته صلى الله عليه وسلم لا تستدعي ضرباً، بل ولا شتماً ولا تجريحاً، كما هي شمائله العليا مع جميع أمته ولا سيما مع أهله وقرابته وأهل بره .

وفي سلوكه صلى الله عليه وسلم هذا هدي لأُمته في عدم ضربهم زوجاتهم، لما في ذلك من سوء العشرة وتولّد الضغائن، والزواج إنما هو مبني على الرحمة والألفة، ولا يستقيم ويؤدي ثماره إلا على ذلك، أما إذا خرج عن هذا القانون فإنه سرعان ما ينفك وتَنحلّ عراه .

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم الأمة عن ضرب الزوجات نهياً بليغاً، لما في ذلك من مخالفة للعشرة بالمعروف التي تبنى عليها العلاقات الزوجية، والحياة الاجتماعية الأسرية، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يَجْلِدُ أحدُكم امرأته جلد العبد، ثم لعلّه يجامعها، أو قال: يضاجعها من آخر اليوم" (٢) فإن في هذا الحديث تنفير من ضرب النساء، وإن كان يدل على جواز اليسير منه وذلك لأن (المجامعة أو المضاجعة إنما تُستحسن مع ميل النفس، والرغبة في العشرة، والمجلود غالباً ينفر ممن جلده، ف وقعت الإشارة إلى ذم ذلك، وأنه إن كان لا بد فليكن التأديب بالضرب اليسير بحيث لا يحصل منه النفور التام، فلا يفرط في الضرب، ولا يفرط في التأديب) (٣) وذلك ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حُجّة الوداع التي تضمنت الوصية بالنساء، والتي جاء فيها: "... فإن فعلن ذلك فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرِّح" (٤) .

(١) حديث صحيح، تقدم ذكره وتخرجه ص ٧٠٩ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب ما يكره من ضرب النساء ٤٢/٧، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها برقم

٢٨٥٥، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء من حديث عبد الله بن زمعة رضي الله

عنه .

(٣) انظر فتح الباري ٣٦٢/١٩ .

(٤) حديث صحيح، تقدم تخرجه ص ٧١٨ .

قال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث السابق ذكره: "فيه دلالة على أن ضربهن مباح في الجملة، ومحل ذلك أن يضربها^{تأديبا} إذا رأى منها ما يكره فيما يجب عليها فيه طاعته، فإن اكتفى بالتهديد ونحوه كان أفضل، ومهما أمكن الوصول إلى الغرض بالإيهام، لا يعدل إلى الفعل لما في وقوع ذلك من النفرة المضادة لحسن العشرة المطلوبة في الزوجية، إلا إذا كان في أمر يتعلق بمعصية الله تعالى" (١) يعني فإنه ينبغي أن لا يتساهل ولا يلين بل يستعمل كامل الشدة لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [سورة التحريم: ٦] وكما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة حين اتخذت ستارة فيها تصاوير، وكان في غزوة، قالت عائشة رضي الله عنها: فلما قدم فرأى النَّمَط عرفت الكراهية في وجهه، فجذبه حتى هتكه، أو قالت: قطعه، وقال: "إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين".

وفي رواية: "فنظر إلى البيت فرأى النَّمَط فلم يرد عليَّ شيئا قالت: ورأيت الكراهية في وجهه، فأتى النَّمَط حتى هتكه ثم قال: "إن الله لم يأمرنا فيما رزقنا أن نكسو الحجارة واللبن"، قالت: فقطعته فجعلته وسادتين، وحشوتهما ليفاً فلم ينكر ذلك علي" (٢). هذا عن مرحلة محاولة الوفاق.

أما معاملته صلى الله عليه وسلم لنسائه في مرحلة الفراق: فإن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كرهه وعابه كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أحلَّ الله شيئا أبغض إليه من الطلاق» وفي رواية: "أبغض الحلال إلى الله الطلاق" (٣)، إلا أنه لا يكون

(١) فتح الباري ٣٦٣/١٩.

(٢) متفق عليه وتقدم في مبحث الزهد ٥٠٦.

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق، باب في كراهية الطلاق برقم ٢١٧٧، و ٢١٧٨ من حديث محارب بن دثار عن ابن عمر موصولا ومرسلا، والحاكم في المستدرک ١٩٦/٢ وصححه، قال الذهبي: على شرط مسلم، وابن ماجه في الطلاق برقم ٢٠١٨، وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص ٢٠٥/٣: ورواه أبو داود وابن ماجه والحاكم من حديث محارب بن دثار عن ابن عمر، ورواه أبو داود والبيهقي مرسلا ليس فيه ابن عمر قال: ورجح أبو حاتم والدارقطني في العلل والبيهقي المرسلا.

منه بد أحيانا، إذا لم يبق للحياة الزوجية الهادئة حظ باستفحال الشقاق، وحلول الخصام محل الوئام كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

وهو ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم بالفعل مع ابنة أبي الجون (الشقيّة كما كانت تعبر عن نفسها)^(١)، فإنها لما أدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد عذت بعظيم، إلحقي بأهلك"^(٢) .

فابنة الجون هذه - وهي أميمة بنت النعمان بن شراحيل - كان أبوها عظيما في قومه، وقد تزوّجها النبي صلى الله عليه وسلم بناء على رغبة أبيها، وطلبه من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال له: «ألا أزوّجك أجمل أئيم في العرب، كانت تحت ابن عم لها فتوفي وقد رغبت فيك؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: نعم، قال: فابعث من يحملها إليك...» الحديث^(٣)، لكنه لما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأت تواضعه وبساطة عيشته، أنفت وتكبرت، لما كان فيها من عنجهية الجاهلية، فكأنها استبعدت أن تتزوج من ليس في عظمة الملك وأبّهته، كما دل على ذلك رواية البخاري الثانية التي جاء فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل عليها قال لها: "هيئي نفسك لي" قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة^(٤)، فأهوى بيده الشريفة يضعها عليها

(١) انظر السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص ٢١٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ٥٣/٧ .

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١٤٣/٨ .

(٤) قال ابن المنير: وهذا من بقية ما كان فيها من الجاهلية، والسوقة عندهم: من ليس بملك كائنا من كان،

فكأنها استبعدت أن يتزوج الملكة من ليس بملك، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حُجِر أن يكون ملكا

نبيا، فاختار أن يكون عبدا نبيا تواضعا منه صلى الله عليه وسلم لربه، ولم يؤاخذها النبي صلى الله عليه وسلم

وسلم بكلامها معذرة لها لقرب عهدها بجاهليتها. اهـ، فتح الباري ١٧/٢٠ .

لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك، فقال: "قد عذت بمعاذ" قال راوي الحديث: أبو أسيد رضي الله عنه: ثم خرج علينا فقال: "يا أبا أسيد اكسها رازقيين^(١) وألحقها بأهلها"^(٢). فترى هل ترى من خير في بقاء مثل هذه المرأة التي بلغت من الفطاطة والقحة أن تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الخطاب الفظ الغليظ، إن علاج مثل هذه هو المفارقة الفورية لتريح وتسترخ، فلا خير يُرجى ممن كان حالها كذلك، فتسريحها خير من إمساكها.

ولكن ينبغي أن يكون التّسريح على النحو الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم، من الإحسان والإجمال حيث إنه فارقها قبل الدخول، وهو الحال الذي لا يجب فيه سكنى ولا نفقة، بل إن سمّي لها مهرا فنصفه فقط كما مضى تقريره، ثم متّعها متاعا حسنا كما أمر الله تعالى بذلك حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٩].

فهذه صورة من صور إنصاف النبي صلى الله عليه وسلم وعدله وإحسانه عند الفراق.

وهناك صورة أخرى توضح فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الطلاق على وفق ما ندب أمته إليه من عدم التسرع في الطلاق، والتّروي فيه بأن يكون طلاق واحدة لا طلاقات ثلاث، ليكون الطلاق رجعيًا ليتدارك المرء نفسه في مراجعة زوجته إن أحب ذلك بعد أن يجد ألم الفرقة.

وذلك كما في قصة زواجه صلى الله عليه وسلم من ریحانة بنت زيد بن عمرو من بني النّضير، وقد كانت مما أفاء الله عليه من بني النّضير، حيث وقعت في السّبي، فخيرها

(١) براء ثم زاي ثم قاف بالثنية صفة موصوف محذوف للعلم به، أي: ثيابا رازقية، وهي ثياب من كتان بيض

طوال، قاله أبو عبيدة، ونقله الحافظ في الفتح ١٧/٢

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ٥٣/٧.

رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الإسلام وبين دينها، فاختارت الإسلام فأعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة، فطلقها تطليقة وهي في موضعها لم تبرح، فشق عليها وأكثر البكاء، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على تلك الحال فراجعها، فكانت عنده حتى ماتت عنده قبل أن يتوفى صلى الله عليه وسلم (١).

فانظر كيف استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يرحم تلك المسكينة لما ندمت على ما بدر منها، وكاد البكاء يقطع قلبها وذلك بفضل الطلاق الرجعي، ولو كان بائناً لحالت بينوته عن رحمتها وتدارك الخطأ الذي نشأ منها، وفي هذا درس لأمته لتحفظه فتطيعه في ساعة اختيار الفراق حتى لا يضيقوا على أنفسهم فيما وسعه الله لهم، ويعذبوا أنفسهم بينما هو قد رحمهم، وحقاً إنه لا يهلك على الله إلا هالك.

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يأمر أمته أن تحرص على طلاق السنة، وهو أن يطلق طلقة واحد في طهر لم يجامعها فيه، وذلك إذا ما قرر امرؤ اللجوء إلى هذا الاختيار في حياته الزوجية وذلك ليتسنى له الرجوع إلى إعادة العلاقة الزوجية عندما يجد الصلاح في ذلك،

١ - فقد قال لثابت بن قيس لما أرادت امرأته أن تختلع منه بالحديقة التي كان قد أمهرها بها فقال له صلى الله عليه وسلم: "اقبل الحديقة وطلقها تطليقة" (٣).

(١) انظر الطبقات لابن سعد ١٣٠/٨، وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده لأبي عبيدة معمر بن المثنى ص ٨٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٤٦٠/٥.

وقالت طائفة من أهل العلم: لم تكن زوجة يل كانت أمة وكان يطؤها بملك اليمين حتى توفي عنها، والقول الأول اختيار الواقدي ووافقه شرف الدين الدمياطي ورجحه، وتعقبه ابن القيم في الهدى ١١٣/١ فقال: وفيما قاله نظر، فإن المعروف أنها من سراريه وإمائه أ.هـ.

(٢) أخرجه البخاري في الخلع، باب الخلع وكيف الطلاق فيه ٦٠/٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢ - ولما ذكر له أن رجلا طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا، قام غضبان ثم قال: "أُيْلَعُ بكتاب الله عز وجل وأنا بين أظهركم" حتى قام رجل فقال: يا رسول الله ألا أقتله؟ (١) :

٣ - ولما ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه له صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض، قال له صلى الله عليه وسلم: "مره فليراجعها، ثم ليتركها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله عز وجل أن يطلق لها النساء" (٢) .

وذلك كله حرصا منه صلى الله عليه وسلم على التروّي في الطلاق وعدم التهور فيه ليكون لهما مندوحة إذا ما رأيا الخير في العودة إلى عصمة النكاح .

وهو يدل على حرص الشارع الحكيم على إبقاء الحياة الزوجية وعدم تفككها، لما في ذلك من عمارة البيوت، وتحصين بناء الأسرة، وحماية النشأ من التمزق والشّتات، وكل هذه فضائل أخلاقية عظيمة لها كمال العناية والرعاية في الشريعة الإسلامية .
وقد طبّقها النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، وأراد ذلك من أمته كما علمت مما تقدم بيانه .

(١) أخرجه النسائي في الطلاق، باب الثلاث مجموعة وما فيه من التغليظ ١٤٢/٦ من حديث ابن وهب عن

مخرمة عن أبيه عن محمود بن لبيد ورجال إسناده ثقات، غير أن مخرمة لم يسمع من أبيه كما ذكر ذلك

الحافظ ابن حجر في ترجمته من التهذيب ٧٠/١٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب إذا طلقت الحائض تعدد بذلك طلاقا ٥٢/٧ وفي غيره، ومسلم في

الطلاق من عدة روايات برقم ١٤٧١ .

المبحث السابع

(معاملة ذوي القربى والأرحام)

ذوو القُربى: هم الأقارب الذين تجمعهم رحم واحدة سواء كانوا من جهة الأب أو من جهة الأم، ويسمَّون بالأرحام؛ لأن "الرَّحْم اسم لمكانة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره" قال الراغب عند تفسيره للرحم: "ومنه استعير للقربة لكونهم خارجين من رحم واحدة" (١)، فعُلم أن الأقارب والأرحام بمعنى واحد .

عناية القرآن الكريم بالإحسان إلى الأقارب والأرحام:

وحسن معاملة الأقارب والأرحام عني بها القرآن الكريم كثيرا، لعظم شأنها بين المؤمنين "لأن القربة مظنة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة، فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان أشق على القلب وأبلغ في الإيلام والإيحاش والضرورة" (٢) .

ولا يتم كل ذلك إلا بالإحسان إليهم، والصبر عما يجري منهم، والحلم عن إساءتهم، وإظهار الود لهم.. فلذلك حث الله تعالى على الإحسان إلى الأقارب والأرحام، ونوّه بالقائمين بذلك، وحذّر من ترك ذلك أو التهاون به، في نحو اثنتي عشرة آية من كتاب الله الكريم .

حث القرآن على الإحسان إلى الأقارب والأرحام:

أما الحث عليه ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...﴾ [سورة البقرة: ٨٣] .

والآية وإن كانت تتحدث عن بني إسرائيل، فإنها تشمل المؤمنين بالأولى ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ ، وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بآيات عدة بأسلوب الأمر الصريح أو الترهيب الشديد، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٧/٥، وانظر روح المعاني ٧٠/٢٦/٩، والمفردات ص ١٩١ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦٦/٣ .

خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴿[سورة النساء: ١] .

وقوله سبحانه: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ [سورة النساء: ٣٦] .

وقوله سبحانه: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾ [سورة الإسراء: ٢٦] .

فهذه الأوامر الإلهية تلزم المؤمنين بالإحسان إلى أقاربهم، والإحسان اسم عام يشمل كل ما يكون فيه رضا لهم وبراً بهم وعطفاً على أحوالهم وشئونهم، ولذلك أبهمه ليشمل كل مسمى الإحسان، جليله وحقيقه، ولتذهب النفس في تفسيره أي مذهب، فإنها ستبر بذلك .

وقد نص الله تعالى على بعض صور الإحسان إليهم في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ [سورة النساء: ٨] .

فإن هذه الآية تأمر المؤمنين عند قسمة موارثهم أن يصلوا أرحامهم ويتاماهم ومساكينهم من الوصية، فإن لم تكن وصية، وصل لهم من الميراث (١) شيئاً يرضون به، ويكسب في قلوبهم الود والمحبة .

وقد حث الله تعالى على مثل هذا العطاء في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى...﴾ [سورة النحل: ٩٠] وأمر الله تعالى هذا يعني إعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه مهما كان، طالما أن هناك مقدرة لعموم الإيتاء المأمور به، الشامل لكل ما يمكن الإيتاء منه، والتنصيب عليه بعد الأمر بالإحسان، هو من ذكر العام بعد الخاص؛ لأن الإيتاء هو المراد من الإحسان، وإنما خص بالذكر لمزيد الاهتمام به (٢) .

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٤٩/٥ .

(٢) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٦٤ .

وقد سمي الله تعالى ما أمر به في هذه الآية "حقاً" بمعنى أنهم يعطونه على سبيل الاستحقاق، لا على سبيل التفضل والامتنان الذي يثقل كواهل الآخذين، فقال سبحانه: ﴿وَمَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [سورة الإسراء: ٢٦] .

وقال جل شأنه: ﴿فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٨] .

والحق الذي أثبتته الله تعالى في هاتين الآيتين بمحمل يفسر بكل ما يجب لهم من الصلة وحسن العشرة والبر، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه^(١)، وهو الذي يعنيه الإحسان بكل معانيه وأبعاده .

قال القرطبي عند الآية الثانية: "واختلف في هذه الآية ف قيل: إنها منسوخة بآية المواريث، وقيل: لا نسخ بل للقريب حق لازم في البر على كل حال، قال: وهو الصحيح، ثم نقل عن مجاهد وقتادة قولهما: صلة الرحم فرض من الله عز وجل، ونقل عن مجاهد رحمه الله قوله: "لا تقبل الصدقة من أحد ورحمه محتاجه"^(٢) ثم قال: وقيل: المراد بالقربي أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم، قال: والأول أصح، فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ﴾ الآية [سورة الأنفال: ٤١] ^(٣) .

تنويه القرآن الكريم بالواصلين لأرحامهم وأقاربهم:

ومع كون صلة الرحم والإحسان إلى الأقارب قد جعله الله تعالى حقاً ثابتاً لبعضهم على بعض، فإن الله تعالى قد بالغ في الثناء على الواصلين أرحامهم وأقاربهم، وبالتنويه بهم، ورتب على ذلك مثوبات جسيمة، ينيلها الواصلين أرحامهم في دار كرامته، وذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

(١) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٧٤ - وجامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٤٧/١٠ .

(٢) لعله يقصد بذلك الإشارة إلى إثم المقصر في حق أرحامه، وليس المراد نفي القبول على الإطلاق؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالوحي .

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٣٥/١٤ .

ويخافون سوء الحساب... ﴿إلى قوله: ﴿أولئك لهم عقيب الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [سورة الرعد: ٢١-٢٣]

وفي هذه الآيات من بالغ الثناء وكريم الوعد ما لا يفرط فيه إلا محروم .

ذم القاطعين أرحامهم وأقاربهم:

وذلك أن من فرط في اكتسابه بأن أضاع حقوق أقاربه، وضمن عليهم بما يحتاجونه من متاع الحياة الدنيا فإنه يكون قاطعا لرحمه، معرضا نفسه لغضب الله وسخطه، كما دل على ذلك الوعيد الشديد الوارد في القرآن المجيد، كقوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثقه يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [سورة الرعد: ٢٥] ففي هذه الآية وعيد شديد لمن يفرط في وصل أرحامه وأقاربه، إذ توعد الله تعالى بالطرد من رحمته حيث لعنه، وبسوء المصير عند القدوم إليه حيث هيأه له، وقد تكرر هذا الوعيد بأسلوب أقسى ففي سورة محمد يقول الله عز وجل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ [آية: ٢٢، ٢٣] .

فإن في "هذه الآية إشعارا بأن الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر، فهما جُرمَان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما" (١) حذرا من أن يحل بهم ما أوعده الله به القاطعين من العذاب الذي يحيق بمن يُطرد من رحمة الله المعبر عنه باللعن، ومن الصمم عن سماع الحق، وعمى البصيرة عن رؤيته واتباعه .

قال الحافظ ابن كثير (٢) عقب هذه الآية: "وهذا نهى عن الإفساد في الأرض عموما وعن قطع الأرحام خصوصا، قال: بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال، وبذل الأموال، ثم دعم ذلك بالثابت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مما سيأتي ذكر ما تيسر منه إن شاء الله تعالى .

(١) التحرير والتنوير ١١٣/٢٦ .

(٢) في تفسير القرآن العظيم ١٧٨/٤ .

تمثل خلق الإحسان

إلى الأقارب في النبي صلى الله عليه وسلم

أما إحسانه صلى الله عليه وسلم إلى أقاربه فهو إحسان عظيم، وبر كريم، وصلة متواصلة تفسر ما ينبغي أن تكون عليه الصلة والإحسان للأرحام والأقارب الذي أمر به القرآن الكريم وحث عليه، ويستوجب التأسي به والسير على نهجه فيه كما هو الحال في جميع ما شرعه الله تعالى في كتابه، أو شرعه صلى الله عليه وسلم لأئمة، مما أوحى به الله تعالى إليه .

وقد كان الإحسان إلى الأقارب والأرحام خلقاً عاماً فيه صلى الله عليه وسلم نشأ عليه وعُرف به قبل البعثة، كما قالت له خديجة رضي الله عنها في قصة بدء الوحي: "إنك لتصل الرحم... " ثم مازاده الشرع المطهر إلا توطيداً لهذه الصلة، ومسارعة إلى الإحسان والبر بأهلها؛ لكثرة ما حث الوحي الكريم به .

والشواهد والأدلة على ذلك كثيرة، وبسطها يولد الإطالة، وبحسب امرئ أن يعلم نماذج من ذلك لتكون دليلاً على ما سواها فمن ذلك :

١ - إحسانه العظيم وبره الكريم وصلته الجليلة في هدايتهم إلى دين الله تعالى، وبذل جهده على إيصال ذلك إليهم، لما يورثهم ذلك من سعادة سرمدية في الدنيا والآخرة .
وإن محاولته الجادة مع من ناصره وعضده في مكة المكرمة عمه أبو طالب الذي تقدم ذكره في الوفاء (١) دليل صدق على ذلك .

٢ - وكذلك ما أنجبنا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٤] دعا رسول الله صلى الله

(١) تقدم ذكر ذلك ص ٥٥١ .

عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعم وخص، وقال: يابني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله غير أن لكم رحما سأصلها ببلالها (١) .

ومعنى ذلك أن كفركم وعدم قبولكم لدعوتي في الإيمان برسالي لا يمنعني من صلة رحمكم في الدنيا، ولا أغني عنكم في الآخرة من الله شيئا (٢) .

وقد كان لإحسانه العظيم هذا، وحرصه الشديد ذاك أثر في هداية من كتب الله تعالى الهداية له، حيث أسلم جل أقربائه وأرحامه، وخذل آخرون كأبي جهل وأبي لهب وأبي طالب لحكمة أرادها الله تعالى وقضاها لا تخفى على ذوي الألباب .

٣ - ومع خذلانهم وصددهم عن سبيل الله ومعاداتهم له، فإنهم لم يجرموا من بره وإحسانه كما علمت من مبحث رحمته صلى الله عليه وسلم حيث أنظروا فلم يعجل لهم العذاب، ودعا الله تعالى أن يرفع عنهم ما أنزله الله تعالى بهم من القحط والجذب "لما استعصوا عليه صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ [سورة الدخان: ١٠، ١١] فأتني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، قال لمضر؟ إنك لجريء، فاستسقوا فسقوا... (٣) الحديث .

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ١٤٠/٦، ومسلم في الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك

الأقربين﴾ برقم ٢٠٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والبلال: هو الماء، والمعنى: سأصلها، شبه

قطيعتها بالحرارة تطفأ بالماء وهذه تبرد بالصلاة. هـ، رياض الصالحين ص ١٨١ .

(٢) انظر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحمد الصادق عرجون ٣١٣/٦ - ٣١٧ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ١٦٤/٦ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

٤ - ولما فتح مكة لم يفعل كما يفعل الملوك حيث إنهم ﴿ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ ^{٢٣} وإنما دخل وهو يقول: "اليوم يوم الرحمة" ثم دخل وقال: «إذهبوا فأنتم الطلقاء» (١) إلى غير ذلك من الإحسان الذي لا يفعله أحد يؤذى في داره، ويضطهد على دينه، ويخرج من بلده، إلا أن يكون صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم .

إحسانه صلى الله عليه وسلم لمن تابعه وآمن به من أقربائه:
فإذا كان ألد أعدائه من أقاربه صلى الله عليه وسلم لم يحرموا من إحسانه وبرّه، فما الظن بمن تابعه وجاهد معه وكثر سواده ؟

إن من كان كذلك لجدير بعظيم الإكرام والإحسان، وهو ما حدث منه صلى الله عليه وسلم بالفعل لأقاربه، والأدلة على ذلك كثيرة معلومة نذكر منها ما يلي:

١- منها ما جاء في برّه بعمه العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه في مواقف كثيرة ؛ ففي يوم بدر قال لأصحابه رضي الله عنهم: "من لقي منكم العباس فليكنف عنه فإنه مكره" (٢) فأسرّه رجل من الأنصار (٣)، وكان العباس رضي الله عنه ينكر أن يكون هو الذي أسره ويقول: لقد أسرني رجل أجّاح (٤) من أحسن الناس وجهه على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فلما ادّعى الأنصاري ذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أسكت فقد أيدك الله بملك كريم" (٥).

(١) كما تقدم، انظر ص ٥٨٣ من الرسالة .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١٠/٤، والإمام أحمد في فضائل الصحابة برقم ١٧٨٢، وفي إسناده ضعف

ولكن الخبر من باب السير الذي يقبل فيها مثله .

(٣) هو أبو اليسر كعب بن عمرو بن غنم الأنصاري السلمي، شهد العقبة وبدرا وغيرهما توفي سنة ٥٥ هـ،

الإصابة ٢٢١/٤ .

(٤) الأجلح من الناس: هو الذي انحسر الشعر من جانبي رأسه . اهـ النهاية مادة (جلح) .

(٥) عزاه الهيثمي في المجمع ٧٩/٦ إلى أحمد في المسند ١١٧/١ والبراز، قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، غير =

فلما كان من الليل سهر النبي صلى الله عليه وسلم ليلته، فقال له بعض أصحابه: ما يُسهرُك يا نبي الله؟ قال: أنينُ العباس، فقام رجل من القوم فأرخى مِن وثاقه، فقال رسول الله: صلى الله عليه وسلم: ما لي لا أسمع أنين العباس؟ فقال رجل من القوم: إني أرخيت من وثاقه شيئاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فافعل ذلك بالأسارى كلهم" (١).

٢- وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم العباس بعد إسلامه ويعظمه، فقد حدث ذات يوم أن أوذى العباس رضي الله عنه في أبيه، فصعد النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر ثم قال: "والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم الله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم" ثم قال: "أيها الناس من آذى العباس فقد أذاني، إنما عم الرجل صنو أبيه" (٢). فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتأذى مما يتأذى منه العباس، وما ذلك إلا لعظم محبته له، وعظيم صلته له، حيث يشاركه السرور والحزن، مما يدل على كمال الصلة المعنوية منه صلى الله عليه وسلم لأقربائه، أما الحسية فقد تقدم ما يدل عليها في مبحث كرمه صلى الله عليه وسلم (٣).

٣- ومن برّه صلى الله عليه وسلم بأقاربه وإحسانه لهم، ما كان لحمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أول لواء عقده حين قدم المدينة أعطاه لحمزة ليتجه إلى سيف البحر - أي ساحله - في ثلاثين راكباً من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بذلك الساحل في ثلثمائة راكب من أهل مكة، فحجز

= حارثة بن مضرب وهو ثقة، وانظر السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري ٣٦٥/٢، وزاد المعاد ١٨٣/٢. وصح إسناده الشيخ أحمد شايف تعليقه على المسند ١٩٤/٢ أخاه العُمري.

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٥١٠/١، وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص ١٩١.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٠٧/١، والترمذي في المناقب، باب مناقب العباس برقم ٣٧٥٨ وقال حسن

صحيح، والحاكم في المستدرک ٣٣٣/٣ من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن عبد المطلب.

(٣) انظر ص ٦٢٧.

بينهما محمد بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين، ولم يكن بينهما قتالاً^(١).

٤- ولما وقف عليه حيث استشهد في أحد، فنظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه^{منه} فقال: "رحمة الله عليك فإنك كنت - ما علمت - فعولاً للخيرات، وصولاً للرحم، ولولا حزن من بعدك عليك لسررتني أن أدعك حتى تحشر من أفواه شتى، أما والله مع ذلك لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعده بخواتيم النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [سورة النحل: ١٣٦].

فكفر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عن ذلك^(٢).

إحسانه صلى الله عليه وسلم وبره ببني عمومته:

أما إحسانه وبره ببني عمومته على ذلك النحو الذي ندب الله تعالى إليه وأمر عباده به فهو كثير من فعله صلى الله عليه وسلم وقوله، ومن ذلك ما ذكره في الآتي:

١- ما كان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث احتضنه فرباه وأحسن تربيته، فلما شبَّ زوجه من ابنته أحبَّ الخلق إليه؛ فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وفي ذلك من الدلالة على عظم المكانة التي يتبوأها علي رضي الله عنه في فؤاد النبي صلى الله عليه

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٠/٣ مع الروض الأنف، وصفة الصفوة ٣٧١/١، وذخائر العقبى ص ١٧٥-١٧٦، وقد اختلفوا في أول راية عقدها رسول الله عليه وسلم، فمن قائل إنها كانت لعبيدة بن الحارث وهم الأكثرون، وقائل إنها كانت لحمزة، قال ابن هشام: وذلك أن بعثته وبعثة عبيدة كانتا معا فشبه ذلك على الناس. انظر سيرته ٢٠/٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٩٢/٢، وصفة الصفوة ٣٧٥/١، وذخائر العقبى ص ١٨٠، وسيرة ابن هشام ١٧١/٣، وضعف الحافظ ابن كثير إسناده قال: لأن فيه صالح بن بشر المري وهو ضعيف عند الأئمة قال: وقال البخاري: منكر الحديث، لكن الخير أجمعت على ذكره كتب المغازي والسير، وانظر سيرة ابن هشام ١٧١/٣، وطبقات ابن سعد ١٤٤٣/٣، والاستيعاب بهامش الإصابة ٢٧٤/١، والإصابة ٣٥٤/١، وسبل الهدى والرشاد ٣٢٧/٤-٣٢٩.

وسلم ما فيه، بحيث استوجبت تلك المكانة أن يُؤثره بها على أبي بكر وعمر الذين كانا قد خطباها قبل^(١). ويعدُّ هذا الأمر أعظم صلة وأكرم برٍّ من النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٢- غير أنه لم يقف عند هذا الحد؛ بل لقد وطَّد هذه الصِّلة بما أبانه لأمته من منزلته منه بطريق الإخبار، وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام: "من كنت وليَّه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه"^(٢).

٣- وقوله له: "أما ترضى أن تكون بمنزلة هارون من موسى؟! غير أنه لا نبي بعدي"^(٣).

(١) كما أخرج ذلك ابن سعد في الطبقات ١٩/٨.

(٢) هذا الحديث عُد من الأحاديث المتواترة، حيث جاء عن اثنين وعشرين صحابياً منهم زيد بن أرقم، وعلي،

وأبو أيوب الأنصاري، وأبو هريرة، وعمار، وابن عباس، وبريدة، وابن عمر، وغيرهم، وأخرج رواياتهم

أحمد في المسند ٨٤/١، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٢٨١/٤، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٥٨/٥، والترمذي برقم

٣٧١٢ وصححه، والنسائي في الخصائص ص ٥١، وابن حبان ٤٢/٩ من الإحسان وغيره.

وأخرجه في كتب المتواترات السيوطي في قطف الأزهار المتناثرة ص ٢٧٧، ومحمد مرتضى الزبيدي ص

٢٠٥، والكتاني في نظم المتناثر ص ١٤٤، وأفرد له ابن عقدة كتاباً خاصاً جمع فيه طرقه وألفاظه، وذكر

المهيمني في المجمع ٩/١١٢-١١٤، غالب طرقه.

(٣) قال ذلك لما خلفه النبي صلى الله عليه وسلم وسلم على المدينة وخرج إلى غزوة تبوك، فقال علي رضي

الله عنه: تَخَلَّفَنِي فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "....." الحديث الخ.

والحديث يعد أيضاً من الأحاديث المتواترة حيث جاء عن نيفٍ وعشرين صحابياً، قال الكتاني في النظم

ص ١٢٥: استوعبها ابن عساكر في نحو عشرين ورقة، وذكر السيوطي في قطف الأزهار تسعة، منهم:

أبوسعيد، وأسماء بنت عميس، وأم سلمة، وابن عمر، وعلي، وجابر بن سمرة، وزيد بن أرقم، وسعد بن

أبي وقاص، رضي الله عنهم، وأخرج رواية سعد البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن =

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المنوّهة بفضلله رضي الله عنه وأرضاه.

٤- ومن ذلك إحسانه العظيم عليه بإبقاء بابه مفتوحاً إلى المسجد مع أمره صلى الله عليه وسلم: بسد سائر الأبواب غير بابه، حيث قال صلى الله عليه وسلم: "سدُّوا هذه الأبواب إلا باب علي..." (١).

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقول في زمن النبي صلى الله عليه وسلم: رسول الله خير الناس؛ ثم أبو بكر، ثم عمر، قال: ولقد أُوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال لئن تكون لي واحدة منها أحب إلي من حُمُر النَّعَم؛ زَوْجَه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وولدت له، وسَدَّت الأبواب إلا بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم خيبر" (٢).

= أبي طالب رضي الله عنه ٢٤/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب برقم ٢٤٠٤، وأخرج بقية الروايات أحمد في المسند ١/١٨٢، وفي فضائل الصحابة برقم ٩٥٤، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٨٩، والنسائي في الخصائص ص ٣٨، ٣٩، وذكر الهيثمي في الجمع ٩/١١٤، ١١٥، كثيراً من طرقه عازياً ذلك إلى الطبراني في معاجمه الثلاثة، وإلى أحمد وأبي يعلى بطرق صحيحة وضعيفة.

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/٣٣١ بإسناد صحيح، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه من طرق أخرى فيها ضعف ١/١٧٥، ٤/٣٦٩، وفي الفضائل برقم ٩٨٥، وأخرجه النسائي في خصائص علي رضي الله عنه ص ٣٥ كما في التهذيب من حديث زيد بن أرقم، ولكنها تشهد للطريق الأولى عند أحمد وتزيدها قوة.

وله شاهد آخر من حديث سعد بن مالك موقوفاً عند الطبراني في الأوسط وأبي يعلى والبخاري وأحمد، وإسناد أحمد حسن كما قال الهيثمي ٩/١١٧.

وأخرجه من الطريق الأولى عند أحمد أبو نعيم في الحلية ٤/١٥٣ مختصراً.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة برقم ٩٥٥ وفي إسناده هشام بن سعد المدني وهو صدوق له أوهام، رمي بالتشيع كما قال في التقريب برقم ٧٢٩٤، وأخرجه في المسند ٢/٢٦ من طريقه أيضاً، فالحديث ضعيف، لكن له شاهد عند الحاكم في المستدرک ٣/١٢٥ من حديث عمر رضي الله عنه وصحح إسناده.

= وتعبه الذهبي بعبد الله بن جعفر المدني وقال: إنه ضعيف.

٦- وكان قد قال فيه ذلك اليوم: "لأعطينَ هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ويفتح الله على يديه" (١).
وهكذا كان برُّه صلى الله عليه وسلم بجميع أقاربه، كان على هذا النحو إحسانا وإفضالا كما يدل لذلك قول عمته صفية بنت عبدالمطلب رضي الله عنها، في مرثاة لها فيه صلى الله عليه وسلم:

= وقضية سد أبواب الصحابة المشرعة إلى المسجد ثابتة من أحاديث كثيرة وهي وإن كان في بعضها ضعف، لكن يقوي بعضها بعضا، قال الحافظ في القول المسدد ص ٢١ بعد سياق الروايات المتعاضدة في هذا المعنى ما نصه: «فهذه الطرق المتظاهرة من روايات الثقات، تدل على أن الحديث صحيح دلالة قوية، قال: وهذه غاية نظر المحدث» ثم تعرض لمخالفته للحديث الآخر المثبت هذه الخصوصية لأبي بكر المثبت في البخاري ١١٩/١، بلفظ: «سَدُّوا عَنِّي كُلَّ خُوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خُوْخَةٍ أَبِي بَكْرٍ» فقال الحافظ: «وأما كون المتن معارضا للمتن الثابت في الصحيحين من حديث أبي سعيد، فليس كذلك ولا معارضة بينهما، بل حديث سد الأبواب غير حديث سد الخُوخ، لأن بيت علي بن أبي طالب كان داخل المسجد مجاورا لبيوت النبي صلى الله عليه وسلم، وأما سد الخوخ فالمراد به طاقات كانت في المسجد يستقربون الدخول بها، فأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته بسدها إلا خوخة أبي بكر وذلك إشارة إلى استخلافه قال: وظهر بهذا الجمع أن لاتعارض...»

وقد دفع هذا التعارض أيضا الحافظ ابن كثير حيث قال في البداية والنهاية ٣٤٣/٧: وهذا لا ينافي ما ثبت في صحيح البخاري من أمره عليه الصلاة والسلام في مرض الموت بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبي بكر؛ لأن نفي هذا في حق علي كان في حال حياته لاحتياج فاطمة إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها فجعل هذا رفقا بها، وأما بعد وفاته فزالَت هذه العلة، فاحتيج إلى فتح باب الصديق لأجل خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس إذ كان الخليفة عليهم بعد موته عليه الصلاة والسلام، وفيه إشارة إلى خلافته. اهـ.

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب علي رضي الله عنه ٢٣/٥، ومسلم في فضائله أيضا برقم ٢٤٠٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهذه رواية مسلم.

ألا يارسول الله كنت رجاءنا و كنت بنا برآ ولم تك جافيا

إلى أن قالت:

صبرت وبلغت الرسالة صادقا و دمت صليب الدين أبلج صافيا

فلو أن رب العرش أبقاك بيننا سعدنا ولكن أمره كان ماضيا^(١)

ويدل لذلك أيضا قول أبي طالب في لاميته المشهورة:

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل

فهذه نماذج لبره صلى الله عليه وسلم وإحسانه لأقاربه رضي الله عنهم، في حياته وبنفسه الكريمة.

وهنا ينبغي أن يفهم أن هذا الإحسان والحب والبر بالأرحام والأقارب، لم يكن على حساب الحق أو على حساب أحد من المسلمين، وإنما كان لاستحقاقهم ذلك وأهليتهم له، فإنهم كانوا أكثر الناس التزاما بشرع الله، وأسرعهم استجابة وتسابقا إلى مرضاة الله تعالى، وأعظمهم نصرة لشرع الله تعالى.

فهذا حمزة بن عبدالمطلب يصرع شهيدا ويمثل به أيما تمثيل وذلك في ذات الله تعالى.

وجعفر بن أبي طالب نال نحو ذلك شهادة وتمثيلا في غزوة مؤتة.

وعلي رضي الله عنه كان الأسد الضرغام، والبطل المغوار، في كل المشاهد وميادين القتال إلا تبوك .

والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث كانا في مقدمة صفوف القتال في حنين، ولقد ثبت النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الوقعة العظيمة وما ثبت معه إلا قليل منهم العباس وأبو سفيان بن الحارث، وكانوا جميعا عرضة للخطر المهدق لقربهم من النبي صلى الله عليه وسلم المقصود بالذات من الأعداء.

وهذه فاطمة رضي الله عنها يرفض النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيها خادما مع شدة احتياجها لذلك كما مضى ذكره.

(١) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٠/٩ إلى الطبراني قال: وإسناده حسن .

إلى غير ذلك من الشواهد والأدلة على أنهم كانوا جديرين بكل عطاء وفضل وتنويه، ومع ذلك فلم يؤثرهم النبي صلى الله عليه وسلم بحقوق المسلمين، بل أحرمهم حتى من وراثته، ومن الصدقة - الزكاة - لأنهم كانوا أهل بيت لا يريدون إلا وجه الله والدار الآخرة.

وهذا بعكس حال رؤساء الأمة الإسلامية اليوم وقبله، من إظهارهم أقرباءهم بنصيب الأسد من حقوق المسلمين الذين اتَّمِنُوا عليها ليصل إلى كل ذي حق حقه عن طريقهم. وهذه النماذج المتقدمة من بره صلى الله عليه وسلم وإحسانه بأقاربه وأرحامه، تقتضي التأسى به صلى الله عليه وسلم في الإحسان وصلة قرابته صلى الله عليه وسلم بحبة للنبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة له، وكان ذلك كافياً لأمته في صلة أقارب نبيهم والبر بهم والإحسان إليهم، لمقتضى وجوب التأسى به صلى الله عليه وسلم.

غير أنه عليه والصلاة والسلام لم يُعِفِ الأمة من أن يوجَّه لها حثاً مباشراً، وحثاً بالغاً على الإحسان إلى قرابته عليه والصلاة والسلام، لئلا يغوا في ذلك فتقرَّ عينه بقرابته وأمته، لأن إكرام القرابة إكرام له صلى الله عليه وسلم، وذلك يبعث على رضاه عليه والصلاة والسلام على المحسنين إليهم البارِّين بهم، كما دل على ذلك ما تقدم ذكره غير بعيد من تأذيه صلى الله عليه وسلم ممن يؤذي العباس رضي الله عنه الدالِّ، مغفومته على رضاه عليه والصلاة والسلام عن يَرَّةٍ ويحسن إليه، ومن ذلك **الحث** :

١- قوله عليه الصلاة والسلام : "أما بعد، ألا أيُّها الناس فإنما أنا بشر يوشيك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين؛ أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به" فحثَّ على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: "وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي" قال حُصَيْن بن سُبْرَةَ أحد راويي الحديث عن زيد بن أرقم رضي الله عنه:

ومن أهل بيته يازيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِّم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر

وآل عباس، قال: كل هؤلاء حُرْمُ الصَّدَقَةِ؟ قال: نعم، (١) .

٢- وفي رواية قال: "ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل، هو حبلُ الله من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة..." (٢) .
ونقل الإمام النووي عن العلماء قولهم: "سُمِّيَا ثقلين لعَظَمَهما وكَبِيرَ شأنِهما، وقيل: لِثِقَلِ العمل بهما" (٣) .

وقال ابن الأثير: "سَمَّى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن العزيز وأهل بيته ثقلين، لأنَّ الأخذ بهما والعمل بما يجب لهما ثَقِيلٌ، وقيل: العرب تقول لكل نفيس ثَقْلٌ، فجعلهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لشأنهما" (٤) .

٣- وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني تارك فيكم ما إن تمسكتُم به لن تضلُّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعِترتي (٥) أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما" (٦) .

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم ٢٤٠٨، والدارمي

في فضائل القرآن ٤٣٢/٢ .

(٢) هي إحدى روايات مسلم بالرقم المتقدم .

(٣) شرح مسلم ١٨٠/١٥ .

(٤) جامع الأصول ١٥٩/٩ .

(٥) عترة الرجل: أخص أقاربه، وهم هنا بنو عبد المطلب، وقيل: أهل بيته الأقربون وهم أولاده وعلي وأولاده.

النهاية ١٧٧/٣ .

(٦) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ٣٧٨٨، وقال:

حسن غريب .

وأخرجه أحمد في المسند ٣٦٧/٤، ٣٧٢ من حديثه وله شاهد عنده من حديث أبي سعيد الخدري رضي

الله عنه أخرجه في ١٤/٣، ١٧، ٢٦، ٥٩، فهذه الروايات تشهد لرواية زيد وتقويها .

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحبُّوا الله لما يغذوكم به، وأحبُّوني لحبِّ الله وأحبُّوا أهل بيتي بحبِّي" (١) .
والأحاديث في هذا الباب كثيرة خاصة وعامة، وكلها تدل على عظيم حقوق قرابة النبي صلى الله عليه وسلم على أمة الإسلام، توجب لهم الرعاية والحسنى وزيادة .
وقد حمل بعض أهل التأويل قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [سورة الشورى: ٢٣] على قرابته عليه الصلاة والسلام وقالوا إن المعنى: (لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تؤدُّوا قرابتي وأهل بيتي) (٢) .
ولا عجب أن تنال قرابته صلى الله عليه وسلم عنايته الكبيرة تنويها بمكانتهم وحشا على الإحسان إليهم، فإن ذلك إنما كان تبيانا للقرآن الكريم وإيضاحا لهداه، حيث أشاد بمكانتهم عند الله وأوجب العناية بهم.

(١) أخرجه الترمذي في المناقب الباب السابق برقم ٣٧٨٩، وقال: حسن غريب، وأبو نعيم في الحلية ٢١١/٣، والحاكم في المستدرک ١٥٠/٣، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٨٨/١، وفي مناقب الشافعي ٤٥/١، والإمام أحمد في فضائل الصحابة برقم ١٩٥٢، وفي إسناده عبد الله بن سليمان النوفلي وهو مقبول كما قال الحافظ في التقريب برقم ٣٣٧٢، وقال الذهبي عنه في الميزان برقم ٤٣٦٧: فيه جهالة وأخرج حديثه هذا .
(٢) وهذا تأويل مرجوح في تفسير الآية؛ لأن نظم الآيات يقتضي أن يكون المعنى: لا أسألكم على القرآن جزاء إلا أن تؤدُّوني، أي تعاملوني معاملة الودِّ، أي: غير معاملة العداوة لأجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي .

وهذا ما ذهب إليه جمهور أهل التأويل كمجاهد وقتادة وجماعة، ومن قبلهم ابن عباس رضي الله عنهم.
وأما القول الأول فقد ذهب إليه علي بن حسين وعمرو بن شعيب والسدي، إلا أن ما ذهبوا إليه لا تصح فيه رواية عمن يعتد بفهمه كما قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٨٣/٢٥. وانظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٤-٢١/١٦، وروح المعني ٣٠-٣٣/٢٥/٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١١٤-١١١/٤ .

أما الاشارة ففي قوله جل ذكره: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٣] .

وآل بيته صلى الله عليه وسلم هن أزواجه وأولاده وأسباطه.
إذ الآية تدل على أن لآل البيت هؤلاء مكانة عظيمة عند الله تعالى حيث خصَّهم بهذه الإرادة الشرعية، وهي إرادة إذهاب الرجس وهو الذنب الذي يلوث الجسم بأقذار الخطايا الموجبة للإثم وتطهيرهم من ذلك تطهيرا بليغا.

والله تعالى يريد للمؤمنين كلهم ذلك، ولكنه يريد ذلك لأهل البيت على وجه الخصوص؛ لأنهم بيت النبوة الذين هم شامة الناس شرفا وفضلا واستمسكا بشرع الله المطهر.

ولذلك نص عليهم في هذه الآية للتبويه بهم وإظهار شرفهم على غيرهم.
وأما إيجابه العناية بهم فهو ما دل عليه فرض الله تعالى لهم ما يُغنيهم، وهو خمس الخمس من المغنم الوارد في قوله جل شأنه: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ... ﴾ [سورة الأنفال: ٤١] .

فانتزع الله تعالى الخمس من المغنم، وأوجب لقراة النبي صلى الله عليه وسلم خمس، وجعل ذلك مناطا بمن يلي قسمة الغنائم من إمام المسلمين أو نائبه.

وذلك لكي يسدوا حاجتهم، وَيُغْنَوْا عَنْ التَّطَلُّعِ إِلَى أَمْوَالِ غَيْرِهِمْ، ولما كان ذلك كافيا لهم حرمة عليهم الزكاة التي هي أوساخ المال، وهم أناس أطهار، فلم تكن للاحقة بهم، غير أن هذا الحق قد ضاع بترك أئمة المسلمين جهاد الكافرين، فلم تعد هناك غنائم تقسم وتُخَمَّس، فتعرَّضت القراة الشريفة اليوم كما تعرض غيرهم إلى الحاجة الماسة مع عفتهم لأنهم لا يسألون الناس إلفافا، فيحسبهم الجاهلون أغنياء من التعفف، والله المستعان.

وقد كان السلف الصالح أحرص الناس على الإحسان إلى قراة رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم على قرابتهم الخاصة كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "أَرْقُبُوا

محمدًا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته" (١) .

وجاء أنه قال لعلي رضي الله عنه: "والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي" (٢) .

وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما: "والله لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحبَّ إلي من إسلام الخطَّاب لو أسلم؛ لأنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله من إسلام الخطَّاب" (٣) .

قال الحافظ ابن كثير:

"فحال الشيخين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، قال: ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين" (٤) .

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٦/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين .

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ١١٣/٤ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ١١٣/٤ .

الفصل الثاني

الأخلاق الاجتماعية العامة

وفيه مباحث:

- ١- التَّحِيَّةُ بدءاً ورداً .
- ٢- الاستئذان وغض البصر .
- ٣- الضيافة .
- ٤- الإحسان .

تمهيد:

من أجل المظاهر الأخلاقية، ما يظهر به المرء في مجتمعه من أدب في مخاطبته عند لقائه واجتماعه، وقدمه، وفراقه، وما يُرى به من رحمة للصغير، وتوقير للكبير، وعطف على الأراامل والأيتام وضعفاء الرجال، وما يُعرف عنه من طيب المجاورة، وكرم الضيافة، ورعاية الصداقة، إلى غير ذلك مما تعارفت الأمم على حسنه، ومدحت المتحلين به، وما يعرف به مدى تخلق المجتمع وتحضره ومكانته.

وتحلى المرء بكريم السجايا، وجميل الخصال، وزكاء الخلق في مجتمعه، يؤثر عليه إيجابيا في اقتباس تلك الأخلاق منه والافتداء به، لما جُبلت عليه النفوس من حب الفضيلة وكراهية الرذيلة، ومحبة أهل الفضل ومقت أهل السوء والفحشاء، وما فطرت عليه من التأثير بما أعجبت به من خير أو شر.

وإذا كان هذا الأمر تحبّذه العقول، فهو أيضا مما وردت به النقول عن كل نبي ورسول، وشريعتنا الإسلامية المحمدية، قد احتوت على الحظ الأوفر والنصيب الأكبر من العناية بهذه الأخلاق الاجتماعية كعنايتها في كل الأخلاق الإسلامية.

فورد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الفعلية والقولية ما يجلّ عن الحصر في مثل هذا الفصل الضمني.

وسأذكر جملة صالحة من الأخلاق الاجتماعية الواردة في كتاب الله تعالى وتمثلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم في مباحث هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول (التَّحِيَّةُ بدءاً ورداً)

التحية؛ على وزن تفعلة، مشتقة من حيي، والأصل تحيية، مثل ترضية وتسمية، فأدغموا الياء في الياء لتوالي الأمثال، ومعناها؛ الملِّك أو البقاء^(١) فهي تعني الدعاء بالحياة. قال الراغب: "التَّحِيَّةُ أَنْ يَقَالَ: حَيَّاكَ اللَّهُ، أَيْ جَعَلَ لَكَ حَيَاةً، وَذَلِكَ إِنْخِبَارٌ ثُمَّ يَجْعَلُ دَعَاءً، وَيُقَالُ: حَيَّا فُلَانٌ فُلَانًا تَحِيَّةً، إِذَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ، قَالَ: وَأَصْلُ التَّحِيَّةِ مِنَ الْحَيَاةِ، ثُمَّ جَعَلَ ذَلِكَ دَعَاءً تَحِيَّةً، لَكُنْ جَمِيعُهُ غَيْرُ خَارِجٍ عَنْ حَصُولِ الْحَيَاةِ، أَوْ سَبَبِ حَيَاةٍ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ"^(٢).

منزلة هذا الخلق في الإسلام:

والتحية خلق إسلامي رفيع يبعث على التَّحَابِّ والتَّراحم بين أفراد المجتمع المسلم، وهي تؤنس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه، وباللطف له إن كان معروفاً، ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى تبادلها، ونوه بفضلها، في غير ما آية .

حث القرآن الكريم على التحية:

أما حثه وندبه سبحانه وتعالى عليها فهو ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النور: ٢٧] .

وقوله سبحانه: ﴿... فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة النور: ٦١] .

فيأمر الله تعالى عباده في هاتين الآيتين بأن يسلموا على من يدخلون عليهم من أقارب أو أبعاد، بل حتى على الإنسان نفسه إذا لم يكن في البيت أحد، فيقول: السلام علينا

(١) تاج العروس ١٠٦/١٠ مادة (حيي)، وجامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٩٧/٥ .

(٢) المفردات ص ١٤٠ مادة (حيي) .

وعلى عباد الله الصالحين، كما دلت عليه الآية وقال به أهل العلم (١).
لأن التحية شأنها عظيم عند الله تعالى كما دل عليه وصفه تعالى لها بقوله: ﴿مباركة طيبة﴾.

قال في التحرير والتنوير (٢): "وإنما كانت هذه التحية مباركة لما فيها من نية المسالمة وحسن اللقاء والمخالطة، وذلك يوقّر خير الأخوة الإسلامية ... قال: ووجه طيب التحية أنها دعاء بالسلامة وإيذان بالمسالمة والمصافاة".

وهذه التحية المباركة الطيبة هي السلام الذي نصت عليه الآية الأولى والتي بينها النبي صلى الله عليه وسلم بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما خلق الله آدم وطوّله ستون ذراعاً، قال: اذهب فسلم على أولئك؛ لنفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحوّنونك فإنها تحيّيكَ وتحيّة ذريّتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن" (٣).

فلفظ: السلام.. إلخ هي التحية التي أرادها الله تعالى واختارها لبني آدم، وهو مشتق من السلامة، فهو دعاء بالسلامة وتأمين بالسلام، لأنه إذا دعا له بالسلامة فهو مسالم له، فكان الخبر، كناية عن التأمين، فهو دعاء تُرجى إجابته وعهد بالأمن يجب الوفاء به (٤).
ولما كان السلام دعاءً وتأميناً، كان على المسلم عليه أن يكافئه على دعائه، ويبادله الأمن الذي أشعره به، ليعمّ الإخاء والتحاب بين المؤمنين وتسود الأخلاق الحميدة في

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣١٩/١٢.

(٢) ٣٠٥/١٨.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام ٦٢/٨، ومسلم في السلام، باب تسليم الراكب على

الماشي برقم ٢١٦٠.

(٤) انظر التحرير والتنوير ٣٠٤/١٨.

صفوف المجتمع. وذلك بالرد عليه بأحسن من تحيته أو مثلها على الأقل .
ولئن كان ابتداء السلام في الأصل مندوبا، فإن الرد واجب حتمي، كما أفاده قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللهَ كانَ على كل شيءٍ حسيباً﴾ [سورة النساء: ٨٦] .

وهنا يتجلى حرص الإسلام على سمو الخلق وإشاعة التواد والتراحم، حيث لم يكتفِ الشارع بالرد بالمثل، وإنما ندبهم إلى أن يكون الرد أحسن من الابتداء، لما في ذلك من إظهار الفرحه والأنس والصفاء، وذلك ما يريده الإسلام من متبعية، فيقول في جواب السلام عليكم: وعليكم السلام ورحمة الله، فإذا زاد المسلم: (ورحمة الله) زاد الراد: (وبركاته) .

فإن انتهى المسلم بالسلام إلى غايته، كانت الزيادة الحسنة بالواو في قوله: وعليكم إلخ فإن لم تطب نفسه بالزيادة، لشيء في نفسه عليه أو نحوه، فلا أقل من أن يرد التحيّة بالمثل وذلك حتم عليه، لأنه مكافأة وإثابة على الإحسان، فلا يحل تركه أو النقص عن المثل لما في ذلك من الإهانة والإزدراء بالمسلم، وذلك حرام .

"ولذا ندب للجمع المسلم عليهم أن يجيبوا كلهم إظهارا للإكرام ومبالغة فيه وإن كان الفرض يسقط ببعضهم" (١) .

كما أن في تركه إعراضا عن هذه التحيّة المباركة الطيبة التي فضلها الله تعالى واختارها لعباده دون صنوف التحيات التي كانوا يتبادلونها في محاوراتهم ولقاءاتهم كقولهم: عَم صباحا، وحيّاك الله، ونحو ذلك، فالإعراض عن ذلك يكون إعراضا عن الفضيلة .

الأدلة على فضيلة التحية بالسلام:

ومما يدل على فضيلة السلام: القرآن والأخبار والمعقول؛
أما القرآن فلأن الله تعالى سمّى نفسه به، فإنه سبحانه (الملك القدوس السلام ..) وسلم به على عباده في عدة مواطن، كما في قوله سبحانه: ﴿يا نوحُ اهبط بسلامٍ منّا

وبركاتٍ عليك وعلى أُمَمٍ مَن مَعَكَ ﴿[سورة هود: ٤٨] قال الفخر الرازي: (والمراد منه - أي الأُمَم المذكورة - أمة محمد صلى الله عليه وسلم) (١)، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَن أَتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [سورة طه: ٤٧] .

وقوله سبحانه: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [سورة النمل: ٥٩] .
ومما دل على فضله أيضا أن الله تعالى يُحْيِي به أهل الجنة في الجنة كما قال سبحانه: ﴿تَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٤]، وقال جل شأنه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [سورة يس: ٥٨] .

وتحيي الملائكة أهل الجنة به فتقول لهم ما قاله الله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ٢٤] .

وهو أيضا تحية أهل الجنة في الجنة فيما بينهم كما قال سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمَا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [سورة الواقعة: ٢٥، ٢٦] .

ومما دل على فضله أيضا أن الله تعالى حَيَّا به أنبياءه ورُسُلَه كقوله لنوح: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الصافات: ٧٩]، وقوله لإبراهيم: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الصافات: ١٠٩]، وقوله ليحيى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: ١٥]، وقوله في عيسى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٣]، وقوله لموسى وهارون: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٢٠] وقوله لجميع أنبيائه ورُسُلَه: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٨١، ١٨٢]

ومن الدلائل على فضل السلام أيضا أن الله تعالى لما ذكر تعظيم محمد عليه الصلاة والسلام قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٥٦] . فقرن التسليم بالصلاة عليه، وأوجبها على المؤمنين كما هو مقتضى الأمر بها، وفي ذلك من الدلالة على فضله ما لا يخفى إذ لو كانت هناك تحية

أعظم شأنًا منه لذكرها لأن المقام مقام تعظيم وتشريف .

فهذه الدلائل القرآنية الكثيرة واضحة في فضل السلام وعلو شأنه عند الله تعالى .

أما ما يدل على فضله من الأخبار فمنها ما جاء من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه^(١)، وقيل: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما استتبَّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيُّها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطَّعام، وصَلُّوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام»^(٢) .

فأفاد قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا أن من أسباب دخول الجنة بسلام إفشاء السلام، وقرنه بإطعام الطعام والتهجد المعلوم فضلهما مما تقدم وغيره .

وأما ما يدل على فضيلته من جهة المعقول فهو ما بينه الفخر الرازي^(٣) بقوله:

الأول: " قالوا: إن تحية النصارى وضع اليد على الفم، وتحية اليهود بعضهم لبعض الإشارة بالأصابع، وتحية المجوس الإنحناء، وتحية العرب بعضهم أن يقولوا: حياك الله وللملوك: أنعم صباحا، وتحية المسلمين بعضهم لبعض أن يقولوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ولا شك أن هذه التحية أشرف التحيات وأكرمها - يعني لما تعنيه من الإشعار بالأمن والدعاء بالسلام والرحمة والبركة - .

الثاني: أن السلام مشعر بالسلامة من الآفات والبليَّات، ولا شك أن السعي في تحصيل

الصون عن الضرر أولى من تحصيل النفع .

الثالث: أن الوعد بالنفع قد يقدر الإنسان على الوفاء به، وقد لا يقدر، أما الوعد بترك

(١) أي: ذهبوا إليه مسرعين .

(٢) حديث صحيح تقدم ص ٢٣٦ .

(٣) في تفسيره الكبير ٢١١/١٠ .

الضرر فإنه يكون قادرا على الوفاء به لا محالة والسلام يدل عليه، فثبت أن السلام أفضل أنواع التحية".

فثبت بهذا أفضلية تحية الإسلام على غيرها من التحيات التي يجري تبادلها قديما وحديثا، فمن أعرض عنها فإنما يعرض عن فضيلة سهلة المنال، كثيرة النوال كما دل على ذلك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الآتي بيانها قريبا .

تطبيق النبي

صلى الله عليه وسلم خلق التحية

وحيث كانت تحية الإسلام بتلك المثابة من الفضل، فلا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون أولى الناس بالمبادرة إلى التحلي بها، وبذلها في كل حال يدعو إلى أن تبذل فيه وتبادل، وذلك ما حفظته لنا كتب شمائله عليه الصلاة والسلام ودواوين سنته الكثيرة مما ثبت عنه بالنقل الصحيح.

فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يسلم على الصغير والكبير والذكر والأنثى والمسلم والكافر والبر والفاجر:

١- فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه "مر على صبيان فسلم عليهم، وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلُه" (١) .

٢- وعنه رضي الله عنه قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح برؤوسهم" (٢) .

٣- وعنه رضي الله عنه قال: "مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم وأنا مع الصَّبيان فسلم علينا ثم أخذ بيدي فأرسلني برسالة" (٣) .

٤- وعن أسماء بنت يزيد (٤) رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بنسوة

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب التسليم على الصبيان ٦٨/٨، ومسلم في السلام، باب استحباب السلام على الصبيان برقم ٢١٦٨ .

(٢) أخرجه ابن حبان برقم ٢١٤٥ كما في موارد الظمان، والبخاري في الأنوار برقم ٤٠٤، وفي شرح السنة برقم ٣٣٠٦، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣٧/٨ إلى أحمد والبخاري قال: ورجاهما رجال الصحيح .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه برقم ٢٤٨٢، وأبو داود في الأدب، باب في السلام على الصبيان برقم ٥٢٠٣، والبخاري في الأنوار برقم ٤٠٥ .

(٤) ابن السكن الأوسية الأنصارية رضي الله عنها، كانت تلقب بخطيبة النساء، شهدت وقعة اليرموك، وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها وعاشت بعد ذلك دهرا، انظر الإصابة ٢٣٤/٤ وبهامشها الاستيعاب ٢٣٧/٤ .

فسلم عليهن" (١) .

٥- وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشرّكين وعبدّة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول... فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله (٢) ... الحديث.

٦- وكان يكتّاب ملوك الأرض الكفرة من الأكاسرة والقيصرة وغيرهم فيسلم عليهم في رسائله، كما قال في رسالته لهرقل ملك الروم: "السلام على من اتبع الهدى" (٣) . إلى غير ذلك من الكتب والأمثلة الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم كان يسلم على كل من لقيه أو كتب إليه أو وفد عليه، ولو كان في الأحوال التي قد لا يرجو فيها إجابة من أحد .

٧- كما دل على ذلك حديث المقداد رضي الله عنه في قصة شربه اللبن إذ فيه: "كنّا نرفع للنبي صلى الله عليه وسلم نصيبه من اللبن فيجيء من الليل فيسكّم تسليمًا لا يُوقيظُ نائمًا ويُسَمِّعُ اليقظان، قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فسلمّ كما كان يسلم... " (٤) .

٨- وإذا سلم لم يكتف بسلام واحد وإنما يسلمّ ثلاثًا كما دل عليه حديث أنس الآتي ذكره في الاستئذان (٥) ، وفيه : "... وإذا أتى على قوم فسلمّ، سلّم عليهم ثلاثًا" .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في السلام على النساء برقم ٥٢٠٤، والترمذي في الاستئذان، باب ما

جاء في التسليم على النساء برقم ٢٦٩٨، وابن ماجه في الأدب برقم ٢٧٠١، والبخاري في الأنوار برقم

٤٠٦ وقال عنه الترمذي: حديث حسن .

(٢) متفق عليه تقدم في مبحث صبره صلى الله عليه وسلم ص ٤٤٤ .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب كيف يكتب الكتاب إلى أهل الكتاب ٧٢/٨ من حديث ابن عباس

رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه مسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف برقم ٢٠٥٥ .

(٥) ص ٧٩٦ .

يعني عند الاستئذان وعند الدخول وعند إرادة الخروج، أو ذلك عندما يريد إسماع المستأذن كما في قصة تسليمه على سعد بن عبادة رضي الله عنه الآتي ذكرها في الاستئذان أيضا .

٩- وكان عليه الصلاة والسلام إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُرَ مقدّما ركبتيه بين يدي جليس له".
كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه (١) .

على هذا النحو كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلم ويحيي أصحابه وأمتة ومن لقي من المسلمين وغيرهم، وذلك لما كان عليه من عظمة الأخلاق وكمال التودد إلى الناس. والدلائل على تسليمه صلى الله عليه وسلم لكل من لقيه أو دخل عليه من قريب أو بعيد صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، مسلم أو كافر، بار أو فاجر، لا تخصي إذ لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يترك ذلك في كل حال يندب فيه التسليم، فجمع ذلك من كل الوقائع والأحوال يطول .

والأجدر بالعناية هنا هو ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من الحث عليه وبيان فضله، وأحكامه وآدابه فإن في ذلك غنية عن تتبع وقائع الأحوال الكثيرة؛ لأن: القول بالفعل يعدل، كما قال الشاعر.

وأیضا فإن في أقواله صلى الله عليه وسلم دلالة كاملة على تطبيقه لما يدعو أمتة إليه، فإنه قد كان أول من يبادر فيمثل ما يدعو إليه من شرائع الدين كما هو معلوم. ثم إن الحاجة ماسة إلى ذكر أقواله في ذلك بما لها من كبير الفائدة في نفوس القارئ والسماعين، إذ الحث فيها والدعوة إلى تطبيقها واضح وجلي فلا يسع المسلم مخالفتها ولا التهاون بها.

الترمذي

(١) أخرجه في صفة القيامة، باب رقم ٤٦، برقم ٢٤٩٠، وابن ماجه في الأدب، باب إكرام الرجل جليسه

برقم ٣٧١٦، والبيهقي في الدلائل ٣٢٠/١، وابن سعد في الطبقات ٣٧٨/١، والبغوي في الأنوار برقم

٣٧٩ .

ومداره على زيد القمي وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٢١٣١، وكما قال البوصيري في مصباح

الزجاجة ٢٤٩/٢ برقم ١٢٩٨، ولكن للحديث شواهد تجبر ضعفه وترقيه إلى مرتبة الحسن، انظر

السلسلة الصحيحة للألباني برقم ٢٤٨٥ .

حُثَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّلَامِ وَإِفْشَائِهِ:

فمما ورد من الحث عليه، الحث على إفشائه بين الناس ومن ذلك:

١- ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير؟ قال: "تُطْعَمُ الطَّعَامُ، وَتُقَرَّى السَّلَامُ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ" (١).

٢- وما رواه البراء بن عازب (٢) رضي الله عنه قال: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع: بعبادة المريض، وأتباع الجنائز، وتشميت العطاس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم" (٣).

٣- وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "حق المسلم على المسلم ست" قيل ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» (٤).

٤- وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا (٥) حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة ٦٥/٨، ومسلم في الإيمان، باب بيان

تفاضل الإسلام برقم ٣٩.

(٢) ابن الحارث بن عدي الأنصاري الأوسي، صحابي ابن صحابي، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم خمس

عشرة غزوة، واستصغر يوم بدر، فردّه النبي صلى الله عليه وسلم كما رد ابن عمر توفي سنة ٧٢ هـ، في

إمارة مصعب بن الزبير، انظر طبقات ابن سعد ٣٦٤/٤ وتهذيب الأسماء ١٣٢/١، والإصابة ١٤٢/١.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب إفشاء السلام ٦٥/٨، وفي مواضع أخرى، ومسلم في اللباس ٢٠٦٦.

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز ٩٠/٢ ومسلم في السلام، باب من حق المسلم على

المسلم رد السلام برقم ٢١٦٢.

(٥) قال في شرح مسلم: هكذا هو في جميع الأصول والروايات (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره، وهي لغة

معروفة صحيحة، ١ هـ، ٣٦/٢.

تحاببتهم؟ أفشوا السلام بينكم" (١) .

فدل الحديث الأول على أن إفشاء السلام على من يعرف المرء ومن لا يعرفه هو إحدى الخصلتين اللتين أجاب فيهما النبي صلى الله عليه وسلم عن خيرية الإسلام، وذلك لما في إفشائه من التأنيس وزوال الاستيحاش بين المسلمين، فيؤدي ذلك إلى أن يكون المؤمنون كلهم أخوة متحابين، وذلك ما يريد الله تعالى من عباده المؤمنين حيث جعلهم كلهم أخوة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أُخُوَّةٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٠]، وجعل الصلة بينهم أقوى من صلة النسب بل قطع صلة النسب عندما تنقطع صلة الإيمان ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢] .

ولما كان إفشاء السلام يثمر التحاب بين المسلمين، جعله النبي صلى الله عليه وسلم من الحقوق الاجتماعية فيما بينهم، كما في حديث أبي هريرة: "حق المسلم على المسلم ست ... ومعنى هذا:

أن عدم إفشائه يؤدي إلى ضياع هذا الحق الاجتماعي العظيم، وذلك دليل على تفشي البغضاء بينهم، وعدم تراحم أبنائه، فلا سبيل لهم إلى استرجاع المودة والتراحم إلا بإفشاء السلام بينهم على الكبير والصغير، والمعروف وغيره، فيشاطر كل امرئ أخاه التحية، فتدخل المحبة ويسود الوئام، ولهذا ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإكثار منه عند كل تلاق وإن لم يطل الفراق. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

٥ - "إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فليسلم عليه أيضا" (٢) .

٦ - ورغب في ذلك ببيان أجر السلام وثوابه العظيم فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله

(١) أخرجه مسلم وتقدم تخريجه ص ٢٠١ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب الرجل يلقي الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه ؟ برقم ٥٢٠٠، والبخاري في

الأدب المفرد برقم ١٠١٤ وإسناده صحيح كما بينه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٨٦ .

عليه وسلم فسلم عليه وقال: "السلام عليكم" فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: عشر، ثم جاء آخر فقال: "السلام عليكم ورحمة الله" فرد عليه رسول الله وقال: عشرون، ثم جاء آخر فقال: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ثلاثون^(١).

فبين صلى الله عليه وسلم أن في كل جملة من جمل السلام الثلاث: عشر حسنات، وتلك ثلاثون حسنة ينالها المرء في كلمة يسيرة فهي غنيمة عظيمة لمن كان من أهل التوفيق، وهذا الأجر الوافر دليل على عظم مكانة هذه الكلمة عند الله تعالى. ولذا كان البادئ بالسلام أولى الرجلين بالله تعالى.

٧- فقد روى أبو أمامة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام؟ قال: أولاهما بالله^(٢) أي أقربهما إلى رحمة الله تعالى^(٣).

تبيينه صلى الله عليه وسلم لأحكام السلام بدءاً وإجابة:
ذلك طرف من حث النبي صلى الله عليه وسلم على السلام بأسلوب الحض والترغيب.

أما تبيينه لأحكامه وآدابه فوارد من أحاديث كثيرة بدءاً وإجابة:

أ- آداب البدء بالسلام :

وهي آداب كثيرة وأحاديثه كثيرة كذلك، نذكر من ذلك:

١- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يسلم

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كيف السلام برقم ٥١٩٥، والترمذي في الاستئذان، باب ما ذكر في

فضل السلام برقم ٢٦٨٩، وقال: حسن صحيح غريب^{هو} من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه،

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب فضل من بدأ بالسلام برقم ٥١٩٧، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء

في فضل الذي يبدأ بالسلام برقم ٢٦٩٤، وقال: حديث حسن.

(٣) عون المعبود ١٠٣/١٤.

الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير" (١) .

ففي هذا أدب عظيم يهدف إلى التواضع فضلاً عن التحاب والتآلف بين المسلمين.

٢- ومن ذلك ما رواه هو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم، فليست الأولى بأحق من الثانية" (٢) .

وفي هذا الحديث أدب آخر وهو التسليم عند الانصراف لأنه "إن كانت التسليمة الأولى إخباراً عن سلامتهم من شره عند الحضور، فكذلك الثانية إخبار عن سلامته من شره عند الغيبة، وليست السلامة عند الحضور أولى من السلامة عند الغيبة بل الثانية أولى منها" (٣) لأنه قد يكون سمع منهم ما لا يودون إشاعته من أحوالهم وأسرارهم، فإذا سلم عليهم اقتضى سلامه الإشعار بالأمن مما لا يودون إشاعته من أحوالهم وأسرارهم، فإذا سلم عليهم اقتضى سلامه الإشعار بالأمن مما لا يودون إشاعته، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: فليست الأولى بأحق من الثانية، يعني أنهما في الحق سواء .

٣- ومنه ما رواه جابر بن سليم الهجيمي (٤) قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: عليك السلام يا رسول الله، قال: "لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام ٦٢/٨، ومسلم في السلام، باب تسليم الراكب على

الماشي برقم ٢١٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في السلام إذا قام من المجلس برقم ٥٢٠٨، والترمذي في الاستئذان، باب

ما جاء في التسليم عند القيام وعند القعود برقم ٢٧٠٦ وقال: حديث حسن، وأخرجه الإمام أحمد في

المسند ٢٣٠/٢، ٤٣٩، وابن حبان ٣٥٨/١ الإحسان،

(٣) تحفة الأحوذى ٤٨٥/٧ .

(٤) نسبة إلى أئمار بن الهجيم بن عمرو بن عجم، يكنى أبا جري، له ضجة، روى عنه البخاري في الأدب المفرد،

وأبو داود والترمذي والنسائي، ولم أجد تاريخ وفاته، انظر طبقات ابن سعد ٤٣/٧، والإصابة ٢١١/١،

٣٢/٤، والاستيعاب بهامشها ٣٧/٤، وتهذيب التهذيب ٥٤/١٢ .

تحية الموتى، إذا سلمت قل: سلام عليك، فيقول الراد: عليك السلام" (١) .

وفي هذا أدب عظيم إلى حسن الخطاب بالسلام والخروج به عن العادة التي كان أهل الجاهلية جارين عليها حيث كانوا يفرقون في تحياتهم بين الأموات والأحياء، فيقدمون اسم الميت على الدعاء كما قال شاعرهم:

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترجما
فما كان قيسُ هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهذما

وقول الآخر:

عليك سلام من أمير وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

فكره النبي صلى الله عليه وسلم أن يحیی بتحية الموتى جريا على العادة التي كانوا عليها من التفرقة، ومن كراهته لذلك لم يرد عليه السلام (٢)، وذلك لأن السلام من شأنه أن يظهر الود والصفاء، وإذا سمع المسلم عليه هذا الأسلوب نفر منه فكان سببا للشحناء والبغضاء .

وليس في ذلك تشريع لصيغة خاصة بتحية الموتى، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلم على الموتى فيقول: "السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية" (٣) فكان يقدم السلام على ذكر المدعو له مثل تحية الأحياء، فدل على أنه إنما قال ذلك إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى ما جرت به العادة منهم في تحية الأموات (٤)، لئلا يؤدي ذلك إلى التنافر بدل الوئام.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كراهية أن يقول: عليك السلام برقم ٥٢٠٩، والترمذي في الاستئذان،

باب ما جاء في كراهية أن يقول: عليك السلام مبتدئا برقم ٢٧٢١، ٢٧٢٢، وقال: حسن صحيح .

(٢) انظر زاد المعاد ٤٢١/٣ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز، باب ما يقول عند دخول القبور والدعاء لأهلها برقم ٩٧٥، والنسائي في الجنائز،

باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين ٩٤/٤، من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه .

(٤) انظر جامع الأصول لابن الأثير ٦٠٦/٦ .

فهذه طائفة من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتداء السلام التي كان يؤدب به أمته بقوله وفعله، ولا ريب بأنه صلى الله عليه وسلم قد كان أول من يتأدب بها فإنها من تأديب الله تعالى .

ب - أحكام الإجابة وآدابها:

أما إجابة السلام، فهي إما أن تكون للمسلمين، أو للكافرين، لأن المسلم، إما أن يكون مسلماً أو كافراً.

فإن كانت الإجابة للمسلم، فقد جعلها النبي صلى الله عليه وسلم من حقوق الإسلام التي يجب الوفاء بها.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعبادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العطس"

وفي رواية لمسلم: "خمس تجب للمسلم على أخيه: رد السلام، وتشميت العطس، وإجابة الدعوة، وعبادة المريض، واتباع الجنائز" (١) .

فهذا الحديث بين ما تقدم من الأمر برد التحية بأحسن منها أو مثلها، وأنه أمر للوجوب، حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه حق له على المسلم عليه، وفسر ذلك الحق باللفظ الآخر، بالوجوب، وهو ما تقدمت الإشارة إليه (٢) من وجوب الرد .

غير أن هذا الوجوب ليس على إطلاقه، بل هناك صور لم يوجب الشارع فيها الرد، وهي ما إذا كان السلام في مواطن لا يندب فيها ابتداؤه وهي:

١- إذا كان المسلم عليه يصلي، فإن السلام لا يشرع له في هذا الحال، فإذا سلم لا يجب عليه الرد فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نسلم على النبي صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز ٩٠/٢ واللفظ له، ومسلم في السلام، باب من حق

المسلم على المسلم رد السلام برقم ٢١٦٢ .

(٢) ص ٧٧٠

وسلم وهو في الصلاة فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا وقال: "إن في الصلاة شغلا" (١).

٢- إذا كان المسلم عليه يبول فإن الكلام له حينئذ مكروه، فلا يندب إحراجه وإحواجه إلى الكلام وهو في حال لا يجب أن يتكلم فيه، فلم يوجب الشارع عليه الزد والحالة هذه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أن رجلا مر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبول فسلم عليه فلم يرد عليه" (٢).

لكن لما كان النبي أحرص الناس على تبادل التحية لما فيها من المعاني السامية التي جاء بها في شرعه الخفيف، فقد كان يتكلف أن يتيمم حتى يرد على من يسلم عليه وهو في مثل هذه الحالة، كما أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي جهيم بن الحارث بن الصمة (٣) الأنصاري رضي الله عنه قال: أقبل النبي صلى الله عليه وسلم من نحو بئر جمل (٤) فلقى رجل فسلم عليه فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أقبل على

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب ما ينهى من الكلام في الصلاة ٨٧/٢، ومسلم في المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة برقم ٥٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في الحيض، باب التيمم برقم ٣٧٠، وأبو داود في الطهارة، باب أيرد السلام وهو يبول برقم ٣٣٠، ٣٣١.

قال الإمام النووي في شرح مسلم ٦٥/٤: (فيه أن المسلم في هذه الحال لا يستحق جوابا، وهذا متفق عليه، قال أصحابنا - يعني الشافعية - : ويكره أن يسلم على المشتغل بقضاء حاجة البول والغائط، فإن سلم كره له رد السلام...)

(٣) الأنصاري واسمه عبد الله، وقيل: الحارث بن الصمة، وقيل: غير ذلك، صحب النبي صلى الله عليه وسلم، وخرج له جماعة. انظر طبقات ابن سعد ٥٠٨/٣ والإصابة ٣٦/٤، وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ٦١/١٢، وغيرها.

(٤) أي: من جهة الموضع الذي يعرف بذلك.

الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام (١) ، وعند أبي داود أنه اعتذر إليه وقال: "إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر أو قال على طهارة" (٢) .

وفي هذا من الدلالة على حرصه صلى الله عليه وسلم على رد التحية ما يشهد لعظمة خلقه، حيث لم يترك الرجل يهيم في تخيلات من عدم رد النبي صلى الله عليه وسلم عليه، فيحزن لذلك، ويشعر بالهوان في نفسه إذ لم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم التحية .

أما إذا كان الجواب لأهل الكتاب من يهود ونصارى، ونحوهم فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد أدب أمته بما يتفق مع خلقه العظيم وسماحة الإسلام الحنيف في معاملة أُوغاد أهل الشرك وأبناء القردة والخنازير، الذين يلوون ألسنتهم في التحية، ويحرفون الكلم عن مواضعه، بما يتلاءم مع خبث طباعهم وسوء طوياتهم لنبي الإسلام والمسلمين، فقد دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم - أي الموت - قالت عائشة رضي الله عنها: ففهمتها، فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا عائشة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله" قالت: فقلت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فقد قلت وعليكم" (٣) .

أي: أن الموت مكتوب على الجميع فالكل سيموت، غير أنه فرق بين موت يوصل إلى جنات النعيم، وموت يوصل إلى دركات الجحيم.

(١) البخاري في التيمم، باب التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء وخوف فوت الصلاة ٨٨/١، ومسلم في الحيض، باب في التيمم برقم ٣٦٩ .

(٢) أبو داود في الطهارة، باب أيرد السلام وهو يبول برقم ١٧، وأخرجه النسائي في الطهارة، باب رد السلام بعد الوضوء ٣٧/١، وأحمد في المسند ٣٤٥/٤، ٨٠/٥، وابن ماجه برقم ٣٥٠، والحاكم ١٦٧/١، وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة ٧٠/٨ من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم في السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم ٢١٦٥ .

فمن أجل ذلك علّم أمته كيف يردون السلام على مثل هؤلاء الذين قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "إذا سلم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السّام عليك، فقل: وعليك" (١).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» (٢).

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل مع من يسيء إليه في ذاته العظيمة الموقرة، يحلم عنهم ويصفح، ويأمر أصحابه بذلك، حيث لم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أخبرهم بأن ما تمنوه له من الموت هو مشترك بين الجميع، فالكل يموت فقال: وعليكم، وهم لا يجهلون هذه الحقيقة، غير أن لؤم طباعهم ودناءة أخلاقهم تحملهم على البواح بما في ضمائرهم من الحقد الدفين لهذا النبي العظيم، وهذه الرسالة الخالدة، التي بشرت بها كتبهم، ودعتهم إلى الإيمان به والدخول في شريعته، فبدلوا نعمة الله كفرا، وأحلوا قومهم دار البوار.

لذلك ندب النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى عدم ابتدائهم بالسلام عند ملاقاتهم أو غشيانهم في المجالس جزاء لهم على خبث الطوايا التي يَكُونُهَا له صلى الله عليه وسلم ولأتمته المفضلة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطُّروه إلى أضيقه" (٣).

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة ٧١/٨ من حديث ابن عمر رضي الله

عنهما، ومسلم في السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم ٢١٦٤.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في الأبواب الآتفة الذكر.

(٣) أخرجه مسلم في السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم ٢١٦٧، وأبو

داود في الأدب، باب السلام على أهل الذمة برقم ٥٢٠٥، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في =

المبحث الثاني

(الاستئذان وغض البصر)

يقال في اللغة : أذن له في كذا، يأذن إذنا، إذا أطلق له فعله وأباحه له، ويقال في طلب الإذن : استأذن، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [سورة التوبة: ٤٥] (١) أي: يطلب الأذن منك يا محمد صلى الله عليه وسلم.

فالاستئذان إذاً: طلب الإذن في الدخول لمحل لا يملكه المستأذن (٢) .

ويعرف الإذن بأنه: "فك الحجر وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعاً شرعاً" (٣) .

ذكر الاستئذان في القرآن الكريم :

وقد ورد ذكر الاستئذان في القرآن الكريم في نحو عشر آيات وذلك في مقامين :

الأول في مقام الناس عامة، والآخر في مقام النبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

أما حديثه عنه في مقام الناس عامة فكان لبيان أحكامه وآدابه .

وأما في مقام النبي صلى الله عليه وسلم فلإرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم نحوه في

= التسليم على أهل الذمة برقم ٢٧٠٠ .

قال في شرح مسلم ١٤٥/١: "واختلف العلماء في رد السلام على الكفار ابتدأهم به، فمذهبنا - أي الشافعي - تحريم ابتدأهم به، وجوب رده عليهم بأن يقول: وعليكم، أو: عليكم فقط، ودليلنا في الابتداء قوله صلى الله عليه وسلم: لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وفي الرد قوله صلى الله عليه وسلم: فقولوا: وعليكم، وبهذا الذي ذكرناه من مذهبنا قال أكثر العلماء وعامة السلف، وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام، واحتج هؤلاء بعموم الأحاديث بإفشاء السلام. قال: وهي حجة باطلة؛ لأنه عام مخصوص بحديث: لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وقال بعض أصحابنا: يكره ابتدأهم بالسلام ولا يحرم، وهذا ضعيف أيضاً؛ لأن النهي للتحريم، فالصواب تحريم ابتدأهم ...".

(١) المصباح المنير ١/١٢، والمفردات ص ١٥ .

(٢) فتح الباري ٣/٢٣ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٦ .

هذا المقام، وليبيان أصناف المستأذنين منه صلى الله عليه وسلم من مؤمنين ومناققين، وصادقين وكاذبين، ولنبدأ بالحديث عنه في المقام الأول؛ لأن الحاجة إلى بيانه في المجتمع المسلم تقتضى ذلك، فأقول :

المقام الأول : الاستئذان مع عموم الناس :

(لما خصَّص الله تعالى الناسَ بالمنازل، وسترهم فيها عن الأبصار، ومَلَكهم الاستمتاع بها على الانفراد، كانت الحكمة داعية إلى أن يحجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج، أو يلجوها بغير إذن أربابها، لئلا يهتكوا أستارهم، ويكتشفوا أخبارهم^(١)).
لذلك أدب الله تعالى عباده بما يوجب الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عورة أحد، وأنزل في ذلك قرآنا يتلى لِيَتَّبَعَ إلى يوم القيامة، فكان مما أنزل في ذلك آيات الاستئذان وغض البصر، تشريعا لعباده لحماية حُرُماتهم وعوراتهم في ظلَّ المجتمع الإسلامي الصالح .

وكان مما أنزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْلَمُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [سورة النور: ٢٧-٢٩] .

وقد بين الله تعالى في هذه الآيات أحكام الدخول في بيوت الآخرين، حيث نهى الداخلين، عن أن يبادروا إلى دخول منازل غيرهم حتى يقدّموا الاستئذان أي: طلب الإذن بالدخول، المعبر عنه بقوله سبحانه: ﴿ تَسْتَأْذِنُوا ﴾ أي: تطلبوا أن يأذن لكم صاحب البيت ، وهو كتابة لطيفة عن الاستئذان، أو هو الاستئذان نفسه كما فسره به بعض أهل العلم^(٢) وهذا اللفظ من لطائف الآية الكريمة حيث عبر بالاستئناس بدل الاستئذان ،

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي ١٣٥٩/٣، وتفسير القرطبي ٢١٢/١٢ .

(٢) انظر أحكام القرآن لابن العربي ١٣٥٩/٣ .

ليغرس في المسلمين خُلُقًا اجتماعيًا راقياً، وهو استشعار المستأذن أنسا من صاحب البيت، وليس مجرد الاستئذان فقط، وهذا الأنس يقتضى أن يأتي في وقت يؤنس فيه، لا أن يأتي في أوقات العورات التي لا يحصل فيها إلا الإزعاج، وهي قبل صلاة الفجر، وعند الظهر، وبعد صلاة العشاء، وكذا كل وقت اعتاد الناس فيه أن يرتاحوا فيه بأنفسهم، ودلت الآية على أنه لا يكفي بالاستئذان، بل أن يقرن معه السلام الذي يعنى تأمين صاحب البيت مما قد يستوحش منه، ثم حظر الدخول على بيوت الآخرين إن لم يكن فيها أحد، أو لم يؤذن لهم بالدخول، لئلا تُتَحَمَّ حرمة البيوت التي صانها الله تعالى بمثل التشريع العظيم، الذي أورده بصيغ النهي المفيد للتحريم، والأمر الدال على الإيجاب، ليدل بذلك على عظيم حقوق الساكنين المطمئنين في منازلهم، الآمنين على عوراتهم، ومع الأثر العظيم الذي يحدث في نفوس السامعين من تكرار النهي عن ذلك والأمر بالرجوع عند عدم الرغبة بالدخول.

فإن الله تعالى قد شابه بالترغيب وحسن التلطف بالسامعين Lieظم بذلك أثره، حيث قال في الآية الأولى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وفي الآية الثانية قال: ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ لزيادة الترغيب في هذا الأدب العظيم الذي يصون الحرمات ويحفظ المودات لحفظه للعورات، ويؤسس التعامل في المجتمع المسلم على أنبل الأخلاق وأفضل القيم .
ولذلك لما فقدت مثل هذه العورات في البيوت غير المسكونة، ولم يسبق لهذا الاستئذان معنى؛ أباح الله تعالى الدخول إليها من غير إذن فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ...﴾ لأن العورات التي حرص الشارع على حفظها لا توجد في البيوت غير المسكونة، ولكن ذلك ليس على إطلاقه وإنما هو مقيد بما إذا كانت الحاجة داعية إلى الدخول إليها، من استحقاق الداخل إليها لمتاع له، ونحوه من المنافع التي تدعو الحاجة إليها، أما من لا حاجة له في ذلك فلا (١)، لتبقى حرمة

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٠٢/١٨ .

البيوت عامرة. قال السيوطي (١) رحمه الله: "في هذه الآية وجوب الاستئذان عند دخول بيت الغير ووجوب الرجوع إذا لم يؤذن له، وتحريم الدخول إذا لم يكن فيها أحد، قال: ويستفاد من هذا، تحريم دخول ملك الغير (٢) والسكنى فيه وشغله بغير إذن صاحبه، فيدخل تحته من المسائل والفروع مالا يحصى" (٣).

إستئذان أهل البيت من موالى وخدم وأطفال :

هذا كله فيما إذا كان الإستئذان من الأجانب، وهم الذين يُتَجَرَّج من دخولهم وتُحفظ العورات عنهم عامة، ومع ذلك فإن عورات البيوت حقها أن تصان حتى من الساكنين فيها كالخدم والموالى والأطفال، الذين لا يرحون من البيوت، وذلك لفرط كراهية الشارع لكشف العورات حتى من ساكني البيوت، لذلك فقد أمرهم بالاستئذان في الأوقات التي هي مِظَنَّة كشف العورات، والتي سماها الله عورات تسمية لها باسم الغالب من حالها فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة النور: ٥٨، ٥٩] فهذه آيات تبين أحكام غير الأجانب في الاستئذان، وهم المماليك والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم فحظرت عليهم الدخول في الثلاث العورات إلا بأذن وهي الأوقات التي تنكشف فيها العورات عادة؛ قبل صلاة الفجر^{حيث} يكون الناس في

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإمام الفقيه المفسر المحدث المؤرخ اللغوي ... له

مؤلفات كثيرة نافعة مشهورة وغير مشهورة، توفي سنة ٩١١ هـ، انظر البدر الطالع للشوكاني ١/٣٢٤،

والنور السافر في أخبار القرن العاشر لعبد القادر العيدروس ص ٥٤ .

(٢) كذا فيه بتعريف (غير) في الموضعين .

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٦١ .

ثياب النوم عادة، ووقت الظهيرة عند القيلولة، حيث يخلعون ملابسهم فى العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة، وبعد صلاة العشاء، حيث يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل .

(ففى هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم والصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، والذين قد بلغوا الحلم كذلك من باب أولى، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم، وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزلية مستهينين بآثاره النفسى والعصبى والخلقى، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة! وأن الصغار قبل البلوغ لا يتنبهون لهذه المناظر، بينما يقرر النفسىون اليوم - بعد تقدم العلوم النفسىة - بأن بعض المشاهد، التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هى التى تؤثر فى حياتهم كلها^(١) . فتأمل مبلغ العناية الإلهية بهذا الخلق العظيم حيث لم يعف أحداً من التحلى به، لما له من أعظم الأثر فى الحفظ والصيانة للأعراض والحرمت، ورعاية الود بين الجماعات. هذا عن الاستئذان فى مقام المؤمنين .

المقام الثانى الاستئذان على النبى صلى الله عليه وسلم :

أما فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم، فإن عوراته أعظم العورات، وحرماته أكد الحرمات؛ لذلك خصه القرآن الكريم بالذكر زيادة فى صيانة عوراته وحفظ حرماته بآيات خاصه، على ما فى الآيات الأولى من شمولية لحقوقه صلى الله عليه وسلم على أمته فى الآداب الاجتماعىة العامة، وذلك لمزيد الاهتمام وكمال العناية به، وإيضاحاً لعظيم الحرمة الواجبة له عليه الصلاة والسلام على أمته، فقال سبحانه وتعالى فى ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ إِنْهَاء وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣] .

فتأمل عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه، حيث أدب عباده بما

(١) انظر الظلال ٢٥٣٢/٤ .

يجب لنبيه من التعظيم، حين قَصَّرَ بعضهم فى ذلك كما يدل عليه سبب نزول الآية المتقدم ذكره فى مبحث حياته صلى الله عليه وسلم (١)، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حيًّا كريماً لا يجب مواجهة أصحابه فيما يجب له، طالما أن ذلك فيه حظ لنفسه الشريفة، فتولى الله تعالى بيان ذلك لعباده ليلتزموا الأدب الجَمُّ، والتعظيم الكامل معه صلى الله عليه وسلم فيرضى الله تعالى بذلك عنهم.

ألا ترى أن الله تعالى أثنى على من التزم الأدب معه صلى الله عليه وسلم فى الاستئذان بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة النور: ٦٢].

حيث أثبت لهم الإيمان بأسلوب القصر لإخراج غيرهم من المنافقين الذين لم يكونوا بهذه المثابة من الأدب مع خير خلقه وأفضل رسله صلى الله عليه وسلم، كما قص الله تعالى علينا بعضاً من صورهم لما أرادوا أن يستغلُّوا هذا الخلق الكريم للستر على نفاقهم المكشوف، فلم ينفعهم ذلك لأن الله تعالى مطلع على سرائرهم فكان استئذانهم عاراً وشناراً سُجِّلَ عليهم إلى يوم الدين، بدلاً من أن يكون خُلُقاً كريماً يثنى عليهم به، فتغير بتغير القصد واختلاف النية، وقد قص الله تعالى صوراً تبين أحوالهم المصطنعة فى هذا الخلق الكريم كما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [سورة الأحزاب: ١٣].

فانظر هؤلاء الذين انتهزوا فرصة تأديب الله للمؤمنين بوجوب الاستئذان من نبيه صلى الله عليه وسلم عند دخولهم عليه أو تفرقهم عنه، فأرادوا أن يطوِّعوه لأغراضهم الخادعة الناشئة من النفاق المطبق، ظانين أن ذلك التملُّق والظهور بمظهر المتأدب نافع لهم

وساير لنفاقهم، جاهلين أو متجاهلين أن الله تعالى مطلع على سرائرهم، وأنه سبحانه قد أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على حقائقهم، غير أنه كان يحلم عنهم لعظيم حكمته في سياسة دعوته إلى الله تعالى، كيلا ينفر الناس عن الإيمان، إذ يخشى أن يتحدث الناس أنه صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه، كما تحسبهم العامة كذلك.

وهنا تلاحظ أن الاستئذان الذي هو خلق حميد من حيث هو، قد انقلب وصار مذموماً في مثل هذه الصور، نظراً لتغير غايته واختلاف غرضه. وإنما الأعمال بالنيات، لذا كان عقابهم أن لم يقيم لهم الله عز وجل وزناً في مجتمع الإسلام، وأرشد نبيه الكريم إلى كيفية معاملتهم عند اتخاذهم أخلاق الإسلام وسيلة لأغراضهم الخبيثة، فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [سورة التوبة: ٨٣] وسجل عليهم صنيعهم الرخيص ذاك بما يبقى عليهم عاره وشناره وخزيه ما دامت السماوات والأرض فقال: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِهَا اللَّهُ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنُوكَ أُولُوا الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة التوبة: ٨٦-٨٧].

لذلك كان جزاء مراوغتهم وخداعهم وخيانتهم الله ورسوله والمؤمنين، أن طبع على قلوبهم فلا يدخلها خير أبداً، فلا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً ولا تفقه عن الله ورسوله شيئاً. وكذلك جزاء الظالمين.

حفظ البصر على التطلع على العورات :

وما الاستئذان إلا وسيلة فعالة لحفظ البصر عن أن تمتد إلى عورات البيوت، كما جاء في الحديث "إِنَّمَا جُعِلَ الْإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ" (١)، حيث يقوم صاحب البيت بستر عوراته

(١) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقوا عينه فلا دية له ١٣/٩، وفي الاستئذان، باب

الاستئذان من أجل البصر ٦٦/٨، ومسلم في الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره برقم ٢١٥٦ من

حديث سهل بن سعد .

إن أحب دخول المستأذن، أو عدم الإذن له بذلك إن لم يمكن، أو لم يجب دخوله، وقد حث القرآن الكريم على ذلك بقوله سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ * وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ. [سورة النور: ٣٠، ٣١].

فإن هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم عما حُرِّم عليهم سواء البيوت أو المحرمات الأخرى، فإن النهي عام لكل ما يجب صون الأنظار عنها، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحرمات، لأن ذلك أزكى لهم "أي: أظهر لقلوبهم وأتقى لدينهم كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته" (١) وقد جاء من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: "ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها" (٢) وهذا لعمر الله مغنم للمؤمن في زيادة إيمانه وصلاح قلبه، فإن غض البصر عن المحارم من أجل الأدوية لعلاج القلوب، لأن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها من مخافة الله أبدله الله إيمانا يجد له حلاوة في قلبه كما جاء في الحديث (٣)، ومن أطلق لحظاته أدام حسراته، ولقد أجاد من قال:

كُلُّ الحوادث مبلؤها من النظر ومعظم النار من مُستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين الغيد موقوفٌ على خطر (٤)

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٨١/٣ .

(٢) رواه أحمد في المسند ٢٦٤/٥، عزاه الهيثمي في الجمع ٦٦/٨ إلى الطبراني قال: وفيه علي بن يزيد الألهاني، وهو مزكوك، وفي التقريب برقم ٤٨١٧ ضعيف، وقال ابن كثير في التفسير ٢٨٢/٣ بعد أن أورد هذا الحديث: وروى هذا مرفوعا عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم، قال: لكن في أسانيدنا ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه أ. هـ .

(٣) المروي عن ابن مسعود، عزاه الهيثمي في الجمع ٦٦/٨، إلى الطبراني، قال: وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف، وفي التقريب برقم ٣٢٠٩: صدوق، وهو يشهد للذي قبله .

(٤) ذكر ابن القيم في الجواب الشافي فوائد كثيرة لغض البصر، وذكر بعضا منها القاسمي في محاسن التأويل

فإن الله تعالى قد هدد من لم يمتثل أمره بغض البصر عن المحارم بقوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [سورة غافر: ١٩] .

فإذا كان الله تعالى يعلم ما أسماه بخائنة الأعين، فإن علمه ذلك يورث الخائن عقاباً أليماً إن لم يتداركه برحمته، إذ المعنى: إن الله يعلم من لم يحفظ بصره عما حرم عليه، فلينظر بعد ذلك إن شاء أو يكف، فإن الله مجازيه، كما قال سبحانه: ﴿إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة فصلت: ٤٠] .

التطبيق النبوي لخلق الاستئذان

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ولي المؤمنين، والأحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وأنفسهم، كان لا يتجاوز هذا الخلق القرآني العظيم، اتكالا على مكانته منهم كما يجرى لبعض الناس إذا حصل له شيء من حظ عند أخيه فيتكل على ذلك ليفرط في هذا الأدب الاجتماعي العظيم الذي عني ببيانه القرآن الكريم.

بل كان صلى الله عليه وسلم أحرص الناس عليه لما هو عليه من الكمال الخُلقي والأدب الرباني، والحرص على تعليم أمته آداب الإسلام وأخلاقه العليا، فقد زار سعد بن عُبادة رضي الله عنه في منزله فقال: "السلام عليكم ورحمة الله، فرد سعد رضي الله عنه ردا خفيا فقال له ابنه قيس: ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: دعه حتى يكثر علينا من السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "السلام عليكم ورحمة الله" فرد سعد ردا خفيا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "السلام عليكم ورحمة الله" ثم رجع رسول الله وتبعه سعد، فقال: يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمتك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام، قال: فانصرف معه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورُسٍ فاشتمل بها، ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول: "اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادَةَ" قال: ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام، فلما أراد الانصراف قرَّب له سعد حمرا قد وطأ عليه بقطيفة، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد: يا قيس إصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس: فصحبته فقال لي: "إركب معي" قال: فأبيت، ثم قال: إما أن تركب وإما أن تنصرف" قال: فانصرفت (١).

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان برقم ٥١٨٥ من حديث محمد بن

عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن قيس بن سعد بن عبادَةَ، وإسناده منقطع، فإن محمد بن عبد الرحمن لم

فهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن على أصحابه في بيوتهم، فلا يقتحمها بغير إذن، ولو فعل للقي كامل الترحيب وبالغ السرور، غير أنه يأبى ذلك فيرى شأنه كشأن غيره، فيطلب الإذن، فإن أُذِن له دخل وإلا رجع.

فهذا تطبيق عملي من النبي صلى الله عليه وسلم للاستئذان الوارد مجملا في القرآن الكريم فينبه بعمله لتعلمه أمته فتعمل به على وجهه الذي أراده الله تعالى وأراده نبيه صلى الله عليه وسلم، قال ابن القيم: "وكان من هديه صلى الله عليه وسلم إذا استأذن ثلاثا ولم يؤذن له انصرف" (١).

وفي البخاري (٢) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم سلم ثلاثا، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا وهذا يدل على أن هذا السلوك كان منهجا عاما له صلى الله عليه وسلم في السلام والاستئذان، فهو تبيان للاستئذان الذي يريده الشرع في مجتمعات الإسلام، وعلى الأمة أن تقتدى به فيه، وقد عضد ذلك المنهج أقواله صلى الله عليه وسلم الدالة عليه، والمبينة لأحكامه وهي أقوال كثير نذكر منها مايلي:

بيانه صلى الله عليه وسلم للاستئذان وآدابه وأحكامه بأقواله الشريفة:

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع . . . " (٣) .

= وقال أبو داود: رواه عمر بن عبد الواحد، وابن سماعة عن الأوزاعي مرسلا ولم يذكر قيس بن سعد، لكن قد أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ص ٢٨٤، ٢٨٣ مرسلا ومسندا كما قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦١/٨ برقم ٥٠٢٣، وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٩٩/١، ورجال إسناده أبي داود رجال الصحيح، وانظر تحفة الأشراف ٨/ في الأرقام التالية: ١١٠٩٤، ١١٠٩٥، ١١٠٩٦ .

(١) زاد المعاد ٤٣٠/٣ .

(٢) في الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا ٦٧/٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا ٦٧/٨، ومواضع أخرى، ومسلم في الآداب،

باب الاستئذان برقم ٢١٥٣، وفي الحديث قصة تنظر في محله .

فهذا الحديث النظري يعضد الحديث العملي السابق في دلالاته على عدد مرات الاستئذان، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أمته الأخلاق بسلوكه في نفسه وأقواله التوجيهية لذلك، وبقيت أمور أخرى مجملة في الاستئذان بينها النبي صلى الله عليه وسلم عمليا ونظريا في مواقف وأقوال مختلفة كثيرة من ذلك :

أ - موقف المستأذن من الباب :

١ - فعن عبد الله بن بسر^(١) رضي الله عنهما قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول : "السلام عليكم، السلام عليكم" قال : ذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور^(٢) .

٢ - عن هزيل بن شرحبيل رحمه الله تعالى^(٣) قال : "جاء رجل^(٤) فوقف على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن فقام على الباب وفي رواية: مستقبل الباب، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هكذا عنك، أو قال : هكذا، فإنما الاستئذان من النظر"^(٥) .

(١) المازني الحمصي، بشره النبي صلى الله عليه وسلم بأث يعيش قرنا، فعاش مائة سنة وتوفي سنة ٩٦ هـ، وهو آخر من مات بالشام^{من الصحابة} انظر الإصابة ٢٨١/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان برقم ٥١٨٦، وفي سنده بقية بن الوليد وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء كما قال في التقريب برقم ٧٣٤، لكنه في هذه الرواية قد صرح بالتحديث عن محمد بن عبد الرحمن اليحصبي الحمصي، وهو صدوق كما في التقريب فالحديث حسن إن شاء الله تعالى، وأخرجه البيهقي في الشعب ٤٤٣/٦، من غير طريقه عن شيخه محمد بن محمد بن عبد الرحمن، وثالثها من طريقه عنه به .

(٣) ثقة مخضرم كما في التقريب برقم ٧٢٨٣، وانظر تهذيب التهذيب ٣١/١١٠ .

(٤) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كما جاء مبينا في إحدى الروايتين .

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الاستئذان برقم ٥١٧٤، ٥١٧٥، بإسناد صحيح، وسكت عنه المنذري في مختصره . انظر ٥٥/٨ .

ب - تعليمه صلى الله عليه وسلم أمته كيفية الاستئذان :

١ - فقد روى أبو داود أن رجلا من بني عامر استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت فقال: أأج؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه: "اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل السلام عليكم أأدخل؟" فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل" (١) .

٢ - وروى من حديث كلدة بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن وجداية (٢) وضغائيس (٣) والنبي صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة، قال: فدخلت ولم أسلم، فقال: "ارجع فقل: "السلام عليكم" (٤) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أمته من خلال هاتين الواقعتين تحتم الاستئذان عند الدخول، ويرشدهم إلى كيفية الأدب من تقديم السلام وحسن التعبير في طلب الإذن، ليحمل ذلك أنسا لصاحب الدار وارتياحا لتقبل طلبه وترحيبا بمقدمه، فيقوى الوئام والمودة بينهما .

(١) أبو داود في الأدب، باب كيفية الاستئذان برقم ٥١٧٧، والنسائي في عمل اليوم والليلة ص ٢٨٠ برقم ٣١٦، ورواه أحمد في المسند ٣٦٩/٥، من حديث ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٨١٩٠ .

(٢) بفتح الجيم وكسرهما: جمع جدي على خلاف الأصل، والقياس: أجد أو أجداء . انظر مختار الصحاح ص ٩٦ ، وهي أولاد الظباء ذكرا كان أو أنثى مما بلغ ستة أشهر أو سبعة أشهر، وهي بمنزلة الجدي من المعز، النهاية ٢٤٨/١ .

(٣) جمع ضغبوس بفتح الضاد وسكون الغين المعجمتين وهو صغير القثاء، انظر النهاية ٨٩/٣ .

(٤) أخرجه أبو داود في الكتاب والباب السابقين برقم ٥١٧٦، والترمذي في الاستئذان برقم ٢٧١٠، وقال: حسن غريب، وأخرجه النسائي أيضا في عمل اليوم والليلة ص ٢٧٩ برقم ٢٧١٠، وأحمد في المسند ٤١٤/٣، قال الألباني: وإسناده صحيح، السلسلة الصحيحة برقم ٨١٨ .

جـ - إفصاح المستئذن عن اسمه ليعرف :

فعن جابر رضي الله عنه قال : "أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي (١)، قال : فدققت الباب فقال : "من ذا؟" قال : فقلت : أنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أنا أنا" كأنه كرهها .

وفي رواية لمسلم فخرج وهو يقول : "أنا أنا". وفي أخرى كأنه كره ذلك، (٢) .
فانظر إلى مبلغ إنكاره صلى الله عليه وسلم على جابر رضي الله عنه لما لم يفصح باسمه الذي به يعرف، لأنه لم يحصل بقوله : أنا، فائدة ولا تعريف، بل الإبهام باق والتعريف غير حاصل، فأراد منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفصح عن اسمه كاملاً ليعرف به، فيجاب على ضوء ذلك بالإذن أو عدمه .

دراية الصحابة بهذا الأدب :

ولقد كان كبار الصحابة وجمهورهم رضي الله عنهم يعلمون هذا الأدب، فيعرفون بأنفسهم عند الاستئذان فلما اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه وجلس في البستان، وجاءه أبو بكر رضي الله عنه فاستأذن فقال "من؟" قال : أبو بكر فأذن له، ثم جاء عمر فاستأذن فقال : "من؟" قال : عمر، فأذن له، ثم عثمان مثل ذلك (٣) .
وكذا لما استأذنت أم هانئ رضي الله عنها فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : "من هذه؟"، قالت أنا أم هانئ (٤) .

(١) يعني: أكلمه في شأنه ومطالبة الغرماء به، وسيأتي بيانه في الفصل الرابع من هذا الباب ص ٩٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب إذا قال: من ذا؟ فقال: أنا ٦٨/٨، ومسلم في الأدب

باب كراهية قول المستأذن: أنا برقم ٢١٥٥ .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب عثمان رضي الله عنه

٢١٧/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عثمان رضي الله عنه برقم ٢٤٠٣، وفيه التصريح

بالاستئذان، من حديث أبي موسى .

(٤) أخرجه البخاري في الغسل، باب التيسير عند الغسل ٧٥/١، ومسلم في الحيض، باب يستر المغتسل بثوب

ونحوه برقم ٣٣٦ من حديث أبي مرة مولى أم هانئ .

فهذا هو الذي ينبغي أن يكون في الاستئذان، وهو الذي عمله الصحابة رضي الله عنهم في استئذانهم النبي صلى الله عليه وسلم، اقتداء به صلى الله عليه وسلم وتبيينه للأخلاق القرآنية في واقع حياته وحياتهم على السواء فعلاً وقولاً .

غير أن في حديث جابر رضي الله عنه دلالة على كيفية أخرى في الاستئذان وهي دق الباب، وكذا في بعض روايات حديث أبي موسى المشار إليه في قصة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم (١) المتقدمة أنفاً .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون ذلك مبالغة في الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيراً وإجلالاً له .

فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد (٢) من حديث أنس رضي الله عنه أن أبواب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تقرر بالأظافر .

وهذا من كمال أدبهم رضي الله عنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث لا يزعجونه بالدق أو الصياح كما كان يفعل جفاة الأعراب الذي ذم الله صنيعهم ذلك في آيات سجلها عليهم القرآن الكريم في صفحاته إلى يوم القيامة، حيث قال الله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة ٢٤، ٥، الحجرات] .

(١) كما في رواية أبي داود في الأدب، باب الرجل يستأذن بالدق برقم ٥١٨٨ .

(٢) ص ٣٥٩ برقم ١٠٨٣، وذكره الحافظ في الفتح ٤٢/٢٣، قال: وأخرجه الحاكم في علوم الحديث ص ١٩ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وعزاه الهيثمي في الجمع إلى البزار، قال: وفيه ضرار بن صرد وهو ضعيف .هـ مجمع الزوائد ٤٦/٨، وأخرجه كذلك البيهقي في شعب الإيمان ٤٤٢/٦، وذكره الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ٢٠٩٢، وذكر له طرقاً عن أنس أعلاها كلها، وذلك يناقض تضمينه إياه في السلسلة الصحيحة إلا أن يكون أراد أن كثرة الطرق قوته فأصبحت شاهدة بأن له أصلاً، ولكن ذلك لا يرقى إلى درجة الحسن فضلاً عن الصحة والله أعلم، وأما ذكره من باب ذكر أمثاله في الفضائل والسير الذي يتسامح في أحاديثها قليلاً ما لم تكن موضوعة أو شديدة الضعف كما هو مذهب جمهور أهل الحديث .

ما يحصل به الأذن بالدخول :

ثم إن الإذن بالدخول يكون بصريح العبارة كقوله: أدخل، أو نعم، أو صور أخرى يعلم بها إذن رب المنزل بالدخول تكون معروفة للطارق ورب البيت، فإذا كان كذلك جاز الدخول لحصول الأذن، فالتبي صلى الله عليه وسلم كان يجعل إذنا خاصا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه عرفه إياه ويئنه علي رضي الله عنه بقوله : "كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة آتية فيها، فإذا أتيت استأذنته، فإن وجدته يصلي تنحني فدخلت، وإن وجدته فارغا أذن لي" (١) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذنك علي أن يرفع الحجاب، وأن تسمع سوادي" (٢) حتى أنهاك" (٣) فاستدل من ذلك على جواز الدخول إلى بيت المستأذن عند وجود مثل هذه العلامات الدالة على رضاه .

قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث : «وفيه دليل لجواز اعتماد العلامة في الأذن في الدخول، فإذا جعل الأمير أو القاضي ونحوهما رفع الستر الذي على بابه علامة في الإذن في الدخول عليه للناس عامة، أو لطائفة خاصة أو لشخص، أو جعل علامة غير

(١) أخرجه النسائي في المجتبى، في السهو باب التنحني في الصلاة ١٢/٣ من عدة طرق، وفي خصائص علي رضي الله عنه ص ٦٦ من عدة طرق كذلك، قال الحافظ في التلخيص الحبير ٢٨٣/١: وصححه ابن السكن ونقل إعلال البيهقي له بالاختلاف في إسناده ومتنه، وبأن مداره على عبد الله بن نجى.

قلت: وهذه ليست علة فيه فإنه صدوق كما بينه الحافظ في التقریب برقم ٣٦٦٤، ونقل الحافظ عن ابن معين قوله: لم يسمعه عبد الله من علي بينه وبين علي أبوه. قلت: وقد أسنده عن أبيه كما في رواية النسائي في المجتبى والخصائص، فالحديث من حيث السند حسن، وتبقى علة المخالفة والله أعلم .

(٢) سيوادي بكسر السين: السرا، يقال: ساودت الرجل مساودة: إذا ساررتة، قيل: هو من إدناء سوادك من سواده، أي: شخصك من شخصه. النهاية ٤١٩/٢ .

(٣) أخرجه مسلم في السلام، باب جواز جعل الإذن رفع الحجاب ونحوه برقم ٢١٦٩ .

ذلك جاز اعتمادها والدخول إذا وجدت بغير استئذان^(١)، وكذا إذا جعل الرجل ذلك علامة بينه وبين خدمه ومماليكه وكبار أولاده وأهله، فمتى أرخى حجابها فلا دخول عليه إلا باستئذان فإذا رفعه جاز بلا استئذان، والله أعلم^(٢) اهـ .

هذا وقد كان علي رضي الله عنه ممن تربى في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو زوج ابنته فاطمة رضي الله عنها، واصطفاه النبي صلى الله عليه وسلم لمؤاخاته ومخالته، وأخبر أنه منه بمنزلة هارون من موسى... وابن مسعود رضي الله عنه كان خادمه وصاحب سواكه ونعله وطهوره، وكان يأتي الغريب فلا يظن إلا من بيت النبوة لكثرة دخوله على النبي صلى الله عليه وسلم... ومع ذلك فلم يكونا يدخلان على النبي صلى الله عليه وسلم إلا بإذن، مما يدل على أنه لا استثناء لأحد في أمر الاستئذان وإن كان أقرب الأقربين كما نصت الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ الآية [آمنور ٥٨]

ولما استغرب بعض الصحابة مثل هذا الاستئذان على القرابة القريبة، فراح يحاور النبي صلى الله عليه وسلم في الإذن له بالدخول على أقربائه من غير استئذان، رجع بغير طائل راضيا بحكم الله، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أستاذن علي أمي؟ فقال: "نعم" فقال الرجل إني معها في البيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استأذن عليها" فقال الرجل : إني خادمتها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استأذن عليها، أتحب أن تراها عريانة؟" قال : لا، قال : "فاستأذن عليها"^(٣).

(١) بل نقول: إن هذه العلامة وقعت موقع الاستئذان، فهو حاصل بذاته أو بما يدل عليه .

(٢) شرح مسلم ١٥٠/١٤ .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في الاستئذان، باب الاستئذان ٢/٢٣٩، وإسناده منقطع، فإن عطاء بن يسار لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو تابعي، وقال عنه ابن عبد البر: مرسل صحيح ولا أعلمه يستند من وجه صحيح ولا صالح، وانظر الأدب المفرد للبخاري ٣٥٣-٣٥٤، ففيه آثار موقوفة تشهد لذلك، وصححها الحافظ في الفتح ٢٩/٢٣ .

فانظر إلى الأسلوب الإقناعي الحكيم الذي اجتث به النبي صلى الله عليه وسلم وجه الاستغراب من السائل في استئذانه على أمه أو نحوها، الناشئ من وجه القرابة دون إدراك مخاطر المفاجأة التي قد تؤدي إلى الاطلاع على عورات محارمه، وإفزاعهن في ذلك، فلما أفهمه هذه الحقيقة قنع بالحكم الشرعي وعلم أن تدبير الله تعالى لعباده وحكمته في شرعه لا يوازيها تدبير العقلاء بل قد لا تدركها عقولهم.

ومن هذا الدليل تدرك سر الشارع في تعظيم حرمة المسلمين وصيانتها عن أن تنتهك من قبل من لا تحل له.

الزجر البالغ عن انتهاك حرمة الناس :

ولذلك كان الزجر شديدا والعقاب أليما لمن يحاول استكشاف العورات سواء كان عن قصد أو غيره :

١ - فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا اطلع من بعض حجر النبي صلى الله عليه وسلم فقام إليه النبي صلى الله عليه وسلم بمشقص، أو قال بمشاقص^(١)، قال : فكأنني أنظر إليه يحتل^(٢) الرجل ليطعنه^(٣) .

٢ - وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : أطلع رجل من حجر من باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله مدرى^(٤) يرجل^(٥) به، وفي رواية: يحك^(٦) به رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو علمت أنك تنظر لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر^(٧)" .

(١) جمع مشقص كمبرد وهو نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض. النهاية ٤٩٠/٢ .

(٢) من تحت يحتل: إذا خدعه وراوغه .

(٣) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقوا عينه فلا دية له ١٣/٩، ومسلم في الأدب برقم ٢١٥٧ .

(٤) المدرى: شيء يسرح به شعر الرأس، محدد الطرف من حديد أو غيره، وهو كسن من أسنان المشط، أو أغلظ قليلا إلا أنه أطول .

(٥) متفق عليه تقدم ذكره في هذا المبحث ص ٧٩٧.

ومن هذه الأحاديث تعلم مبلغ الجرم الذى يرتكبه ذلك الناظر، لأن العقوبة كانت رادعة وكبيرة، والنبي صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف الرحيم لم يتردد فى إنزالها به لو أنه تمكن من ذلك، ولقد حث أمته على فعل ذلك بهؤلاء الذين يهتكون أستار البيوت وعوراتها :

١ - فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من أطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حلَّ لهم أن يفتقوا عينه" (١) ،
وفى رواية قال : "لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بعصاةٍ ففقت عينه لم يكن عليك جناح" (٢) .

٢ - وعن أبى ذر الغفاري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
"من كشف سترًا فأدخل بصره فى البيت قبل أن يُؤذن له فرأى عورة أهله، فقد أتى حدًّا لا يحل له أن يأتيه، ولو أنه حين أدخل بصره استقبله رجل ففقت عينه ما عيرت عليه" (٣) ،
وإن مر رجل على باب لا ستر له غير مغلق فنظر فلا خطيئة عليه، إنما الخطيئة على أهل البيت" (٤) .

وهكذا يهدر النبي صلى الله عليه وسلم عين الناظر إلى منازل الآخرين وعوراتهم فى بيوتهم، وذلك لعظيم جرمه، ودناءة أخلاقه، حيث لم يشأ أن يزكّي نفسه ويعزّها بمكارم

(١) أخرجه البخاري فى الديات، باب من اطلع فى بيت قوم ففتقوا عينه فلا دية له ١٣/٩، ومسلم فى الآداب،

باب تحريم النظر فى بيت غيره برقم ٢١٥٦ واللفظ له .

(٢) وهذه رواية البخاري المشار إليها .

(٣) أي: ما نسبت إليه العيب .

(٤) أخرجه الترمذي فى الاستئذان، باب ما جاء فى الاستئذان قبالة الباب برقم ٢٧٠٧ وقال: حديث غريب لا

نعرف مثله إلا من حديث عبد الله بن لهيعة، فأعلّجه بآبن لهيعة، وأخرجه الإمام أحمد فى المسند ١٨١/٥ من

طريقه، وقال المنذري فى الترغيب ٤٣٦/٣: رواه رواة الصحيح إلا ابن لهيعة، وفى التقريب يقول:

صدوق خلط بعد احتراق كتبه ... ١. هـ برقم ٣٥٦٣ .

أخلاق الإسلام، التي كان عليها رسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه عليه وسلم، والتي يكسب بها شرف الدنيا والآخرة، فلما لم يفعل ذلك كانت عينه رخيصة في معييل تربية الناس على مكارم الأخلاق من النزاهة والعفة . . .

ولا بدع فإن الإنسان إنما يعظم بدينه وأخلاقه، فإذا لم يكن ديناً ذا خلق كريم كان أهون على الله من الجعل، وما أبدع قول القائل فيمن يذل نفسه بمساوىء الأخلاق فيسرق فتقطع يده : قال : "لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت" .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يتمثل مكارم الأخلاق في سلوكه أفعالا وأقوالا، فلا يتنازل عن مكارمها في سلوكه بنفسه، ولا يريد من أمته، بل كان يرثيهم على المكارم ويوجبها عليهم، ويشرع لحفظها ما يأمره الله تعالى به مما هو كفيل بصيانة المجتمع المسلم من سفاسف الأخلاق ومساوئها، من حدود وتعازير، ولرب رهبة تحمل على زكاء الخلق خير من رحمة تؤدي إلى التهاون فيه .

المبحث الثالث

(إكرام الضيف)

الضيافة مصدر ضاف يضيف ضيافة بمعنى الإمالة،

قال الراغب: "أصل الضيف الميل، يقال: ضفت إلى كذا، وأضفت كذا إلى كذا، وضافت الشمس للغروب، وتضيّفت، وضاف السهم عن الهدف وتضيّف، قال: والضيف؛ من مال إليك نازلا بك، ثم قال: وأصل الضيف مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في عامة كلامهم، وقد يجمع فيقال: "أضياف وضيوف وضيّفان(١)".

منزلة خلق إكرام الضيف في الأخلاق الاجتماعية:

والضيافة من الأمور التي لا يكاد يستغنى عنها المرء في حياته ضيفا أو مستضيفا، لضرورة الحياة الاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان، فإنه مدني بالطبع لا يكاد يقوم له شأن بمفرده، فهو يسافر ويجتمع بالناس في بيوتهم أو يجتمعون عنده في بيته لغرض أو لآخر، ولا بد له في هذه الأحوال من ضروريات تقوم بها حياتهم من أكل أو شرب أو مسكن أو نحو ذلك .

لذا فقد عني القرآن الكريم بالحديث عنها على سبيل التحدث عن أحوال المضيفين ثناء عليهم وإشادة ببليغ إكرامهم لضيوفهم، أو ناعيا على من أخل بذلك منهم، في آيات كثيرة من آياته الكريمة .

فلقد تحدث القرآن الكريم على سبيل المدح والثناء عن كرم نبي الله "إبراهيم" عليه السلام مع أضيافه وعن نبي الله لوط^(٢) عليه السلام في موقفه مع أضيافه، وقومه الذين أرادوا بهم السوء، وامتدح موقف الأنصار البالغ الكرم لأضيافهم، بما أوحى بعظيم منزلة هذا الخلق الرفيع، أما من لم يفعل ذلك الإكرام للأضياف فقد كان ذكره في القرآن الكريم على سبيل النعي بسوء صنيعهم ورذالة أخلاقهم، كما في قصة أصحاب

(١) المفردات ص ٣٠٠ .

(٢) انظر جامع القرآن للقرطبي ٦٢/٩ .

القرية الذين أبوا أن يضيفوا نبي الله موسى و عبد الله الصالح: الخضر عليهما السلام، كما سيأتى بيانه .

حديث القرآن الكريم عن إكرام نبي الله إبراهيم عليه السلام أضيافه:

فكان من حديثه عن نبي الله إبراهيم عليه السلام ما جاء فى سورة "هود" حيث يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [٧٠، ٦٩] .

فتحدث الآيتان عن مبلغ كرم إبراهيم عليه السلام، حيث أسرع فى القرى بحيث لم يلبث أن أحضر لهم عجلاً حنيذاً، أى مشوياً سميناً، وهم نفر ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام كما ذكر المفسرون، فكم يأكل هؤلاء الثلاثة من هذا العجل السمين كما نصت عليه آية "الذاريات" حيث قل الله تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ..﴾ [٢٤-٢٧] .

وفى هذه الآيات بيان آخر لبعض صور الإكرام الذى قام به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فقد أثبت الله تعالى إكرامه لهم بقوله : ﴿المُكْرَمِينَ﴾ وهذا ما يقتضيه السياق وهو أحد قولي أهل التأويل فى ذلك^(١)، والثانى: أنه إخبار عن وصفهم الثابت كما فى قوله تعالى : ﴿..بل عباد مُكْرَمُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٦] .

وكان من صور إكرامه لهم قيامه بنفسه وأهله بخدمتهم، وفى ذلك من العناية والحفاوة بالضيف ما فيه، فقد استل نفسه من بينهم لئلا يعوقوه عن تقديم الضيافة لهم كما يحدث من بعض الأضياف، وهو ما دل عليه كلمة ﴿فَرَاغُ﴾ الدالة على الاختفاء "فإنه لا يقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية"^(٢) وذهب يحضر لهم القرى بسرعة عجيبة إذ لم

(١) انظر تفسير البضاوي ص ٦٩١، وروح المعنى ١١/٢٧/٩ وغيرهما .

(٢) روح المعاني ٩٤/١٢/٤ .

يلبث أن جاء بعجل سمين حنيذ مشوى، بحيث كانت سرعته العجيبة حاملة لاختيار بعض المفسرين (١) أن يقول: إن الطعام كان مهيباً من قبل، غير أن هذا القول يقتضى إخراج النص عن ظاهره الدال على إنجازهِ في ذلك الوقت؛ لأنه أزيد في العناية وأبلغ في الإكرام، فإن خير البر عاجله، ولذلك أبى هذا القول جمهور المفسرين (٢) فلما أحضره لهم لم يحوجهم إلى القيام له، بل وضعه بين أيديهم ليتناولوه، ثم تلطف بهم في دعوتهم إليه بقوله: "ألا تأكلون؟".

بحيث استدلل بذلك كله على آداب الضيافة فإن هذه الآداب جاء ذكرها في القرآن الكريم على سبيل المدح والثناء والتقدير، فكانت تشريعا لما دلت عليها من أحكام وآداب. قال القرطبي رحمه الله: "في هذه الآية - يعنى آية هود - من أدب الضيف أن يعجل قراه فيقدم الموجود الميسر في الحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جدة، ولا يتكلف ما يضر به، قال: والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الاسلام ومن خلق النبيين والصالحين وإبراهيم عليه السلام أول من أضاف" (٣).

حديث القرآن الكريم عن كرم نبي الله لوط عليه السلام:

ونحو هذا الإكرام ما كان من نبي الله لوط عليه السلام لأضيافه الكرام من الملائكة عليهم السلام، حيث بلغ به الحال في الأكرام أن عرض بناته على أهل السوء في سبيل إكرام أضيافه الذين أراد قومه الإساءة إليهم، وكان من أمره معهم ما قصه الله تعالى بقوله: ﴿وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ...﴾ [سورة هود: ٧٨] وقوله سبحانه: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ قال إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ﴾ [سورة الحجر: ٦٧-٦٩] فلقد أراد أن يقي أضيافه من

(١) هو أبو حيان في البحر المحيط ١٣٩/٨.

(٢) انظر روح المعاني ٩٤/١٢/٤.

(٣) جامع أحكام القرآن ٦٤/٩.

هؤلاء الفسقة بأعز ما يقدر عليه ولا يقدر عليه غيره، وهو بناته أفلاذ أكبادهم، وفي هذا العرض صورة لأبلغ كرم سُمع وأعظمه، وسواء كان ذلك عرض تزويج بالفعل كما ذهب إليه بعض أهل التفسير، وهو مبالغة في التواضع والاستعطاف لهم لـ ^١سيرقوا له فيتركوا أضيافه، فإن مبلغ كرمه في الحالين واضح، أما على الأول فلما فيه من بذل بناته لمن لا يقدر على بذلهم لهم لفجورهم وكفرهم لولا إكرام الضيف.

وأما على الثاني فإن بالغ حرصه على إكرامهم أحوجهم وهو العزيز الجنب بالله تعالى إلى أن يبذل ما هو فوق وسعه هؤلاء السيئين في سبيل إكرام ضيفه، وفي ذلك من الدلالة على عظم كرمه مالا يحتاج إلى برهان أو مزيد بيان.

حديث القرآن الكريم عن إكرام نبي الله يوسف عليه السلام لضيوفه:

وحديث القرآن الكريم عن إكرام يوسف عليه السلام لضيوفه يعطي صورة أخرى عما يجب أن يكون عليه إكرام الضيف.

فإنه عليه السلام كان قد لقي من إخوانه ما لم يعمله إخوة كرام بأخيهم الكريم، الذي خصه الله تعالى عليهم بخصائص جعلهم يحسدونه عليها، ويكيدون له كيذا عظيما، فألقوه في غيابة الجُبِّ ابتغاء إهلاكه ليصفو لهم الجو عند أيهم من غير منافس، إلا أن الله تعالى حفظه من مكرهم وكيدهم لما يرشحه إليه من تجديد شرعه وملك مصر لسياسة خلقه.

لكنه لقي من جراء ذلك متاعب لا تحصى، حيث بيع رقيقا وهو الكريم، بثمن بخس دراهم معدودات وكانوا فيه من الزاهدين، وهو العظيم المنزلة الكبير الشأن حسبا ونسبا وديانة، ثم كيد له في بيت الملك مكيدة منكرة، تجرّع بسببها سجنا طويلا لبث فيه بضع سنين... إلى غير ذلك مما لقيه من العناء الشديد جراء صنيع إخوانه المنكر به، وهو أمانة في أيديهم، مع ذلك كله لما لقيهم وقد مكَّنه الله تعالى في الأرض وجعل له ملك مصر يتبوأ منه حيث يشاء، وكان بإمكانه أن ينكّل بهم جزاء وفاقا، غير أنه عفى عن ذلك

(١) هذه إشارة إلى الخلاف في تأويل الآية عند أهل التأويل، انظر أقوالهم ووجهات نظرهم في ذلك في كتب

التفسير المشهورة كالقرطبي ٧٦/٩، وروح المعاني ١٠٦/١٢/٤ ونحوهما.

وصفح، وأكرمهم غاية الإكرام وأعطاهم فوق ميرتهم وقر بعير.. " كما قص الله تعالى كل ذلك في سورة يوسف فيرجع إليها من يشاء.

ففى هذه الصور دلالة واضحة على أن إكرام الأضياف من أخلاق النبيين، وهو من مرضات رب العالمين؛ لأن الله تعالى إنما ذكر ذلك فى مقام المدح والامتنان بصنيعهم الكريم حيال ضيوفهم، وذلك يقتضى الاقتداء بهم فى هذه الأخلاق الحميدة الكريمة فى معاملة الأضياف.

حديث القرآن الكريم عن كرم الصحابة رضى الله عنهم:

وقد كان لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كرم نحو ذلك الكرم النبوى كما دل على ذلك ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يطعم أو يضيف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها فأطفأته، فجعلوا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ضحك الله الليلة أو قال: عجب من فعالكما، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) [سورة الحشر: ٩].

وهذا ثناء عظيم على هؤلاء الصفوة المختارة من الصحابة الكرام على التحلي بهذا الخلق العظيم وما أجدرهم بذلك، فإن كرمهم للأضياف قد بلغ مبلغاً لم يبلغه كرم أشهر الكرماء، فلقد نزل بهم إخوانهم المهاجرون فشاطرورهم الأموال، وآخوهم فى النصرة

(١) أخرجه البخاري فى مناقب الأنصار، باب ويؤثرون على أنفسهم ٤٢/٥، وفى تفسير سورة الحشر

والتأييد، حتى بلغ بهم الكرم أن كان يقول أحدهم لأخيه المهاجري بعد أن يشاطره المال: وعندي امرأتان اختر أيهما شئت أتنازل لك عنها، فيقابل بشعور كريم، وعزة كاملة، وعفة فريدة، إذ يقول له المهاجري: "بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلّني على السوق" (١).

فهذا بعض ما حدثنا به القرآن الكريم عن كرم الأضياف، من أولئك القوم الكرام من أنبياء وصالحى المؤمنين، وهو حديث ثناء ومدح وامتنان على تلك المواقف النبيلة فى كرم الضيف كما رأيت .

حديث القرآن عمن بخل بحقوق الضيف فلم يكرمه :

وفى مقابل ذلك تحدث عن الذين حملهم البخل إلى أن يفرطوا فى حقوق ضيوفهم فلا يُقَرِّونهم ولا يقدمون لهم إحسانا ولا معروفا .

وكان فى طليعة هؤلاء اللثام من الناس أصحاب القرية الذين استضافهم نبي الله موسى والخضر عليهما السلام، وقد قال الله تعالى فى قصتها: ﴿... فانطلقا حتّى إذا أتيا أهلَ قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يُضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لانتخذت عليه أجراً﴾ [سورة الكهف: ٧٧] .

فقد كان موسى والخضر عليهما السلام مسافرين، فاجتازا بالقرية وهما بحاجة إلى قري، وكان الواجب على أهل القرية أن يبادروا بالقيام بواجبهم نحو أضيافهم كما هو متعارف بين أصناف البشر فى هذه الحالة، ومع ذلك لم يفعلوا، بل أحوجوهم إلى أن يطلبوا منهم ذلك الحق الذى لهم عليهم، فلم يستجيبوا وأبوا تقديم أي شيء إليهم مما يجب لأمثالهم فى العرف، وإن لم يكن لهم شرع يحتم عليهم ذلك، وكان نظر سيدنا موسى عليه السلام فى هذه القضية صائبا من حيث المكافأة والمعاملة بالمثل، حيث اعترض على الخضر لقيامه بإصلاح الجدار وهو من جدار القرية تلك، بغير أن يشترط عليهم، أو يطلب منهم أجره

(١) انظر صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب كيف آخى النبي صلى الله عليه

عمله، فإنهم قوم لثام كما جاء فى الحديث، لا يستحقون الإكرام أو الإحسان .
غير أن الخضر كان قد أوتي علما بما فى تحت الجدار من كنز لغلامين يتيمين فى
القرية تلك كان قد وضعه أبوهما، فلم يشأ معاملتهم بالمثل، بل أراد أن يحفظ كنز
الغلامين عن أن تمتد إليه يد غيرهما، وإن لم يُبذل له أجر على ذلك فقام بواجبه
الأخلاقى العظيم، بينما هم لم يقوموا بما يجب عليهم لضيقتهم الكريمة .
فاقتضى الحال أن يسجل القرآن الكريم مشاهد هذه القصة العظيمة؛ لتكون دليلا على
كمال لؤم أهل القرية وبخلهم، فيبقى عارها عليهم إلى يوم الدين ، ودليلا على كرم العبد
الصالح ونبل أخلاقه فيكون أسوة فى المبادرة إلى الخير وبذله لمن هو له أهل ، أو لم يكن
أهلا فإن الفاعل أهل للكرم والإكرام .

تمثل خلق إكرام الضيف

في رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإذا كان إكرام الضيف من أخلاق النبيين وسننهم التي أثرت عنهم، وامتدحهم الله تعالى بها في غير ما آية كما علمت .

فإن سيد الأنبياء وخاتم النبيين الذي جمع الله تعالى فيه ما تفرق في غيره من مكارم الأخلاق فطرة، وأمره بالتأسي بكمالاتهم الأخلاقية شريعة، حيث قال له سبحانه في خطابه له: ﴿.. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [سورة الأنعام: ٩٠] .

فإذا كان مفطوراً على الأخلاق الكريمة فطرة إلهية، فكانت مكارم أخلاقه إحدى غرائزه النفسية، ومن أجلها إكرام الضيف وقراءه، كما دل على ذلك شهادة خديجة رضي الله عنها له بذلك عند ابتداء تنزل الوحي حيث قالت له: "إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق" . (١) .

فإذا كان حاله كذلك جبلةً ، فكيف حاله فيه بعد أن بعثه الله تعالى ليتمم مكارم الأخلاق؟ وأمره أن يهتدي بالأنبياء قبله في كل كمال خلقي كريم؟ وقد كان فيهم ما قص الله تعالى علينا بعضه من صور إكرامهم أضيافهم كإبراهيم ولوط ويوسف عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وما لم يقصصه من ذلك أكثر .

إن كل ذلك يقتضي أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه على حال راق عظيم، لتوافر الدواعي على رقيه فيه حتى يبلغ من كمالات الأخلاق منتهى الكمال وذروته، وقد كان كذلك بالفعل، بحيث شهد الله تعالى له بعظمة الخلق بقوله: ﴿وإنك لعلی خلقٍ عظیم﴾ وهو ما لم يحصل لأحد قبله من أنبياء ورسل على الإطلاق صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقد فصلت الدلائل الجزئية، هذه الشهادة الإجمالية في كل خلق كريم كما علمت مما مضى وما ستعلمه فيما سيأتي في بقية الأبحاث ومنها ما نحن بصدد بيانه من خلق إكرام الضيف .

والدلائل النقلية على ذلك كثيرة لا يأتي عليها الحصر في مبحث جزئي، وإنما يحتاج ذلك إلى بحث مستقل تفصيلي .

ولكن يمكن هنا الإتيان بأشهر تلك الدلائل وأوضحها دلالة على المقصود من سلوكه صلى الله عليه وسلم في إكرام أضيافه بنفسه وفعله، أو أقواله لأصحابه وأمته حثا على ذلك، وترغيبا، وتنويها، وهي أقوال كثيرة، نأتى على ذكر طائفة منها .

إكرامه صلى الله عليه وسلم أضيافه بنفسه :

أما إكرامه صلى الله عليه وسلم أضيافه بنفسه فذلك هو الأصل الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم ويقوم به نحو ضيفه :

١ - فلقد كان يثوي في مسجده الشريف عدد من فقراء المهاجرين الذين لا كافل لهم غيره صلى الله عليه وسلم، فكان عليه الصلاة والسلام لا يدخر وسعا في إكرامهم وإعالتهم والأنفاق عليهم .

٢ - ولقد كان له قصعة يقال لها : "الغراء" يحملها أربعة رجال يطعم بها أصحابه وفي ذات يوم، لما أضحوا وسجدوا الضُّحى، أتى بتلك القصعة وقد ثرد فيها، فالتفتوا عليها، فلما كثروا جثا (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أعرابي: ما هذه الجلسه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله جعلني عبدا كريما، ولم يجعلني جبارا عنيدا" ثم قال : "كلوا من حواليلها ودعوا ذروتها يبارك فيها" (٢) .

٣ - وبلغ به الاهتمام والإكرام لهؤلاء أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأضياف الإسلام أن كان إذا أعوزه بذل ما يكفيهم من الطعام، استعمل ما أيده الله تعالى من معجزات حسنيه ليُطعم هؤلاء أو غيرهم كما تدل عليه أدلة كثيرة :

(١) أي: جلس على ركبتيه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب ما جاء في الأكل من أعلى الصفحة برقم ٣٧٧٣، وابن ماجه في الأطعمة، باب الأكل متكئا برقم ٣٢٦٣ من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه . وقال البوصيري في مصباح الزجاجة برقم ١١٢٢: إسناده صحيح .

١ - فقد حدث أنس رضي الله عنه قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعنى بزینب بنت جحش رضي الله عنها - فدخل بأهله قال: فصنعت أُمِّي أُمُّ سَلِيم حَيْسًا (١) فجعلته في ثَوْر (٢)، فقالت : يا أنس إذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل: بعثت بهذا إليك أُمِّي، وهى تُقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منَّا قليل يا رسول الله قال: فذهبت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن أُمِّي تُقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منَّا قليل يا رسول الله، فقال: ضعه، ثم قال: "إذهب فادع لي فلانا وفلاتنا ومن لقيت" وسمى رجلا، قال: فدعوت من سَمَّي ومن لقيت، قيل له: عدد كم كانوا؟ قال : زهاء ثلاثمائة" (٣).

٢ - وحدث عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقال : "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هل مع أحد منكم طعام؟" فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعُجِنَ ثم جاء رجل مشرك مشعان (٥) طويل بغنم يسوقها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أبيع أم عطية، أو قال: أم هبة؟ فقال: لا، بل بيع، فاشترى منه شاه فصنعت، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسواد البطن (٦) أن يشوى، قال : وايم الله ما من الثلاثين ومائة إلا حَزَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الحيس: ثمر ينزع نواه، ويدق مع أقط ويعجنان بالسمن ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثرید. اهـ الكصباح المنیر ١٧٢/١ .

(٢) إناء يشرب فيه .

(٣) أخرجه مسلم في الكاح، باب زواج زينب بنت جحش برقم ١٤٢٨ حديث رقم ٩٤ .

(٤) واسم أبي بكر: عبد الله بن عثمان بن قحافة رضي الله عنهم، أسلم عبد الرحمن أيام الهدنة، وكان رجلا صالحا شجاعا راميا، قتل يوم اليمامة سبعة من أكابرهم، وتوفي سنة ٥٣ هـ، انظر الإصابة ٤٠٧/٢،

وبهامشها الاستيعاب ٢:٣٩٩ .

(٥) هو المنتفش الشعر النائر الرأس .

(٦) أوى الكبد

حَزَّةٌ (١) من سواد بطنها، إن كان شاهداً أعطاه، وإن كان غائباً نجياً له، قال: وجعل قصعتين فأكلنا منهما أجمعون وشبعنا، وفضل في القصعتين فحملة على البعير، أو كما قال " (٢) .

٣ - وحدث أبو هريرة رضي الله عنه بقصة طويلة عن إكرام النبي صلى الله عليه وسلم أضياف الإسلام من أهل الصُّفَّة، وكان مما حكى قول النبي صلى الله عليه وسلم له: "أبا هر، قال: قلت: لبيك يا رسول الله، قال: "الحق لأهل الصفة فادعهم لي" قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته - أي رسول الله صلى الله عليه وسلم - صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، قال: فسأني ذلك (٣) فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاؤوا أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن! ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بَدْءٌ، قال: فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا بحالسهم من البيت، قال: يا أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، قال: فأخذت القَدَحَ، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القَدَحَ، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القَدَحَ... حتى انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القَدَحَ فوضعه على يده فنظر إليَّ فتبسَّم فقال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله قال: بقيتُ أنا وأنت، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: أقعد فاشرب، فقعدت فشربت فقال: إشرَب، فشربت.. فما زال يقول: إشرَب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلَكَ، قال: أرني، فأعطيته القَدَحَ فحمد الله وشرب الفضلة" (٤) .

(١) أي: قطع له قطعة .

(٢) أخرجه مسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره برقم ٢٠٥٦ .

(٣) أي: أمره صلى الله عليه وسلم باستدعاء أهل الصفة .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم ١١٩/٨ .

ومن هذه النماذج علمت ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من إكرام لضيوفه، حيث كان يبذل جهده في إكرامهم مما هو في يده من قليل أو كثير، فإن كان كافياً فيها وإلا دعى الله تعالى أن يبارك في القليل فيستجيب الله تعالى ويعطيه خرق العادة معجزة حسية تشهد بصحة نبوته وصدق دعوته، وكم له من معجزات نحو هذه كان يمنحه الله تعالى حينما يريد إطعام أصحابه وليس إلى ذلك سبيل إلا بمعجزة، وهذا يدل على مبلغ إكرامه صلى الله عليه وسلم لأضيافه، إذ لو لم يكن فيه أريحية الكرم العظيم لاعتذر بالعدم وتعلل بالحاجة، وكان مصدقاً في ذلك، غير أنه كان يلجأ إلى خرق العادة ليحقق لأضيافه الكرم البالغ .

ولقد كان من مبلغ إكرامه لهم أن كان يؤثرهم على نفسه وأهل بيته مع ما هم عليه من الحاجة إلى مثل ذلك الطعام، غير أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يؤثرهم به، بل يجعلهم كأضيافه، فينالون من ذلك كواحد منهم، كما علمت من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ومع ذلك فكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد ما يكرم به هؤلاء الأضياف ألبته، كان يأمر مياسير أصحابه بالقيام بذلك، كما علمت مما تقدم ذكره في قصة الأنصاري الذي أثر ضيفه على نفسه وأهله وأولاده على ما هو عليه من الخصاصة، وكما سيأتي مزيد بيان لذلك في مبحث خلق الإحسان على الفقراء بعد هذا إن شاء الله تعالى .

إكرامه صلى الله عليه وسلم لأضيافه من الوفود :

كذلك كان إكرامه صلى الله عليه وسلم للضيوف المستمرين عنده، وتسميتهم ضيوفاً مع ذلك توسع باعتبار المجاز، أما الضيوف الطارئون الذين يحلون ويرحلون، وهم الوفود التي كانت تأتيه صلى الله عليه وسلم باستمرار، فقد كانوا على حال أبلغ من ذلك في الإكرام، حيث كان صلى الله عليه وسلم يقوم بقراهم بنفسه إن وجد، وإلا أقراهم أحد أصحابه، ومع ذلك لا ينصرفون عنه إلا بجائزه مادية يؤوبون بها إلى بلادهم، كما دل على ذلك حديث ابن عباس في وصيته صلى الله عليه وسلم عند موته حيث قال: "وأوصي عند موته بثلاث : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفود

بنحو ما كنت أجيزهم، قال : ونسيت الثالثة^(١) .

وإذا قرأت مباحث قدوم الوفود عليه صلى الله عليه وسلم من كتب السيرة، ستجد أنها تذكر أن كل وفد كان لا يؤوب إلا بجائزته اللائقة به، وقد ذكروا من أحواله صلى الله عليه وسلم في ضيافة الوفود أحوالا كثيرة؛ فتارة كان يضيفهم بنفسه إن وجد شيئا في بيته ولو قليلا فيتبارك ببركته، فيكفي الغام من الناس، فإن لم يجد شيئا في بيته أنزلهم عند بعض أصحابه وأحاطهم برعايته وعنايته،

فقد وفد عليه صلى الله عليه وسلم وفد "بَهْرَاء" (٢) من اليمن، وأنزلهم المقداد (٣) رضى الله عنه عنده وجاءهم بجفنة من حيس (٤) وكان كريما على الطعام، فأكلوا منها حتى نهلوا، وُرِدَتْ إليه القصعة وفيها أكل، فجمع المقداد ذلك الأكل وبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصاب منها رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلا هو ومن معه في البيت حتى نهلوا، ثم قال لمولاة المقداد التي أتت بها: "إذهبي بما بقي إلى ضيفكم" قالت: فرجعت بما بقي في القصعة إلى مولاتي، قالت: فأكل منها الضيف ما أقاموا ترددها عليهم وما تغيض، حتى جعل القوم يقولون: يا أبا معبد ! إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا، ما كنا نقدر على هذا إلا في الحين، وقد ذكر لنا أن الطعام ببلادكم إنما هو العُلقة أو نحوه، ونحن عندك في الشبع، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب جوائز الوفد ٨٥/٤، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن له شيء

يوصي به برقم ١٦٣٧ .

(٢) بفتح الباء وإسكان الهاء قبيله، من قضاة، والنسبة إليها: بهراني على غير قياس .

(٣) الأسود الكندي، أحد السبعة الأوائل الذين أظهروا الإسلام بمكة، وهاجر الهجرتين وشهد مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها، وتوفي بالجرف سنة ٣٣ هـ، وحمل على الأكتاف إلى المدينة ودفن

فيها، انظر تهذيب الأسماء واللغات ١١/٢، والإصابة ٤٥٤/٣ .

(٤) هو تمر ينزع نواه ويدق مع الأقط ويعجنان بالسمن، ثم يدلك باليد حتى يبقى كالشريد. المصباح المنير

. ١٧٢/١

عليه وسلم أنه أكل منها أكلا وردها، فهذه بركة أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل القوم يقولون: تشهد أنه رسول الله، وازدادوا يقينا، وذلك الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فتعلموا الفرائض وأقاموا أياما، ثم جاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤدّ عونه وأمر لهم بجوائزهم وانصرفوا إلى أهلهم" (١).

وقدم عليه وفد بليّ (٢) فأنزلهم رُويفع بن ثابت البلوي (٣) عنده، وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: هؤلاء قومي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مرحبا بك وبقومك" فأسلموا، وقال لهم رسول الله: "الحمد لله الذي هداكم للإسلام فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار" فقال له أبو الضبيب شيخ الوفد: يا رسول الله إن لي رغبة في الضيافة فهل لي في ذلك أجر؟ قال: نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقه قال: يا رسول الله ما وقت الضيافة؟ قال: "ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقه، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيخرجك" قال: يا رسول الله: أرأيت الضالة من الغنم أجدها في الفلاة من الأرض؟ قال: "هي لك أو لأخيك أو للذئب" قال: فالبعير؟ قال: "ما لك وله، دعه حتى يجده صاحبه" قال رُويفع: ثم قاموا فرجعوا إلى منزلي، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي منزلي يحمل تمرا فقال: "استعن بهذا التمر" وكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثا ثم ودّعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجازهم ورجعوا إلى بلادهم" (٤).

(١) انظر طبقات ابن سعد ٣/١، وزاد المعاد ٣/٦٥٥-٦٥٦، وشرح المواهب ٤/٥٦.

(٢) بفتح الياء وكسر اللام وياء مشددة، والنسبة إليها بلوي، نسبة إلى بلي بن عمر بن الحاف بن قضاة، انظر الأنساب للسمعاني ١/٣٩٥.

(٣) ذكره الحافظ في الإصابة ١/٥٢٢، ٤/١١١، وذكر طرفا من هذه القصة في الموضع الثاني من طريق الواقدي.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ١/٣٣٠، وشرح المواهب ٤/٥٧، وزاد المعاد ٣/٦٥٧-٦٥٨، وما تضمنته هذه القصة من أحكام هي ثابتة من أحاديث أخرى في الصحيحين وغيرها.

فانظر إلى مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم حيث ما كان يترك الوفود من إكرامه حتى بعد أن يتكفل بذلك أحد أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، فتراه في القصة الأولى استحالة ضيافة وفد "بهاء" عليه صلى الله عليه وسلم، إذ لم يعد يأكلون إلا من الطعام الذي بارك عليه مدة بقائهم.

وكذلك الحال مع وفد "بلي" مما يدل على كرمه للأضياف، وتأمل كيف كانت إجابته صلى الله عليه وسلم لرئيس وفد بلي حينما سأله عن الضيافة تستفد ارتياحه العظيم لهذا الخلق الكريم الذي سأل عنه الرجل .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في شأن الضيافة :

تلك نماذج صالحة لما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم من إكرام الضيوف بنفسه أو أمره، وهي دالة على كمال هذا الخلق عند النبي صلى الله عليه وسلم وعظمته فيه .
وذلك ناشئ عما كان كامنا في نفسه من عظيم الخلق في استشعار الواجب للضيف وهو ما كان يعبر عنه صلى الله عليه وسلم بأقواله الشريفة الكثيرة التي دلت على عظيم مكانة هذا الخلق في الاسلام، ومن ذلك :

١ - أن جعل هذا الخلق مرتبطا بالإيمان ارتباطا وثيقا، ارتباط الدال بالمدلول، حيث قال صلى الله عليه وسلم : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته" قالوا : وما جائزته يا رسول الله؟ قال : "يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقه عليه" (١) .

وفي حديث آخر قال : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت" (٢) .

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه ٣٩/٨، ومسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف .. برقم ٤٨، وفي النقطة باب الضيافة ونحوها بالرقم نفسه واللفظ له فيها من حديث أبي شريح العدوي، وأخرجه أبو إسحاق الحربي في جزء إكرام الضيف من اثني عشرة طريق .

(٢) متفق عليه، وتقدم تخريجه ص ٢٨ .

فترى أنه صلى الله عليه وسلم قد جعل إكرام الضيف دليلاً على الإيمان وشعبة من شعبه، فعلى مدعى الإيمان أن يبرهن على ذلك بتحقيق هذا الخلق، بأن يكرم ضيفه بما يقدر عليه من أنواع الإكرام بحيث لا يخل عليه بما يقدر على إيجاده، ولا يتكلف ما لا يقدر عليه، كما ستأتى الإشارة إليه.

قال أبو عبد الله الحليمي: "وإكرام الضيف أن يلقاه صاحب البيت بالطلاقة والبشر، ويحضر ما يحتاج إليه قبل الوقت الذي يتوقعه فيه، وأحسن وأوفر ما جرت به عادته مع أهله وولده، ويثويه أوسع ما عنده من الأماكن وأنزلها وأشرحها لصدره، وأسنعها في الشتاء، وأدرجها في الصيف^(١) ويفرش مجلسه ومرقده أحسن وأنعم مما يفرشه لنفسه، ويحتمل عنه من مؤن من يصحبه من خدامه ودوابه ما يحمل من مؤنة نفسه، وإذا خرج زوده ما يكفيه يومه، وشيعه ميلاً إن كان عليه خوف، فإن قدر على أن يمدّه بمن يأمن بمرافقتهم إلى المنار^(٢) وفعل، فذلك حسن والله أعلم"^(٣).

٢ - إجابته صلى الله عليه وسلم حق الضيافة على كل من ينزل عليه إنسان، فقال عليه الصلاة والسلام: "ليلة الضيف حق على كل مسلم، فمن أصبح بفنائيه، فهو عليه دين، إن شاء اقتضى وإن شاء ترك"^(٤).

وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "...وإن لزورك عليك حقاً.. فأعط كل ذي حق حقه"^(٥).

ففي هذين الحديثين جعل الضيافة حقاً لازماً على كل من يجتاز به الأضياف وهو قادر على ذلك، وللضيف أن يطالبه بها أو يسامحه عنها أو يجعلها ديناً عليه كما هو

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب "وأسنعها في الصيف، وأدرجها في الشتاء"

(٢) أي: الحدود.

(٣) المنهاج في شعب الإيمان ٣/٣٦٠.

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب ما جاء في الضيافة من حديث المقدم بن معديكرب برقم ٣٧٥٠،

وإسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٥٤٧٠.

(٥) متفق عليه تقدم تخريجه ص ٦٠٩.

ظاهر الحديث وقال به جمع من أهل العلم^(١) ولذلك قضى عليه الصلاة والسلام للضيف أن يستوفيه بنفسه إذا لم يقيم المضيف بأداء الحق الذي عليه لضيفه .

فعن عتبة بن عامر^(٢) رضي الله عنه قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك تبعثنا فننزل بقوم لا يقرؤنا فما ترى؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقَّ الضيف الذي ينبغي لهم"^(٣) .

وهذا يدل على ما مضى تقريره في مقدمه من منزلة مكارم الأخلاق في الاسلام، حيث جعل مثل هذا الخلق حقا لازما على كل من يمر عليه ضيف وهو يقدر على قراه أن يقره، ولا سبيل له إلى التخلي عن ذلك، فإن تخلى ولم يفعل كان للضيف الحق بأخذ ضيافته مما يجده من ماله، وفي هذا من التربية على كرم الخلق مالا مزيد عليه، لأن الإنسان إذا علم أن ذلك واجبا عليه وأنه إن لم يفعل طوعية، فإن للضيف أخذ ضيافته قسرا، بادر إلى الخلق الكريم طوعية ليثاب ويشكر، وتنمو في نفسه ملكة كرم الخلق إن لم يكن ذا خلق كريم، وتتعزيز إن كان كذلك .

٣ - تحديده صلى الله عليه وسلم مدة ثلاثة أيام للضيافة وهي مدة معقولة لا يضار فيها المضيف ولا ييخس الضيف، فقال عليه الصلاة والسلام في ذلك : "الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة، ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه" قالوا يا رسول الله، وكيف يؤثمه؟ قال : "يقيم عنده ولا شيء يقره به"^(٤) .

(١) منهم الليث بن سعد، وأحمد بن حنبل، انظر شرح الإمام النووي على مسلم ٣٠/١٢-٣٢ .

(٢) الجهني أسلم يوم قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان قاريا عالما بالفرائض والفقه توفي سنة ٥٨ هـ،

انظر تهذيب الأسماء ٣٣٦/١، والإصابة ٤٨٩/٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب إكرام الضيف ٣٩/٨، ومسلم في اللقطة، باب الضيافة ونحوها برقم

١٧٢٧ .

(٤) أخرجه مسلم في اللقطة، باب الضيافة ونحوها برقم ١٧٢٦ من حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

فهذه المدة معقولة يقدر الانسان أن يئذل فيها لضيفه حاجته، ولا يجد في نفسه حرجا من نفقة أو بشاشة وجه، فجعلها الرسول صلى الله عليه وسلم وقتا للضيافة، ولا يكلف المزيد على ذلك إلا على سبيل الإحسان والتفضل والقربة إلى الله تعالى .

٤ - إرشاده صلى الله عليه وسلم إلى عدم التكلف للضيف ما لا طاقه له به أولا يملكه، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يتكلفن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه" (١) . وذلك لئلا يتخرج فيه ويكره ضيافته، لأن المرء إذا علم أن الضيف لا يحب المتيسر ضاق به ذرعا، ولربما أدخله مداخل ضيقة هو في غنى عنها، فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن الواجب عليه هو بذل المقدور عليه فقط، لأنه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

فهذه الأحكام والآداب وغيرها مما لم يذكر هنا إذا روعيت، تجعل أمر الضيافة محبا للنفوس فتكون مشجعة على التدرع بمكارم الأخلاق التي من أعظمها إكرام الضيف كما قال أنس رضي الله عنه حينما دخل عليه قوم يعودونه في مرض له فقال : "يا جارية هلمّي لأصحابنا ولو كسرا، فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مكارم الأخلاق من أعمال الجنة" (٢) وبذلك تكون هذه المكارم في تناول كل أحد ليسر التحلي بها، ولا يبقى لأحد عذر في تركها إلا من غلب الشح والبخل عليه، لذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله : "لا خير فيمن لا يضيف" (٣) .

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٩٤/٧ برقم ٩٥٩٩ من حديث سلمان رضي الله عنه، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير، لكن حسن الشيخ الألباني إسناده في صحيح الجامع الصغير برقم ٧٦٠٨ نظرا لطرقه ومتابعاته، وانظر مجمع الزوائد ١٨٢/٨ فقد رواه من طرق كثيرة موقوفا على سلمان رضي الله عنه، وحكم على أسانيدنا بالصحة .

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع ١٨٠/٨ إلى الطبراني في الأوسط قال: وإسناده جيد .

(٣) رواه أحمد في المسند ١٥٥/٤ من حديث عقبة بن عامر، قال في مجمع الزوائد ١٧٨/٨: ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وحديثه حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥٦١/٥ برقم ٢٤٣٤، وفي صحيح الجامع الصغير ١٢٤٧/٢ برقم ٧٤٩٢، قال في السلسلة: وحديث ابن لهيعة من رواية =

وفى هذا الحديث ترغيب فى الضيافة وتنفير من التخلي، عنها يحرص على تطبيقه كل مؤمن حتى تشمل له الخيرية، وتنتفى عنه ضدها، ويساعد على ذلك ما تقدم من تيسير أمرها، غير أن المرء ينبغي له أن يبالغ فى الإكرام بقدر الطاقة بحيث لا يبخل بالموجود ولا يتكلف المفقود، فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام قوله : "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" (١) .

= عبد الله بن وهب صحيح؛ لأنه روى عنه قبل أن يسوء حفظه كما حققه بعض الأئمة، قال: فصح الحديث بهذه الرواية .

(١) روى من طريق جماعة من الصحابة منهم جرير وأبي هريرة وابن عباس وجابر رضي الله عنهم، أخرجه ابن ماجه برقم ٣٧١٢، والحاكم فى المستدرک ٢٩٢/٤ وصححه، وسكت عنه الذهبي، والبيهقي فى السنن ١٦٨/٨، وأبو نعيم فى الحلية ٢٠٥/٦، وعزاه الهيثمي أيضا إلى الطبراني فى الكبير والصغير، وأعل جميع طرقه الذي أوردها فى المجمع ١٨/٨-١٩ . وصححه الألباني فى السلسلة الصحيحة برقم ١٢٠٥، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير برقم ٢٦٩٠، ١١١، ١ .

المبحث الرَّابِع

(الإحسان)

وفيه مطالب :

المطلب الأول : تعريف الإحسان وبيان منزلته في الأخلاق الاجتماعية .

المطلب الثاني : الإحسان إلى الجيران .

المطلب الثالث : الإحسان إلى الأيتام والأرامل .

المطلب الرابع : الإحسان إلى الفقراء والمساكين .

المطلب الأول

(تعريف الإحسان)

الإحسان فى اللغة : الإتقان، ومنه قوله تعالى : ﴿وَصَوِّرْكُمْ فَأَحْسِنَ صُورَكُمْ...﴾ [سورة التغابن: ٣] (١) .

وفى الشرع يقال على وجهين :

"أحدهما الإنعام على الغير، يقال : أحسن إلى فلان .

الثانى : إحسان فى فعله، وذلك إذا عمل عملاً حسناً" (٢) .

والإحسان أعم من الإنعام، وهو فوق العدل، لأن العدل هو أن يُعطى ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يُعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، إذ تحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع" (٣) .

منزلة خلق الإحسان فى الأخلاق الاجتماعية :

وقد جاءت مادة "الإحسان" ومتعلقاتها فيما يقرب من أربعين موضعاً فى القرآن الكريم، وذلك دليل على عظيم منزلة هذا الخلق الذى يعد بمجمع الأخلاق، وعنه تنشأ جميع جزئياته فى كل مجال اعتقادى أو تعبدى أو سلوكى، ذاتى أو اجتماعى، ولذلك جعله النبي صلى الله عليه وسلم فوق مرتبة الاسلام والإيمان حيث عرفه بقوله : "والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (٤) .

وهو بهذا المعنى يعنى أن يكون الإنسان كامل الحضور مع الله تعالى والمراقبه الجامعة لخشيتة، والإخلاص الكامل له فى كل أعماله، بأن يحسن قصده فيجعله خالصاً متجرداً له وحده، ويقدم على فعل المؤمرات واجتناب المنهيات بعزم وغير تردد، وبذلك يكون

(١) المعجم الوسيط ١/ ١٧٤ .

(٢) المفردات للراغب ص ١١٩ .

(٣) المفردات للراغب ص ١١٩ .

(٤) متفق عليه/تحريجه ص ٣٢٥ .

المرء ناسكا لله فى كل شئونه ويحقق معنى العبودية التى فطره الله تعالى عليها،
والعبادة التى خلقه الله من أجلها .

فهذا هو الإحسان الذى عني القرآن الكريم بذكره بمعناه العام .

وهو بهذا المعنى يحتاج إلى تحليل جزئي لكل أبواب الشريعة الشامل لها هذا الخلق من
عقائد وعبادات ومعاملات وسلوكيات، وهي الأبواب التى عني هذا الكتاب بمبحثها،
فيحتاج بيانه إلى سرد كل أبوابه على ضوء هذا الخلق العظيم، وهذا ما لا سبيل
إليه ، وإنما السبيل أن نأتي من ذلك ببعض أبحاث الأخلاق الاجتماعية التي كان لها حظ
من آيات الإحسان الكثيرة بلفظها أو معناها، وهو الإحسان إلى الجيران والأصدقاء، وإلى
الأرامل والأيتام، وإلى الفقراء والمساكين. وكان الأجدر أن يتصدر هذه المباحث الإحسان
إلى الوالدين والأقربين، غير أن القسمة المنهجية اقتضت تقديم ذلك فى الفصل الذى قبل
هذا فصل الأخلاق الأسرية، وقد تقدم ما يدل على الشق الثانى — الأقارب والأرحام —
دون الأول — الوالدين — لتعذر التطبيق النبوي فيه ، ولنشرع الآن فى ذكر هذه المباحث
مستعينين بالله، متوكلين عليه، مستلهمين السداد والتوفيق منه سبحانه .

المطلب الثاني (الإحسان إلى الجيران)

تعريف الجار لغة واصطلاحاً:

الجار في اللغة يطلق على معان منها المجاورة في المسكن، والشريك في العقار، والذي يجبر غيره، أى يؤمنه مما يخاف، وعلى المستجير أيضاً، وهو الذى يطلب الأمان، ويطلق على الحليف، وعلى الناصر، .. وعلى غير ذلك (١) والذى يعيننا من أنواع المجاورة الآن هو المعنى الأول، وهو المجاور في المسكن وقد عرّفه الراغب بقوله: "الجار من يقرب مسكنه منك، قال: وهو من الأسماء المتضايقة (٢)، فإن الجار لا يكون جاراً لغيره إلا وذلك الغير جار له كالأخ والصديق، قال: "ولما استعظم حق الجار عقلاً وشرعاً عبر عن كل من يعظم حقه أو يستعظم حق غيره بالجار" (٣) .

والراغب رحمه الله تعالى يشير إلى تعظيم حق الجار الذى ورد في الشرع المطهر من كتاب وسنة كقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُخُورًا﴾ [سورة النساء: ٣٦] .

فإن هذه الآية تحمل وصية الله تعالى لعباده في الإحسان إلى جيرانهم لما في ذلك من ^{العامة و}المصالح الخاصة، في الدنيا والدين .

قال القرطبي رحمه الله (٤): أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاية به

(١) انظر المصباح المنير ١/١٢٤، وتاج العروس ٣/١١١ .

(٢) التضاييف: هو كون تصور كل واحد من الأمرين موقوفاً على تصور الآخر، اهـ التعريفات للجرجاني

ص ٦٠ .

(٣) المفردات ص ١٠٣ .

الأنصاري

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح/القرطبي، كان من كبار المفسرين والمشهورين بالصلاح

والتعبد، وله مؤلفات كثيرة عظيمة منها تفسيره المشهور المسمى بجامع القرآن وغيرها توفي سنة ٦٧١، انظر

هداية العارفين ٢/١٢٩، والأعلام ٥/٣٢٢، وطبقات المفسرين للداودي ٢/٦٩ .

في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، قال: "ألا تراه سبحانه أكَّد ذكره بعد الوالدين والأقربين - أي: واليتامى والمساكين - فقال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: القريب، ﴿وَالْجَارِ الْجَنْبِ﴾ أي: الغريب قاله ابن عباس، وكذلك هو في اللغة ومنه فلان أجنبي ... إلى أن قال: فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلماً كان أو كافراً، قال: وهو صحيح، ثم قال: والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه" (١) فهذا ندب رباني كاف لحث المؤمنين إلى المبادرة إلى امتثاله .

وذلك فضلاً عن أن الإحسان إليه هو من مكارم الأخلاق التي بعث الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ليتممها .

وقد كانت العرب في الجاهلية تتخلق بذلك وتعدُّه من شيمها العظيمة، حتى أن أحدهم يقول: "والله لا يؤذى كلبٌ جاري" (٢) ودل على ذلك استعمال المادة أعنى مادة المجاورة في القرآن الكريم، فإنها لم تأت إلا بما يفيد الإحسان والمناصرة والمؤازرة في رفع الشر وجلب الخير كما علمت من المعاني اللغوية التي أتت بها هذه الكلمة .

ففي معنى الإجارة وهي التأمين من الحقوق يقول الله تعالى: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارَكَ فأَجِرْهُ حتى يسمعَ كلامَ اللَّهِ ثم أبلغه مأمنه﴾ [سورة التوبة: ٦] وفي معنى المناصرة يقول الله تعالى على لسان إبليس لعنه الله تعالى في قصة يوم بدر: ﴿وقال لا غالبَ لكم اليومَ من النَّاسِ وإنِّي جَارٌ لَكُمْ...﴾ [سورة الأنفال: ٤٨] أي: ناصركم في محاربتكم النبي صلى الله عليه وسلم، غير أنه سرعان ما تخلى عنهم لما علم أنه سيحقيق بهم العذاب الأليم، فما لبث أن فرَّ وخذلهم كما قص الله عنه بقوله: ﴿فلما تراءتِ الفِئتانِ نكصَ على عقبيه وقال إنِّي بريءٌ منكم إنِّي أرى ما لا ترون إنِّي أخافُ اللهَ واللهُ شديد العقاب﴾ [سورة الأنفال: ٤٨] .

(١) جامع أحكام القرآن ١٨٣/٥-١٨٤ .

(٢) انظر مكارم الأخلاق للطبراني ص ٣٣١ .

أما معنى الحليف الذى من شأنه النصرة والتأييد ودفع السوء وجلب النفع فيفيده قول الله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يَدُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٨٨] وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِ اللَّهُ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الملك: ٢٨] والاستفهام هنا معناه النفي أي: لا أحد يجيرهم من عذابه سبحانه وتعالى .

أما المعنى الذى نحن بصدده وهو المجاور فى السكن فقد ورد فى قوله تعالى : ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦٠] والآية تتحدث عنم أحل بحق الجوار مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وأولئك هم المنافقون، وقد أثبت الله تعالى لهم الجوار لنبيه صلى الله عليه وسلم وكان عليهم أن يراعوا حق الجوار إن لم يراعوا حق الإيمان، فيكونون معه فى السراء والضراء، غير أنهم جبلوا على النفاق، وأظهروا فى غزوة الأحزاب ما تكنه أفئدتهم من الحقد الدفين والعداوة المبيتة للمؤمنين، فأرجفوا فى المدينة بإشاعة الكذب والباطل بين الناس للاغتمام به، وقد تحقق لهم ذلك بحيث أصبح حال المؤمنين ما قصه الله تعالى فى صدر سورة الأحزاب من زيغ الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر .

وما كان أجدرهم حينئذ بما حكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦١-٦٢] غير أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينفذ فيهم ذلك، لأنهم انتهوا عن الإرجاف كما يقوله بعض أهل التفسير، قال فى التحرير والتنوير (١): "وبهذا الوعيد انكفَّ المنافقون عن أذاة المسلمين وعن الإرجاف، فلم يقع التقتيل فيهم إذ لم يُحفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل منهم أحدا، ولا أنهم خرج منهم أحد".

وقال القرطبي: "وفى الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء

المنافقين معه عليه الصلاة والسلام حتى مات، قال: والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم" (١) غير أن التأريخ قد سجل عليهم أنهم جيران سوء، لابورك بأمثالهم، فإنهم كانوا أشد على المسلمين وأضر عليهم من أعدائهم الخارجيين، لأنهم كانوا جيرانا لهم فكانوا أدرى الناس بعوراتهم وأحوالهم كما هو شأن الجيران، فلذلك كان جزاؤهم شديدا وصارما لو أنه نفذ فيهم، لكونهم لم يراعوا حقوق الجوار التي تقتضيها الأعراف وأكدتها الشريعة، وذلك شأن كل من يفرط في هذه الحقوق كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

غير أن ذا الخلق العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حلم عنهم وصبر على أذاهم، ولم يشأ إنفاذ العقوبة الصارمة عليهم خشية أن يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه، وليسوا بأصحاب له ولا كرامة، ولكن من يفهم عامة الناس ورعاعهم، وهم يرون المنافقين مجاورين في المدينة، ويدخلون ويخرجون على النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يظنونهم إلا من صحبه وجنده، ولأنه صلى الله عليه وسلم لما كان هذا العقاب موكولا إلى اختياره لم ينفذه؛ لأنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما هو منهجه، وكما مضى ذكره. فصلوات ربي وسلامه على سيدنا محمد الرؤوف الرحيم، وصاحب الخلق العظيم.

تمثل خلق الإحسان

للجيران في النبي صلى الله عليه وسلم

ذلك يحمل حديث القرآن الكريم عن الجيران وما لهم وما عليهم .

أما حاله صلى الله عليه وسلم مع جيرانه فقد كان على النحو الذي يريده الله تعالى من عباده، وتقتضيه الأعراف الفاضله كما تدل على ذلك الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم في الوصاية بالجيران :

١ - فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" (١) أى من كثرة تكرار وصيته بهم، ووصية جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم إنما هى وصية لأمته التى تحتاج إلى مثل ذلك البحث؛ لأن حث التابع حث للمتبع من باب أولى، ما لم يكن خاصا بالتابع بدليل يوضح ذلك .

أما ذاته صلى الله عليه وسلم فقد كان أوفى الناس معروفا وإحسانا بجيرانه، وكيف لا وهو القائل فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت" (٢) .

فإنه صلى الله عليه وسلم يندب إلى البرهنة على الإيمان بالله ورسوله بالإحسان إلى الجار وإكرام الضيف وقول الخير أو الصمت، ولا ريب أنه صلى الله عليه وسلم قد برهن على ذلك بنفسه أولا كما هى شيمته وأخلاقه، فى المبادرة إلى كل ما هو خير يدعو إليه بقوله، حيث كان يندب إلى ذلك بفعله، ليكون فعله مصدرا تأس، كما يكون قوله مؤكدا لفعله وداعيا إلى الامتثال به، وكما ندب فى هذا الحديث إلى البرهنة على

أخرجه

(١) البخاري في الأدب، باب الوصاة بالجار ١٢/٨، ومسلم في البر والصلة، باب الوصية بالجار برقم ٢٦٢٤،

وأبو داود في الأدب، باب في حق الجوار برقم ٥١٥١ .

(٢) متفق عليه وتقدم ذكره في الضيافة ص ٨٢٠ .

الإيمان بالإحسان إلى الجيران وغيره ، فقد ندب في حديث آخر إلى البرهنة عليه بكف الأذى عنه حيث قال فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه :

٣ - "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت" (١) .

وذلك لأن مجرد الإحسان لا يكفي إذا ما كدره الأذى ؛ لأن الإحسان مع الأذى يذهب سدى كما يستفاد من قوله تعالى : ﴿وَلَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [سورة البقرة: ٢٦٤] ولذلك أقسم عليه الصلاة والسلام ثلاثا على نفي الإيمان عمن لا يكف أذيته عن جاره .

٤ - فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه" (٢) أى دواهيته وشروره ، وهو عام فى كل جار مسلما كان أو كافرا . فالحديث يفيد نفي الإيمان عمن يؤذي جاره ، وقد أكد صلى الله عليه وسلم بأبلغ المؤكدات وهو القسم ، ثم لم يكتف صلى الله عليه وسلم بقسم واحد بل أقسم ثلاثا على نفي إيمان من ذكره مما يدل على عظم الجرم ومبلغ الشر الذى يأتى من جراء ذلك ، وسواء كان المراد نفي الإيمان كله أو كماله (٣) فإنه يفيد بأن من يؤذى جاره لم يراع وصية الله تعالى لعباده بالخير ؛ لأنه لم يأخذ بها مأخذ الجد ، وذلك دليل على عدم اكترائه بما يترتب على ذلك من العقاب ، وهو ما لا يصدر إلا من جاحد أو جاهل .

وفى هذا الحديث من الدلالة على عظيم شعوره صلى الله عليه وسلم بحق الجار ما

(١) هذه إحدى روايات الحديث السابق المتفق عليه والمتقدم تخريجه ص ٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري فى الأدب . . . باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ١٣/٨ ، ومسلم فى الإيمان ، باب إثم

إيذاء الجار برقم ٤٦ .

(٣) انظر فتح الباري ٣٣/٢٢ .

يكفي للاستدلال على حسن مجاورة النبي صلى الله عليه وسلم لجيرانه؛ لأن من أعظم الإحسان إلى الجار أن يأمن جانب جاره على نفسه وماله وأهله، فيعيش في بيته آمناً، وإن غاب عنه كان مطمئناً غير بخائف ولا قلق، ويعيش هادئ البال قرير العين، وتأتي كل صور الإحسان بعد هذا الأمر، وهي كلها ثابتة عنه صلى الله عليه وسلم من أقواله الشريفة الموجهة لأصحابه وأمته، حثاً على ذلك وترغيباً، وكل ذلك يترجم عن أفعاله وسلوكه صلى الله عليه وسلم مع جيرانه؛ لما كان عليه من المبادرة إلى ما يدعو إليه كما علمت غير مرة، ناهيك عما تدل عليه تلك الأقوال من تمثل هذا الخلق في رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن "القول بالفعل يعدل" كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه (١).

وأقواله صلى الله عليه وسلم في الجيران وحقوقهم وآدابهم من غير ما تقدم كثيرة جداً فمن ذلك :

أ - حثة صلى الله عليه وسلم على الإحسان إلى الجيران بالبدل والعطاء، وأحاديثه كثيرة ومن ذلك :

١ - جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال : "إن خليلي - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - أوصاني : إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه ثم انظر أقرب أهل بيت من

(١) قال ذلك في قصيدة يمتدح فيها الزبير بن العوام رضي الله عنه كان مطلعها الذي فيه هذه القافية وهو كما

في ديوانه ص ١٩٨، وفي مجمع الزوائد ١٢٨/٨ :

أقام على عهد النبي وهدية حواريه والقول بالفعل يعدل .

وحسان هو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يصغي إلى شعره ويشجعه عليه فيقول له : اهج المشركين وروح القدس معك، ويدعو له فيقول : اللهم أبدع بروح القدس كما هو ثابت في الصحاح والسنن، عاش حسان رضي الله عنه مائة وعشرين سنة؛ ستون في الجاهلية وستون في الإسلام، وتوفي سنة ٥٤ هـ، انظر تهذيب الأسماء ١٥٦/١، والاستيعاب بهامش الإصابة ٣٣٥/١، والإصابة ٣٢٦/١ .

جيرانك فأصيبهم منها بمعروف" (١) .

٢ - ومنه ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة" (٢) أي : ظلّفها .

ب - حثه على التساهل مع الجيران وعدم المشاحة في الحقوق :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبه في جداره" ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه : مالي أراكم عنها معرضين والله لأرمين بها بين أكتافكم" (٣) .

ج - تحديده للأولى بالبذل والإحسان على غيره :

فقد سأله عائشة رضي الله عنها قائلة : "يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إلى أقربهما منك بابا" (٤) .

د - تعظيم حقوق الجيران كما علمت من الأحاديث السابقة، وكما روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

١ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما آمن بي من بات شبعانا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم" (٥) .

مسلم

(١) أخرجه في البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان إليه برقم ٢٦٢٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها ١٢/٨، وفي الهبة في فاتحته ٢٠١/٣، ومسلم في

الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بقليل برقم ١٠٣٠ .

والفرسن: خف البعير، وقد استعير للشاة فسمي ظلّفها فرسنا؛ لأنه للشاة بمنزلة الخف للبعير . هـ جامع

الأصول لابن الأثير ٦/٦٤١ .

(٣) البخاري في المظالم، باب لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره، ومسلم في المساقاة، باب غرز

الخشب في جدار الجار برقم ١٦٠٩ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب حق الجوار في أقرب الأبواب ١٣/٨ .

(٥) عزاه الهيثمي في المجمع ٨/١٧٠ إلى الطبراني والبخاري قال: وإسناده البزار حسن، وعزاه إليهما أيضا المنذري =

٢ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع" (١)

٣ - ومن هذا الباب ما رواه المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "ما تقولون فى الزنا"؟ قالوا حرام حرّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره" قال : فقال : "ما تقولون فى السرقة"؟ قالوا حرّمها الله ورسوله فهي حرام، قال : "لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره" (٢) .

٣ - ومنه أيضا ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله إن

فلانة تكثر من صلاتها وصدققتها وصيامها غير انها تؤذى جيرانها بلسانها قال : هي فى النار قال : يا رسول الله فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط (٣) ولا تؤذى جيرانها قال : هي فى الجنة" (٤) .

= فى الترغيب ٣٥٨/٢ وقال : وإسناده حسن، وصححه الألباني فى صحيح الجامع الصغير ٩٦٧/٢ برقم . ٥٥٠٥

(١) عزاه المنذري أيضا إلى الطبراني وأبى يعلى قال : ورواته ثقات . هـ الترغيب ٣٥٨/٢، وفعل كذلك الهيثمي فى الجمع ١٧٠/٨ وقال نحوه .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٨/٦ قال المنذري فى الترغيب ٣٥٢/٢ : رواه ثقات وعزاه إلى الطبراني فى الكبير والأوسط وقال نحوه الهيثمي فى الجمع ١٧١/٨ .

(٣) الأثوار : جمع ثور وهي قطعة من الأقط، والأقط : بفتح الهمزة وكسر القاف : هو شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي، قاله المنذري فى الترغيب ٣٥٦/٢ .

(٤) أخرجه أحمد فى المسند ٤٤٠/٢، وعزاه المنذري فى الترغيب ٣٥٦/٢ إليه وإلى البزار وابن حبان فى صحيحه وقال : صحيح الإسناد،

قال : ورواه أبو بكر بن أبى شيبة بإسناد صحيح أيضا ثم ذكر لفظه عنده بأخصر مما ذكر هنا .

والأحاديث هناك كثيرة، وفيما ذكر كفاية، وهي تعبر عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم مع جيرانه؛ لأنه أول من يبادر إلى ما دعى إليه وحث عليه، وهي تعطي صورة واضحة عما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامي من صفاء المودة وحسن الإخاء والإيمان، والجور السُّكَّاني، وإن كان مع غير المسلمين فإن الجار له حق وإن كان كافراً كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]

وقد ذكروا أن الجيران ثلاثة: جار مسلم ذو قرابة فله ثلاثة حقوق: حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام، وجار مسلم غير قريب فله حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار غير قريب ولا مسلم فله حق الجوار (١)، وكلهم شملهم وصية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالجيران خيراً .

حديث

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٨٤/٣ وأصل هذا القول ضعيف .

المطلب الثالث

(الإحسان إلى الأيتام والأرامل)

الْيَتِيم بالضم لغة : الانفراد يقال : ذرّة يتيمة، تنبئها على أنه انقطعت مادتها التي خرجت منها ، وقيل بيت يتيم تشبيها بالذرّة اليتيمة (١) .

قال في القاموس (٢): اليتيم الفرد، وكل شيء يعز نظيره، وقد يَتِم كضرب وعلم يُتِمًا وَيُفْقِح وهو يتيمٌ ^{ويُفْقِح} ما لم يبلغ الحلم ، وجمعه: أيتام ويتامى وَيَتَمّه وَمَيِّمّه ...

وفى الاصطلاح : هو انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، وفى سائر الحيوانات من قبل أمه، وسمى بذلك لأنه بقي منفردا لا يجد من يدفع عنه وينفق عليه (٣).

أما الأرامل فجمع أرمل وهو: من افتقر وفني زاده (٤) وهو يقع على الذكور والنساء، يقال: رجل أرمل وامرأة أرملة، ولا يقال لهما ذلك إلا مع الحاجة، والغالب أنه لا يقال ذلك إلا للنساء (٥) .

وفى الاصطلاح هى: المرأة التى لازوج لها، وسميت بذلك لافتقارها إلى من ينفق عليها، قال الأزهرى (٦): لا يقال لها أرملة إلا إذا كانت فقيرة فإن كانت موسرة فليست بأرملة (٧) .

(١) القاموس المحيط ١٩٣/٤، والمفردات ٥٠٠ .

(٢) ١٩٣/٤ .

(٣) المفردات ص ٥٠٠، والتحرير والتنوير ٢١٩/٤ .

(٤) أساس البلاغة للزمخشري ص ١٧٩ .

(٥) تاج العروس ٣٥١/٧ .

(٦) هو محمد بن أحمد الأزهرى الهروي أحد الأئمة فى اللغة والأدب، رحل فى طلب العربية حتى تبحر فيها، وألف مؤلفات نافعة منها كتابه العظيم تهذيب اللغة توفى سنة ٣٧٠ هـ، انظر بغية الوعاة للسيوطي

ص ٨، الأعلام للزركلى ٣١١/٥ . وغيرهما .

(٧) المصباح المنير ٢٥٧/١ .

عناية القرآن الكريم بالإحسان إلى اليتامى والأرامل :

والأيتام والأرامل من الضَّعْفَةِ الذين عَنِى القرآن الكريم بالوصاية فى الإحسان إليهم كثيرا، أما الأيتام فكانت وصيته بهم صراحة فى آيات كثيرة، وأما الأرامل فهم فى ضمن ضَعْفَةِ المسلمين ومساكينهم الذين وَصَّى الله بهم خيرا فى محكم آياته .

عنايته بالأيتام :

أما عناية القرآن الكريم بالأيتام فهى كبيرة جداء فقد تحدثت آياته عما يكون به صلاح حالهم ومآلهم من حثه سبحانه وتعالى على تنمية أموالهم وأمره بدفعها إليهم عند الرُّشد، ومن تحذيره وزجره عن أكل أموالهم، ومن حثه على الإحسان إليهم، وثنائه سبحانه على من يكرمهم، وذمه من لا يحسن إليهم، ثم فرض الله تعالى لهم ما يغنيهم لو أن الجهاد مع الكفار قائم...، وذلك كله فى أكثر من عشرين آية من محكم آياته الكريمة بما يطول ذكره لو أن المقام يستدعى الإطالة، وحيث إنه لا مجال لذلك فنكتفى بالإشارة الوافية إلى ما ذكر إن شاء الله تعالى .

ومن أبرز مظاهر عنايته سبحانه وتعالى بالأيتام ما قصه علينا بقوله جل شأنه : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [سورة الكهف: ٨٢] ، فإن الله تعالى قد راعى حق هذين اليتيمين بحفظه كنزهما الذى أودعه أبوهما الجدار حتى اهتديا إليه، وقد ذكر المفسرون أن سبب حفظ كنزهما هو صلاح أبيهما، غير أن سبب حصول هذه الكرامة للأب هو يتم غلاميه، (فأراد الله تعالى اللطف باليتيمين جزاء لأبيهما على صلاحه، إذ علم الله أن أباهما كان يهتم أمر عيشهما بعدهم وكان قد أودع تحت الجدار الكنز المذكور، فحفظته العناية الإلهية عن أن تصل إليه الأيادى الأخرى حتى وصلا إليه) (١) .

فهذا المثال الحي دليل واضح وجلي على مبلغ عناية الله تعالى بالأيتام ولذلك كان

كتابه الكريم مفعما بالحديث عنهم فى تلك القضايا التى سردتها وهى :

١- العمل بما فيه صلاح أموالهم :

فلقد كلف الله تعالى من بيدهم أمر الأيتام من أوصياء وأولياء ما يكفل به إن شاء الله صلاح أحوال الأيتام فى أموالهم الذى به قوام حياتهم، والذى تسهل على ذوى النفوس المريضه بالجشع والطمع أخذه وأكله، حيث نهاهم عن التفريط فى أموالهم إلا بالتى هى أحسن كما قال سبحانه : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٢، والإسراء: ٣٤] فنهاهم عن القربان منه وهو كناية عن ملاسته ليكون أبلغ فى التحذير من النهى عن ملابسة الأكل، لأن القرب من الشيء مظنة الوقوع فيه (١) إلا أن يكون بالفعل التى هى أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثمينه (٢) إلى أن يبلغ أشده وهو رشده دينا ودنيا (٣)، وذلك بأن يحصل له قوة البدن بالبلوغ وقوة المعرفة وهو إيناس الرشده، ويعرف ذلك بانتظام تصرف العقل وصدور الأفعال عن ذلك بانتظام (٤).

قال القرطبي (٥) رحمه الله تعالى : "وُحِصَّ الْيَتِيمُ بِهَذَا الشَّرْطِ لَغَفْلَةِ النَّاسِ عَنْهُ وَافْتِقَادِ

(١) التحرير والتنوير ١٥٣/٨ - ١٥٩ .

(٢) روح المعاني ٥٥/٨/٣ .

(٣) قال الخطيب الشربيني فى تفسيره المسمى بالسراج المنير ٢٨٢/١: الرشده: هو صلاح الدين والمال، أما صلاح الدين فلا يرتكب محرما يسقط العدالة من كبيرة أو إصرار على صغيرة، قال: ويعتبر فى رشده الكافر دينه، وأما صلاح المال، فبأن لا يضيعه بإلقائه فى بحر أو بصرفه فى محرم أو باحتمال الغبن الفاحش فى المعاملة ونحوها، قال: وليس صرفه فى الخير بتبذير ولا صرفه فى الثياب والأطعمة النفيسة وشراء الجوار والاستمتاع بهن؛ لأن المال يتخذ لينتفع به، نعم إن صرفه بذلك بطريق الاقتراض حرم عليه. اهـ

(٤) التحرير والتنوير ٢٤٢/٤ .

(٥) فى تفسيره؛ جامع أحكام القرآن ١٣٥/٧ .

الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال^(١) بفقيد الأب أولى - أي العناية - قال : وليس بلوغ الأشد مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن؛ لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة، قال : وخص اليتيم بالذكر لأن خصمه الله تعالى والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده .

فانظر إلى هذا التحذير البالغ الذي وجهه الله تعالى لمطولي أمور اليتامى لعلا يفرطوا بأموالهم ولو بأقل أحوال الأخذ، أو بأى حيلة كما قال فى آية أخرى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾^(٢) إسرافاً وبيداراً أن يكبروا ﴿[سورة النساء: ٦]﴾ . وذلك لأنهم لا يقدرّون على الدفع عن أنفسهم فتولى الله تعالى الدفاع عنهم، وإصلاح أحوالهم، بمثل هذا التشريع العظيم .

٢ - تحذيره سبحانه وتعالى من أكل أموال اليتامى أو التفريط فيه :

وقد أوضح الله تعالى خطر من يفرط فى هذا النهى ببيانه سبحانه جزاءهم الأليم حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٠] فإن هذا الوعيد تكاد تنخلع منه الأفئدة اليقظه التى تتذكر وتعتبر؛ لهول العذاب المترتب على ذلك، والتشنيع الفظيع الذى دل عليه التعبير بالبطون؛ إذ اختصاصها بالذكر يدل على اتصافهم بضد مكارم الأخلاق من الهلع والجشع^(٣) .

ولذلك لما كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بهذه المثابة من اليقظة والإحساس، فرقوا من هوله وعظمتته وتحرّجوا عن مخالطة يتاماهم، فاضطّروا إلى أن يعزل أحدهم طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه، بحيث لحق بالأيتام الضرر الذى لم يرده الشرع، وما يعد من جنس ما نهاهم عنه فى النتيجة .

(١) الاهتبال: اغتنام الفرصة وابتغاؤها وتكسبها، والمعنى هنا الاشتغال بشأن اليتيم انظر الصحاح للجوهري

١٨٤٧/٥ .

(٢) أي: أموال اليتامى .

(٣) انظر محاسن التأويل ١٥/٥، وجامع أحكام القرآن ٥٣/٥ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : "لما أنزل الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية قال : فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَنَّكَمُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٠] قال : فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم" (١) .

قال الفخر الرازي : "اعلم أنه تعالى أكد الوعيد في أكل مال اليتيم ظلما وقد كثر الوعيد في هذه الآيات - يعني سورة النساء - مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَبْدِلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [سورة النساء: ٢] وقوله : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [سورة النساء: ٩] ثم أكد بعد هذه الآية - يعني : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا...﴾ - آية مفردة في وعيد من يأكل أموالهم قال : وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى وذلك لضعفهم وعجزهم فاستحقوا من الله تعالى مزيد العناية والكرامة ، قال : وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله ؛ لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله تعالى

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام برقم ٢٨٧١ ، والنسائي في الوصايا، باب مال الوصي من مال اليتيم ٢٥٦/٦ ، وفي إسناده عطاء بن السائب وهو ممن اختلط بآخره، والراوي عنه في سند أبي جرير، وعند النسائي أبو كدينة يحيى بن المهلب في رواية، وعمران بن عيينة في رواية أخرى، وهم جميعا ممن رووا عنه بعد الاختلاط كما يستفاد من ترجمة عطاء حيث لم يستثن ممن رووا عن عطاء غير أربعة ليس هؤلاء منهم، فالحديث ضعيف لذلك، غير أن بعضهم قد تابع بعضا، فحصل الأئس بعدم الاختلاط في هذه الرواية، ويستطاع أن يقال عندئذ: إن الحديث حسن لغيره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

إلى الغاية القصوى "(١)".

٣ - نهيه سبحانه عن دفع الأموال إلى الأيتام قبل بلوغهم من الرشد:

وقد كان من عناية الله تعالى القصوى بالأيتام أنه لم يمكنهم من أخذ أموالهم في حين يتمهم خشية تفريطهم فيه وإضاعتهن له، وإنما أمر الأولياء والأوصياء أن لا يدفعوا إليهم أموالهم إلا إذا أنسوا من رشدهم فقال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [سورة النساء: ٦].

ولم يرد المولى جل ذكره من الأولياء بمجرد الدفع، بل أراد أن يكون الدفع مبرهناً عليه بالشهادة التي تثبت بها الحقوق وتبرأ بها الذمم، وذلك للدلالة على خطر هذا الأمر وكمال العناية به فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [سورة النساء: ٦].

٤ - حثه سبحانه ذوي الحقوق في التركات على الإحسان إلى الأيتام الذين لا ميراث

لهم معهم:

كما كان من عنايته باليتامى أن حث ذوي الحقوق عند قسمة التركات أن يرزقوا اليتامى وأولى القربى والمساكين مما ينالون ولا يستأثرون به دونهم، لما في ذلك من مكارم الأخلاق في إعطائهم ما تيسر من المال المقسوم، إذ ترك ذلك يولد في نفوسهم حسرة وأسى لقرباتهم من الميت أو حاجتهم إلى المال، ودفع شيء إليهم يحصل به الود والتراحم، وهو من حسن العشرة مع الأقارب والأيتام والمساكين، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [سورة النساء: ٨].

٥ - أمره بالإقسط إلى اليتامى النساء عند إرادة الزواج بهن:

كما كان من عنايته بالأيتام ما وصَّى به أولياء يتامى النساء أن يقسطوا في يتاماهم اللائى في حوزهم إذا رغبوا في نكاحهن لما هن أو جمالهن، ولكن لا يريدون أن

يقسطوا لهن في المهر، فوصاهم إن هم رغبوا في ذلك أن يبلغوا بهن أعلى سُتْنهن في الصداق، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [سورة النساء: ٣] كما دل على ذلك ما قالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لابن أختها عروة بن الزبير حينما سألها عن هذه الآية فقالت : «يا بن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن ينتزجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سُتْنهن في الصداق، فأمرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن» (١) يعنى إذا خاف أن لا يعطيها مهر مثلها فعليه أن يعدل إلى ما سواها من النساء فإنهن كثير ولم يضيق الله تعالى عليه .

وهذا مظهر عظيم من مظاهر عناية الله تعالى بيتامى النساء اللاتي لم يكن لهن نصيب من العدل والقسط في الجاهلية، حيث كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئا، فلما نزلت آية الموارث فى سورة النساء شق ذلك على الناس، وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال والمرأة التى هي كذلك فيرثان كما يرث الرجل (٢)، كما نعى الله تعالى عليهم ذلك بقوله : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَىٰ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَاتَفَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٢٧] .

٦ - حثه على الإحسان إلى الأيتام بكل ما تعنيه كلمة الإحسان من شمول :

كما أن من مظاهر عناية القرآن الكريم بالأيتام حثه المتكرر على الإحسان إليهم فى

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء ٥٣/٦، وفي الوصايا ١١/٤، وأبواب آخر، ومسلم في التفسير

برقم ٣٠١٨ .

(٢) روح المعاني ١٦١/٥/٢ .

كل ما يعنيه الإحسان من شمول وعموم مما يصلح به أحوالهم الدنيوية والدنيوية، وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وبالوالدين إحسانا وذی القربى والیتامی والمساکین وقلوا للناس حسنا وأقیموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ [سورة البقرة: ٨٣] وقوله سبحانه: ﴿واعبدوا الله ولا تُشركوا به شیئا وبالوالدين إحسانا وبذی القربى والیتامی...﴾ [سورة النساء: ٣٦] .

ومن الإحسان إليهم حثه تعالى عباده على الإنفاق عليهم وإطعامهم كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَاتَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٥] وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [سورة البلد: ١٦-١٨] حيث قرن الإنفاق عليهم في الآية الأولى بالإنفاق على الوالدين والأقربين الذي هو أفضل البر، وفي الآية الثانية جعله من وسائل اقتحام العقبة الذي فحّم أمرها وأعلا شأنها، ثم فسرهما بفك الرقبة وإطعام اليتيم، مما يدل على أن إطعام اليتيم كإعتاق العبيد من الرق في الأجر والثواب عند الله تعالى .

فهذه العناية الكبرى من المولى جل جلاله بالأيتام تدل على عظيم أمر الأيتام عند الله تعالى، لأنهم ضعاف لا يملكون لأنفسهم حولا ولا قوة، فكانت نصرة الله تعالى لهم وعنايته بهم جارية لضعفهم بين أبناء جنسهم، بحيث أصبحوا يأوون إلى ركن شديد، وفي الحديث: "اشتد غضب الله على من يظلم من لا يجد ناصرا غير الله" (١) .

٧ - ثناؤه سبحانه على من يحسن إلى الأيتام :

وقد دل على عظيم أمر الأيتام وكمال العناية بهم أيضا ثناؤه سبحانه وتعالى على من

(١) عزاه السيوطي في الجامع الصغير ص ٤١ إلى مسند الفردوس من حديث علي رضي الله عنه ورمز له بالضعف، يعني لأن في إسناده الخارث الأعور، وهو الذي كذبه الشعبي في رأيه ورمي بالرفض، قال الحافظ في التقریب رقم ١٠٢٩: وفي حديثه ضعف، وفيه أيضا مسعر الهندي، وقال الذهبي: فيه لا أعرفه، الميزان ٩٩/٤، وانظر فيض القدير للمناوي ٥١٦/١، والسلسلة الضعيفة للألباني رقم ٩٦١ .

يعتنى بأمرهم ويحسن إليهم، ومن ذلك: شهادة الله تعالى لهم بأنهم من أهل البر، حيث قال سبحانه : ﴿... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ...﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

وقد أثابهم الله تعالى بما ذكره في معرض المدح والثناء ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا...﴾ [سورة الأنسان: ٥-٨].

٨ - ذم القرآن الكريم لمن يسيء إلى الأيتام ولم يكرمهم :

أما من لم يكرمهم ولم يبادر إلى الإحسان إليهم فإنهم قد نالوا ذم القرآن الكريم حيث سجّل عليهم مواقفهم مع أيتامهم التي هي مواقف حزني وعار عليهم إلى يوم القيامة، ليتجدد لهم الذم على كل الألسن في مختلف العصور، وذلك كقوله سبحانه : ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [سورة الفجر: ١٦-١٨] حيث بيّن الله تعالى لهم أن الغنى والفقر ليس دليلاً على الإكرام والإهانة، وإنما هما بالطاعة والمعصية، فهم مهانون لكفرهم، ثم ترقى حالهم في الإهانة من سيء إلى أسوأ، حيث أضرب عن مقولتهم الأولى البالغة في الذم ليخبر عن حالٍ لهم أسوأ منه فقال: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١) ومثل هذا الذم لمن لا يكرم اليتيم بل أشد منه، ما جاء في سورة الماعون حيث قال الله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [١-٣] حيث جعل ذلك منهم دلالةً توضح عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، إذ لو كانوا يؤمنون بذلك لتقربوا إلى الله تعالى بإكرامهم، رغبةً في إثابته تعالى بالجنة، وهذا الذم على من يكرم اليتيم لم يرد إلا للكافرين مما يدل على أن المؤمن من شأنه إكرام اليتيم وأن الكافر بالعكس.

(١) انظر حاشية الجمل ٥٣٣/٤ على الجلالين .

فحري بالمؤمن أن يحافظ على أخلاق الإيمان التي ينتهجها إخوانه المؤمنون، وأن لا يتحلى بأخلاق الكافرين فيحل به ما أعد الله لهم من العذاب الأليم في الآخرة، فضلاً عن المجازاة في الدنيا، فإن من يسيء إلى اليتيم يوشك أن يعاقبه الله تعالى في الدنيا ويتم أولاده فيلقون مثل عمل أبيهم بغيرهم كما دل على ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [سورة النساء: ٩] والآية : « تأمر الأوصياء والأولياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذرائعهم الضعاف بعد وفاتهم(١) » .

فانظر إلى هذه العناية العظيمة التي حظي بها الأيتام في كتاب الله تعالى وهي كفيلة بأن يحيى الأيتام في ظلها حياة سعيدة تجبر كسرهم بفقد آبائهم سواء كانوا ذوي أموال أم فقراء .

٩ - ومع هذا فإن الله تعالى قد أوجب لهم من الغنيمة والفىء ما يعيشون به سعداء مكفيي المؤن، فقد افترض لهم من خمس الخمس ما يكفيهم، وجعلهم أحد مصارف الفىء، وأنزل في ذلك قرآنا يتلى ويطبق عند وجود الجهاد وهو قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [سورة الأنفال: ٤١] وقوله : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [سورة الحشر: ٧] فلو أن الجهاد قائم تحت راية الاسلام لكان هؤلاء الأصناف يعيشون في بجمحة العيش الهنيء، الذي يتلاهم مع وصية الله تعالى بهم، ولكن حيث إنه قد تخلى عنه المسلمون - ولا حول ولا قوة إلا بالله - فإن عليهم إيجاد الحياة السعيدة لهؤلاء الضعفاء، الحياة الكريمة التي بالغ الله في الحث عليها، كما دلت على ذلك التوجيهات السابقة الحاثه على الإحسان إليهم والإنصاف لهم . والله تعالى ولي الهداية والتوفيق وهو الهادى إلى سواء السبيل .

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ١٠٤، وجامع أحكام القرآن ٥١/٥ .

تمثل خلق الإحسان

إلى اليتامى والأرامل فى النبي صلى الله عليه وسلم

تلك هي العناية الإلهية العظيمة بالأيتام وضعاف المسلمين من أرامل وغيرهن، وقد كان لها من عظيم الأثر في فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وقلبه ما لم يكن مثله في أحد من البشر .

لا جرم فقد أنزل الله تعالى على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم وحيا مباشرا يحثه على مثل ما أراه سبحانه من سائر الأمة حيث قال له سبحانه : ﴿... ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ [سورة الضحى: ٦-١١] .

وهذا من كمال العناية الألهية في الإرشاد والتوجيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث خصه بخطاب في ذلك، ليكون له مزيد عناية بهؤلاء الضعفاء، على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الرأفة الكاملة والرحمة التامة بهم وبأمثالهم من سائر الخليقة كما علمت ذلك في موضعه .

ولقد قام المصطفى صلى الله عليه وسلم بواجبه نحوهم حق القيام، بفعله وهديه مما نعجز عن جمعه واستقصائه في مثل هذا المبحث، وإنما نذكر بعضا من ذلك مما هو واضح الدلالة على المقصود من سلوكه ذلك بنفسه، وهديه لذلك بقوله لأمته .

عنايته صلى الله عليه وسلم بالأيتام بنفسه :

أما عنايته صلى الله عليه وسلم بنفسه، فيتمثل بأنه قد كان يضمهم إليه ويجعلهم كأبنائه ومن يعول من حاشيته :

١ - وذلك كما فعل بأولاد أبي سلمة عبدا لله بن عبد الأسد بن هلال المخزومي رضى الله عنه الذي مات سنة ٤هـ عن أولاد صغار، وعن زوجته الكريمة أم سلمة - هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية - ف يتم الأطفال وتأيمت المرأة، فقام النبي صلى الله عليه وسلم بكفالتهم جميعا كما يكفل أبنائه .

فإنه صلى الله عليه وسلم لما علم بانقضاء عدة أم سلمة رضى الله عنها أرسل إليها

يخطبها ليكفلها ويكفل أولادها، وقال لها لما أرادت أن تعتذر إليه بغيرتها وكثرة صبيانها:
 ..أما قولك : غَيْرِي، فسأدعو الله فتذهب غَيْرُكَ، وأما قولك: إني امرأة مُصِيبَةٌ فَسُتَكْفَيْنِ
 صبيانك.."(١) فرضيت وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وعال أيتامها .

٢ - وكما فعل أيضا بأولاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما استشهد أبوهم في
 غزوة مؤتة فكان يعطف عليهم ويقول : "أنا وليهم في الدنيا وفي الآخرة"(٢) .

٣ - ولما أفاء الله تعالى عليه كان يلي أمر كل مسلم يموت وله عيال ويقول : "أنا أولى
 بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفّي من المؤمنين فترك دينا . أو كَلًّا أو ضياعا(٣) فعليّ وإليّ،
 ومن ترك مالا فلورثته"(٤) .

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يعنى بالأيتام بنفسه الشريفة، ليكون أسوة للأمة في
 العناية بهم وجبر كسرهم وسد عوزهم، فإنها مأمورة بالتأسي به صلى الله عليه وسلم
 وفعله شرع لها، هي مسئولة عنه إن هي فرطت في اتباعه فيه، لاسيما من يلي أمر الأمة
 من خلفائه بعده، فإن عليهم أن يفعلوا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله من
 الكفالة والإعالة للأيتام، لأنهم نوابه في رعاياهم من بعده، وذلك من مقتضيات ولاياتهم
 وواجبات خلافتهم، التي ائتمنهم الله تعالى عليها .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في العناية بالأيتام :

ومع ما يقتضى هذا الصنيع من التأسي لعامة المسلمين وخاصتهم فإن النبي صلى الله

(١) أخرجه النسائي في النكاح، باب إنكاح الابن أمه ٨١/٦، قال الحافظ في الإصابة ٤٥٩/٤: إسناده صحيح

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢٩٨/٢ من حديث ابن جريج من طريق محمد بن أبي يعقوب عن
 الحسن بن سعد وهما ثقتان عن عبدا لله بن جعفر وهو صحابي رضي الله عنه .

(٣) الكل والضياع: هما العيال .

(٤) أخرجه البخاري في النفقات، باب من ترك كلاً أو ضياعاً في ٨٦/٧، وفي الكفالة، باب الدين ١٢٨/٣،

ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته برقم ١٦١٩ .

عليه وسلم قد ندبهم إلى ذلك بأحاديث قولية رغبتهم فيها على كفالة الأيتام ورعايتهم والقيام بما يصلح أمور دينهم ودنياهم، وأقواله في ذلك كثيرة منها:

١ - قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما (١).

٢ - وفي رواية "كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو في الجنة كهاتين" وأشار مالك - راوي الحديث - بالسبابة والوسطى (٢).

٣ - وجاء في حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا وامرأة سفهاء (٣) الخدين كهاتين يوم القيامة" وأوماً بيده - يزيد بن زريع الراوي عن عوف - الوسطى والسبابة: "امرأة أمت (٤) زوجها ذات منصب وجمال، حبست نفسها على يتامها حتى بانوا أو ماتوا" (٥).

وفي هذا التصوير من الدلالة على عظيم العناية باليتيم ما يستوجب المسارعة إلى ذلك

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب فضل من يعول يتيماً ١٠/٨، وأبو داود في الأدب، باب فيمن ضمن يتيماً برقم ٥١٥٠، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في كفالة اليتيم برقم ١٩١٨ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم برقم ٢٩٨٣، ومالك في الموطأ في الشعر، باب السنة في الشعر ٢/٢٣٢، رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومالك عن صفوان بن سليم بلاغا .

قال الذهبي في الكبائر ص ٦٧: وكفالة اليتيم هي القيام بأمره والسعي في مصالحه من طعامه وكسوته وتنمية ماله إن كان له مال وإن كان لا مال له أنفق عليه وكساه ابتغاء وجه الله تعالى. أ. هـ .

(٣) السفهاء: بفتح السين المهملة وسكون الفاء بعدهما عين مهملة هي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيمة، يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج فلا تحتاج إلى الزينة والتصنع للزوج، انظر النهاية ٣٧٤/٢، والترغيب والترهيب للمنذري ٣٤٨/٣ .

(٤) أي: صارت أئماً، وهي التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً، تزوجت أو لم تتزوج بعده، والمراد هنا: من مات زوجها وتركها أئماً. انظر النهاية ٨٥/١ .

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب، باب فضل من عال يتيماً برقم ٥١٤٩، وأحمد في المسند ٢٩/٦، وفي سننه =

كما قال ابن بطلال^(١): "حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة، قال: "ولا منزلة في الجنة أفضل من ذلك"^(٢).

يعني لأنه عليه الصلاة والسلام يكون في الفردوس الأعلى، فإذا كان كافل اليتيم يقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنزلة كاقتران الأصبع السبابة بالوسطى، أو كالفرق بينهما في الطول والقصر، فإن ذلك من أعظم الحوافز له على رعاية اليتيم بالحسنى، إذ لو لم يكن إلا مجرد البشارة له بالجنة لكان كافيا في الحث والترغيب على الكفالة والرعاية لهم، فكيف به إذا بُشِّرَ بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم؟! إن ذلك لعظيم ولا يفرط فيه ذولب سليم، أو من يرجو الإكرام في جنات النعيم^(٣).

٤ - وقد جاء التأكيد على بشارة كافل اليتيم والمحسن إليه بالجنة في أحاديث أخرى، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "من ضم يتيما بين مسلمين في طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة ألبتة، ومن أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يبرهما دخل النار

= النهاس بن فهم البصري وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٧١٩٧، لكن تشهد له الأحاديث السابقة بمعناه.

(١) وهو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال من أهل قرطبة، صاحب شرح البخاري توفي سنة ٤٤٩ هـ، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١٢٧/٣، وشذرات الذهب ٢٨٣/٣، والأعلام ٢٨٣/٤.

(٢) فتح الباري ٢٢٠/٢٢.

(٣) نقل الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٢٠/٢٢ عن شيخه العراقي في شرح الترمذي: المناسبة بين كافل اليتيم وبين النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قال شيخنا في شرح الترمذي: "لعل الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة أو شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم أو منزلة النبي لكون النبي شأنه أن يعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم، فيكون كافلا لهم ومعلما ومرشدا، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه قال: فظهرت مناسبة ذلك" ١ هـ.

فأبعده الله ، وأيما مسلم أعتق رقية مسلمة كانت فكأكه من النار" (١) .

فهذا الحديث كسوابقه يبشر كافل اليتيم بغاية ما يتمناه من ربه سبحانه وهو الجنة التي هي أعز غائب ينتظره جعلنا الله تعالى من أهلها من غير سابقة عذاب، وإن لم يكن في الأحاديث دلالة على مأمنه من سابقة العذاب إن كان قد اقترب ما يوجب ذلك، إلا أنه طالما وأن مآله الجنة فإنه قد أمن من الخلود في النار، وذلك بشارة له على خاتمة السعادة وهي الموت على الإيمان .

ولا ريب أن المؤمن حريص كل الحرص على مقتضى هذه البشارات، وعليه فإنه لن يألو جهدا في الحرص على كفالة اليتيم والإحسان إليه، لينال الثواب المترتب على ذلك، فانظر إلى هذه العناية النبوية الحانية، بالأيتام التي عبرت عنها أقواله الشريفة .

إشعار اليتامي بالحنان والعطف:

ولقد كانت عنايته بهم غير مقتصرة على الحث على الكفالة والرعاية، بل كذلك في إشعارهم بالحنان والمحبة، وإدخال الأنس في قلوبهم الذي كانوا يألفونه من آبائهم، حتى لا يشعروا بفقد الأب الحاني لوجود من يعوضهم عن حنوه وعطفه وبره .

١ - فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا شكّا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال : "امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين" (٢) .

٢ - وعن أبي أمامه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا الله كان له في كل شعرة مرت عليها ^{يده} حسنة ومن أحسن

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٤٤/٤ ، ٢٩/٥ ، من حديث مالك بن الحارث، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٦٤/٨

إلى أبي يعلى والطبراني قال: وهو حسن الإسناد، وأخرجه ابن أبي الدنيا في العيال برقم ٦٠٥، وللحديث شواهد كثيرة من حديث مالك القشيري وعدي بن حاتم وابن عباس ذكرها الهيثمي في المجمع

١٦٤/٨ هـ ١٦٥ ، والمنذري في الترغيب ٣٤٧/٣ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٦٣/٢ ، ٣٨٧ ، قال الهيثمي في المجمع ١٦٣/٨ ورجاله رجال الصحيح وله شواهد

عنده منها الحديث الذي ذكرته بعده .

إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين، وفرق بين أصبعيه السبابة والوسطى" (١) .

ولا شك أن اليتيم وهو الذى لم يزل فى عالم الطفولة الآنسة بالملاعبة واللطافة، سيأنس جدا بمثل هذه المسحة الحانية، وهذا التلطف الأبوي، وسيجد بذلك من يعوضه عن أبيه فى مثل ذلك الأنس الذى فقدته بفقده إياه، وما كان سينال ذلك لولا هذا التوجيه النبوي العظيم الذى يجعل كل المسلمين أبا حنونا على اليتيم .

تحذيره صلى الله عليه وسلم من التقصير فى حق اليتيم أو عدم الإحسان إليه :

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر فى عنايته بالأيتام على أسلوب الحث والترغيب، بل لقد استخدم أيضا أسلوب التحذير والتنفير من الإساءة إلى الأيتام أو أكل أموالهم بالباطل ، بحيث لا يقدم على فعل ذلك بعده إلا من غلبت عليه شقوته وكان من الضالين .

١ - فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "اجتنبوا السَّبْعَ الموبقات" (٢) قالوا : يا رسول الله وما هن؟ قال : "الشَّرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتَّولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات" (٣) .

ففي هذا الوعيد ما يكفى زجرا لمن تسول له نفسه التفريط فى أموال اليتامى إذ لا

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٢٥٠/٥، وابن أبي الدنيا فى العيال برقم ٦٠٩، وذكره الهيثمي فى المجمع ١٦٣/٨

معزوا إلى أحمد والطبراني وقال: وفيه علي بن زيد الألهاني وهو ضعيف، لكن له متابع عند الطبراني فى

المعجم الكبير ٢٨٤/٨ من طريق خالد أبي عمران عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة، والشواهد

عليه كثيرة. انظر مجمع الزوائد ١٦٣/٨-١٦٦ .

(٢) جمع موبقة: وهي الخصلة المهلكة .

(٣) أخرجه البخارى فى الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا...﴾ الآية

١٢/٤، ومسلم فى الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها برقم ٨٩ .

طاقة لأحد بعذاب الله تعالى الذى رتبته على فعل ذلك، أكلا أو إحراقا أو تفريطا أو غير ذلك مما يكون فيه هلكة لمال اليتيم وإتلاف له .

٢ - ولذلك لما كان صلى الله عليه وسلم يدرك عظم العقاب المترتب على فعل ذلك وهو الرؤوف الرحيم بأمة، الناصح الأمين لهم، قال لأبى ذر رضى الله عنه : "يا أبا ذر إني أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى، لا تأمرن على اثنين، ولا تلين مال يتيم" (١) وهذا من عظيم رأفته ورحمته بأبى ذر رضى الله عنه خشية أن يمسه عذاب الله تعالى المعد لأكلة أموال اليتامى الذى لا يفرق بين صحابي جليل كأبى ذر، وغيره إن هو تناول على ذلك، لأن عظم الجرم يستوجب شدة العذاب ولا يستدعى الرأفة، وذلك ما يريده صلى الله عليه وسلم على رأفته ورحمته، فقد روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه قوله :

٣ - "اللهم إني أخرج حق الضعيفين : اليتيم والأرملة" (٢) .

ومعناه (ألحق الحرج وهو الأثم بمن ضيع حقهما، وأحذر من ذلك تحذيرا بليغا وأزجر عنه زجرا أكيدا) (٣) وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك؛ لأنهما لا يقدران على أن يدفعوا عن أنفسهما ما قد يحصل لهما من ضرر الأوصياء أو الأولياء، فاستدعت حالتها أن يبالي النبي صلى الله عليه وسلم فى العناية بهما فى مثل هذه التوجيهات العظيمة الترغيبية والترهيبية .

(١) رواه مسلم فى الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة برقم ١٨٢٦، وأبو داود فى الوصايا، باب ما جاء

فى الدخول فى الوصايا برقم ٢٨٦٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأدب، باب حق اليتيم ١٢١٣/٢ برقم ٣٦٧٨، والنسائي فى عشرة النساء من سننه

الكبرى برقم ٢٦٧ وقال البوصيرى فى مصباح الزجاجة ٢٤٣/٢ برقم ١٢٨٢: إسناده صحيح ورجاله

ثقات .

(٣) رياض الصالحين ص ١٦١ .

عنايته صلى الله عليه وسلم بالأرامل :

ولم تكن الأرملة أقل حفاً في العناية النبوية من اليتيم، وكيف يكون ذلك وهو صلى الله عليه وسلم قد كان كما وصفه عمه أبو طالب بقوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل^(١)

لذلك كانت عنايته بالأرامل كعنايته بسائر الضعفة المسلمين، بل أكثر لما يترتب على العناية بهن من عظيم الأجر كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

١ - "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله" قال راوي الحديث : وأحسبه قال : "وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر"^(٢).

٢ - وما شك فيه الراوى هنا قد جاء مصرحاً به في رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار"^(٣).

والساعي هو الذى يذهب ويحيى في تحصيل ما ينفع الأرملة والمسكين^(٤) . فانظر إلى هذا الفضل العظيم الذى أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم الذى لا يمكن تحصيله من المشبه به الثانى^(٥) لعظم مشقته، إذ من يقدر على مواصلة الصيام بحيث لا يفطر؟ أم من ذا الذى يقدر على القيام ثم لا يفتر فيه؟! إنه لا طاقة لأحد على نيل هذا الأجر إلا عن طريق ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم من السعي على الأرملة

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٤/٢، ومجمع الزوائد للهيتمي ٢٧٥/٨، حيث عزا هذا البيت لأحمد والبخاري قال: ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب الساعي على الأرملة ١١/٨ وفي النفقات ٨٠/٨، ومسلم في الزهد باب الأحسان إلى الأرملة برقم ٢٩٨٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في النفقات في أوله ٨٠/٧ .

(٤) فتح الباري ١٨٧/٢٠ .

(٥) وهو: وكالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر .

والمسكين أو بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وهو قد انقطع في زماننا هذا تقريرا بفقد الأمة الإسلامية خلافتها، ولا شك بأن المسلم الذي تتاح له مثل هذه الفرصة لا يفرط في إضاعتها إن كان من أهل السعادة وصحبه التوفيق.

فهذا جانب من عنايته صلى الله عليه وسلم بالأرامل على مر الزمان.

والجانب الآخر ما باشره صلى الله عليه وسلم بنفسه من رعاية للأرامل اللاتي عدمن عائليهن، حيث كان غالب أزواجه صلى الله عليه وسلم منهن، ليكفيهن مؤنة الحياة وتعب البحث عن الرزق، كأم سلمة وحفصة وأم حبيبة، وغيرهما رضى الله عنهن، كما علمت مما تقدم إيضاحه في حكمة تعداد زوجاته صلى الله عليه وسلم (١)، فهل بعد ^{هذه} العناية القولية والفعلية من عناية وإحسان لمثل هؤلاء الضعفة؟ فعلى المسلمين أن يتأسوا بنبيهم صلى الله عليه وسلم في الإحسان إليهم، لينالوا شرف المتابعة وفضيلتها، وثواب ذلك وأجرها العظيم يوفوته في الدنيا والآخرة.

المطلب الرابع

(الإحسان إلى الفقراء والمساكين)

الفقراء جمع فقير، وهو المكسور فقار ظهره، واشتق منه اسم الفقير الذى له بلغة من العيش ولا تكفى حاجته، تشبيها له به لذته ومسكنته، فكأنه مكسور الفقار، ومن ذلك قولهم: فقرتهم الفاقة وهي الداهية، كأنها كاسرة لفقار الظهر (١).

أما المساكين فجمع مسكين وهو من أسكنه الفقر أي قلل حركته، أطلق على من لا شيء له يكفى عياله (٢) لسكونه إلى الناس، هذا من حيث اللغة.

أما فى الاصطلاح فللعلماء أقوال فى تعريف كل من الفقير والمسكين والفرق بينهما، فقيل: إن الفقير من يكون له ما يكفى عياله، أو هو من يجد القوت، والمسكين: من لا شيء له، أو الفقير: المحتاج، والمسكين: من أذله الفقر (٣)، وقيل هما بمعنى.

وذهب الشافعي (٤) إلى أن الفقير أسوأ حالا من المسكين؛ لأن الفقير أصله فى اللغة المفقور الذى نزعت فقرة من فقار ظهره، ففسر الفقراء بالزمنى الذين لا حرفة لهم، وأهل الحرف الذين لا تقع حرفتهم من حاجتهم موقعا، والمساكين: هم السُّؤال ممن له حرفة تقع موقعا ولا تغنيه وعياله (٥).

(١) مجمل اللغة لابن فارس ٧٠٣/٣، والصحاح للجوهري ٧٨٢/٢.

(٢) انظر القاموس المحيط ٢٣٥/٤، والمصباح المنير ٣١٣/١.

(٣) القاموس بشرحه تاج العروس ٤٧٣/٣.

(٤) هو إمام المذهب المعروف، واسمه محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع... المطليبي المكي رحمه الله تعالى، **وحلالته** **وإمامته** ووثاقته، وهو المجدد لأمر الدين على رأس المائتين، ولد سنة ١٥٠ هـ، وتوفي سنة ٢٠٤ هـ.

أفرده بالترجمة كثيرون كالبيهقي وابن أبي حاتم وخلائق من المتقدمين والمتأخرين.

(٥) تاج العروس ٤٧٣/٣، وانظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٠٧/١٦.

وإلى المعنى الأول ذهب أبو حنيفة (١) وموافقه (٢).
ولكل دليل ومسلك وتعليل، بحث ذلك هنا يفضي إلى الإطالة وهي غير مطلوبة (٣)
والمطلوب إنما هو معرفة عناية القرآن الكريم بهؤلاء الضعفة من المسلمين فإن الحاجة
والضعف تجمع بينهما في الجملة.

عناية القرآن الكريم بالحديث عن الفقراء والمساكين :

وقد عني القرآن الكريم بحجر ضعفهم وسداد حاجتهم، حثا على ذلك، وترغيبا وترهيبا
وإيجابا، في آيات كثيرة من سورة الكريمة المختلفة.

الحث على العناية بهم :

أما الحث على ذلك فأياته كثيرة، وهي الآيات الحاثه على الصدقة عموما، والمفسر
مصرفها بالفقراء والمساكين ونحوهم في آيات أخرى.
ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً...﴾ [سورة البقرة: ٢٤٥] وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التباين: ١٧] وقوله سبحانه: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا وَمَا تَقْدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا...﴾ [سورة
الزمل: ٢٠] إلى غير ذلك من الآيات .

فإن الله تعالى قد جعل ما يبذله الأغنياء من المال لإخوانهم الفقراء والمساكين ونحو
ذلك من وجوه البر: قرضا يوفيههم إياه عند قدومهم عليه أفضل وأجزل وأكثر مما بذلوه،
وسمّا قرضا له، لإفادة "أن ذلك لا يضيع عند الله تعالى، كما أن القرض يجب أدائه ولا

(١) إمام المذهب المعروف، واسمه النُّعمان بن ثابت بن زُوَطي، رحمه الله تعالى، اجمع على إمامته وجلالته،
وهو من صغار التابعين، أفردته بالترجمة كثيرون كالذهبي وابن حجر وخلائق من المتقدمين والمتأخرين،

ولد سنة ٨٠ هـ، وتوفي ١٥٠ هـ .

(٢) تاج العروس شرح القاموس ٤٧٣/٣، والنهية في غريب الحديث ٤٦٢/٣ .

(٣) انظر أدلة الشافعي لتفسير ذلك في تفسير الرازي ١٠٧/١٦، ١١٠ هـ .

يجوز الأخلال به، فكذا الثواب الواجب على هذا الإنفاق واصل إلى المكلف لا محالة" (١).

وكم في القرآن من حث على الإنفاق والتصدق والإحسان والبر في وجوه القربات التي من أجلها بذلها للفقراء والمساكين وأبناء السبيل، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْلَمُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٧١] وقوله جل شأنه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣] والجار والمجرور في ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ في موضع الخبر لمبتدأ محذوف، كأنه جواب سؤال مقدر تقديره: «لمن هذه الصدقات المَحْثُوث على فعلها؟ فقيل: للفقراء، أي: هي للفقراء فَبَيَّن مصرف النفقة" (٢) والإسم الموصول بعده صفة كاشفة لهم.

وقد بين في هذه الآيات غيرها ما يحفزهم إلى الإنفاق المطلوب وذلك بقوله سبحانه: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا بِتُغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٢] حيث أفادت هذه الآيات أن فائدة إنفاقهم عائدة عليهم بالأجر العظيم، وكرر الدلالة على هذا المعنى ثلاث مرات في هذه الآية "المزيد الاهتمام بشأنه لتكون كل جملة مستقلة بمعناها قصيرة الألفاظ كثيرة المعاني، فتجرى مجرى الأمثال وتتناقلها الأجيال" (٣).

(١) التفسير الكبير ١٦٧/٦ .

(٢) انظر البحر المحيط ٣٢٨/٢، وجعله صاحب التحرير والتنوير ٤٧/٣ متعلقا بتنفقون الأخير قال: وتعلقه به

يؤذن بتعلق معناه بنظائره المتقدمة، قال: فما من نفقة ذكرت آنفا إلا وهي للفقراء؛ لأن الجمل قد عضد

بعضها بعضا أ. هـ .

(٣) التحرير والتنوير ٧٣/٣ .

قال أبو حيان (١) فى تفسيره: "وفى هذا وفيما قبله قطع عذرهم فى عدم الإنفاق إذ الذى ينفقونه هو لهم حيث يكونون محتاجين إليه فيوفونه كاملاً موفوراً فينبغى أن يكون إنفاقهم على أحسن الوجوه وأفضلها" (٢).

وفى هذا الترغيب وغيره من الحث على الإحسان إلى الفقراء ما يكفى حافظاً لهم على ذلك، ونحوه ما نص فيه على المساكين وتقدم بعض منه فى مبحث الأيتام قبل هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٥] وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [سورة النساء: ٨].

والآيات الحاثّة على الإحسان والإنفاق على هؤلاء الأصناف ابتغاء وجه الله تعالى كثيرة معلومة، وبحسب المؤمن بعض ذلك ليرغبه فى الإقدام على فعل الإنفاق برغبة وسخاء وطيب نفس ونية صالحة؛ لأنه قد علم أنه لن يخسر شيئاً، وإنما يربح بذلك فى الدنيا والآخرة كما أخبره ربّه بقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سورة سبأ: ٣٩] وبقوله: ﴿وَمَا تَقْدَمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

افتراض الله تعالى للفقراء والمساكين ما يصلح حالهم:

ومع كل ذلك الحث والترغيب فإن الله تبارك وتعالى لم يكل أمر هؤلاء المحاييج إلى ضمائر الأغنياء مع بالغ حثه وترغيبه.

ولكن افترض لهم مع ذلك ما يكفل لهم ضروريات الحياة التى تكفيهم عن إذلال

(١) هو محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الأندلسي الجياني، من كبار علماء التفسير واللغة والحديث... سمع

من الكثير، وأخذ عنه الأكثر من المشارقة والمغرب، وصنف مصنفات كبيرة من أجلها تفسيره البحر

المحيط توفي سنة ٧٤٥ هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ٢/٢٨٧، وبغية الوعاة للسيوطي ص ١٢١،

والأعلام ١٥٢/٧.

(٢) البحر المحيط ٢/٣٢٧.

أنفسهم وتحميمهم من التدني إلى مساوىء الأخلاق التى قد تولدها الحاجة كالحسد والبغضاء، لو أن ذلك بذل لهم على النحو الأكمل الذى أوجبه الله تعالى وذلك هو :

١ - الزكاة التى جعلها الله تعالى ثانى أركان الاسلام فلا يكمل إسلام امرء إلا بتأديتها إذا كان ممن تجب عليه، بل لا يصح إسلام امرئ بالاعتراف بها ركنا ثانيا للإسلام وقد جعل أهم مصارفها : الفقراء والمساكين، كما يدل عليه تقديمهم فى الذكر على بقية الأصناف الثمانية الأخرى قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا... ﴾ [سورة التوبة: ٦٠] وقد بينت السنة مقاديرها ومواردها وأنصبتها وشروطها بما هو معلوم فى مظانه من كتب الحديث والفقه...

٢ - على أن المولى سبحانه قد أثبت حقوقا أخرى يسدون بها عوزهم إضافة إلى ذلك، غير أنها ذوات أسباب ممن يقوم بتأديتها لهم لا تجب إلا عند ملابتها وذلك كحقهم فى الأضحى والهدى، وفى كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة الجماع فى نهار رمضان، والفدية عن الصيام لمن لا يطيقه، وكحق الجوار وحق الزرع عند الحصاد، وغيره مما هو معلوم مما جاءت به نصوص القرآن الكريم أو السنة المطهرة.

٣ - كما أوجب لهم حقا كبيرا فى أموال الغنيمة والفىء حيث جعلهم من مصارفهما وذلك بقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ... ﴾ إلى قوله ﴿ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١] وقوله : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ... ﴾ إلى قوله ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ... ﴾ [سورة الحشر: ٧-٨] .

٤ - وقد كان هذان الحقان يفيان بحقوقهم لما كان الجهاد قائما، أما وقد ترك الجهاد منذ عصور فإن الله تعالى الخبير بأحوال عباده، لم يتركهم ليعودوا إلى سالف عهدهم فى الجاهلية من الحاجة والمجاعة والذلة وقد شرفهم بالاسلام، بل جعل لهم حقا فى أموال الأغنياء يجب عليهم بذله لهم حتى يصيبوا منه سداد حاجتهم، وذلك هو ما تدل عليه ظواهر الآيات القرآنية كقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ

السبيل ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون» [سورة الروم: ٣٨].
وقوله سبحانه: ﴿وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [سورة
الآسراء: ٢٦] حيث أثبت لهم حقا لازما كحق الأقربين الذين لا مرأى في ثبوت أحقيتهم في
أموال أقربائهم عند حاجتهم إليه، وذلك ما يقتضيه العطف من التشريك في الحكم ومن
ذلك أيضا قوله سبحانه: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [سورة
النساء: ٣٦]. حيث أوجب تعالى حق المساكين وابن السبيل مع حق ذي القربى، وافترض
الإحسان إلى الأبوين وذو القربى والمساكين والجار وما ملكت اليمين، ونظمهم جميعا
في آية واحدة مما يدل على اشتراكهم في حق الإحسان، والإحسان يقتضى بذل ما يسد
حاجتهم في هذه الحياة من طعام وشراب ولباس ومسكن ونحو ذلك.

وقد ذهب إلى اختيار هذا الحق فرضا لازما على الأغنياء من لم يعدل بالنصوص عن
ظواهرها، وهم أهل الظاهر، وعلى رأسهم إمامهم "أبو محمد بن حزم (١)" حيث دَّعم هذا
الوجوب بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وعمل الصحابة والسلف الصالح (٢).

وهذا القول الذى يؤيده مقتضى نظام الشريعة الاسلاميه الداعي إلى التكافل
الاجتماعى بين المسلمين قال العلامة د/ يوسف القرضاوى: "فإن الأدلة عليه آيين من فلق
الصبح؛ لأن طبيعة النظام الاسلامى كما رسمته آيات القرآن مكية ومدنية، وأحاديث
الرسول صحاحا وحسانا تجعل التكافل الاسلامى فريضة لازمة والتعاون والمواساة واجبا
لا بد من أدائه" ثم استدل على ذلك بما يطول ذكره فينظر فى كتابه: "مشكلة الفقر

(١) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي إمام أهل الظاهر بعد داود الظاهري، نشأ في بيت
الوزارة ووليها هو من بعده لبعض خلفاء بني أمية بالأندلس، ثم عزف عنها رغبة في العلم فنال منه
الكثير، وصنّف مصنفات كثيرة منها المحلى... توفي سنة ٤٥٦ هـ، انظر لسان الميزان ١٩٨/٤، والأعلام

وكيف عاجلها الإسلام" (١).

ذلك ما اقترضه القرآن الكريم على أغنياء المسلمين لفقرائهم، فإن أدوا ذلك طيبة بها نفوسهم زكّوا أنفسهم وهذبوا أخلاقهم، وأثابهم الله تعالى على ذلك بما تقر به أعينهم، كما وعدهم بذلك فى قوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...﴾ [سورة التوبة: ١٠٣] وبقوله: ﴿مِثْلَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

أما إذا منعوها عنهم وبخلوا عليهم فإن الإسلام يحتم على ولي الأمر أخذها منهم بقوة السلاح، وهم حينئذ بين حالين: بين ردة عن الإسلام، أو عدم أداء ثانى أركانه مع الاعتراف به، وفى كلا الحالين يستوجبون القتال إما حدا وإما تعزيرا وتأديبا، كما فعل الصديق رضى الله عنه فى حروب الردة، ومع ذلك فإن الله تعالى قد توعدهم بأليم عقابه الذى لا طاقة لهم به كما قال جل ذكره: ﴿...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٤].

ذم القرآن الكريم مانعي إحسانهم الفقراء والمساكين :

وهذا فى حق مانعي الزكاة الواجبة، أما مانعي غير ذلك من وجوه الإحسان فإن القرآن الكريم سجل عليهم ذما مقذعا، لا يقبل ذولب حصيف أو إيمان كثيف أن يلحق به، وذلك كقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [سورة الفجر: ١٧، ١٨] حيث نعى على المجتمع الجاهلي الذى لا يبالى بحق ضعفائه فى العيش الكريم، بينما أغنيائهم يعيشون فى أثرتهم وحظهم الرغيد فى الدنيا. بل جعل الله سبحانه من علامات التكذيب بالدين؛ قهر اليتيم وعدم الحض على طعام

المسكين كما علمت مما تقدم فى مبحثه (١) حيث قال تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ
بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [سورة الماعون: ١-٣] .

ولا أظن مؤمنا يقرأ سورة "القلم" ويفهم ما قصه الله تعالى من حال أصحاب الجنة (٢)
الذين أقسموا ليصر منها مصبحين، ولا يستثنون، وانطلقوا وهم يتخافتون، أن لا يدخلنها
عليهم مسكين، ضناً منهم (٣) عن أن يعطوهم ما كان قد اعتاده المساكين منها، ثم ما
كان عاقبة أمرهم من جنتهم تلك، حيث أبادها الله تعالى جزاء لهم وكانت كما أخبر
الله بقوله : ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [سورة
القلم: ١٩، ٢٠] أي: كالليل الشديد الظلمة من السواد لاحتراقها بحيث لم يعرفوها بادية
الأمم، ولما عرفوا أن بخلهم هو السبب فى إهلاك جنتهم وأنهم ظالمون بذلك واستغفروا
الله تعالى وتابوا إليه أبدلهم الله خيراً منها كما قال الله تعالى : ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ
يَبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [سورة القلم: ٢٩-٣٢] .

لا أظن مؤمنا له أذنٌ واعيه يسمع هذه القصة البليغة الأثر فى النفوس، ثم لا يتعظ
بمدلولها على أن فى سورة "الحاقة" ما ترجف لهوله القلوب مما توعد الله به من ييخل على
فقراء مجتمعته حتى بالدلالة عليهم والحث على إعانتهم وإطعامهم، حيث أخبر سبحانه أن
ذلك سببا لإعطائه كتابه بشماله ثم مصيره إلى ما أخبر عنه بقوله : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ
الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسَةِ ذُرْعَاهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
غَسْلِينِ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [سورة الحاقة: ٣٠-٣٧] وليس هذا خاصا بالكافرين، فإن هذا
الوعيد مرتب على سببين:

(١) ص ٨٣٨

(٢) أي: البستان .

(٣) أي: بخلا .

أحدهما : أقبح العقائد، وهو الكفر بالله تعالى .

والثاني : أبشع الرذائل وهو البخل وقسوة القلب، المعبر عنه بعدم الخبز على إطعام المسكين، فضلا عن بذلك بنفسه، فحيث وجد من المؤمن ذلك كان قد شاطر الكافر بالوصف والجزاء إن لم يتداركه الله تعالى بلطفه، وهذا ما فهمه أبو الدرداء رضى الله عنه حيث كان يقول لا مرأته: "يا أم الدرداء إن الله سلسلة لم تزل تغلي مراحل النار منذ خلق الله جهنم إلى أن تلقى فى أعناق الناس، وقد نجحنا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم ، فحضى على طعام المسكين يأمر الدرداء" (١) .

ثناؤه تعالى على من يكرم الفقراء والمساكين :

وهذا بخلاف من بادر إلى إكرامهم بما يقدر على ذلك من إطعام ونحوه، فإنه قد رشح نفسه لثناء الله تعالى العظيم، فى محكم كتابه الكريم، وإلى جزييل ثوابه فى جنان النعيم كما أفصحته عنه آيات الكتاب الحكيم، حيث قال الله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ثم ذكر سبب نيلهم ذلك الإكرام بقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ السَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لُوحِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا...﴾ [سورة الإنسان: ٥-٩] جعلنا الله ممن ترشح لهذا الثناء ونال ذلك الجزاء بمنه وكرمه آمين .

تنويه الله تعالى بالفقراء والمساكين وثناؤه عليهم:

وإنما نال هذا الثناء وحظي بذلك الثواب والجزاء ، لأنه أكرم عباده الذين كان لهم حظ كبير من عنايته سبحانه كما يدل عليه ثناؤه الحميد عليهم، الوارد فى مثل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣] وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ

ورضوانا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ [سورة الحشر: ٨] والآيتان هاتان وإن كانتا في صدد الحديث عن مهاجري الصحابة رضوان الله عليهم، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر ومعلوم، فإن أبرز صفاتهم التي رشحتهم لتلك العناية هي الفقر الذي يشار إليهم فيه غيرهم ممن نالوا عناية القرآن الكريم، وتحسن الرب الرحيم، كما دل على ذلك مشاركتهم لهم في سائر العناية الإلهية التي وردت في القرآن الكريم، من الحقوق الواجبة والمندوبة المطلوبة لهم، ومن الإشادة بهم في غير ما آية ومناسبة.

من أجلها ما أوحى الله بها إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله بعد إرشاده سبحانه إياه بتقريبهم منه : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤] حيث إنه تعالى "وصفهم بالإيمان بالقرآن وإتباع الحجج، ثم أمر نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يبدأهم بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم، وأن يبشرهم بسعة رحمته وفضله بعد النهي عن طردهم من مجلسه، كما كان يريد الكفار، وفي ذلك إشارة إلى أنهم الجامعون بين فضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد، ويعز ولا يذل، ويبشر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة" (١).

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ١٧٧ .

تمثل خلق الإحسان

إلى الفقراء والمساكين في النبي صلى الله عليه وسلم

لم يكن الفقراء والمساكين إلا نوعاً من أنواع كثيرة شملها إحسان المحسن العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في كل شئونهم وأطوار حياتهم .

غير أن هذا النوع قد كان له مزيد العناية من خلق الإحسان النبوي لما يستدعيه حاله في أوساط المجتمعات، فقد بعث صلى الله عليه وسلم وكان هذا النوع البشري يعد من أراذل المجتمع وأقله اهتماماً وعناية، وحفاظاً للحقوق ومراعاة للكرامة، لكونه فاقداً لمقومات الحياة الأساسية في نظرهم البدائي، وهو المال أو الشرف القبلي، إذ هم فقراء غرباء صعاليك، ومن كان كذلك كان فاقداً الاعتبار الاجتماعي في وسطهم الجاهلي كما دل على ذلك استنكارهم أن يُصطفى محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة وهو الغلام اليتيم الفقير ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين﴾ (١) عظيم ﴿سورة الزخرف: ٣١﴾ فكانت بعثة هذا النبي الكريم اليتيم الفقير في نظرهم صادةً لهم عن اتباعه لكونه لم يكن أجدر بالرسالة من كبراء قومه الطغاه، غير أن ذلك العناد والكبر لم يكن قادراً على تغيير اصطفاء الله لهذا النبي العظيم؛ لأن الله تعالى هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال سبحانه : ﴿وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمن حتى نُؤتى مثل ما أُوتِيَ رسلُ الله﴾ الله أعلم حيث يجعل رسالته سيُصيب الذين أجرموا صغاراً عند الله وعذابٌ شديد بما كانوا يمكرون ﴿سورة الأنعام: ١٢٤﴾ .

فلما لم تنفعهم محاولتهم العنادية والتكبرية في زحزحة الرسالة عن موضع الاصطفاء الإلهي عدلوا إلى محاولة إزاحة الصفوة المختارة، المصاحبة لصاحب الرسالة العظمى صلى الله عليه وسلم وذلك حال مجالستهم له، لأنهم يرون أنهم أعز مكاناً وأعظم شأناً من أن يخالطهم في مجالسهم أولئك الفقراء الضعفاء، فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن

(١) يعني: مكة أو الطائف، والرجلان اللذان كانا يريانها أجدر بالرسالة من محمد صلى الله عليه وسلم هما:

الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي .

يُقَصِّيهُم عَنْهُمْ عِنْدَ مَجَالِسَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَلَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُفْعَمًا بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحَرَصِ عَلَى إِيْمَانِ الْبَشَرِيَّةِ وَلِمَسِّ مِنْ هَؤُلَاءِ الزَّعَمَاءِ الَّذِينَ إِنْ اهْتَدَوْا فَسَيَتَّبِعُهُمْ إِلَى الْهَدَايَةِ كَثِيرُونَ، لِمَسِّ هَذِهِ الْمَبَادِرَةِ الْبَارِقَةِ "وَرَأَى أَنَّهُ لَا تَفَوَّتَ عَلَى أَصْحَابِهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْصَهُمْ قَدْرًا فَمَالَ إِلَى ذَلِكَ طَمَعًا فِي إِسْلَامِهِمْ" (١) .

وَكَادَ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ حَتَّى يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ لَعَلَّهُ يَفْتَحُ مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ إِلَى الْحَقِّ وَالْهَدَى، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْمُتَكَبِّرَةِ الْمُتَغَطِّرَةِ فَلَا يَدْخُلُهَا خَيْرٌ أَبَدًا، حَتَّى نَزَلَ إِلَيْهِ الْوَحْيُ هَادِيًا وَمُرْشِدًا وَمَرَاغِيًا لِحُقُوقِ أَوْلَئِكَ الطَّائِفَةِ الْمُخْتَارَةِ الْفَقِيرَةِ (٢)، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَمْرُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَا

(١) انظر تفسير القرطبي ٤٣١/٦ .

(٢) روى مسلم رحمه الله تعالى في فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من حديثه أيضا قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرده هؤلاء لا يجزئون علينا، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوق في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ مسلم برقم ٢٤١٣ ، وابن ماجه بنحوه برقم ٤١٢٨ .

وروى الإمام أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : مر الملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أَرْضَيْتَ بِهِؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِكَ؟ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أَنَحْنُ نَكُونُ تَبَعًا لَهُؤُلَاءِ؟ أَطْرَدُهُمْ فَلَعَكَ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَنْ تَتْبَعَكَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ المسند ٤٢٠/١ ، واللفظ لابن جرير ٢٠٠/٧ .

تَطْرِدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ... ﴿سورة الأنعام: ٢٠٤-٢٠٥﴾ .

وتأمل سر تقديم الإرشاد الإلهي والتأديب الرباني لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على بيان سببه في الآية الثانية، ثم العودة في الآية الثالثة إلى الإرشاد الأمثل في معاملتهم والإحسان إليهم حيث دعاه إلى مبادرتهم بالتحية، فإذا تأملت ذلك، تدرك مبلغ العناية الربانية بهذه الطائفة من المؤمنين، حيث لم تفتأ تبين للمؤمنين مكانة هذه الصفوة من البشر، وتحض على الإحسان لهم بإيصال الحقوق إليهم حتى مع سيد البشر صلى الله عليه وسلم كما في هذه الآيات وآيات آخر منها قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [سورة الكهف: ٢٨] .

وهذه الآية تتحدث عما تحدثت عنه الآيات الأولى من إرشاد الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في تعامله مع هذه الصفوة من أصحابه الكرام رضي الله عنهم .

وقد كان عليه الصلاة والسلام كما أراده الله تعالى امتثالاً وسلوكاً وإبلاغاً فكان تطبيقه لهذه التوجيهات الإلهية الموجهة له ولأمته من بعده يسترعي الإكبار والافتداء، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى هؤلاء الفقراء بدأهم بالسلام وقال : "الحمد لله الذي جعل في أممي من أمرني أن أبدأهم بالسلام" كما ذكر ذلك القرطبي وغيره (١) .

وكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يقعد معهم ويدنو منهم حتى إن ركبته لتلمس ركلة أحدهم (٢) .

(١) في تفسيره جامع أحكام القرآن ٤٣٥/٦، وانظر الحلية لأبي نعيم ٢٤٤/١ .

(٢) كما جاء في حديث خباب وسلمان رضي الله عنهما عزاه ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث

الكشاف ص ٦١ إلى البيهقي .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كنت في عصابة من المهاجرين جالسا معهم، وإن بعضهم يستتر ببعض من العري، وقارئ لنا يقرأ علينا، فكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر معهم نفسي" قال : ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بيننا نفسه، ثم قال بيده هكذا فاستدارت الحلقة وبرزت وجوههم، قال فما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا منهم غيري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أبشروا معاشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وذلك خمسمائة عام" (١).

فتأمل كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد ممثل ومطبق بل إنه كان يرى ذلك نعمة تستوجب الشكر والثناء حيث كان يحمد الله تعالى على ذلك ويشكره عليها، وفي ذلك دلالة على كمال رغبته في إكرامهم والرفقة بهم والإحسان إليهم .

وكيف لا وهو صلى الله عليه وسلم قد كان يرغب في أن ينتظم في سلكهم كما دل على ذلك ابتهاله إلى الله تعالى بقوله : "اللهم احييني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرنني في زمرة المساكين" (٢) وقوله : "اللهم إنني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات

(١) أخرجه اليهقي في الدلائل ٣٥١/١، وعزا الهيثمي في المجمع ٢٤/٧ شطره الأول إلى الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح، وأخرج الترمذي الجزء الأخير منه وهو قوله: يدخلون... الخ من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح، ورواية أخرى له وقال: صحيح، انظر كتاب الزهد ٥٧٨/٤ منه .

(٢) كما جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند ابن ماجه في الزهد، باب محالسة الفقراء برقم ٤١٢٦، والحاكم في المستدرک ٣٢٢/٤، وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي، لكن أعله البوصيري في المصباح ٣٢٤/٢ بأبي المبارك الراوي عن عطاء قال: لا يعرف اسمه وهو مجهول، وبالراوي عنه أبي فروة يزيد بن سنان قال عنه: ضعيف، وقد عده ابن الجوزي في الموضوعات، والسيوطي في اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٣٢٤/٢، لكنه نقل عن الزركشي قوله في تخريج أحاديث الرافعي: أساء ابن الجوزي بذكره له في الموضوعات، يعني نظرا لطرقه وشواهد الكثرة، ونقل أيضا قول الحافظ ابن حجر =

وَحَبَّ الْمَسَاكِينَ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مُفْتُونٍ، أَسْأَلُكَ حَبْلَكَ وَحَبَّ مَنْ يَحْبُكَ وَحَبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حَبْلِكَ" (١) .

فانظر كيف كان عليه الصلاة والسلام يحب أن يحيا حياتهم القنوعة العفيفة، ويسأل الله تعالى أن يرزقه المزيد من محبتهم، وذلك لأن هذه الطائفة لم يكن لها ما يشغلها عن طاعة الله والمصارعة إلى الخيرات شيء، ولا يطغيها عن اتباع الحق والسير على النهج الذي جاء به، ولذلك كانت أول الناس اتباعا له وتصديقا بما جاء به، كما دل على ذلك حديث أبي سفيان في قصته مع هرقل ملك الروم والذي جاء فيه قول هرقل لأبي سفيان: "وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه،

= في تخريج أحاديث الرافعي يعني التلخيص الحبير ١٠٩/٣: (هذا الحديث رواه الترمذي من حديث أنس - برقم ٢٣٥٢- وإسناده ضعيف أيضا، وله طريق أخرى في المستدرک من حديث عطاء عنه، ورواه البيهقي من حديث عبادة بن الصامت قال: وأسرف ابن الجوزي فذكر هذا الحديث في الموضوعات، وكأنه أقدم عليه لما رآه مباينا للحال التي مات عليها النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان ليس مسكينا . لكن قال البيهقي: ووجهه عندي أنه لم يسأل حال المسكنة التي يرجع معناها إلى الاحتياج، بل الالتجاء والتواضع أ.هـ، كذا في اللآلي ٣٢٦/٢، وعبارة السنن ١٢/٧ نحوها.

قلت: والحديث بشواهده وطرقه ينتهي بمجموعه إلى درجة الصحة كما في التعليق على ابن ماجه ١٣٨٢/٢ عن العلاء .

وانظر شواهده في مجمع الزوائد ٢٦٥/١-٢٦٦، والدعاء للطيراني ١٤٦٤/٣، ١٤٦٧، ولذلك صححه الألباني في سلسلته الصحيحة رقم ٣٠٨، ٣٥٥/١، وفي الإرواء ٣٥٨/٣ رقم ٨٦١، وقال: ولا شك أن الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الصحة، ثم نقل إنكار العلماء على ابن الجوزي في حكمه عليه بالوضع .

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة (ص) برقم ٣٢٣٥ وقال عنه: حسن صحيح سألت محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح .

وهم أتباع الرسل" (١) .

وفى القرآن الكريم ما يؤيد ذلك وهو ما حكاه الله تعالى على لسان قوم نوح عليه السلام بقوله : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاؤُنَا بِادِّىَ الرَّأْيِ...﴾ [سورة هود: ٢٧] فقد عاب هؤلاء الطغاة على نبيهم نوح عليه السلام ما عاب به طغاة قريش على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لأن نظرة المتكبرين واحدة ومشربهم واحد كذلك .

مكانة الفقراء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنويه بهم :

لذلك كان هؤلاء الضعفاء أهل المكانة العليا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دل على ذلك تنويهه العظيم بفضلهم ومكاناتهم فيما ثبت عنه فى أحاديث كثيرة منها :

١ - عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنظر أرفع رجل فى المسجد" قال : فنظرت فإذا رجل عليه حُلَّةٌ ، قلت : هذا ، قال : قال لى : "أنظر أوضع رجل فى المسجد" قال : فنظرت فإذا رجل عليه أخلاقٌ - أي : ثياب خلقه وهى البالية - قال : قلت : هذا ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لهذا عند الله أخير يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا" (٢) .

٢ - وعن ابن عباس رضى الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، وأطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء" (٣) .

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ١٥٧/٥ قال الهيثمى فى المجمع ٢٦١/١٠ : رواه أحمد بأسانيد ورجاها رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق ، باب فضل الفقر ١١٩/٨ ، ومسلم فى الذكر والدعاء ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء برقم ٢٧٣٧ .

٣ - وعن حارثة بن وهب (١) رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كلُّ ضعيف مُتَضَاعَف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كلُّ عَتَلٍ جَوَّازٍ (٢) مستكبرٍ" (٣) .

٤ - وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : احتجَّت الجنة والنار، فقالت النار : فيَّ الجَبَّارون والمتكبرون، وقالت الجنة فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما إِنَّك الجنة أرحم بك من أشياء، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشياء، وكلَيْكما عليَّ ملؤها (٤) .

٥ - وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "قمت على باب الجنة فإذا عامَّةٌ من دخلها المساكين، وأصحاب الجَد - الحظ و الغنى - محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، قال : وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء" (٥) .

٦ - وعن مصعب بن سعد (٦) رحمه الله قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له

(١) الخزاعي، وأمه أم كلثوم بنت جرول زوج سيدنا عمر رضى الله عنه، وأم عبيد الله بن عمر، له رواية في الصحيحين وغيرهما .

(٢) العتل : هو الجاني الغليظ الذي لا يتفاد للخير، الجَوَّاز : هو الجموع المنوع، وقيل : كثير اللحم المختال في مشيته. النهاية ٣١٦/١، وتفسير غريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ١٦٠ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب الكبر ٢٤/٨، ومسلم في صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارون.. برقم ٢٨٥٣ .

(٤) أخرجه مسلم في صفة الجنة، الباب السابق برقم ٢٨٤٧ .

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار ١٤١/٨، ومسلم في الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء برقم ٢٧٣٦ .

(٦) ابن أبي وقاص رضى الله عنه، روى عن أبيه وعن جماعة من الصحابة، وهو ثقة من الثالثة توفي سنة ١٠٣ هـ، التقريب رقم ٦٦٨٩ .

فضلا على من دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفاءكم" (١) .

فتأمل هذا التنويه العظيم بهؤلاء الضعفاء في نظر البشر، تجد أنهم أهل الرفعة الرفيعة، والمكانة العاليه عند الله ورسوله، في الدنيا والآخرة .

وفي هذا التنويه مايجب إعادة النظر السطحي القائم على مبدء المادّة ومتاع الدنيا في شأن هؤلاء القوم، حتى يتبوؤا المكانة اللائقة بهم كما هي عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو الحال الذي كان عليه الصلاة والسلام ينهجه معهم في حياته، بسلوكه بنفسه كما كان ينهجه بحاله وقوله .

إحسانه صلى الله عليه وسلم للفقراء والمساكين بنفسه:

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأب الحاني، والمعلم المربي، والمعيل الكافي لهذه الطائفة من المؤمنين، حيث كان يأوي إليه جم غفير من فقراء المهاجرين يسمّون بأهل "الصفة" (٢) الذين قال عنهم أبو هريرة رضي الله عنه: "وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد فكان صلى الله عليه وسلم إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هديّة أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها" (٣) .

وكان صلى الله عليه وسلم يكفيهم بنفسه أو يأمر من يستطيع ذلك من أصحابه رضي الله عنهم كما قال زعيم أهل الصفة أبو هريرة رضي الله عنه: "كنت من أهل الصفة وكنا إذا أمسينا حضرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر كل رجل فينصرف برجل أو أكثر، فيبقى من بقي عشرة أو أقل أو أكثر، فيأتي النبي صلى الله

(١) متفق عليه تقدم تخريجه في الرحمة ص ٦١٩ .

(٢) نسبة لصفة المسجد وهي الموضع المظلل، بنيت في المسجد لضعفاء المسلمين. النهاية ٣/٣٧، وفتح الباري

٧٠/٢٤ .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ١٢٠/٨ .

عليه وسلم بعشائه فنتعشى معه، فإذا فرغنا قال : ناموا في المسجد" (١) .

وقال ذات يوم لأصحابه رضوان الله عليهم: "من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس أو كما قال: وأن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق النبي صلى الله عليه وسلم بعشرة..." (٢) .

وعن معاوية بن الحكم السلمي (٣) رضى الله عنه قال: بتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصفة فجعل يوجه الرجل من المهاجرين مع الرجل من الأنصار والرجلين والثلاثة حتى بقيت في أربعة ورسول الله خامسنا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انطلقوا بنا" فلما جئنا قال: "يا عائشة عشنا" فجاءت بجشيشة (٤) فأكلنا، ثم قال: "يا عائشة أطعمينا" فجاءت بجيصة (٥) فأكلنا، ثم قال: "يا عائشة اسقينا" فجاءت بجريعة من لبن فشربنا ثم قال: "يا عائشة اسقينا" فجاءت بعس من ماء فشربنا ثم قال: "من شاء منكم أن ينطلق إلى المسجد فلينطلق ومن شاء منكم بات هنا.." الحديث (٦) .

فانظر كيف كان صلوات الله وسلامه عليه يهتم بهم ويسد حاجتهم بنفسه أو بعنايته حيث يأمر أصحابه إذا لم يكن حاله يسعفه بذلك، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يشاركهم اللأواء، إذ كان يأتي على بيته ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في

(١) عزاه الحافظ في الفتح ٦٩/٢٤ إلى ابن سعد، وشرط الحافظ في ذكر الأحاديث في الفتح أن لا تقل عن درجة الحسن كما في مقدمة هدى الساري ص ٤ .

(٢) أخرجه البخاري في علامات النبوة ٢٣٦/٤ من حديث محمد بن أبي بكر رضى الله عنهما .

(٣) شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم الخندق، وروى عنه، وسكن المدينة، وهو صاحب القصة في تسميت العاطس وهو في الصلاة، انظر أسد الغابة ٣٨٤/٤، وتهذيب الأسماء ١٠٢/٢ .

(٤) قال في النهاية ٢٧٣/١: هي أن تطحن الخنطة طحنا جليلا، ثم يجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ، وقد يقال لها: دتشيصة .

(٥) هو الطعام المتخذ من التمر والأقط والسنن، اهـ النهاية ٤٦٧/١ .

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٣/٢، وذكره معزوا إليه الحافظ في الفتح ٦٩/٢٤ وله شاهد عند أي داود في الأدب برقم ٥٠٤٠، وابن حبان في صحيحه ٤٣٠/٧ من حديث يعيث بن طخفة عن أبيه .

آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، وإنما كان غالب قوتهم التمر والماء، كما تقدم لك في مبحث زهده عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فقد كان إذا وجد شيئاً لم يستأثر به دونهم، كما دل على ذلك قصة أبي هريرة رضي الله عنه في إحدى جوعاته إذ قال فيها: "آله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسّم حين رأيته، وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال: أبا هر، قلت لبيك يا رسول الله، قال: الحق، ومضى فتبعته، فدخل فاستأذن فأذن لي، فدخل فوجد لنا في قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا أهده لك فلان، أو فلانة، قال: أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: إلق إلى أهل الصفة فادعهم لي..." إلى آخر ما تقدم ذكره في الضيافة (١).

فأعد النظر إليه، وتدبر ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الخلق العظيم في الأيثار، حيث لم يؤثر بذلك الموجود نفسه، ولا أبا هريرة وحده، بل أشرك فيه سائر أهل الصفة الفقراء، فلما روي جميعاً من ذلك اللبن القليل الذي أظهر الله فيه معجزة كبرى لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، لم يشرب حتى شرب ضيفه، أبو هريرة الذي بلغ به الجوع مبلغه، ثم لم يلبث أن شبع بحيث لم يجد له مسلماً.

وكم لهذه القصة من نظائر في تكريم أصحابه الفقراء وغيرهم ممن عمّتهم الحاجة كما في قصة طعام جابر بن عبد الله رضي الله عنه في غزوة الخندق (٢)، وقصة طعام

(١) ص ٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، بساب غزوة الخندق، وفي الجهاد، باب من تكلم بالفارسية، ومسلم في

الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك برقم ٢٠٣٩.

أبى طلحة رضى الله عنه (١)، وكما فى حديث عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى قصة طعام الثلاثين والمائة (٢)، وغير ذلك مما يعلم من مباحث معجزاته صلى الله عليه وسلم المدونة فى كتب الحديث والشئائل والسير...

فهذا جانب من إكرامه صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الضعفاء .

والجانب الآخر تمثل فى حثه صلى الله عليه وسلم أمته على الأحسان إليهم وسد خللتهم التى لها أبلغ الأثر فى نفوس المؤمنين فى القيام بحقوق هذه الطائفة المباركة من الأمة الإسلامية .

حثه صلى الله عليه وسلم أمته على الإحسان إلى الفقراء والمساكين :

وحثه صلى الله عليه وسلم لأمرته على ذلك وارد من أحاديث كثيرة إليك بعضا منها:

١ - فعن جرير بن عبد الله البجلي (٣) رضى الله عنه قال: "كنا فى صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه قوم عراة محتايي النمار (٤) أو العباء، متقلدي السيوف عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر (٥) وجه رسول الله صلى الله

١٠٤/٧

٧٩/٧

(١) أخرجه البخاري فى الأطعمة، باب من أكل حتى شبع، وباب من أدخل الضيفان عشرة عشرة، وفى

الأنبياء، باب علامات النبوة فى الإسلام وفى مواضع أخرى، ومسلم فى الأشربة، باب جواز استتباعه غيره

إلى دار من يثق برضاه برقم ٢٠٤٠ .

١٨٩/٧

٤٣/٢

(٢) أخرجه البخاري فى الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، وفى الأطعمة، باب من أكل حتى شبع، ومسلم

فى الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره برقم ٢٠٥٧ .

(٣) الصحابي الجليل قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر وكان طويلا حسنا، كان عمر رضى

الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبات على الخيل والهداية،

وأمره فى سرية لهدم ذي الخلصة، وتوفي رضى الله عنه بقرقيسيا سنة ٥١ هـ، انظر طبقات ابن سعد

٢٢/٦، وتهذيب لأسماء ١٤٧/١، والإصابة مع الاستيعاب ٢٣٢/١ .

(٤) أي: لابسى النمار، والنمار: جمع غمرة، وهي الشملة المخططة، من مآزر الأعراب .

(٥) أي: تغير لونه من الغضب .

عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء: ١] والآية التي في الحشر : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [سورة الحشر: ١٨] تصدق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال : ولو بشقِّ تمره قال : فجاء رجل من الأنصار بَصُرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كُومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تهلل كأنه مُذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء" (١) .

فانظر إلى عظيم أثر قول النبي صلى الله عليه وسلم في نفوس أصحابه حيث بادر الصحابة بالجود بما عندهم لإخوانهم الفقراء حتى سدُّوا حاجتهم، وما كان ذلك سيتحقق لولا ذلك الحث البليغ الذي وجهه صلى الله عليه وسلم، وقد كان كل ذلك في ميزان حسناته صلى الله عليه وسلم لأنه هو الذي دهم على ذلك الخير، ثم في ميزان الصحابي الذي بادر إلى ذلك العطاء .

٢ - ومثل هذا ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : "دخل رجل المسجد فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا ثيابا فطرحوا، فأمر له منها بثوبين، فحث على الصدقة أيضا فجاء فطرح أحد الثوبين فصاح به رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشقِّ تمره أو كلمة طيبة برقم ١٠١٧، والنسائي في

وسلم وقال : "خذ ثوبك" (١) وتأمل عظيم خلق النبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يرض من ذلك الفقير المحتاج صاحب الحس المرهف، الذي لم يكد يسد حاجته، حتى تأثر بحض النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة فبادر إلى التصديق بشطر ما امتلكه من الثياب، لم يرض منه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه يريد أن يغنيه ويسد حاجته فيراه على حال حسنه .

والأحاديث الواردة في حثه صلى الله عليه وسلم أمته على الصدقة للفقراء كثيرة معلومة، وفيما ذكر كفاية، غير أن ذلك كله مع صنف من المساكين وهم الذين كانت عزتهم أعظم من فاقتهم، وعفتهم غالبية لهم على عدم إبداء حاجتهم، ومروءتهم لا تسمح لهم بإراقة ماء وجوههم، وهم الذين قال الله عنهم : ﴿...يَحْسُبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا...﴾ [سورة البقرة: ٢٧٣] .

وأما من كان يقدر على إبداء حاجته، وإظهار رفاقته بالسؤال من النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم شأن آخر معهم، إذ لم يكن يرد سائلاً قط إلا بإعطائه حاجته من عنده إن كان لديه، أو الاقتراض له إن لم يكن لديه شيء، لما جبل عليه من الكرم والإيثار، وامثالاً لتوجيه الله تعالى له حيث يقوله : ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [سورة الضحى: ١٠] فكان كما يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه "ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فقال : لا" (٢) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فإذا لقيه جبريل كان أجود

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب الرجل يخرج من ماله برقم ١٦٧٥، والنسائي في الجمعة، باب حث

الإمام على الصدقة يوم الجمعة في خطبته ١٦/٣، وفي الزكاة، باب إذا تصدق وهو محتاج إليه يرد عليه

٦٣/٥ وإسناده حسن .

(٢) متفق عليه تقدم ذكره في الكرم ص ٦٣٦ .

بالخير من الريح المرسلة (١) كما تقدمت دلائل ذلك بالأمثلة الحية في مبحث كرمه صلى الله عليه وسلم، فارجع البصر إليها وتأمل بالغ إكرامه صلى الله عليه وسلم لسائليه في جميع أحواله جَدَّةً وعدماً، تجد أنه صلى الله عليه وسلم قد بالغ في إعطاء الفقراء والمساكين وغيرهم، بحيث لن ترى إحساناً فوق إحسانه عليه الصلاة والسلام مهما جَوَلْتَ نظرك في كتب الكرام وأخبارهم.

(١) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه أيضاً ص ٦٣٥.

الفصل الثالث

الأخلاق الاجتماعية المادية

وفيه تمهيد وستة مباحث:

- التمهيد: في علاقة المعاملات المادية بالأخلاق .
- المبحث الأول: البيع والشراء .
- المبحث الثاني: القرض والقضاء .
- المبحث الثالث: الرهن .
- المبحث الرابع: الإجارة .
- المبحث الخامس: العارية .
- المبحث السادس: الصلح .

تهديد في بيان علاقة المعاملات المادية بالأخلاق :

إن من أجل وأهم الأمور الاجتماعية التي لا غنى للمرء عنها، إذ لا يكاد يمر عليه زمن دون مزاولتها : هي المعاملات الاجتماعية المادية من بيع وشراء، واقتراض وقضاء، ورهن وإجاره، ونحو ذلك مما يجرى التعامل به بين الناس، ولا تخلو حياة أحد منهم عنها؛ (لأن الإنسان مدنيٌّ بالطبع كما قالوا) بمعنى أنه لا يمكن له التفرد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر بعضهم إلى بعض في مصالح الدين والدنيا (١).

وأجل المصالح الدنيوية هي هذه المعاملات المادية . فكان بالضرورة والطبع مفتقرا إلى مزاولتها بين الحين والآخر لتستقيم حياته في الدنيا، ويستطيع تأدية الغاية من إيجادها فيها . وبقدر ما هو مضطر إلى تلك المعاملات، يكون مضطرا إلى ما يقوم بها ويجعلها زكاةً نقيّةً تؤتي ثمارها وتحقق السعادة لصاحبها في الدنيا والآخرة، وذلك بتحلي صاحبها بالأخلاق الإسلامية عامة والمتعلقة منها بالمعاملات المادية خاصة .

لأن المرء إن لم يكن متحليا بها فإنه سيغلب عليه حرصه على المال، ونهّمه في جمعه المغروز في طبعه، ثم يكون آخر أمره نكالا عليه في الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُجْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتْكُوىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٤-٣٥] فترى كيف انقلب المال الذي كان يُرجى خيره إلى نكال على صاحبه يعذب به أشد أنواع العذاب لما لم يهذب المرء نفسه بالتهذيب الإسلامي، بل أطلق لنفسه هواها فمنع منه الزكاة وحق السائل والمحروم ضنا به وشحا عليه وحرصا على جمعه وعدم النقص من عدده، وكأنه مقصود بالذات عنده، فأصبح وبالا عليه فالمال إذا كان بهذه المثابة، فهو عدو حقيقي للمرء يورده المهالك كما جاء في الحديث : "من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شذقيه -

انظر
(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٧٤ .

ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ [سورة آل عمران: ١٨٠] (١) .

فلا سبيل إذا لتجنب مخاطر المال وآثاره الوخيمة في الدنيا والآخرة إلا باتباع الشرع المطهر في أحكامه وآدابه، فإنه بذلك ينال المرء مراده منه وينعم به في دنياه وآخرته، ولذلك جاء في الحديث : "نعم المال الصالح للمرء الصالح" (٢)؛ وذلك لأن المرء الصالح يأخذه من حله ويؤدي حقه، ولا يخرج عن نهج نبيه صلى الله عليه وسلم فيه فإن المال في الحقيقة هو وسيلة للسعادة الدنيوية والأخروية كما جاء في الحديث : "ذهب أهل الدُّثور (٣) بالدرجات العلى والنعم المقيم.." الحديث (٤) .

ولكن لا يكون كذلك إلا إذا روعي فيه تعاليم الشرع الحنيف في الأحكام والأخلاق، في الكسب والإنفاق والتعامل بين الناس .

وبما أننا في صدد بيان الأخلاق النبوية على ضوء الكتاب والسنة، فإننا معنيون إذاً ببيان أخلاقه صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب الاجتماعي المهم الذي يعد في الحقيقة معيار ديانة المرء وزكاء أخلاقه، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمن أراد أن يزكي رجلاً عنده بالعدالة، فقال له عمر : "هو جارك الأدنى تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه؟ قال : لا، قال فعاملك بالدرهم والدينار الذي يستدل بهما على الورع؟ قال : لا، قال فصاحبك في السفر الذي يُستدلُّ به على مكارم الأخلاق؟ قال : لا، قال :

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه ص ٢٨٨

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٩٧/٤ من حديث عمرو بن العاص، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٦٧/٤ إليه وإلى أبي يعلى، قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه أيضاً الألباني في غاية المرام ص ٢٦٢ رقم

(٣) جمع دثر: وهو المال الكثير .

(٤) متفق عليه وتقدم تخريجه ص ٣٨٢ .

فلست تعرفه، ثم قال للرجل: ائتنى بمن يعرفك" (١) .

فهكذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم ينظرون إلى أن المال معيار التدين، فمن حافظ على آداب الاسلام فيه كان ذلك دليلاً على ملاك دينه المتمثل في الورع .
وإننا في زمن لا يكاد أهله يعرفون للمعاملات المادية أخلاقاً ولا آداباً، فتراهم ينشدون الكسب والجمع من حيث كان، ويرون أن الغش ذكاءً، والمخادعة خيرة، إذا حققا لهم كسباً أو رواجاً .

مع أن القرآن الكريم مليء بأدب المعاملات المادية وأخلاقها، وتمثلت في سلوك النبي صلى الله عليه وسلم بأوضح صوره وأكمل بيان، ولكن واقع المسلمين يؤسف فهو على غير الحال الذي يجب أن يكون^{من} الاهتداء بالقرآن والسنة، لسبب التنافس على الدنيا ولو كان في ذلك خراب للدين، لهذا كان هذا الفصل من أهم فصول الرسالة وبنا لله التوفيق .

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٢٥، وصححه الألباني في الإرواء برقم ٢٦٣٧، ٨/٢٦٠ .

المبحث الأول

(البيع والشراء)

البيع لغة: مقابلة شيء بشيء، يقال: باع الشيء يبيعه يبيعا ومبيعا: أعطاه إياه فهو بائع، وباعه أيضا: اشتراه، فهو من الأضداد، يطلق على كل واحد من المتابعين أنه بائع، ومنه: "ولا يبع أحدكم على بيع أخيه" (١) أي: لا يشتري على شراء أخيه، وإنما وقع النهي على المشتري لا على البائع، ولكن إذا أطلق البائع فالمتبادر إلى الذهن أنه باذل السلعة (٢). ومنه المبايعة والتبايع التي تجرى مع السلطان والمسمى بالبيعة، وهي عبارة عن المعاهدة والمعاهدة، التي تجرى بينهما المتضمنة لبذل الطاعة له بما رضى له، فكأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره (٣).

والبيع فى الشرع يعنى "عقد معاوضة مالية تفيد ملك عين أو منفعة على التأيد" (٤)

مكانة البيع والشراء فى المعاملات المادية وعناية القرآن الكريم به :

والبيع والشراء، من المعاملات المادية الاجتماعية التى يفتقر متعاطوها إلى التهذيب والتأديب، حتى يكون التعامل المادي قائما على الأخلاق الإسلامية الفاضلة الكفيلة بالسعادة الأبدية للمتعاملين، والربح المادى والمعنوى فى الحياة الدنيا، ولهذا كان محل عناية القرآن الكريم من حيث تشريع أحكامه والإشارة إلى آدابه، وعناية السنة المطهرة من حيث بيان تلك الأحكام، وإضفاء الصبغة الخلقية عليها، من صدق، وأمانة ووفاء، وقناعة، وإيثار، ورغبة فيما عند الله من الأجر، ورهبة مما لديه من العذاب... إلى غير ذلك مما يزرع الضمير إلى حسن التعامل مع الآخرين، كما سينجلي كل ذلك

(١) هذا جزء من حديث سياتي ذكره وتخرجه ص ٩٠٤.

(٢) المصباح المنير ٧٧/١، ومختار الصحاح ص ٧١، والقاموس الفقهي لسعدي أبو حبيب ص ٤٤.

(٣) المفردات للراغب ص ٦٧، وتاج العروس ٢٨٥/٥.

(٤) الياقوت النفيس فى مذهب الإمام ابن إدريس للشاطري ص ٧٤.

إن شاء الله تعالى في مباحث المعاملة الآتية بيانها ، ولنبدأ الآن في ما الحديث بصدده من مبحث البيع والشراء فأقول:

عناية القرآن الكريم ببيان أحكام البيع والشراء وأخلاقه:

شرع الله تعالى البيع لعبادة لكثرة الحاجة إليه بين العباد حيث لا يستغنى عن تعاطيه أحد مطلقاً، ولا تقوم حياته إلا بالبيع والشراء ، لأن الإنسان مدني بالطبع ، أي: لا يمكن له التفرد عن الجماعة بعيثه، بل يفتقر بعضهم إلى بعض في مصالح الدين والدنيا، لذلك فقد أحل الله لعباده البيع كما تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة (١) وهو معلوم من الدين بالضرورة، وحرم عليهم ما يضر بمصالحهم المادية التي بها قوام حياتهم، من ربا، وغش، وخداع، وغصب ، وسرقة، وخيانة، واحتكار، ونحو ذلك مما يعلم من مظانه في كتب الفقه، أو مما ستأتى الإشارة إليه.

ومن نصوص الكتاب العزيز في ذلك قول الله تعالى: ﴿... وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥] وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...﴾ [سورة النساء: ٢٩] .

فإن الآية الأولى أباحت كل بيع معهود لدى من خوطبوا بالتنزيل، إلا ما خصه دليل آخر بالتحريم كالربا وغير ذلك مما نهى عنه ومنع العقد عليه كالخمر والميتة وحبل الحبلة (٢) .. وغير ذلك مما ثبت^{النهي} عنه في السنة وإجماع الأمة، فالإباحة المذكورة من قبيل العام المخصوص (٣) .

والآية الثانية، استثنت من عموم النهي عن أكل الأموال بالباطل - الذي هو اسم جامع لكل ما لا يحل في الشرع كالربا والغصب والسرقة والخيانة وكل محروم ورد

انظر مشيخ
(١) المجموع المذهب للإمام النووي ١٤٨/٩ .

(٢) هو بيع ما في بطون النوق ونحوها، وعلة النهي الفرر الحاصل من تلك الصفقة، انظر المصباح المنير ١٢٩/١

(٣) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٥٦/٣ .

الشرع به - (١) استثنت الأكل عن طريق التجارة التي تعنى المعاوضة، وذلك هو البيع والشراء وهو استثناء منقطع، لكون المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، فذلك باطل وهذا حق والمعنى: (لكم أكلها بتجارة عن تراض منكم، والتعبير بالأكل مجاز عن الانتفاع بالشيء انتفاعاً تاماً) (٢).

وفى كلا الآيتين إشارة إلى تقويم الخلق الحميد فى المعاملات المادية، فإن الآية الأولى لم تنص على حل البيع ومشروعيته، حتى أتت على ذكر الربا (٣)، وأكليه بأسلوب الذم والتهديد بالمصير الأليم، لينكفوا عنه، ويأخذوا ما هو الأفضل والأرفق بالمعاملين وهو البيع بغير وكس ولا شطط؛ لأن الربا لا يريد إلا جشع النفس هلوع على المال، لا يرمى الحاجة التى يمر بها أخوه، ولا التراحم التى تقتضيها الأخوة الإسلامية والإنسانية، فكان من الأنسب أن يقدم التنفير من تعاطى الربا، جرياً على الأسلوب العربى المعروف فى تقديم التخلية على التحلية.

فلما ترسخ فى أنفس السامعين خطر تعاطى الربا جاء النهى الصريح عن تعاطيه، والوعيد الجازم بسوء مصير مقترفه، كل ذلك فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥-٢٧٩].

(١) المجموع فى شرح المذهب ١٤٥/٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٥.

(٣) الربا فى اللغة: الزيادة، وفى الشرع: عقد على عوض غير معلوم التماثل فى معيار الشرع حالة العقد أو مع

تأخير فى البدلين أو أحدهما، الياقوت النفيس ص ٧٩.

فتأمل هول التهديد الشديد والوعيد الأكيد المترتب على تعاطي الربا، تجد مبلغ العناية الإلهية في تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق، لأن الربا ظلم لا يتعاطاه إلا الذين فقدوا القيم الأخلاقية النبيلة، وتحلّوا برذائلها قد فعهم الجشع والهلع والأثره إلى تعاطيه ومزاولته فأذنهم الله سبحانه بمحاربته ومحاربة رسوله، ومعلوم أن من حاربه الله ورسوله لا يفلح أبداً، إذ من ذا الذي يقدر على محاربة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ فلا شك أن من حاربه الله قصمه "وفى ذلك إيماء إلى سوء خاتمة متعاطي الربا إن دام عليه" (١) ولم يتب إلى الله من قريب، وفى هذا الإنذار والوعيد ما يوجب الانكفاف عن تعاطيه (لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) فيتجرد من مساوئ الأخلاق إلى محاسنها بأخذه رأس ماله غير ظالم ولا مظلوم.

أما الآية الثانية فإنها قد جاءت بمثل ذلك الأسلوب المتقدم فى الآية الأولى؛ حيث إنها لم تنص على إباحة التجارة حتى حرمت جميع أصناف الكسب الذى يحصل من طرق غير مشروعة تنشأ عن فقد الأخلاق، وهي التى سمّاها الله تعالى (بالباطل) حيث قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [سورة النساء: ٢٩] والباطل لغة: هو الذهاب الزائل (٢)، وهو هنا اسم جامع لكل ما لم يبيحه الشرع كما تقدم، من أكل الربا والقمار والرشوة والغصب والسرقه والخيانة وما جرى مجرى ذلك مما كان عليه حال العرب فى الجاهلية الذين لم يكن لهم من مكارم الأخلاق ما يزعمهم عن تعاطي هذه الأمور التى تعد من معالم مساوئ الأخلاق وعناوينها، لأنها إنما تجرى ممن كان منغمساً فى الرذائل الخلقية.

فنهى الله عز وجل . عن كل ذلك بآية النساء هذه، وبآية البقرة حيث قال سبحانه : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٨٨] وفى تكرار النهي عن ذلك دليل على مبلغ

(١) محاسن التأويل ٣/ ٣٧٤ .

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٣٣٩ .

العناية الربانية بتقويم خلق الإنسان، وإضافة على ذلك فقد ذكر من لم ينته عن هذه المساوىء فى معرض الذم والتنفير، حيث قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٣٤] فإن فى ذكره سبحانه لحال هؤلاء بهذا الأسلوب؛ تحذيرا للمؤمنين أن يتشبهوا بهم فى هذه الأخلاق المقيتة، التى جعلت أحبار أهل الكتاب ورهبانهم يصدون عن سبيل الله وهو دين الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأجل أن يستمر لهم أكل أموال الناس بالباطل من أتباعهم، حيث رأوا أنهم لو بينوا لهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم لزالَت رِياستهم عليهم، وذهب عنهم ما يكسبون من السُّحت عن طريقهم، باتِّباع أولئك لدين الحق .

والحامل لهم على ذلك هو الجشع والهلَع على المال وجمعه من حيث أتيح لهم جمعه، وإن كان عن طريق أكل أموال الناس بالباطل، ونقض العهد الذى أخذه الله عليهم من البيان للناس عن صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق ما جاء به والإيمان به حتى يؤمن به أتباعهم والمذكور فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٧] .

ففى بيان حال هؤلاء عِظَةٌ وعبرة لأولى الأبواب عن الشُّح فى الدنيا والجشع فى جمعها، إذ أن ذلك أودى بهم إلى الخسران المبين فى الدنيا والآخرة، ولم ينالوا من الدنيا إلا ما قدر لهم منها، وفى الآخرة عذاب شديد، ولعنة تتبعهم إلى يوم المآب، كل ذلك بسبب سوء أخلاقهم المتمثلة فى الجشع على جمع المال من حلِّه أو من غير حلِّه، وفى هذا غاية البيان والرشاد إلى سلوك مكارم الأخلاق فى مجال التعامل المادى حيث حظرت الآيات الكريمة جميع وسائل الكسب التى تأتى عن طرق غير أخلاقيه، ثم أباحت ما كان من ذلك عن طريق التجارة القائمة على التراضي كما قال سبحانه : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [سورة النساء: ٢٩] .

وفى ذكر التراضي إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه تعامل المتبايعين من سماحة

النفس بما قد يحصل فى الكيل أو الوزن أو المساحة من زيادة أو نقص قليلين، ومن قناعة بالثمن والمثمن وبذل ذلك كله بطيب نفس منهما، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق المعلومة فى مجال التعامل المادى الاجتماعى، مما توحى به كلمة (تراض) الذى هو أمر قلبى لا يطلع عليه إلا الله تعالى ثم الشخص نفسه، وقيدت الآية التعامل به ليحرص كل منهما على سماحة خلقه بالعقد حتى يصح البيع "ومن هنا أخذ الشافعى رحمه الله اعتبار الإيجاب والقبول لفظاً، لأن الرضا^{أمر} قلبى فلا بد من دليل عليه" (١) ولغيره أن يستدل بالآية على عدم اشتراطه إذا حصل ما يدل عليه بالأفعال كالحيازة ونحوها مما يجرى فى بيع المعاطاة، فإن الأفعال تدل عليه فى بعض الأحيان قطعاً (٢) .

(١) الإكليل فى استنباط التنزيل ص ٧١ .

(٢) انظر محاسن التأويل ١١٥/٥ .

تمثل أخلاق

البيع والشراء في النبي صلى الله عليه وسلم

ذلك هو هدي القرآن الكريم في تشريع البيع، وتلك هي آدابه الإجمالية المستنبطة من آيات التشريع، أما هدي النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فهو الهدي المبين لما أجمل في القرآن من التشريع والآداب، بالسلوك الفعلي والقولي .

فقد عامل صلى الله عليه وسلم بالبيع والشراء منذ حداثة سنه، فكانت متاجرته دالة على عظيم خلقه وكريم معاملته، وذلك حينما تاجر لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها قبل النبوة، حيث سافر إلى الشام مع غلام لها يُسمى "ميسرة" فربح أضعاف ماربح الناس، فلما رجع من الشام، أخبرها ميسرة بما رآه من كرامته صلى الله عليه وسلم وصدقه وأمانته، وما أخبر به الراهب (١)، وما رآه من تظليل الغمامة له، وغير ذلك حتى رغبت فيه خديجة رضي الله عنها، فخطبته إلى نفسها كما تقدم (٢) وأضعفت له الأجرة (٣)، وروى أبو داود عن السائب بن السائب رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى

(١) المسمى نسطور، وذلك أن الركب نزل بقرب صومعته فنزل إليهم منها، وكان لا ينزل لأحد، وطاف بهم حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم فعرف فيه علامات النبوة فأكرمه، وأضافهم من أجله، وعرفهم أنه نبي هذه الأمة، وأنه خاتم النبيين وقال له: (احذر على نفسك من كيد اليهود والنصارى، وأوصى ميسرة به، فقبل له: كيف عرفت أنه نبي؟ فقال: إنكم لما أقبلتم لم يبق شجر ولا حجر إلا سجد إلى جهتكم) انظر خبره في سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٢١٢/١، والوفاء بأحوال المصطفى ١٤٣/١، ودلائل النبوة للبيهقي ٣٠٧/١-٣١٢، وحقائق الأنوار لابن الديبع ١٢٠/١، والسيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري ١١٢/١ .

(٢) ص ٧٠٠ .

(٣) انظر حقائق الأنوار لابن الديبع ١٢٠/١، ١٥٣ .

الله عليه وسلم فجعلوا يثنون علي ويذكرونني، فقال صلى الله عليه وسلم: "أنا أعلمكم" يعنى به ، فقال السائب: قد صدقت بأبى أنت وأمى كنت شريكى فنعمة الشريك كنت لاتدارى ولا تمارى" (١): "يريد لاتحالف ولا تمنع، فيصف النبي صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق والسهولة فى المعاملة" (٢) .

ومن هنا قال أبو زهرة (٢): "وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان شريكا للسائب بن أبى السائب واستراح إلى شركته؛ ورأى فيه ما يمازج أخلاقه وإن لم يسم إليها، ولكنه على أى حال رأى الشريك الأمين السمع فى معاملته فكان لا يمارى، أى: لا يجادل فى الشراء، ولا يخفى الخبيث من البضائع ويظهر الطيب مما رآه فى تجارته" قال: ولم يذكر فى التاريخ ما كان يتجر فيه ، لأن كتاب السيرة لا يعنون فى حياة النبي بحياته الإنسانية، بمقدار عنايتهم فيما يتعلق بالرسالة وإرهاصات النبوة، وخوارق العادة

(١) أبو داود فى الأدب، باب كراهية المراء برقم ٤٨٢٦، وأحمد فى المسند ٤٢٥/٣، وأبو إسحاق الحربى فى إكرام الضيف برقم ٤٩، وابن ماجه فى التجارات، باب الشركة والمضاربة برقم ٢٢٨٧، وابن الجوزى فى الوفاء ١/١٤٢ . وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود برقم

قال المنذرى فى مختصر سنن أبى داود ١٨٨/٧: والسائب هذا قد ذكر بعضهم أنه قتل كافرا يوم بدر، قتله الزبير بن العوام، وذكر بعضهم أنه أسلم وحسن إسلامه، قال: وهذا هو المعول عليه، وقد ذكره غير واحد من الأئمة فى كتب الصحابة، قال: وهذا الحديث قد اختلف فى إسناده اختلافا كثيرا، وذكر أبو عمر بن عبد البر النمري: أن هذا الحديث مضطرب جدا، منهم من يجعله للسائب بن أبى السائب، ومنهم من يجعله لأبيه، ومنهم من يجعله لقيس بن أبى السائب، ومنهم من يجعله لعبد الله بن عبد الله بن السائب، وهذا اضطراب لا تقوم به حجة، قال: والسائب بن أبى السائب من المؤلفات لقلبهم، وانظر الاستيعاب بهامش الإصابة ١٠٠/٢، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٢٥٤/٢ .

(٢) معالم السنن للخطابى مع المختصر للمنذرى ١٨٨/٧ .

(٣) هو الشيخ محمد أحمد أبو زهرة من كبار العلماء فى العصر الأخير فى الفقه والأصول والتاريخ، وله نحو أربعين مؤلفا، وتوفى بالقاهرة سنة ١٣٩٤ هـ، انظر الأعلام ٢٥/٦، ومقدمة كتابه خاتم النبیین .

الصادقة التي أحاطت بحياته في حَلِّه وترحاله... (١) هكذا كانت معاملته صلى الله عليه وسلم المادية قبل بعثته، قائمة على الصدق والأمانة والسهولة، أما بعدها فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعد يزاول التجارة لانشغاله بما كلفه الله تعالى به من تبليغ الرسالة والدعوة والجهاد التي لا تبقى له وقتا يمكن قضاؤه في تجارة أو زراعة أو نحوها، غير أن ضرورة الحياة، قد كانت تُحوجه أحيانا إلى تعاطي بعض المعاملات الخاصة من بيع أو شراء أو اقتراض أو رهن أو استعارة أو نحو ذلك مما سيأتى بيانه، وقد كانت تلك الوقائع تدل على عظيم خلقه في معاملات الناس بأموالهم، وحسن تصرفه في معاملاته ومساومته، ومن ذلك :

١ - ما أخرجه البخارى تعليقا وغيره مسندا من مكاتبة النبي صلى الله عليه وسلم للعداء بن خالد (٢) جاء فيها : "هذا ما اشترى محمد رسول الله من العداء بن خالد، بيع المسلم المسلم ، لا داء ولا خبيثة ولا غائلة" (٣) .

(١) خاتم النبیین ١/١٧٩ .

(٢) ابن هوزة، أسلم بعد الفتح وحنين، وهو من أعراب البصرة، وعاش إلى زمن خروج يزيد بن المهلب، انظر

أسد الغابة ٣/٣٨٨، والإصابة ٢/٤٦٦ .

(٣) في البيوع، باب إذا بينَّ البيعان ولم يكتما ونصحا ٣/٧٦ بصيغة التمريض، قال الحافظ في الفتح: ١٥٨/٩ :

وقد وصل الحديث الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن الجارود وابن مندة كلهم من طريق عبد المجيد بن

أبي زيد عن العداء بن خالد، فاتفقوا على أن البائع النبي صلى الله عليه وسلم، والمشتري العداء عكس ما

هنا، ثم أجاب عما وقع هنا فقال: فقيل: إن الذي وقع هنا مقلوب، وقيل: هو صواب وهو من الرواية

بالمعنى؛ لأن اشترى وباع بمعنى واحد، ولزم من ذلك تقديم اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم على

اسم العداء، لكن قال في تعليق التعليق ٣/٢٢١: إنه تأويل متكلف .

ونص المكاتبة كما جاءت في رواية الترمذي ٢/٥١١ وغيره هي: (هذا ما اشترى العداء بن خالد بن

هوزة، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، اشترى منه عبدا، أو قال: أمة، لا داء ولا غائلة ولا

=

خبيثة، بيع المسلم المسلم) وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

والخبثية الحرام، والغائلة السرقة، أراد أنه ملك اليمين غير مسروق .

٢ - ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله، فقال: "أما فى بيتك شىء؟" قال : بلى، جلس (١) نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال ائتنى بهما قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : "من يشتري هذين؟" قال رجل: أنا أخذهما بدرهم، قال "من يزيد على درهم؟" مرتين أو ثلاثا، قال رجل : أنا أخذهما بدرهمين" فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى، وقال: "اشتر بأحدهما طعاما، فانبذه إلى أهلک، واشتر بالآخر قدوما فائتنى به" فأتاه به فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عودا بيده ثم قال: "اذهب فاحتطب وبع ولا أرینک خمسة عشر يوما" فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاءه وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وبيع بعضها طعاما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة : لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مضجع، أو لذى دم موجع" (٢) .

= وأخرجه ابن ماجه فى التجارات، باب شراء الرقيق برقم ٢٢٢٥ .

والداء: هو المرض والعاهة ، والخبثية: نوع من أنواع الخبث أراد به الحرام، والغائلة: الخصلة التى تغول

المال أى: تهلكه من إباق وغيره، ا.هـ جامع الأصول لابن الأثير ٤٩٦/١ .

(١) المجلس: كساء رقيق يكون تحت بردة البعير، والقعب: إناء كبير. انظر المصباح المنير ١/١٥٨، ٢/١٦٩.

(٢) أخرجه أبو داود فى الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة برقم ١٦٤١، والترمذي فى البيوع مختصرا، باب ما

جاء فى بيع من يزيد برقم ١٢١٨، والنسائي فى البيوع مختصرا على (باع من يزيد)، وابن ماجه فى

التجارة ٢/٧٤٠ برقم ٢١٩٨، وقال عنه الترمذي: حسن لا يعزف إلا من حديث الأنخضر بن عجلان،

قلت: وهو صدوق كما فى التقريب رقم ٢٩١، وانظر عون المعبود ٥/٥٥ برقم ٢١٩٨، وضعفه الألباني

فى الإرواء ٥/١٣٠ لحال أحد رواته وهو أبو بكر الحنفى كما أعله به الذهبى والعسقلاني وابن القطان .

فانظر إلى مبلغ حكمته صلى الله عليه وسلم في إعفاف الرجل من حر ماله، بحيث لا يكون لأحد عليه منه فقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم منزلته الجليله وخبرته في البيع، فباع متاع الرجل بالمزاد العلني الذي لا يجري به غبن على البائع ولا حيف على المشتري، وإنما بالقدر الذي تستحقه السلعة المعروضة بالفعل، إذا لم يبذل ثمنها الحقيقي من الراغب الأول، فلما استقر الثمن الحقيقي لها باعها منه، ووجه الرجل إلى الكسب الذي يعف نفسه وأهل بيته، فحصل للرجل مراده من الكفاف، وللنبي صلى الله عليه وسلم مراده من الإعفاف، كل ذلك بفضل بيعه الميمون.

٣ - ومثل هذه الصورة مارواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رجلاً أعتق غلاماً له عن دبر (١)، فاحتاج فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "من يشتريه مني؟ فاشتراه نعيم بن عبد الله بكذا وكذا، فدفعه إليه" (٢).

وإنما فعل النبي ذلك لما رأى حاجة الرجل إلى الثمن فإنه كان ^{قد} أفلس كما في بعض روايات الخبر، فلم يكن ليقرّه على الإحسان وهو في أمس الحاجة إلى شيء من المال، ليفك رقبتة من الدين الواجب عليه أداؤه في الدنيا وإلا ظل مرتهاً به في الآخرة حتى يقضي ثمنه، أو يأخذ من حسناته فيعطى لصاحب الحق بقدر حقه كما جاء في الحديث. والنبي صلى الله عليه وسلم لا يرضى له بذلك وهو يقدر على تخليصه من الإفلاس وحقوق الناس لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العدل والرحمة وإيثار الحق.

٤ - ومن صور تعامله صلى الله عليه وسلم في البيع لمثل هذه الأغراض من إقامة الحق والعدل ما رواه الواقدي (٣) عن يزيد بن رومان رحمه الله قال: بينا رسول الله

(١) أي: علق عتقه إلى بعد موته.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب بيع المزادة ٩١/٣.

(٣) هو محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي توفي سنة ٢٠٧ هـ، وهو ضعيف عند الحديثين بل مزك =

صلى الله عليه وسلم جالسا في المسجد مع رجل من أصحابه، فأقبل رجل من زبيد يقول : يا معشر قريش : كيف تدخل عليكم المادة، أو يجلب إليكم جلب، أو يحل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم؟ يقف على الخلق حلقة حلقة، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ظلمك؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خير إليه، فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يسمه بها لأجله سائم، فأكسد عليّ سلعتي وظلمني، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وأين أجمالك؟" قال : هي هذه بالـ"الحزورة" (١) فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه أصحابه فنظر إلى الأجمال فرأى أجمالا فرها (٢)، فساوم الزبيدي حتى ألحقه برضاه، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بغير ابتاعه وأعطى ثمنه أرامل بنى عبدالمطلب، وأبو جهل جالس في ناحية من السوق لا يتكلم، ثم أقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أبا عمرو إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابي فترى ماتكره" فجعل أبو جهل يقول : لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) .

فانظر إلى معاملته صلى الله عليه وسلم وإنصافه أرباب الأموال مثل هذا الرجل الذي كاد أن يضام في ماله أو يكسد فيرجع بلا بيع، لولا معاملة العادل الرحيم صلى الله عليه وسلم له بشرائه منه، حيث أخذ الأجمال بقيمتها المرضية لدى صاحبها، ثم

= مع سعة علمه، غير أن ما يرويه في المغازي والسير إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فإنه مقبول، كما أفاد الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/٢٩١، وانظر السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٦١/٨ .

(١) اسم موضع بمكة عند باب الخناطين سابقا المعروف الآن بالمدعى .

(٢) أي: نشيطة حادة قوية كما في النهاية ٤٤١/٣ .

(٣) انظر كتاب محمد رسول الله للصادق عرجون ١/٣٢٦ .

أفاء الله عليه ببركة عدله وصدقه في معاملته أن أربحه الثمن المدفوع من جملين، فكان من شكر الله تعالى على نبيه أن تصدق بثمان الجمل الثالث على قرابته لتكون له صدقة وصلة وبر بالأرامل المعوزات اللاتي طالما كان يحث على الإحسان إليهن كما تقدم بيانه (١).

٥ - ولقد كان من تعامله صلى الله عليه وسلم إعطاء أصحاب السلع الثمن الذي يرضونه ثم يتفضل عليهم بالمزيد كما جاء من حديث سويد بن قيس (٢) رضى الله عنه قال : جلبت أنا ومخرقة العبدى بزاً (٣) من هجر، قال : فأتينا به مكة، فجاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فساومنا سراويل (٤)، فبعنا منه فوزن ثمنه، وقال للذى يزن : "زن وأرجح" (٥).

٦ - وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : "بعت النبي صلى الله عليه وسلم بعيراً فى سفر فلما أتينا المدينة قال: "أئت المسجد فصل ركعتين" قال : فوزن لى فأرجح، قال : فما زال منها شيء، حتى أصابها أهل الشام يوم الحرّة" (٦).

(١) فى مبحث معاملة الأرامل والمساكين ص ٨٥٥

(٢) العبدى أبو مرحب، له ولمخرقة العبدى المذكور ذكر فى كتب الصحابة مع إيراد هذا الحديث فقط، انظر الاستيعاب بهامش الإصابة ١١٤/٢، ٥٢٨/٣، وأسد الغابة ٣٨٠/٢، ٣٣٦/٤، والإصابة ١٠٠/٢، ٣٩٠/٣.

(٣) أي: قماشاً وثياباً.

(٤) أي: بايعنا ليشترى منا سراويل، وسراويل أسم أعجمي لنوع من الثياب معروف وهو مفرد، وجمعه سراويلات.

(٥) أخرجه أبو داود فى البيع، باب فى الرجحان فى الوزن بالأجر برقم ٣٣٣٦، والترمذى فى البيوع، باب ما جاء فى الرجحان فى الوزن برقم ١٣٠٥، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائى فى البيوع، باب الرجحان فى الوزن ٢٨٤/٧.

(٦) أخرجه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه منها فى الهبة، باب الهبة المقبوضة وغير المقبوضة ٢١١/٣، ومسلم فى المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه برقم ١٦٠٠.

ومن هذه الأحاديث استبان لك ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من كمال الأخلاق في المعاملات المادية حيث كانت معاملاته فيها قائمة على مبدأ العدل إن عامل غيره، وعلى الفضل إن عامل لنفسه، وفي معاملاته هذه نبراس هداية للمتعاملين يجب عليهم أن يهتدوا بها في بيعهم وشرائهم، فقد كان لهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة إن كانوا يرجون الله واليوم الآخر، وذلك فضلا عن هديه صلى الله عليه وسلم بالقول؛ حثا وإرشادا وترغيبا على مكارم الأخلاق في المعاملة من الصدق والأمانة وعدم الغش والكتمان.

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على التحلي بمكارم الأخلاق في التعامل المادي:

أما أقواله صلى الله عليه وسلم الدالة على ما يجب أن يكون عليه التعامل المادي بين الناس، فكثيرة، فقد كان صلى الله عليه وسلم يوجه أصحابه إلى ما يجب أن يكون عليه حالهم في معاملاتهم من صدق وأمانة ونصيحة...، ويبين لهم عظيم فضل ذلك وجزيل ثوابه، ليرغبهم بذلك على التحلي بمكارم الأخلاق في هذا الباب البالغ الأهمية، المفتقر إلى مكارم الأخلاق غاية الافتقار، وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم:

١ - "البَّيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورُكَ لهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا

= ويوم الحرّة: يوم مشهود في الإسلام، وهو اليوم الذي نهب فيها المدينة جيش يزيد بن معاوية القادم من الشام بعد أن ندبهم لقتال أهل المدينة بما فيها من الصحابة والتابعين وذلك في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ، ولما فرغ من وقعته المروعة النكراء بجيران رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيهم أمر عليها مسلم بن عقبة المزني، الذي سامهم سوء العذاب، والحرّة هذه أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة، وكانت الواقعة بها شرقي المدينة. انظر جامع الأصول لابن الأثير ٤٤٤/١.

وكذبا محقت بركة بيعهما" (١) .

وفى هذا الحديث ترغيب بالثواب العاجل الذى يريده التجار، وهو البركة والنماء وحصول النفع المرجو من البيع والشراء، وأن ذلك كامن فى التعامل بالصدق والنصح .
وكما دلهم على الثواب العاجل فقد دلهم أيضا على الثواب الآجل المدخر لهم عند الله إن هم تحلوا بمكارم الأخلاق فى معاملاتهم فصَدَقُوا وبيّنوا ولم يخونوا .

٢ - فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
"التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ" (٢) .

وفى هذا الحديث من الترغيب على الصدق والأمانة فى البيع والشراء ما لا يفرط فيه تاجر عاقل ذو دين .

٣ - وحثهم أيضا على التحلّى بمكارم الأخلاق وذلك بالسَّماحة والسُّهولة فى البيع والشراء وعدم التَّشاح والتَّقاصى فى الحقوق، لما فى ذلك من أخذ الثَّمن والمُثمن عن طيب نفس وقناعة، فيبارك فيهما لكليهما .
فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(١) أخرجه البخاري فى البيوع، باب إذا بَيَّنَّ البيعان ٧٦/٣، ومسلم فى البيوع، باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين برقم ١٥٣٢ من حديث حكيم بن حزام .

(٢) أخرجه الترمذي فى البيوع، باب ما جاء فى التجار برقم ١٠٢٩ وقال عنه: حسن لا نعرفه إلا من حديث الثوري عن أبى حمزة - عبد الله بن جابر - قال: وهو شيخ بصري . اهـ، وأبو حمزة هذا لم يوثقه غير ابن حبان، وهو مقبول كما قال الحافظ فى التقریب برقم ٣٢٢٤، ولكن للحديث شاهد عند ابن ماجه برقم ٢١٣٩، والدارقطني فى البيوع ٦/٣، والحاكم فى المستدرک ٦/٢، من حديث ابن عمر، قال الذهبي فى التلخيص: وفيه كلثوم وضعفه أبو حاتم، قلت: ولكن وثقه البخاري كما فى تهذيب التهذيب ٤٤٢/٨، وقال ابن معين: ليس به بأس، وقد قال الذهبي نفسه فى الميزان ٤١٣/٣ عن هذا الحديث أعني حديث ابن عمر الشاهد لخبر أبى سعيد قال عنه: جيد الإسناد صحيح المعنى، فالحديث إذا لا يقل عن درجة الحسن لغيره إن شاء الله تعالى .

"رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى" (١) .

فهو صلى الله عليه وسلم يدعو لمن أبدى السماحة في معاملاته من بيع وشراء واقتضاء.. فلم يشاحح ولم يشاكس.. ودعاؤه صلى الله عليه وسلم مستجاب لا شك فيه .

٤ - كما ندبهم إلى التَّجاوز عن المعسرين إذا استوجبوا شيئا عليهم، لما في ذلك من دليل على التراحم بين المجتمع المسلم، وقد بين لهم أثر ذلك فيما رواه حذيفة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن قبله من الأمم قال : "إن رجلا كان فيمن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه، فقال : هل عملت من خير؟ قال : ما أعلم، قيل له انظر، قال : ما أعلم شيئا غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا فَأُنْظِرُ الموسر وأتجاوز عن المعسر فأدخله الله الجنة" (٢) .

وفي رواية : "كان رجل يداين الناس، وكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه لعلَّ الله أن يتجاوز عنا فلقى الله فتجاوز عنه" (٣) .

إلى غير ذلك من أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على مكارم الأخلاق في المعاملات بين الناس بالبيع والشراء ونحوهما .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في التحذير عن التخلي عن مكارم الأخلاق في التعامل المادي:

وكما كان صلى الله عليه وسلم يرغب في التحلى بمكارم الأخلاق عند المعاملات المادية من صدق وأمانة وسماحة وإنظار.. فقد كان أيضا يحذرهم من التفريط بذلك وبكل خلق كريم، وذلك ليحملهم على لزوم مكارم الأخلاق رَغْبًا ورهبا وذلك في

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب السهولة والسماحة في البيع والشراء ٧٥/٣، والترمذي في البيوع، باب ما

جاء في استقراض البعير برقم ١٣٢٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٢٠٥/٤، ومسلم في المساقاة، باب فضل إنظار المعسر برقم ١٥٦٠ .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، باب من أنظر معسرا ٧٥/٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أحاديث كثيرة لا يأتي على مثلها الحصر هنا، ولكن نذكر شيئاً منها :

١ - فعن ترك أجل أخلاق التعامل المادى وهو الصدق يروى رافع بن خديج (١) رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ التَّجَارَ يُعِثُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَجَّارًا إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَبَرََّ وَصَدَقَ" (٢) .

وفى هذا الحديث من الترهيب عن سوء الأخلاق فى البيع والشراء ونحوهما من كذب ونحوه، فيه ما يذهل أولى الألباب، لأن الفجار كما قال الله تعالى : ﴿لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [سورة الأنفطار: ١٤-١٦] فإذا كان التجار يحشرون من هذا الصنف ولا ينجيهم منه إلا البر والتقوى والصدق فى المعاملة، فإن ذلك يحتم على المؤمن التحلى بهذه المكارم كى لا يحشر مع الفجار .

٢ - ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن الحلف فى البيع لما فى ذلك من إلحاق ضرر بالمشتري، حيث يحمّله ذلك على الثقة بالبائع، وقد يقع فى الغرر، ولما يؤذن برقة دين البائع أو المشتري حيث يجعل الله تعالى عُرْضَةً لأيمانه من غير إعظام له سبحانه وتنزيه له عن مثل تلك المحقرات، فلذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن الحلف فى البيع وقال : "إِيَّاكُمْ وَالْحَلْفَ فِى الْبَيْعِ فَإِنَّهُ يُنْفَقُ ثُمَّ يُمْحَقُ" (٣) ومعناه أحذركم من ذلك أيماً تحذير

(١) الأوسى الأنصاري، استصغره النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فردّه، وأجازّه يوم أحد، وشهد ما بعدها

من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات سنة ٣٤ هـ، انظر تهذيب الأسماء ٨٧/١،

والاستيعاب مع الإصابة ٤٩٥/١ .

(٢) أخرجه الترمذي فى البيوع، باب ما جاء فى التجار برقم ١٢١٠، وابن ماجه فى التجارات، باب التوقي فى

التجارة برقم ٢١٤٦، وابن حبان كما فى موارد الظمان برقم ١٠٩٥، والحاكم فى المستدرک ٦/٢،

وصححه ووافقه الذهبي وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وله شاهد عند أحمد فى المسند ٤٢٨/٣ من

حديث عبد الرحمن السلمي .

(٣) أخرجه مسلم فى المساقاة، باب النهي عن الحلف والبيع برقم ١٦٠٧، والنسائي فى البيوع ٢٤٦/٧، باب

المنفق سلعته بالخلف الكاذبة من حديث أبي قتادة رضي الله عنه .

وأردف بذكر ما يثمره الحلف من محق البركة كما قال في حديث آخر :
"الحلف مُنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُحَقَّةٌ لِلْكَسْبِ" (١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا المعنى .

٣ - ومن ذلك تحذيره صلى الله عليه وسلم إياهم من الغش في البيع والشراء، لما في ذلك من ضرر يلحق بالمشتري أو البائع، وما يجر إلى ذلك من عداوات وإحسان وبغضاء ، وأكل لأموال الناس بالباطل؛ لذلك كان نهيه صلى الله عليه وسلم وتحذيره عن هذا الأمر شديدا حيث حكم على فاعل ذلك بعدم كونه من جماعة المؤمنين:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ في السُّوقِ على صَبْرَةٍ طَعَامٍ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا ، فقال : "ما هذا يا صاحب الطعام؟" قال: يا رسول الله أصابته السماء، قال : "أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه النَّاسُ؟ من غَشَّنا فليس مِنَّا" (٢) .

فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم يستشعر أمر الأخلاق في هذه المعاملات ، حيث قام يفحص ذلك بنفسه ولم يكتف بما يحدث به من الترهيب والوعيد، فلما ظفر بِخُلُقِيٍّ جعل صاحبه نكالا في المجتمع المسلم حيث حكم على من يفعل ذلك بأنه ليس من جماعة المسلمين، لأنه لا يجبُ لهم ما يجب لنفسه، والمسلمون شأنهم ذلك ، فمن خدعهم فهو ليس منهم وكان صلى الله عليه وسلم قد قال: "لا يحل لامرئٍ مُسلمٍ يبيع سِلْعَةً يعلم أن بها أذى إلا أخبر به" (٣)

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب يحق الله الربى ويربى الصدقات ٧٨/٣، ومسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع برقم ١٦٠٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من غشنا فليس منا" برقم ١٦٤، وأبو داود في الإجارة، باب النهي عن الغش برقم ٣٤٥٢، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع برقم ١٣١٥، وابن ماجه في التجارات، باب النهي عن الغش برقم ٢٢٢٤ .

(٣) أخرجه البخاري تعليقا في البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا ٧٦/٣، وقال الحافظ في =

ولهذا المعنى نهى أصحاب المواشي والأنعام عما قد يجري منهم من غش وخداع فقال صلى الله عليه وسلم: "لَا تُصَرُّوا" (١) الإبل والغنم فمن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، إن شاء أمسك، وإن شاء رد وصاعاً من تمر" (٢) .

٤ - ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن كثير من الأمور المنافية للأخلاق الإسلامية الفاضلة التي قد تجرى عند البيوع، كتلقّي الرُكبان (٣) وبيع حاضر لباد، (٤) وبيع الغرر (٥) ونجش السلع، (٦) وبيع المرء على بيع أخيه، أو السّوم على سوم أخيه (٧) ونحو ذلك مما لا يتورع عنه من هُمة المال وجمعه من حِلِّه أو غير حِلِّه، فقد نهى صلى

= الفتح ١٦٠/٩: وصله أحمد وابن ماجه والحاكم من طريق عبد الرحمن بن شماس عن عقبة مرفوعاً بلفظ:

المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم ... قال: وإسناده حسن من حديث عقبة بن عامر .

(١) التصرية: هي حبس اللبن في ضرع الشاة أو الناقة أو البقرة لتباع كذلك يغر بها المشتري، تفسير غريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ١٤٢ .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب إن شاء رد المصراة وفي حلبتها صاع من تمر ٩٣/٣، ومسلم في البيوع، باب حكم بيع المصراة برقم ١٥٢٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) تلقى الركبان: هو أن يستقبل الحضري البدوي ويخبره بكساد ما معه، كذبا ليشتري منه سلعته بالوكس، وأقل من ثمن المثل، وذلك تغرير محرّم، ولكن الشراء منعقد، النهاية لابن الأثير ٢٦٦/٤ .

(٤) هو أن يأتي البدوي البلدة ومعه قوت يبغي التسارع إلى بيعه رخيصاً فيقول له الحضري: أتركه عندي لأغالي في بيعه، وكانت السلعة مما تعمُّ الحاجة إليها. النهاية ٣٩٩/١ .

(٥) هو ما كان له ظاهر يغر المشتري وباطن مجهول .

(٦) وهو المسمى بالتناجش، وهو أن يمدح السلعة لينفقها ويروجّها، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شرائها، وإنما ليقع غيره فيها. النهاية ٢١/٥، وفتح الباري ٢١٤/٩ .

(٧) هو أن يأخذ شيئاً ليشتريه فيقول له: رده لأبيحك خيراً منه بثمنه، أو مثله بأرخص منه، أو يقول للمالك استرده لأشتره منك بأكثر، وكان الثمن قد استقر وركن أحدهما إلى الآخر. فتح الباري ٢١٢/٩،

وانظر النهاية ٤٢٥/٣ .

الله عليه وسلم عن ذلك نهى تحريم، لما في ذلك من مساوئ أخلاقه كبيرة ولما يترتب عليها من مفساد عظيمة في المجتمعات .

١- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيع حاضر لبادٍ ولا تناجشوا، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنائها" (١) .

٢- وعنه أيضا رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تَلَقُّوا الرُّكبان ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا، ولا يبيع حاضر لباد، ولا تَصْرُوا الغنم، ومن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحتلبها، إن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردها وصاعا من تمر" (٢) .

وفى لفظ "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التَّلَقَّى وأن يتباع المهاجر للأعرابي، وأن تشترط المرأة طلاق أختها، وأن يستام الرجل على سوم أخيه، ونهى عن النجش وعن التصرية" (٣) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تحث على التخلي عن مساوئ الأخلاق، وترغب في التحلي بمكارمها، فإن مثل تلك الأمور لا تصدر من ذي خلق قويم، أو طبع مستقيم يرغب فيما عند الله تعالى، ويجتنب عما حرم الله تعالى، فنهى النبي صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب لا يبيع على بيع أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه حتى يأذن له أو يترك

٩١/٣، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه .. برقم ١٥١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم...، ٩٢/٣، ومسلم في

البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه.. برقم ١٥١٥ .

(٣) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الطلاق ٢٥١/٣، ومسلم في الباب السابق وبالرقم نفسه .

وسلم عن ذلك ليحمل المسلم على التجرد عن كل خلق ردىء فى المعاملات الاجتماعيه
المادية، التى تحرص النفس البشرية على تعاطيها لما جُبلت عليه من حب المال حبا جما .
فكانت تلك النواهى مقوّمة لذلك الإعوجاج الخُلُقِى فى سلوك المسلم، إن هو امتثلها
وجعلها نصب عينه عند تعامله . كما يحتم عليه ذلك إسلامه واتباعه لنبيه صلى الله عليه
وسلم .



المبحث الثاني

(القرض والقضاء)

القرض فى اللغة القطع، يقال: قرضت الشيء أقرضه بالكسر قرضاً: قطعته، ومنه المقرض وهى آلة القرض .

وأطلق على ما يعطيه الإنسان من ماله ليُقضاه، كأنه شىء قد قُطع من ماله .
ومنه القراض فى التجارة، (١) وهو توكيلُ مالكٍ يجعل ماله بيد آخر ليتجر فيه والربح مشترك بينهما (٢) .

ويقال: القرض: المجازة، قال فى تاج العروس (٣): "وأصل القرض ما يعطيه الرجل أو يفعلُه ليجازى عليه" ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة البقرة: ٢٤٥] ولم يرد فى القرآن الكريم إلا بهذا المعنى، أو بمعنى المجازة كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَتِ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ [سورة الكهف: ١٧] أى تجاوزهم وتدعهم إلى أحد الجانبين (٤) .

أما المعنى الشرعى للقرض وهو "تمليك الشيء برد بدله" (٥) فلم يرد إلا بمرادفه وهو الدَّين الذى وردت فيه أكبر آيات القرآن الكريم وهى آية المداينة فى البقرة، الأتى بيانها، وورد فى آتى ١٢، ١١ من سورة النساء، والمراد به القرض، كما نقل الراغب عن أبى عبيدة قوله: "دِنْتُهُ: أقرضته، ورجلٌ مَدِينٌ، ومديون، ودِنْتُهُ استقرضت منه..." (٦) .

(١) الصحاح للجوهري ١١٠١/٣، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٧٢٠/٥ .

(٢) الياقوت النفيس ص ١٠٧ .

(٣) ٧٦/٥ .

(٤) المفردات للراغب ص ٤٠٠ .

(٥) الياقوت النفيس ص ٨٤ .

(٦) المفردات ص ١٧٥ .

إلا أن الذي جرى عليه عمل أهل العلم من فقهاء المذاهب المتبوعة وأهل الحديث في الجوامع والسنن ، أن يبحثوا هذه المعاملة تحت عنوان (كتاب القرض) أو (باب القرض) أو (السلف) دون ذكر الدين، وذلك لما يفيد المدلول اللغوي للقرض، فقد تقدم أن القرض في اللغة: (ما تعطيه من المال لتقضاه) والقضاء شامل للقضاء الديني بإرجاع المثل ممن استقرض، والأخروي من الله عز وجل بالثواب المعد لذلك .

القرض في القرآن الكريم:

والقرآن الكريم وإن لم يستعمله في القرض بين الآدميين ، فقد استعمله في أحد معنييه وهو قرض الله جل ذكره، وذلك لغرض حث العباد وترغيبهم على أن يعاملوه في القرض، وذلك منه سبحانه على سبيل التلطف والإحسان بهم حيث ندبهم إلى الإنفاق في سبيله بما يعهدونه من القرض الواجب قضاؤه لترك أنفسهم إلى القضاء، وترغب في عظيم الأجر والجزاء، فتبادر إلى بذل المال في مرضاة الله، وخلع غُل الشُّح المسيطر على النفوس في حب المال وعدم بذله إلا إذا علمت الربح الوفير .

أو يعاملوا عباده به الذين هم في حاجة إليه لإصلاح معاشهم وأحوالهم، وذلك في الحقيقة هو إقراض الله تعالى يثيب عليه في الآخرة، وإن كان يعود له في الدنيا مثل ما بذله ، لما في ذلك من التيسير على عباد الله وتفريج كرباتهم، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من نَفَسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسِّرْ على مُعْسِرٍ يَسِّرْ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه..." (١) .

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم ٢٦٩٩، وأبو

داود في الأدب، باب في المعونة للمسلم برقم ٤٩٤٦، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في السر على

المسلم برقم ١٤٢٥، وفي البر والصلة، باب ما جاء في السر على المسلم برقم ١٩٣٠، كلهم من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه . واللفظ لمسلم .

وأي تيسير له وتفريج لكربته أكثر من أن يقرضه مبلغا من المال ليفكه به من أزمة، أو يعمل له به مصلحة تقوم بها حياته .

فتحصّل أن القرض وإن جاء في أسلوب القرآن في بيان الصدقة النافلة إلا أن دلالة اللغوية لا تمنع من حمله على أصل وضعه اللغوي ، بل إن الراغب وهو الذي عني في مفرداته ببيان معاني القرآن اللغوية لم ينص إلا على ذلك المعنى الأصلي للمادة فقال: "القرض: ضرب من القطع ... وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة البقرة: ٢٤٥] (١) .

وذلك ما جرى عليه عمل أهل العلم في مصنفاتهم، حتى البخاري في جامعه الصحيح جعل أحد كتبه فيه باسم (الاستقراض وأداء الديون ٠٠٠) وذكر في طيّ ذلك أحاديث المداينة .

وحيث كان الأمر كذلك فإننا سنستعرض لذكر القرآن الكريم للقرض بلفظه لنفاد من ذلك المعنى الأخلاقي الكريم، الهادف إلى تيسير أحوال المؤمنين فيما بينهم بفضل تكافلهم الاجتماعي، ومن أجلّ الصدقات لمحتاجيها التي جعلها الله عز وجل قرضا له، يقضى به عباده أضعافا مضاعفة من الأجر والثواب في دار كرامته الأخروي، ناهيك عن الإخلاف لهم في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سورة ماعن: ٣٩] .

ثم بعد ذلك نعرض إلى ذكر أحكامه وآدابه في آيات المداينة، غير أن المقام يستدعي أن نبدأ ببيان معنى القرض لله تعالى وهو الغني الحميد فإنه قبل الرمي يرّاش السهم كما قيل في المثل المشهور .

معنى إقراض الله سبحانه وتعالى :

لقد تناول أهل العلم بيان المراد من إقراض الله جل شأنه وهو الغني الحميد، وكثرت أقوالهم في ذلك، ومن أحسنها قول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره إذ قال عقب

آية البقرة في المسند. ^١ ما نصه: "واستدعاء القرض في هذه الآية، إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد، لكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء (١) .

وقيل المراد بالآية: الحث على الصدقة وإنفاق المال على الفقراء والمحتاجين والتوسعة عليهم، وفي سبيل الله بنصرة الدين، وكنى الله سبحانه عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيباً في الصدقة، كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام ففي صحيح الحديث إخباراً عن الله تعالى: "يا بن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما إنك لو عدته لو جدتني عنده. يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا بن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يارب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي" (٢) .

قال القرطبي: "وهذا كله مُخَرَّجٌ مَخْرَجَ التَّشْرِيفِ لِمَنْ كُنِيَ عَنْهُ، ترغيباً لمن خوطب به" اهـ (٣) . وكذا قال النووي في شرح مسلم (٤) .

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: ١١١] .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب فضل عيادة المريض من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٢٥٦٩ .

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٤٠/٣ .

(٤) ١٢٦/١٦ .

ونحو هذا ما نقله النووي عن الواحدي (١) في تفسيره ولم يعقب عليه إذ نقل عن أهل المعاني قولهم: "هذا تلطف من الله عز وجل في الاستدعاء إلى أعمال البر، لذلك أضاف الإقراض إلى نفسه، كأنه قيل: من ذا الذي يعمل عمل القرض: بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم في وقت فقره وحاجته" (٢).

حث القرآن الكريم على إقراض الله تعالى:

إذا تقرر المعنى المراد من إقراض الله تعالى كما فهمه أهل العلم وبينوه، وعلم ذلك، فينبغي أن يعلم أن الله تعالى قد حث عباده على إقراضه سبحانه في غير ما آية، بأساليب مختلفة من أمر وحض وترغيب...، في ست آيات كريمات مختلفات، وذلك لما يحصل به من التكافل الاجتماعي بين المؤمنين، وما يتم به من إصلاح معاشهم ومعادهم، وما يحصل به من التواد والتراحم فيما بينهم، الذي هو من أجل سمات المؤمنين، ومن أجل أهداف الإسلام الاجتماعي في مجتمعات المسلمين، فلذلك توالى آيات القرآن الكريم في الحديث عنه بأساليب مختلفة من أمر وحض:

١ - أما الأمر به فهو ما جاء في قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا...﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

ويلاحظ أن الله تعالى لم يكتف بذكر الأمر به فحسب، حتى قرنه بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مما يدل على عظيم أهميته ويوحى بوجوبه، غير أن أهل التفسير لم يختلفوا فيما أعلم على أن المراد به الصدقات غير الواجبة كما تقدمت الإشارة إليه آنفاً، وكما جاء عن الحسن البصري قوله: "كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو

(١) وهو الإمام العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، قال عنه الذهبي: إمام علماء التأويل له تفاسير ثلاثة: البسيط والوسيط والوجيز، وأسباب النزول وغيرها، توفي سنة ٤٦٣ هـ، انظر سير

أعلام النبلاء ٣٣٩/١٨.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٨٧/٣.

التطوع" (١)، ولكن طلب الله تعالى له بصيغة الأمر وقرنه بفريضتي الصلاة والزكاة يدل على أن طلب الله له طلب حثيث .

ثم إن الله تعالى لم يطلب مجرد القرض، بل إنما أراد قرضا حسنا، وهو الذي يجمع أموراً ثلاثه:

أحدها: أن يكون حلالا خالصا لا يختلط به الحرام .

ثانيها: أن لا يتبعه بمن ولا أذى .

ثالثها: أن يفعله على نية التقرب إلى الله تعالى (٢)، وهذه الشروط وإن كانت بناء على أن المراد به الصدقة إلا أن القرض المشروط ردُّ بدله يشترط فيه ذلك أيضا، إذ المسلم يعامل به ابتغاء مرضات الله ونفع إخوانه المؤمنين، ويضاف إلى ذلك أمر ثالث وهو أن لا يجزئ إليه نفعاً، لأن «كل قرض جر نفعاً فهو ربا» (٣) .

فإذا اجتمعت هذه الأمور كان القرض حسنا يُرجى ثوابه وبره، وقد قيد الله القرض بالإحسان في جميع الآيات المتحدثة عنه ، فلو أن المسلمين أقرضوا وأحسنوا، لما بقي في المسلمين محتاج يتطلع إلى ما في أيدي الناس .

٢ - أما حصُّ الله تعالى عباده عليه وترغيبهم به فهو ما جاء بقوله سبحانه : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ [سورة البقرة: ٢٤٥، وسورة الحديد: ١١] "وهذا الأسلوب مستعمل في التحضيض والتهيج على الأنصاف بالخير، كأن المستفهم لا يدري من هو الأهل لهذا الخير والجدير به (٤) .

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من تلطف الله عز وجل بعباده حيث يستدعيهم إلى أعمال البر بأسلوب المشفق الراغب في الخير، وزاده إحسانا وتلطفاً أن أضافه إلى نفسه

(١) تفسير القرطبي ٢٥٢/١٧ .

(٢) انظر التفسير الكبير ١٦٨/٦، وانظر تهذيب الأسماء واللغات ٨٧/٣ .

(٣) انظر تخريج أحاديث المدونة ٩٩٥/٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٨١/٢ .

كأنه قيل : من ذا الذى يعمل عمل المقرض بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم فى وقت فقره وحاجته .

٣ - ثم لم يكد الله عز وجل يفرغ من هذا الخضم حتى أتبعه بما يرغب فيه ويحمل المرء على المبادرة ^{إليه} من الترغيب بالأجر المضاعف أضعافا كثيرة فقال سبحانه : ﴿ فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٥] .

وقد كرر الله تعالى هذا الوعد للعباد فى غالب آيات الحث عليه والترغيب به كما فى قوله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ [سورة الحديد: ١٨] وغيرها من الآيات .

وهذا الأجر المضاعف لم يبين الله تعالى قدره، مكتفياً بما تفيد الكثرة المنصوص عليها من دلالة على ما لا نهاية له ولا حد، ولا يقدرها إلا الله تعالى فى علمه الخفى، فإن الكثير من الله تعالى لا يحصى (١)، بل كذا القليل منه سبحانه .

بخلاف بقية الصدقات والنفقات فى سبيله المحدد بيان أجرها بمثل قوله سبحانه : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة... ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١] .

ومع هذا الأجر العظيم فإن الله جل شأنه لم يقتصر فى ترغيب عباده على الإقراض على ذلك، بل رغبهم به بما رتب عليه أيضاً من خيرات أخرى، كالمغفرة وتكفير السيئات كما قال سبحانه : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ﴾ [سورة التباين: ١٧]، وكما قال سبحانه : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لأن أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وآمنت برؤسلي وعززتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾ [سورة المائدة: ١٢] .

(١) تفسير القرطبي ٣/٢٤٠، وتفسير البيضاوي ص ٥٩، وتفسير ابن كثير ١/٣٩٩ .

وإذا حصلت للعبد المغفرة وتكفير السيئات فقد فاز فوزاً عظيماً؛ لأن مضاعفة الجزاء على الإنفاق مع المغفرة وتكفير السيئات، خيرٌ عظيم، وكفى بهذا ترغيباً وتلطفاً في الطلب إذ جعل المنفق كأنه يعطى الله تعالى مالا، وذلك من معنى الإحسان في معاملة العبد ربه (١) الذى بينه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإحسان وغيره، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (٢) .

فهذا مما جاء فى كتاب الله تعالى عن القرض بلفظه .

حديث القرآن الكريم عن الدين :

أما ما جاء بمعناه وهو الدين، فذلك فى أكبر آية من آيات كتاب الله تعالى وأكثر آياته تفصيلاً وتبيناً، وهى الآية المعروفة بآية الدين أو المداينة والذى قال الله تعالى فيها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَئَ لَهُ بِالْعَدْلِ وَلْيُؤْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ بِاللَّهِ كُلَّ شَيْءٍ عَالِمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢] .

فهذه أطول آية فى القرآن الكريم وأكثر آياته تفصيلاً وإيضاحاً، لم يجعلها الله تعالى

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٠ .

(٢) متفق عليه تقدم ذكره ص ٣٢٥ .

لتبيين أمر العبادة التي لم ترد فيه إلا على سبيل الإجمال، ولا لغير ذلك من الأمور الدينية الأخرى، إيمانيه أو تعاملية، وإنما جعلها لبيان أحكام المداينة بين العباد، وذلك لما يترتب على المداينة من منافع ومضار إذا لم تراعى هذه التعليمات الإلهية، ولما فى ذلك من خطر عظيم على دين العبد، ومصيره الدنيوى والأخروى، لأن الأمر متعلق بحقوق الآدميين، المبنية على المشاحة، والشرعية الإسلامية حريصة على قطع أسباب الخصومات وتنظيم أمور المعاملات بين الأفراد والمجتمعات الإسلامية، بل الإنسانية، فلما كان الأمر كذلك أطلب الله تعالى فى تفصيل أحكام المداينة فى هذه الآية الطويلة العظيمة التى استنبط منها بعض أهل العلم (١) ثلاثين حكماً، وعقد لها الإمام القرطبى اثنتين وخمسين مسألة فى تفسيره (٢)، وللآية التالية لها المتمة لأحكامها أربعاً وعشرين مسألة (٣)،

ومن أبرز ما جاءت به هذه الآية من الأحكام والآداب ما يلى :

١ - الأمر بكتابة الدين أياً كان نوعه لتناولها لجميع ذلك بالإجماع (٤)، وإن كان سبب نزولها خاصاً بالسلم (٥) كما قال ابن عباس رضى الله عنهما (٦)، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والأمر بالكتابة أمر ندب لدى جمهور العلماء كما قاله ابن عطية فى تفسيره (٧) لما فى ذلك من حفظ الأموال وإزالة الرّيب، قال : "وإذا كان

(١) كابن خويزمنداد كما قال القرطبى فى التفسير ٣/٣٧٧ .

(٢) من ٣/٣٧٧-٤٠٦ .

(٣) من ٣/٤٠٦-٤٢٠ .

(٤) انظر المحرر الوجيز ٢/٥٠١، وتفسير القرطبى ٣/٣٧٧ .

(٥) وهو بيع شيء موصوف فى الذمة بلفظ السلم أو السلم. الياقوت النفيس ص ٨١ .

(٦) نقل ذلك ابن عطية فى تفسيره ٢/٥٠٠ قال: ومعناه أن سلم أهل المدينة كان سبب هذه الآية ثم هي

تتناول جميع المداينات إجماعاً، اهـ .

(٧) المحرر الوجيز ٢/٥٠١ ومنهم مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وخالف فى ذلك جماعة منهم ابن جريج

والشعبي وعطاء والنخعي، فقالوا: إن الأمر للوجوب يباعا كان أو قرضاً لئلا يقع فيه نسيان أو جحود،

واختار ذلك الطبري، انظر التحرير والتنوير ٣/١٠٠، وتفسير القرطبى ٣/٣٨٣ .

الغريم تقياً فما يضره الكتاب، وإن كان غير ذلك فالكتاب ثقاف - أى: حافظ - فى دينه، وحاجة صاحب الحق، قال: وقال بعضهم «إن أشهدت فحزم وإن ائتمنت ففى حل وسعة» ويعنى الإشهاد مع الكتابة، لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة.

قلت: وفى الآية الثانية ما يؤيد هذا القول حيث قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمَانَتَهُ﴾ ^{آيَةُ ١٢٣} فأباح المداينة مع عدم كتابة أو توثيق برهن، وجعل يد الغريم يد أمانة يجب عليه أداؤها متى طلبت منه.

٢ - أرشد الله تعالى عباده إلى كيفية المداينة وهى أن تكون إلى أجل مسمى، أى وقت محدد لا أن يكون مجهول الأجل، كما يقع من كثير من المتدائنين، "فوصفه تعالى الأجل بـ"مسمى" دليل على أن الجهالة لا تجوز، فكان الآية رفضتها، وإذا لم تكن تسمية وحد فليس هناك أجل" (١).

٣ - أمر الله تعالى أن تكون الكتابة بالعدل، أى بالحق بحيث لا يكتب لصاحب الحق أكثر مما قاله ولا أقل، ولا يكون فى قلب الكاتب ولا قلمه مادة لأحدهما على الآخر.

٤ - نهى الله تعالى الكاتب عن أن يتأبى من الكتابة، بل عليه أن يفعل ذلك لما فى ذلك من شكر الله تعالى على ما أنعم عليه، فعليه أن يحسن كما أحسن الله إليه، بله عما فى ذلك من مساهمته فى حفظ الحقوق التى حرص الاسلام على حفظها لأربابها.

وهل ذلك النهى للتحريم أولاً، خلاف بين أهل العلم فى ذلك (٢)، وظاهر الآية تفيد الوجوب لا سيما إن لم يكن فى البلد غيره، فإنه يتعين عليه حينئذ، وإلا لأدى إلى ضياع الحقوق التى أمر الله تعالى بها أن تحفظ، ولذلك وجه الله تعالى الأمر إلى الكاتب مرتين ووسط بينهما النهى عن أن يأبى ذلك، وفى ذلك من التأكيد للكاتب على بذل الكتابة ما لا يخفى.

٥ - على المملى وهو المدين إذا مات هيأ الكاتب للكتابة أن يملى عليه ما هو الحق

(١) المحرر الوجيز ٥٠١/٢.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٣/٣٨٤، والتحرير والتنوير ٣/١٠٢.

الثابت عليه من غير وكس ولا شطط، لما يترتب على الكتابة تلك والشهادة من حق ومطالبه، ولذلك امره الله بتقواه في هذا الحال فقال: ﴿وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ قالوا: "وإنما شدد في تكليف المملئ حيث جمع فيه بين الأمر بالإتقاء والنهي عن البخس لما فيه من الدواعي إلى النهي عنه، فإن الإنسان مجبول إلى دفع الضرر عن نفسه ما أمكن" (١) .

٦ - ندب الله تعالى المتدائنين إلى كتابة الحقيـر والجليل من غير سامة لذلك ولا ملل فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ لما في ذلك من قطع دابر الخصومة بين المسلمين، وحفظ أموالهم وسلامة ديانتهم ولذلك قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَم﴾ أى: كتابة القليل والكثير ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (أى: أعدل) ﴿وَأَقْرَبُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أى: أصح وأحفظ ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أى: أقرب ألا تشكوا (٢) فى بعضكم بعضا وتظنوا فيهم الظنون التى قد تكون محرمة .

٧ - ولما كانت الكتابة وحدها لا تكفى فى إثبات الحقوق ندب الله تعالى إلى أن تقرن بشهادة شاهدين ممن تُرضى شهادتهما من الرجال، أو رجل وامرأتان فيشهدان بإقرار المدين وصحة كتابة الكاتب فيثبت بذلك الدين عند المقاضاه، ونهى الله تعالى الشهاداء أن يتأبؤا عن حمل الشهادة أو أدائها فقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لما فى ذلك من تحقيق غاية الشريعة فى حفظ الحقوق، وواجب الأخوة الإيمانية من التعاون على البر والتقوى .

والمسلم مأمور بذلك حيثما وجد له مندوحة فقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ ^[المائدة ٢٤] وليس للشهود عذر فى ترك الشهادة تحملا أو أداء، لأن الله تعالى قد أحاط جنابهم عن أن يمسوا بأذى كان يمكن أن يناله الكاتب أو الشهيد عند الجهر بالحق ممن لم يرض به ، حيث نهى الله تعالى عن الإضرار بهم ، وحكم على من تجرأ على فعل ذلك

(١) روح المعاني ٥٧/٣/١ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٤٠١/٣ .

بالفسوق الذى يعنى الإيذان بالعقاب والمؤاخذة بسبب خروجه عن الطاعة فقال تعالى:
﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ .

٨ - أحاط الله تعالى كل الأحكام والآداب تلك بالوصية بتقوى الله ومراقبته فى تنفيذ هذه الآداب والأحكام وإشعارهم بأنه عليم بتصرفاتهم إن هم خالفوا ذلك، وسيجازى الممثل بالإحسان، والمقصر بما يقتضيه عدله أو عفوه فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

ولا غرو فى أن يحاط أمر المداينة بهذه الوصية العظيمة، لما^{في} ذلك من الخطر العظيم، فإن أمر الدين عظيم لأنه حق الأدمى الذى جبلت نفسه على الشح وحب المال، فقد لا يسامح فيه ولا يفرط فى القليل أو الكثير منه، والله تعالى قد يتسامح فى حقه بما يشاء، أما حقوق الآدميين فلا، ولذلك جعله مقدما حتى على حقوق الوارثين، فلم يبح أن تقسم التركة عليهم حتى يخرج لذوى الوصايا والديون حقوقهم، فما فضل بعد ذلك قسم بينهم كما قسمها الله تعالى كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينَ﴾ [سورة النساء: ١٢] وكرر ذلك مع كل صنف ممن نص الله تعالى على توريثهم .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم خطر ذلك بما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: "يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين" (١) .

"ففى هذا تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفرها وإنما يكفر حقوق الله تعالى" (٢) بل لا تبرأ ذمة المدين إلا بأداء الدين كله على النحو الذى اتفق عليه .

وكل ما مضى مما نصت عليه الآية الكريمة أو الحديث الشريف إنما هو لضمان أداء المدين الدين الذى اقترضه فى أجله المسمى، وفى ذلك من الضمان والحيلة على إرجاع الحق إلى صاحبه ما يكفى حيث يستوفى ذلك منه قهرا إن خالف، عن طريق القضاء

(١) أخرجه مسلم فى الإمارة، باب من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياهم إلا الدين برقم ١٨٨٦ .

(٢) شرح مسلم ٢٩/٣ .

والسلطة اعتمادا على تلك المكتوبة ومع ذلك فإن الله جلت قدرته لم يكتف بذلك في الضمان لعودة المال إلى صاحبه .

بل أضاف إلى ذلك إلهاب القلوب المستدينه بالرهبة والخشية من التفريط في أمر الأداء، وذلك بالآيات الكريمات المحذرة من أكل أموال الناس بالباطل كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٨] وعدم أداء الدين هو أكل لأموال الناس بالباطل المنهي عنه في غير ما آية .

وبالآيات الحاثه على أداء الأمانة كقوله تعالى: ﴿... فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوتِيَ أَمَانَتَهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢] وقد سمي الله تعالى المداينة أمانة، وقد مر معنا تعظيم الله تعالى للأمانة وما يترتب عليها في مبحث الأمانة المار ذكره (١) .

وبالآيات الناهية عن الخيانة، والمحذرة منها، والمتقدم ذكر طائفة منها في الأمانة لأن القرض أمانة في يد المستقرض، فعدم أدائه أو التفريط فيه ضرب من الخيانة .

وفي كل ذلك وغيره تهيج لقلب المسلم على الأداء بحيث لا يفرط فيه بعده في الغالب إلا من غلب على أمره بعدم تيسر حاله على أداء الديون، وذلك هو المعسر الذي لم يدخر جهدا على تبرأة ذمته ولكن الحظ لم يساعده، ومن كان كذلك فإنه غير ملوم، لاسيما إن لم يكن له يد في كسب الإعسار، ومن علم الله تعالى منه ذلك ، فإنه لا يكلفه فوق طاقته، بل ألزم الدائن إنظاره إلى حال يساره ، إن لم تجدد نفسه بما هو الأفضل عند الله تعالى وهو الإبراء من كل الدين أو بعضه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٠] .

وهذا معنى أخلاقي عظيم في هذه المعاملات، حيث ألزم الله تعالى الدائن عند إعسار المدين إنظاره إلى حال يساره ولم ييح له إزعاجه أو مضايقته، فإنه لا حول له في دفع ما استدانه ولا قوة، فمضايقته بعد ذلك ظلم وسلوك غير لائق في مجتمع مسلم، مبني على التواد والتراحم والمحبة والأخاء، بل إن الله عز وجل حبب لصاحب الدين التصديق عليه بما

وجب عليه، وتخليص ذمته، تحقيقاً لهذه المعانى السامية بين المسلمين .
فإن لم تطب نفسه بذلك، فلا أقل من إنظاره، وذلك حتم عليه، فإن الآية توجب عليه ذلك فيجب على صاحب المال إنظار المدين عند ثبوت إعساره لدلالة هذه الآية، ودلالة السنة على ذلك أيضاً (١) .

وهذا دليل على عظيم مكارم الأخلاق فى المعاملات المادية، حيث أوجب المولى تبارك وتعالى على أصحاب الأموال المدينة، التحلى بهذا الخلق عندما يعسر إخوانهم فلم يستطيعوا الأداء، وهذا الخلق يحمل على تبادل المحبة والتراحم بين أفراد المجتمع المسلم، فيجب أن يراعى ويتحلى به عند حدوث سببه، والله الموفق والهاد إلى سواء السبيل .

(١) انظر أحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٣٧٢ .

تمثل أخلاق

القرض والقضاء في النبي صلى الله عليه وسلم

لم تكن حياة النبي صلى الله عليه وسلم تخلو بين الحين والآخر من اقتراض و قضاء وذلك للحال الذي كان عليه صلى الله عليه وسلم من الشدة وشظف العيش الذي اختاره لنفسه ليكون كما قال : " .. أجوع يوما وأشبع يوما .. " (١) فكان صلى الله عليه وسلم على ذلك الحال المختار لديه المرضي عنده، لا يبالي بجوع، ولا يفرح بشبع، وتمر الليالي ذوات العدد ولا يوقد في بيته نار كما تقدم بيانه (٢) .

ولكن لم يكن يرى ذلك عذرا له في عدم بذل معروفه لمن يلوذ به من أهل أو ضيف أو سائل، وإن كان ذلك عن طريق الاستدانة لما جُبل عليه من مكارم الأخلاق . فكان يستدين لذلك فإذا ما وجد ما يؤدي به بادر إلى القضاء .

وقد كان عليه والصلاة والسلام معروفا بذلك حتى قبل البعثة كما دل عليه قول أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها في قصة بدء الوحي " ... كلا والله ما يُخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل... والكل بالفتح : الثقل من كل ما يُتكلف كما يقول أهل غريب الحديث (٣) . وأى أمراً ثقل على النفس العزيزة من حقوق الآدميين، الذي قد يكون منهم غليظ الطبع جافى الخلق لا يراعى كبيرا ليكبره ولا صغيرا لصغره عند استيفاء حقه وحلول أجله .

فمن تحمل من مثل هؤلاء ديناً، فحري به ذلك الوصف المتقدم، بغض النظر عن أي أمر ثقل سواه، والنبي صلى الله عليه وسلم قد كان يتحمل كل ذلك ويتلى ببعض من وصفت، والشواهد على ذلك كثيرة :

١ - منها ما تقدم من استقراضه صلى الله عليه وسلم من زيد بن سِعنة وما فعله معه

(١) حديث حسن تقدم تخريجه في مبحث الشكر ص ١٨٢ .

(٢) في مبحث الزهد ص ٤٩٤-٥١٣ .

(٣) انظر مثلاً المجموع المغني في غريب القرآن والحديث ٧٠/٣، والنهاية ١٩٨/٤ .

عند الاستيفاء لغرض اختباره لمعرفة دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم التي كان يعملها من الكتب السابقة (١) .

٢ - ومن ذلك ما جاء عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال : "استسلف النبي صلى الله عليه وسلم من رجل تمرلون (٢)، فلما جاءه يتقاضاه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس عندنا اليوم من شيء، فلو تأخرت عنا حتى يأتينا شيء فنقضيك" فقال الرجل : واغدره، فتذمر (٣) عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعه يا عمر فإن لصاحب الحق مقالا، انطلق إلى خولة بنت حكيم الأنصارية فالتمسوا عندها تمرا" فانطلقوا فقالت يا رسول الله : ما عندي إلا تمر ذخيرة، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "خذوا فاقضوا" فلما قضوه أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم فقال : "استوفيت؟" قال : نعم قد أوفيت وأطبت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن خيار عباد الله من هذه الأمة المطيِّبون (٤)" .

هكذا كان صلى الله عليه وسلم يستدعيه الحال إلى أن يقترض من مثل هؤلاء الجفأة فيصبر على جفاءهم اعترافا لهم بالحق الذي يدفعهم إلى فعل ذلك، ثم يذهب فيلتمس لهم العذر فيقول : "إن لصاحب الحق مقالا" ليسلي نفسه وأمه عما بدر لهم من فظاظة وغلظة لا تليق بجنابه العظيم - بأبي هو وأمي ونفسي صلى الله عليه وسلم - فليت هؤلاء الدائنين قدروا ظروفه وأعظموه وعزروه ووقروه كما يجب .

فقد كان صلى الله عليه وسلم أحسن ^{الناس} قضاء إذا وجد لا يحتاج إلى أن يُسأل إذا حل

(١) انظر مبحث حلمه صلى الله عليه وسلم ص ٥٠٩

(٢) نوع من النخل، وقيل: هو الدقل. النهاية ٢٧٨/٤ .

(٣) أي: غضب وتغير وجهه .

(٤) عزاه الهيثمي في المجمع ١٤٤/٤ إلى الطبراني في الكبير والصغير ٩٨/٢، قال: ورجاله رجال الصحيح،

وللحديث شاهد نحوه من حديث عائشة رضي الله عنها عند أحمد والبخاري، وإسناد أحمد صحيح كما قال

الهيثمي في المجمع ١٤٣/٤ .

الأجل ولا أن يطلب الفضل ناهيك عن رأس المال المدين، وما كانت الشواهد على ذلك بغائبة عن كثير منهم :

١ - فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال كان لرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سن من الإبل فجاءه يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا سنه فلم يجدوا إلا سنا فوقها، فقال صلى الله عليه وسلم "أعطوه" فقال الرجل : أوفيتني وفاءك الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن خيركم أحسنكم قضاء" (١) .

٢ - وفي رواية أن رجلا تقاضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأغلظ له، فهم به أصحابه رضوان الله عليهم فقال صلى الله عليه وسلم : "دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، واشتروا له بعيرا فأعطوه إياه" فقالوا : لا نجد إلا أفضل من سنه، قال : "اشتروه فأعطوه إياه، فإن خيركم أحسنكم قضاء" (٢) .

٣ - وروى أبو رافع (٣) رضي الله عنه قال : "استسلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرة (٤)، فجاءته إبل الصدقة، قال أبو رافع : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أعطي الرجل بكرة، قال : قلت ما أجدر إلا جملا خيارا رباعيا (٥)، فقال :

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب هل يعطى أكبر من سنه ١٥٣/٣، وأبو داود في المساقاة، باب من استسلف شيئا ف قضى خيرا منه برقم ١٦٠١ .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب استقراض الإبل ١٥٣/٣، ومسلم في الباب السابق وبنفس الرقم (٣) القبطي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال : اسمه إبراهيم، ويقال : أسلم، وقيل غير ذلك، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم أحدا وما بعدها وشهد فتح مصر، وتوفي بالمدينة قبل قتل عثمان رضي الله عنه وقيل بعده، انظر الاستيعاب ٦٨/١، والإصابة في الصفحة التي قبلها، وتهذيب الأسماء ٢٣٠/٢ .

(٤) البكر: الفتي من الإبل .

(٥) الرباعي من الإبل: الذي دخل في السنة السابعة، وسمي بذلك؛ لأنه يكون قد طلعت رباعيته . انظر النهاية

رسول الله صلى الله عليه وسلم : إعطه إياه، إن خيار الناس أحسنهم قضاء" (١) .

٤ - وروى العيرباض بن سارية (٢) رضي الله عنه قال : بعث من رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا فأتيته أتقاضاه، فقال : "أجل، لا أقضيها إلاً نجيةً" قال : فقضاني فأحسن قضائي، قال : وجاءه أعرابي يتقاضاه سيئه (٣) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعطوه سناً فأعطوه يومئذ جملاً، فقال : هذا خير من سني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "خيركم خيركم قضاء" (٤) .

٥ - وعن عبد الله بن أبي ربيعة (٥) رضي الله عنه، قال : استقرض مني النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ألفاً، فجاءه مال، فدفعه إليّ، وقال : "بارك الله في أهلك

(١) أخرجه مسلم في المساقاة، باب من استسلف شيئاً فقضى بخيراً منه برقم ١٦٠٠، ومالك في الموطأ، كتاب

البيوع، باب ما يجوز من السلف ٨٤/٢، وأبو داود في البيوع، باب حسن القضاء برقم ٣٣٤٦،

والترمذي في البيوع، باب ما جاء في استقراض البعير برقم ١٣١٨ .

(٢) المكي بأبي نعيم السلمي رضي الله عنه، كان من أهل الصفة، وهو من البكائين الذين نزلت فيهم الآية

المعروفة، وهو من السابقين إلى الإسلام، توفي سنة ٧٥ هـ، انظر أسد الغابة ٣/٣٩٩، وتهذيب الأسماء

. ٣٣٠/١

(٣) أي: ناقة ذات سن معين .

(٤) أخرجه النسائي في البيوع، باب استسلاف الحيوان واستقراضه ٢٩١/٧، وابن ماجه في التجارات، باب

السلم في الحيوان برقم ٢٢٨٦، والحاكم في المستدرک ٣٠/٢، وأحمد في المسند ٤/١٢٧، والبيهقي في

السنن ٥/٣٥١، وقال الحاكم عنه: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، قال الألباني في الإرواء ٢/٢٢٥:

وهو كما قال .

(٥) ابن المغيرة القرشي الخزومي، أسلم يوم الفتح، وولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنك من اليمن

ومخاليقها، وأضاف إليه عمر رضي الله عنه صنعاء، ومات في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه في طريق

عودته إلى المدينة، حيث رجع لينصر عثمان رضي الله عنه فسقط من فوق راحلته فمات، انظر أسد

الغابة ٣/١٥٥، والإصابة ٢/٣٠٥، والاستيعاب ٢/٢٩٨ .

ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء" (١).

فهذه بعض النماذج لاقتراض النبي صلى الله عليه وسلم وحسن قضائه، ومنها تعلم كرامته ومعاملته النابعة من عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن يكتفى بمجرد القضاء حتى يحرص على رد أفضله وأحسنه وحيث كان كذلك فهو لعمرؤا لله أجدر أن لا يطالب ولا يغلظ له فى القول.

وهو بذلك يشترع لأمة الاقتراض والقضاء، فيجب على الأمة التأسى بهديه وتعامله وأخلاقه؛ فإن لهم به أسوة حسنة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١] وذلك واجبه إن كانوا مؤمنين به محبين له صلى الله عليه وسلم وكفى بهذا السلوك هاديًا ودليلاً للمؤمن إلى اتباع التى هي أقوم فى الاقتراض والقضاء وسائر المعاملات المادية التى كانت على مثل ذلك من كرم الخلق النبوى.

من أقواله صلى الله عليه وسلم فى الحث على القرض:

وأما هديه صلى الله عليه وسلم من الأقوال المترجمة عن السلوك والأفعال فى شأن معاملة الاقتراض والقضاء فهي أكثر من أن تحصى فى هذه العجالة، وذلك من حيث الترغيب على القرض، والحث على القضاء وحسنه، والترهيب من المطل، والترهيب من الدين، وغير ذلك.

أما الترغيب على القرض ففي مثل قوله صلى الله عليه وسلم:

١ - "من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.." (٢) وأي كربة يصاب بها المسلم أعظم من أن يكون محتاجاً لشيء من المال لإقامة

(١) أخرجه النسائي فى البيوع، باب الاستقراض ٣١٤/٧، وابن ماجه فى الرهن، باب ما جاء فى حسن القضاء

برقم ٢٤٢٤، وأحمد فى المسند ٣٦/٤، والبيهقى فى السنن الكبرى ٣٥٥/٥، وحسنه الألبانى فى الإرواء

برقم ١٣٨٨.

(٢) أخرجه مسلم وغيره، وتقدم تخريجه فى أول هذا المبحث ص ٩٠٧.

نظام حياته من متاع العيش، أو إصلاح ما به صلاح معاشه من زراعة أو صناعة أو تجارة التي قد تتعطل عند فقدته المال اللازم لإصلاحها، فإذا أسعفه أحد بقرض حسن لا ربا فيه ولا مناً ولا أذى فرَّج عنه كربة عظمى من كرب هذه الدنيا، ولذلك كان الجزاء من جنس العمل مع عدم الموازنة بين كرب الدنيا وكرب الآخرة إلا من حيث التسمية فقط، ولا ريب بأن لمسلم الحريص على نفع نفسه لن يفرط في أن يدخر لنفسه هذه الغنيمة العظيمة لذلك اليوم العظيم عندما يسمع هذا الترغيب .

٢ - وما يرغبه في ذلك أيضا ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أقرض الله مرتين كان له مثل أجر أحدهما لو تصدق به" (١) .

٣ - وما جاء عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "دخل رجل الجنة فرأى على بابها مكتوبا الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر (٢)" . إلى غير ذلك من الأحاديث، وهذان الحديثان وإن كان فيهما كلام، فإنهما لا يخرجان

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٤٩/٧ الإحسان، وابن ماجه في الصدقات باب القرض برقم ٢٤٣٠، والبيهقي في السنن ٣٥٣/٥، ورجح وقفه، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٢٢، والحديث ضعفه البصيري في مصباح الزجاجة ٤٧/٢، وحسنه الألباني في الإرواء ٢٢٦/٥-٢٢٩ نظرا لشواهده .

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع ١٢٩/٤ إلى الطبراني في الكبير قال: وفيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره، وفيه ضعف، وفي التقريب برقم ٤٤٢٩: صدوق له أوهام، وله شاهد عند ابن ماجه في الصدقات، باب القرض برقم ٢٤٣١ من حديث خالد بن يزيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: (رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبا الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر فقلت: يا حبريل، ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة، وخالد بن يزيد ^{ابن} أي مالك ضعيف، لذلك قال المنذري في الترغيب ٤١/٢: وعتبة بن حميد، يعني راوي الحديث الأول عن أبي أمامة - أصلح حالا من خالد .

قلت: لكن حديث أنس لم يشتد ضعفه فهو شاهد لحديث أبي أمامة ودليل على أن للحديث أصلا .

عن العمل بهما فيما يدلان عليه من الفضل كما هو مقرر من العمل بالحديث الضعيف في الفضائل بشروطه المعروفة المتوفرة فيهما (١) .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على القضاء وإحسانه والمبادرة به :
وأما حثه صلى الله عليه وسلم على القضاء وإحسانه فقد كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم بسلوكه وقوله :

١ - أما سلوكه صلى الله عليه وسلم فتمثل بحرصه الشديد على المبادرة بالقضاء كما علمت مما تقدم في حسن قضائه .

٢ - وكما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو ذر رضى الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما أبصر يعنى أحدا، قال : "ما أحبُّ أنه يحوّل لي ذهباً يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلا دينار أرصده لدين..." (٢) .

وفى رواية من حديث أبي هريرة : "لو كان لي مثل أحد ذهباً، ما يسرّني أن لا يمر عليّ ثلاث وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين" (٣) .

فتأمل كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم سوّغ لنفسه أن يدخر المال لقضاء الدين لو أنه وجده، وهو إمام الزاهدين الذي لا يطيق أن يبيت وعنده بضعة دراهم أو دنائير حتى ينفقها (٤) ، ولكن لما كان ذلك لقضاء الدين، لم ير بأساً بإرصاد شيء من المال له لو أنه وجده، وذلك دليل على عظيم إهتمامه بقضاء الدين لما لبقائه في الذمة من خطر عظيم .

٣ - ولهذا كان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يدعو في صلاته ويقول: « اللهم إني

(١) وهي: أن لا يشتد ضعفه، وأن يندرج تحت أصل معمول به، وأن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، انظر فتح

المغيث للسخاوي ٣٣٤/١ وما قبله، والقول البديع ص ٢٥٨، وتدريب الراوي ٢٩٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب أداء الديون ١٥٢/٣، وتقدم في مبحث الزهد بنحوه .

(٣) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه في مبحث الكرم ص ٦٤١ .

(٤) كما دل على ذلك حديث عائشة رضى الله عنها المتقدم في مبحث الكرم ص ٦٤٤، وكذا حديث أم سلمة

رضي الله عنها المتقدم هناك أيضاً .

أعوذ بك من المأثم والمغرم» فقال له :قائل: ما أكثر ما تستعيز يا رسول الله من المغرم ، قال: "إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف"(١) .

٤ - وقد ترجم عن سلوكه هذا قوله صلى الله عليه وسلم: "من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله"(٢) .

وفى هذا من الحث على القضاء والمبادرة به ما لا يخفى على المتأمل، إذ هو دعاء من النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المستجاب له عند ربه سبحانه بتأدية الله عنه، أى تيسير سبل القضاء له إذا كانت نيته صالحة، ولا شك بأن النية إذا قويت على الأداء سعت إلى تحصيله حتى تناله ويمد الله المرء بعونه وتوفيقه بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له، أما إذا كانت على الضد من ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليه بإتلاف نفسه، أو ماله، جزاء وفاقا له على سوء قصده مع تحمل وزره، وهذه الدعوة النبوية تنعى له مصيره السيء إن عاجلا أو آجلا، ولا ينجيه من ذلك إعساره طالما ونيته سابقة على عدم الوفاء، فإنما الأعمال بالنيات.

إما إن كان غنيا، فإن كان ذم نية سيئة في عدم الوفاء فهو وسابقه سواء .

وإن كان لم ينو ذلك ولكنه لم يبادر إلى قضاء ما وجب عليه عند أجله، فذلك مطل وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم بما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مطل الغنيّ ظلم"(٣) ومعلوم أن "الظلم ظلمات يوم القيامة" كما جاء في الحديث (٤)، وذلك جزاء له في الآخرة، أما في الدنيا فإنه يوجب علي

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب من استعاذ من الدين ١٥٤/٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها ١٥٢/٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب مطل الغني ظلم ١٥٥/٣، ومسلم في المساقاة، باب تحريم مطل الغني

برقم ١٥٦٤ .

(٤) الذي أخرجه في البر والصلة، باب تحريم الظلم برقم ٢٥٧٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

أن رسول الله عليه وسلم قال: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ...) .

مادل عليه حديث الشريد بن سويد الثقفي (١) رضى الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليُّ الواجد يُجِلُّ عرضه وعقوبته" (٢) وليُّه: هو مطله والواجد: هو القادر الملىء، والمعنى أن فعله ذلك يحل عرضه بالإغلاظ عليه، وعقوبته بالحبس حتى يقضى (٣). وذلك جزاء له على تساهله ومطله لحقوق إخوانه التي لا تساهل فيها ولا هوادة، وهو جزاء عظيم الأثر على قلب المسلم، فإن الله تعالى عظم حقوقه وحمى عرضه وماله من أي أذى يصل إليه بما شرعه من أحكام تحفظ له كل ذلك موفورا مصونا، ما لم يفرط هو بحق نفسه بارتكابه ما يهدر ذلك الحق كما في الدين، فإن الحماية هذه وذلك التعظيم تضحى لا عبرة بها؛ لأن الدين لما كان خطره أعظم لأنه حق أخيه المسلم، أو حق أخيه الإنسان أيا كان، ما لم يكن كافرا حريبا ولا عهد له، وكان هو السبب فيه فقد حل أن يُجازى بمثل ذلك الجزاء العادل، من إباحة ماله وعرضه له .

زجره صلى الله عليه وسلم عن ترك الدين بغير قضاء :

لذلك كان صلى الله عليه وسلم شديد التحذير والزجر من التساهل في أمر الدين وعدم المبادرة إلى قضائه، بحيث كان يمتنع عن الصلاة على من مات ^{مدينا} أو لم يترك لدينه قضاء:

(١) وقيل الحضرمي، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم فبايعه بيعة الرضوان، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريد، وأنشد النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية بن أبي الصلت مائة بيت، انظر أسد الغابة ٣٩٦/٢، والإصابة ١٤٨/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب في الحبس في الدين وغيره برقم ٣٦٢٨، والنسائي في البيوع، باب مطل الغني ٣١٦/٧، وابن ماجه في الصدقات، باب الحبس في الدين والملازمة برقم ٢٤٢٧، وأحمد في المسند ٢٢٢/٤، ٣٨٨، ٣٨٩، والحاكم ١٠٢/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البخاري ترجمة في الاستقراض بصيغة التمريض ١٥٥/٣، وحسنه الألباني في الإرواء برقم ١٤٣٤، ٢٥٩/٥، وتعقب الحاكم والذهبي على تصحيحه وقال بحسبه أن يكون حسنا .

(٣) جامع الأصول لابن الأثير ٤٥٥/٤ .

١ - فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُؤْتَى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل: هل ترك لدينه قضاء؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال للمسلمين: "صَلُّوا على صاحبكم"، قال: فلمَّا فتح الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُصَلَّى ولا يسأل عن الدين، وكان يقول: أنا أولى المؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك ديناً أو كلاً أو ضياعاً فعليَّ وإليَّ، ومن ترك مالا فلورثته" (١).

فامتناع النبي صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف بأمته عن الصلاة على صاحب الدين الذي لم يترك له قضاء، يدل دلالة واضحة على أن المدين قد اكتسب تَبَعَةً كُبرى استوجبت امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عليه والدعاء له، ولعل ذلك لأن الدعاء له من النبي صلى الله عليه وسلم المستجاب دعاؤه لا يصادف محلاً، فإن نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه" كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم (٢).

٢ - وروى عن أنس رضي الله عنه قال: "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأُتِيَ برجل يصلى عليه، فقال: هل على صاحبكم دين؟ قالوا: نعم، قال: فما ينفعكم أن أصلي على رجل روحه مرتهن في قبره لا تصعد روحه إلى السماء، فلو ضمن لي رجل

(١) أخرجه البخاري في الكفالة، باب الدين ١٢٨/٣، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته برقم

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز، باب ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: نفس المؤمن .. الخ من

طريقين ١٠٧٨، ١٠٧٩، وقال: هذا حديث حسن، وهو أوضح من الأول يعني الطريق الأولى .

وأخرجه أيضاً ابن ماجه في الصدقات، باب التشديد في الدين ٨٠٦/٢، وأحمد في المسند ٤٤٠/٢،

٤٧٥، وابن حبان في صحيحه ٢٦/٥ الإحسان، وقال الألباني في تعليقه على المشكاة ٨٨٠/٢: إسناده

دينه قمت فصليت عليه، فإن صلاته تنفعه" (١) .

حرصه صلى الله عليه وسلم على مساعدة المدينين في تسهيل القضاء عليهم :

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يسره أن لا يصلي على أحد من أمته، فقد كان يود أن يصلي حتى على المنافقين لو أنها تنفعهم، لكمال رحمته ورأفته كما تقدم ذكره، ولكن لا يملك لهم نفعا يقدر عليه، ولذلك كان إذا قدر على نفعهم لم يأل جهدا في بذله، ولا يدخر وسعا يقدر عليه، حيث كان يتوسط إلى الدائنين في تسهيل قضاء مدينهم بالوضع عنهم أو تيسير تقاضيهـم :

١ - فقد سمع ذات يوم صوت خصوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا أحدهما يستوضع الآخر (٢) ويسترفعه في شيء فيقول : والله لا أفعل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما، فقال : "أين المتألي على الله لا يفعل المعروف؟ فقال : أنا يا رسول الله فله أي ذلك أحب كما جاء في الحديث المتفق عليه (٣) .

٢ - وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن كعب أن كعب بن مالك (٤) رضي الله

(١) عزاه الهيثمي في الجمع ٤٣/٣ إلى الطبراني في الأوسط، قال: وفيه عبد الحميد بن أمية وهو ضعيف، لكن له متابع عند أبي يعلى كما في الجمع ٤٢/٣ بلفظ: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بجنازة رجل وعليه دين، فقال: لا أصلي عليه حتى تضمنوا له دينه، فإن صلاتي عليه تنفعه، فلم يضمنوا دينه ولم يصل عليه، وقال: إنه مرتهن في قبره، وتكلم الهيثمي على أحد رواته وهو عيسى بن صدقة بن عباد الشكر فقال: وثقه أبو حاتم وضعفه غيره .

(٢) أي: يطلب منه أن يحط له شيئا من دينه .

(٣) أخرجه البخاري في الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح ٢٤٤/٣، ومسلم في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين برقم ١٥٥٧ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) ابن سلمة بكسر اللام، بن سعد الأنصاري الخزرجي السلمي، شهد العقبة وأحدا وسائر المشاهد إلا بدرأ وتبوك، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم، وكان أحد شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات سنة ٥٣ هـ، انظر تهذيب الأسماء ٦٩/٢، والاستيعاب لابن عبد البر ٢٨٦/٣، والإصابة ٣٠٢/٣ .

عنه أخبره أنه تقاضى ابن أبي حذر (١) ديناً كان له عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سحف (٢) حُجْرته فنادى : "يا كعب" قال : قلت : لبيك يا رسول الله، فأشار بيده "أن ضع الشطر من دينك" قال كعب : قد فعلت يا رسول الله قال : "قم فاقضه" (٣) .

٣ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : أصيب عبد الله وترك عيالا ودينا فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضاً من دينه، فأبوا، قال : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فاستشفعت به عليهم فأبوا، فقال : "صنف تمرك كل شيء منه على حدته؛ عذق ابن زيد على حدة، واللين على حدة، والعجوة على حدة (٤)، ثم أحضرهم حتى آتيتك" قال : ففعلت ثم جاء صلى الله عليه وسلم وكال لكل رجل حتى استوفى، وبقي التمر كما هو كأنه لم يمس (٥) .

فهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يُنجد المدينين ليخلصهم من رِبْقَةِ الدين حتى أنه استعمل معهم خوارق العادة بإبداء هذه المعجزة التي أيده الله تعالى بها في قضاء دين عبد الله بن حرام رضي الله عنه الذي استشهد معه في أحد فأراد أن

(١) وهو عبد الله بن أبي حذر الأسلمي له ولأبيه صحبة، أول مشاهد الحديبية توفي سنة ٧١ هـ، وله ٨١ سنة، انظر الإصابة ٢/٢٩٥ .

(٢) السحف والسحاف هو الغطاء .

(٣) أخرجه البخاري في الصلح، باب الصلح بالدين والعين ٣/٢٤٦، ومسلم في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين برقم ١٥٥٨ .

(٤) هذه أنواع من أنواع التمر المعروفة في المدينة .

(٥) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب الشفاعة في وضع الدين ٣/١٥٦، وقصة قضاء دين^{جابر} أخرجه البخاري في مواضع بالفاظ متقاربة، في الاستقراض أيضاً، باب إذا قاص أو جازفه في الدين ثمراً بتمر وغيره، وفيه أن الدائن كان يهودياً ٣/١٥٤ .

لا يحبس عن منزلته في الجنة بسبب الدين كما أخبر عن ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله "والذى نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ، ثم أحيى ، ثم قتل ثم أحيى ، ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى عنه دينه" (١) .

فلما لم تقبل شفاعته بتخفيف الدين حتى يتيسر القضاء لم يتوان عليه الصلاة والسلام عن بذل وسعه في تخليص صاحبه من ربة الدين ، وفاء له على صحبته وتضحيته ، ولم يكن بد من طلب الله تعالى معجزة له في ذلك ، فحصل بها الوفاء العظيم ، من ذلك الطعام اليسير ، الذى ما كان ليبلغ مبلغاً من الوفاء لولا تلك المعجزة الكبرى التى أوقفه الدين وتركت التمر كأنه لم يمس .

وفى هذا من الدلالة على مبلغ حرصه صلى الله عليه وسلم على أن يخلص أصحابه من الدين لما يعلمه من هول أثره ما فيه الكفاية ، وقد كان من حرصه صلى الله عليه وسلم على ذلك أن يبيده حتى لمن يظن منهم المقدرة على الوفاء كما دل قوله عليه الصلاة والسلام : "مطل الغنيّ ظلم ، فإذا أُتبع أحكم على مليء" (٢) فليتبّع" (٣) .

حيث أرشد النبي صلى الله عليه وسلم رب الدين إلى قبول الحوالة من المستدين المماطل الظالم نفسه بذلك ، ليدفع عن أخيه الظلم الحاصل بالمطل ، (لأنه قد تكون مطالبة المحال^{عليه} سهلة على المحتال دون المحيل ، فسفى قبول الحوالة إعانة على كفه عن الظلم (٤) م .

وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم قبل أن يفىء الله عليه بالفتوح والغنائم فلما أفاء

(١) أخرجه النسائي في البيوع ، باب التغليظ في الدين ٣١٤/٧ ، ٣١٥ ، من حديث محمد بن جحش وإسناده حسن

(٢) المليء بالهمز : الثقة الغني ، قال في النهاية ٣٥٢/٤ : وقد أولع الناس بترك الهمزة وتشديد الياء ، قلت : كما

هو في رواية البخاري هذه .

(٣) أخرجه البخاري في الحوالات ، باب في الحوالة وهل يرجع في الحوالة ١٢٣/٣ ، ومسلم في المساقاة ، باب

تحريم مطل الغني برقم ١٥٦٤ .

انظر (٤) فتح الباري ٣٣/١٠ .

الله عليه بذلك تحمّل هو صلى الله عليه وسلم دين كل ذى دين يموت من أمته كما دلّ على ذلك الحديث المتقدم (١) عن أبي هريرة «... فلما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم كان يصلى ولا يسأل عن الدين وكان يقول: "أنا أولى المؤمنين من أنفسهم فمن تُوفّي من المؤمنين فترك ديناً أو كلاً أو ضياعاً (٢) فعليّ وإليّ، ومن ترك ملا فلو رثته" .

هكذا كان حرصه صلى الله عليه وسلم على قضاء دين المدينين وسعيه فى تخليصهم من ربقة الدين ، وأي إحسان أو رحمة أو رفق يمكن أن يقوم به أحد غيره صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يقضى عن المدين^{دينه} أو يترك ماله لورثته كما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم .

« فهكذا يلزم المتولي لأمر المسلمين أن يفعله بمن مات وعليه دين، فإن لم يفعل فالإثم عليه إن كان حق الميت فى بيت المال يفى بقدر ما عليه من الدين وإلا فبقسطه" (٣) .

حثه صلى الله عليه وسلم المقرضين على تيسير قضاء مديونهم أو إعفائهم: وإضافة إلى ما كان يبذله صلى الله عليه وسلم من الوساطة أو الوفاء^{بنفسه} فى تيسير القضاء والوفاء، فقد كان صلى الله عليه وسلم يرغب الدائنين بالتخفيف عن مدينهم وذلك ببيان ما ينالونه من الأجر والثواب عند الله تعالى بسبب ذلك ليشجعهم فى التيسير على مدينهم بالوضع أو الإنظار إلى ميسره :

١ - كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : "من سرّه أن ينجّيه الله من كرب يوم القيامة فلينفّس عن معسر أو يضع عنه" (٤) .

٢ - وقوله صلى الله عليه وسلم : "كان فىمن كان قبلكم تاجر يداين الناس فإن رأى

(١) المتفق عليه وتقدم تخريجه ص ٩٢٩ .

(٢) الكل: الثقل، والمراد به العيال، أما الضياع فقال الخطابي: هي هنا وصف لورثة الميت بالمصدر، أي: ترك

أولاداً أو عيالا ذوي ضياع أي: لا شيء لهم. اهـ شرح مسلم ٦١/١١ .

(٣) فتح الباري ٤٣/١٠ .

(٤) أخرجه مسلم فى المساقاة، باب فضل إنظار المعسر برقم ١٥٦٣ من حديث أبي قتادة رضى الله عنه .

معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه" (١) .
٣ - وقوله عليه الصلاة والسلام : "من أنظر معسرا أو وضع له أظله الله يوم القيامة
تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله" (٢) . إلى غير ذلك من الأحاديث (٣) .
ولا ريب بأن صدى هذا الترغيب يؤثر في نفس المؤمن بالله واليوم الآخر فتجعله يقدم
لنفسه هذا الربح العظيم إلى يوم القيامة حيث يكون أحوج ما يكون إليه .

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه ص ٩٠٠ .

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع، باب في إنظار المعسر برقم ١٣٠٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال

عنه: حسن صحيح .

(٣) التي منها دعاؤه صلى الله عليه وسلم للمتسامح في القرض، كما أخرج البخاري في البيوع ٧٥/٣ من

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رحم الله رجلا سمحا

إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) .

المبحث الثالث

(الرهن)

الرهن فى اللغة : الثبوت والاستقرار، يقال هذا شيء رهن أى: ثابت دائماً (١)، ورهنته المتاع بالدين حبسته به ومنه قوله تعالى : ﴿كُلُّ امْرِئٍ عِندَ مَا كَسَبَ رَهينَ﴾ [سورة الطور: ٢١] أى: مرهون، ومنه الرّهان فى السباق وهو إخراج كل واحد رهنا ليفوز السابق بالجميع إذا غلب، ولذا قال الراغب (٢): "الرهن ما يوضع وثيقة للدين، والرّهان مثله، لكن يختص بما يوضع فى الخطار قال : وأصلهما مصدر، يقال : رهن الرهن ورهنته رهانا فهو رهين ومرهون، ويقال فى جمع الرهن : رِهان ورُهْن ورُهُون".

ويطلق الرهن على العين المرهونة تسمية للمفعول باسم المصدر (٣). وفى الشرع يعرف بأنه: "جعل عين مالية وثيقة بدين ليستوفى منها عند تعذر الوفاء (٤)".

مكانة الرهن فى المعاملات المادية وعلاقته بالأخلاق الاجتماعية المادية:

والرهن من المعاملات المادية الاجتماعية التى قد يحتاج إليها المرء فى حياته لإصلاح ما به قوام معاشه من نفقة أو تجارة أو زراعة أو صناعة أو لقضاء دين أو نحو ذلك من أمور الحياة المادية التى قد لا يستغنى عنها المرء فى حياته، فيحتاج أو يضطر إلى بذل ما عنده من متاع ونحوه لأخيه الإنسان ليعطيه مالا حالا يسد به نَحْلَتَهُ وحاجته.

ولاريب بأن إسعافه بذلك يعد من مكارم الأخلاق التى جاء بها الإسلام الحنيف، وإن كان الأصل فى سد هذه الحاجة أن تجرى بطريق القرض الحسن والمكاتبه الشرعية التى تقدم الحديث عنها، ولكن نظرا إلى أن هذا المحتاج قد لا يكون معروفا عند صاحب

(١) تاج العروس ٢٣١/٨، والمصباح المنير ٢٦٠/١ .

(٢) فى المفردات ص ٢٠٤ .

(٣) فتح الباري ٢٢٨/١٠ .

(٤) الباقوت النفيس ص ٨٢ .

المال ولا مؤتمنا لديه، أو يرى أنه لاقدرة له على الوفاء بالدين عند حلول أجله ، أو لا يكون شيء من هذه، ولكن لم يوجد عند المدانية من يكتب بينهم وثيقة كما أمر الله تعالى ، فكان لابد من أن يطمئن صاحب المال بما يضمن له إرجاع رأس ماله، فشرع الله تعالى أن يستوثق من المدين بما عنده من المتاع الذى يمكن أن يستوفي منه ماله عند تعذر وفائه، وذلك إرفاقاً به وتشجيعاً له على بذل معروفه لأخيه، وإرفاقاً بالمحتاج لينال مراده من المال لإصلاح حاله، مع بقاء أصل متاعه فى ملكه الذى قد يكون يضمن به عن البيع لحاجته إليه أو نفاسته عنده... وكان ذلك التشريع بقوله تعالى بعد تفصيل أحكام المدانية والكتابه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ٥٠٠﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣] .

ويلاحظ أن الله تعالى لم ينص إلا على عذر واحد من أعذار ترك القرض واللجوء إلى الرهن، وهو كون المتعاملين فى السفر مع فقدان الكاتب ، وذلك لكون هذا العذر هو غالب الأعذار فى طلب القرض، لاسيما فى ذلك الوقت لكثرة الغزو، ويدخل فى ذلك بالمعنى كل عذر من الأعذار المذكورة آنفا غيرها، فذكر العذر هذا فقط ليس قصراً عليه بل مخرج مخرج الغالب الذى لا مفهوم له كما هو معلوم (١) غير أن بعض أهل العلم (٢) قد حمل الآية على ظاهرها فذهب إلى أن الرهن إنما يكون فى السفر، وأما الحضر فلا ينبغى منه ذلك، ولا حجة لهم فى ذلك القول إلا الجمود على الظاهر ، فإن السنة المبينة للقرآن قد بينت أن الإرتهان يكون فى الحضر كما يكون فى السفر كما سيأتى بيانه، فدل على أن التقيد بالسفر إنما هو مخرج مخرج الغالب فقط وأن ليس كون الآية فى السفر مما يحظر فى غيره (٣) .

نعم الأصل أن يكون تفريج المسلم كربة أخيه المسلم بطريق القرض كما أسلفت، غير أن الناس مختلفون فى التوثق لأموالهم وفى الثقة بإخوانهم ، كاختلاف المستدنيين فى العسر واليسر والشعور بمسؤولية الدين ونية القضاء، فكان لابد من أن يوضع لكل صنف

(١) انظر المحرر الوجيز ٥٢١/٢، وجامع أحكام القرآن ٤٠٧/٣ .

(٢) منهم الضحاك ومجاهد وداود، انظر المرجعين السابقين .

(٣) انظر جامع أحكام القرآن ٤٠٧/٣ .

تشريع يلائمه تمشياً مع نهج الشريعة من حيث الشمول واليسر ، فمن وثق بالرد اكتفى بالمكاتبه، ومن لم يثق بذلك طلب الرهن، ومن كان كامل الوثاقة بأخيه والائتمان به فلا حرج عليه في أن لا يطلب مكاتبه ولا رهناً، وهذا هو الصنف الثالث من الناس الذي قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿...﴾ فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدِّ الذي أوْثَنَ أمانته وليتقِ الله ربّه...﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣] .

وتأمل إعظام الله لحقوق عباده حيث لم يكل حق صاحب المال إلى ما يعلمه من أمانة صاحبه لما توجبه الأمانة من الرد من حيث هي ، بل زاد على ذلك أن أمر المؤمنين بأداء الأمانة ليكون الوازع لأدائها إلهياً، إضافة إلى الوازع الخلقي، وذلك لما يعلمه سبحانه من أحوال خلقه وعدم ثبوت كثير منهم على الأخلاق الفاضلة عند اختبارهم بالدرهم والدينار، وأضاف إلى ذلك الأمر بالأداء: الأمر بتقوى الله ومراقبته للمبالغة في تربية المهابة في قلب المدين، لئلا يفرط فيما أوْثَنَ عليه ، وليستشعر دائماً أن الله سبحانه وتعالى مطلع عليه عالم بأمانة أخيه عنده ، وأنه لا ينفعه شيء من التخلص من علم الله تعالى ذلك المرتب عليه الجزاء منه سبحانه له عند الخيانة بإنكار أو نقص أو نحوه كما علم مما تقدم في مبحث الأمانة، فعليه أن يجعل بينه وبين علم الله تعالى هذا وقاية تحجزه من عذابه ، وذلك بتأدية حق أخيه كاملاً غير منقوص، مكافأة له على حسن ظنه به حيث ائتمنه على ماله ولم يطلب منه الوثاقة بدينه من كتاب أو رهن ، ف ﴿هل جزاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسان﴾ [سورة الرحمن: ٦٠] .

تمثل أخلاق التعامل

بالرهن فى النبي صلى الله عليه وسلم

قد علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش فى هذه الدنيا على كمال الزهد فيها وكمال الرغبة عنها ، وعلى رضاه بالكفاف من متاعها الزائل ، بل بأقل من الكفاف كما علمت فى مبحث زهده صلى الله عليه وسلم ، ومن كان حاله كذلك لا يكون مدخرا مالا يمكن أن يقرضه أو يسترهن به ، لأن ادخار المال ينافى الزهد فى الدنيا ، بل على الزاهد أن يوجد بما لديه ويستوى عنده العدم والجدة ، وهو الحال الذى كان عليه صلى الله عليه وسلم فإنه لم يدخر درهما ولا دينارا ، وقد فتح الله عليه الدنيا وأتته الأموال الكثيرة من الغنائم والخراج والفيء والهدايا وغير ذلك ، فكان ينفقها كلها ، بحيث يمسي وليس عنده منه شيء ، كما علمت من المباحث المتقدمة : الزهد والكرم ...

وحيث كان كذلك فلا يمكن أن يقرض أو يسترهن لنفاد ما عنده بطريق الإنفاق فى وجوه الخير ، ولهذا لم أجد مثالا لإقراض النبي صلى الله عليه وسلم أو ارتهانه ، أما العكس من ذلك وهو اقتراضه أو رهنه فصوره كثيرة ؛ لأن الحال الذى كان عليه صلى الله عليه وسلم استدعى منه ذلك ، وقد تقدمت الأمثلة الكثيرة فى القرض .

وأما الرهن فقد كان تعامله صلى الله عليه وسلم به قليلا لعدم احتياجه صلى الله عليه وسلم لأن يبذل ذلك لأحد يستقرض منه فيطلب منه الرهن ، إذ أمانته صلى الله عليه وسلم ووفاءه أعظم فى نفوس معامليه من أن يقام عليها رهان ، ووثاقتهم به أعظم من بذل الوثائق والأرهان ، فالسعيد من ساعده الحظ بإقراضه صلى الله عليه وسلم ؛ ليكسب بذلك برا عنده وقضاء حسنا خيرا من ماله الذى بذله .

إلا ما كان من "يهود" المليئة قلوبهم غيظا وحسدا وحقدا عليه صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا لما هم عليه من خبث الطوية لصاحب الخلق العظيم ، يتجاهلون الحقائق العظيمة المتمثلة فيه صلى الله عليه وسلم ويتكبرون لها ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا احتاج إلى معاملة أحدهم لضرورة الحياة لكونهم كانوا أهل الثراء والحرفة ، أحوجه عننتهم وعنادهم له أن يبذل لهم الوثائق كما يحبون ، تطييبا لقلوبهم كما جرى له عليه

الصلاة والسلام مع أبي الشَّحْم اليهودي (١) حيث احتاج إلى بعض شعر مما عنده فاشترى منه إلى أجل ورهنه درعه .

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودي طعاما إلى أجل ورهنه درعه" (٢) .

فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم رهن عُدة . الحرب وهي الدرع ، لتأمين صاحب المال على حقه لما كان ليس في قلبه من الثقة بالنبي صلى الله عليه وسلم لكفره وعناده ماهي في قلوب أصحابه .

ولا ريب أن صاحب الخلق العظيم يأبى أن يشوّش على صاحب المال قلبه، فإنه صلى الله عليه وسلم قد كان يقول: "إن لصاحب الحق مقالا" فلذلك بادر إلى ما يستوثق به ليطمئن قلبه من غير أي تردد ولا أنفة، وهذا يدل على ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من السهولة واللين والتواضع والانقياد إلى شرع الله، لا يمنعه من ذلك جلال النبوة ولا كمال العصمة ولا دناءة طالب الاستيثاق، فإنه صلى الله عليه وسلم لما علم أنه يريد حقا بادر إليه، فأين هذا الخلق من حكام المسلمين اليوم لو طلب منهم مثل ذلك أو أقل منه؟! قال العلماء: "إن الحكمة في عدوله صلى الله عليه وسلم عن معاملة مياسير الصحابة إلى معاملة اليهودى إما لبيان الجواز، أو لأنهم لم يكن عندهم إذ ذاك طعام فاضل عن حاجة غيرهم، أو خشى أنهم لا يأخذون منه ثمنا أو عوضا فلم يرد التضيق عليهم، فإنه لا يبعد أن يكون فيهم إذ ذاك من يقدر على ذلك أو أكثر منه، فلعله لم يطلعهم على ذلك وإنما أطلع عليه من لم يكن موسرا به" (٣) .

وهذا التعليل الأخير هو المناسب لمقام صاحب الخلق العظيم فإن جواز معاملتهم قد علم

(١) كذا سماه الحافظ في الفتح^{٢٢٩١٠} نقلا عن الشافعي والبيهقي .

(٢) البخاري في الرهن، باب رهن السلاح ١٨٧/٣، وأبو داود أخر، ومسلم في البيوع، باب الرهن وجوازه في الحضرة^{كاسنر} برقم ١٦٠٣، والقصة ثابتة أيضا من حديث أنس وابن عباس وغيرهما .

(٣) فتح الباري ٢٣٠/١٠، وانظر شرح مسلم للنووي ٤٠/١١ .

من أدلة أخرى كثيرة في الكتاب والسنة ، وكون الصحابة جميعهم ليس عندهم طعام فاضل عن حاجتهم بعيد، كما علم من حال الصحابة فإن المياسير منهم كثير، من الأنصار أو المهاجرين، ولذلك احتوى التعليل الثالث على استبعاد الثاني حيث قال : فإنه لا يبعد.. الخ فعلم أنه صلى الله عليه وسلم عامل اليهود بما يليق بكرم خلقه وحسن تعامله من غير أن يستأنف من بذل الرهن لصاحب الحق عملاً بقوله تعالى: ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾^[البقرة ٢٨٣] أي: فالذي يستوثق به رهن مقبوضة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتمثل القرآن في واقع حياته وعمله كما قد علمته، ولذلك وجدنا من هديه قوله: "دعه فإن لصاحب الحق مقالاً"، (١).

(١) متفق عليه وتقدم تحريجه في القرض ص ٩٢١ .

المبحث الرابع

(الإجارة)

الإجارة: العقد على المنافع بعوض، وهو ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً، يقال أجره وآجره إيجاراً ومؤجرة إذا عامله بالإجارة (١)، ومنه سمي ثواب الطاعات أجراً كما قال تعالى: ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم﴾ [سورة محمد: ٣٦]

وشرعاً هي: "عقد على منفعة معلومة مقصورة قابلة للبدل والإباحة بعوض معلوم" (٢)

مكانة الإجارة في المعاملات المادية وعلاقتها بالأخلاق الإجتماعية المادية:

والإجارة من المعاملات المادية الإجتماعية التي هي من ضروريات الخليفة وتقتضيها مصلحه الخلطة بين الناس، وتفتقر إلى الأخلاق الحميدة من صدق وأمانة ونصح.. وغير ذلك فلا تنجح ولا تفلح إلا بها وهي من المكاسب الشريفة التي تعاطاها النبيون وعباد الله الصالحون، من أولئك نبي الله موسى عليه السلام حيث آجر نفسه عند نبي الله شعيب عليه السلام عشر سنين في رعي الغنم بمهر امرأته، كما قص الله تعالى ذلك بقوله: ﴿قالت إحداهما ياأبت إستأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ * قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين * قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على مانقول وكيل﴾ [سورة القصص: ٢٦-٢٨].

وقد نوهت هذه الآية بأجل أخلاق الإجارة وأكبر مقوماتها وهي الأمانة والقوة، أما الأمانة فلأن بها يتم حفظ الأموال وتنميتها، وأما القوة فلحمايتها وإصلاحها والسعي الحثيث فيما استئوجر لها من الرعاية والتنمية ونحوها، ولهذا اختصنا بالذكر دون

(١) مختار الصحاح ص ٦، ومفردات القرآن ص ١٠، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٣٥.

(٢) الياقوت النفيس ص ١١٢.

الصفات الأخلاقية المطلوبة في الإجارة من صدق ووفاء، وإخلاص.. ونحو ذلك، إذ على ضوء هاتين الصفتين يتم اختبار الأجير غالباً، فمن توفرت فيه هاتان الخصلتان بادر الناس إلى استئجاره، وتباروا في تفضيله واختياره، كما هو الحال في نبي الله موسى عليه السلام الذي كان بتلك المثابة، بله عن حسن معاملته ولين جانبه مع من استأجره أو من يتعامل معه كما أفاده قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: في التعامل وغيره (١).

وحيث أدى الأجير ما استؤجر له، استحق الأجرة كاملة غير منقوصة وعاجلة غير آجلة، وللعلماء في أجرة موسى كلام يخرج بنص الآية عن ظاهرها (٢).

(١) انظر التفسير الكبير ٢٤/٢٤٣.

(٢) إذا الظاهر أن الإجارة المذكورة جعلت مهراً للبنت، وعليه فقد جعل المهر منافع إجارة الزوج نبي الله موسى، لأنبي المرأة وهو نبي الله شعيب عليهما السلام، فيحتمل أن يكون ذلك برضاها؛ لأنها سمعت وسكتت بناء على عوائد مرعية عندهم بأن ينتفع بتلك المنافع أبوها، ويحتمل أن يكون ولي المرأة بالأصالة هو المستحق للمهر في تلك الشريعة، فإن عوائد الأمم مختلفة في تزويج ولاياهم، هـ، التحرير والتنوير ١٠٧/٢٠، وانظر تفسير القرطبي ١٣/٢٧٣.

ومع مقتضى هذا الظاهر فقد ذهب أهل التفسير إلى البحث عما كانت عليه أجرة موسى على رعي الغنم مع تسليمهم بما يدل عليه ظاهر الآية من أنه المهر، فمن قائل: إنه جعل له كل سحلة توضع خلاف لون أمها، ومن قائل: إنه جعل له كل بقاء تولد، ومن قائل: بأنه جعل له كل ماتلد تلك المواشي تلك السنة على ذات لونين، ومن قائل: إنه أجر نفسه بشيع بطنه وعفة فرجه، ويروي ذلك مرفوعاً ^{وفي} إسناده ضعف كما قال الحافظ في الفتح ٩/١٠، إلى غير ذلك مما لم يؤيده النقل الصحيح، انظر تفسير القرطبي ٢٧٦/٣، ولذلك قال الشافعي محتجاً بهذه الآية على مشروعية الإجارة: (ذكر الله سبحانه وتعالى أن نبيا من أنبيائه أجر نفسه حججاً مسماة ملك بها بضع امرأة) كذا في الفتح لابن حجر ٩/١٠، وقال الحافظ بعد أن مناق تلك الأقوال: (وقد أبعد من جوز أن يكون ^{المهر} شيئاً آخر غير الرعي...) وهذا كله بناء على شرع غيرنا.

ويدل على استحقاق الأجرة قول الله تعالى على لسان موسى وهو يخاطب الخضر عليهما السلام: ﴿... فوجدنا فيها جداراً يُريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لانتخذت عليه أجراً﴾ [سورة الكهف: ٧٧] فقد قال القرطبي: "في هذه الآية دليل على صحة جواز الإجازة، قال: وهي سنة الأنبياء والأولياء (١)".

"وقد كانت مشروعة معلومة في كلِّ ملة (٢)" كما دلت عليه الآيات المتقدمة في استئجار شعيب لموسى عليهما السلام، وذلك لمقتضى ضرورة الحياة وطيب الكسب منها، ولذلك عرض موسى عليه السلام على الخضر عليه السلام أن يأخذ أجرة عمل إقامة الجدار من أصحاب القرية الذين أبوا أن يضيفوهما، لما رأى عدم استحقاقهم لأن يتنازل الخضر لهم عن أجرة العمل الذي قام به؛ للؤمهم في عدم قراهم الأضياف، لا سيما مع حاجتهم وطلب منهم ذلك.

= أما في شرعنا فقد ذكر القرطبي في المسألة الثالثة من المسألة العاشرة من مسائل هذه الآية ما نصه: (الثالثة: وأما النكاح بالإجازة فظاهر من الآية، وهو ما قرره شرعنا وجرى في حديث الذي لم يكن عنده شيء من القرآن، رواه الأئمة، وفي بعض طرقه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تحفظ من القرآن) فقال: سورة البقرة والتي تليها، قال: (فعلمها عشرين آية وهي امرأتك) قال: واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال، فكرهه مالك ومنعه ابن القاسم وأجازاه ابن حبيب، وهو قول الشافعي وأصحابه، قالوا: يجوز أن تكون منفعة الحر صداقاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن، وقال أبو حنيفة: لا يصح... وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجازة جائز لقوله تعالى: ﴿فأتوهن أجورهن﴾ وقال أبو بكر الرازي: لا يصح؛ لأن الإجازة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد فهما متنافيان.. إلى أن قال: وعول على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة، ثم نقل عن ابن خوزيمنداد قوله: (تضمنت هذه الآية النكاح على الإجازة، والعقد صحيح، ويكره أن تجعل الإجازة مهراً وينبغي أن يكون المهر مالا كما قال عز وجل: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ﴾). هـ جامع أحكام القرآن

للقرطبي ٢٧٤-٢٧٣/١٣ .

(١) تفسير القرطبي ٣٢/١١ .

(٢) المرجع السابق ٢٧١/١٣ .

ولذلك توالى أوامر الله تعالى فى أكثر من آية بإيتاء الأجور لمستحقيها من النساء ونحوهن كما فى قوله تعالى : ﴿..فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ..﴾ [سورة الطلاق: ٦] حيث أوجب على الأزواج أن يدفعوا لمطلقاتهم أجرة على إرضاعهن أولادهم منهن، لاستحقاقهن لذلك بانقضاء عُلقة النكاح التى كانت تقتضى الرضاعة بغير أجر، فلما انقطعت استوجبت الأجر على عملها ذلك، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ [سورة البقرة: ٢٣٣] .

وكذا أمر الله تعالى بأن يدفع للزوجات أجورهن على بذلن أنفسهن للأزواج واستمتاعهم بهن وهو المسمى بالصدّاق أو المهر، كما فى قوله تعالى : ﴿..فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [سورة النساء: ٢٤] وقوله سبحانه : ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ..﴾ [سورة النساء: ٢٥] .

فقد سمي الله تعالى ما يُعطى للمرأة من الصّدّاق : أجراً؛ لأنه أجر الاستمتاع، قال القرطبي: "وهذا نص على أن المهور تسمى أجراً، وذلك دليل على أنه فى مقابلة البضع لأن ما يقابل المنفعة يسمى أجراً..(١)" ولذلك علق الله تعالى بإباحة النكاح على بذل هذه الأجرة كما هو الحال فى الإجارة، إذ لا تصح إلا عند توفر أركانها الأربعة التى هى: الأجرة والصيغة والمنفعة والعاقدة (٢) وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ولا جناح عليكم أن تنكِحوهنّ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [سورة المتحّنه: ١٠] وقوله سبحانه: ﴿اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ إلى قوله: ﴿والمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ أَمَّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [سورة المائدة: ٥] .

ولم يعف الله أحداً من بذل هذه الأجرة حتى نبهه ومصطفاه الذى خصه بخصائص كثيرة من دون الأمة، فإنه لم ييح له الزواج إلا ببذل الأجرة لزوجاته كما قال الله

(١) جامع أحكام القرآن ١٢٩/٥ .

(٢) انظر الياقوت النفيس ص ١١٣ .

تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ . . . [سورة الأحزاب: ٥٠] وقد مضى أيضاً ذلك فى بابهِ (١) .

فهذا كله يدل على أهمية بذل الأجرة لمستحقها وأنه لا يجوز التفريط بمستحقات الأجراء منها ؛ ولهذا كان الله تعالى وهو الحكم العدل لا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل يوفى العاملين بطاعته أجورهم كاملة غير منقوصة كما وعد الله تعالى بذلك عباده فى أكثر من خمسين آية واصفا أجره لهم بأنه عظيم ، وبأنه كبير، وبأنه كريم، وبأنه حسن، وبأنه بغير حساب، وأنه غير ممنون، وقد أخبر سبحانه أنه لا يخلف الميعاد، وبأنه كريم ومعلوم أن الكريم إذا أعطى أجزل فى العطاء وإن لم يقدم إليه بر أو مقابل، فكيف بمن قدم له ذلك ، فلا ريب بأنه سيكون أجراً عظيماً يليق بجوده وكرمه سبحانه وتعالى ﴿فَنَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [سورة الزمر: ٧٤] وكل ذلك أدخره لعباده ليوم الجزاء الأخروى ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [سورة يوسف: ٥٧] .

وقد أكد لعباده حصولهم ذلك الأجر بنفيه أن يضيع عمل عامل منهم من ذكر أو أنثى فى نحو سبع مرات كما فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٧١] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٠] . إلى غير ذلك .

وذلك إضافة إلى ما اشتملت مواعيده تلك من مؤكدات بلاغية من أدوات التأكيد المعروفة كإِنَّ والجملة الاسمية ولام الابتداء ونحو ذلك ، وذلك كله لحث عباده على العمل الصالح ليحزل لهم الأجر والثواب .

ولا شك بأن المؤمن واثق من إنجاز وعد ربه له، وأنه لا ريب فيه لمقتضى إيمانه به وباليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب ، ولذلك هو يعبد الله ويرغب إلى الله فى قبول عمله لينال الأجر الموعود به . ولقد كان الأنبياء فى طليعة المؤمنين الذين يثقون بذلك من ربهم ويرغبون فى حصول أجر أعمالهم التى يقومون بها فى الدعوة إليه والطاعة له .

كما حكى الله تعالى عنهم في آيات كثيرة قولهم لأقوامهم: ﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على ربِّ العالمين﴾ [سورة الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٦٤، ١٨٠] ونحو ذلك، وقد حكى الله تعالى عنهم^{ذلك} على سبيل الإقرار والإيحاء بإنجازه لهم ﴿ولن يخلف الله وعده﴾ [سورة الحج: ٤٧] ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ [سورة آل عمران: ٩].

تمثل أخلاق التعامل

بالإجارة في النبي صلى الله عليه وسلم

قد علمت أن الإجارة من المعاملات التي دأب على التعامل بها الأنبياء والأولياء؛ لما فيها من كسب طيب في الرزق، وتربية خلقية في السلوك، حيث يتدرب الأخير برعاية ما استؤجر له إلى رعاية أرقى منه .

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يستأجرون لرعي الغنم أو نحوها كما علمت من حال موسى عليه السلام ، وكذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء، فقد صح عنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله : " ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم " فقال أصحابه رضي الله عنهم وأنت ؟ فقال : " نعم كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة " (١) .
وذلك لحكمة أرادها الله تعالى فألهمهم ذلك لأجلها، وهي : " أن يحصل لهم الثمر برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، لأن في مخالطتها يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفريقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مراح، ودفع عدوها من سبع وغيره، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرهما ، ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط ١١٥/٣، وابن ماجه في التجارات، باب

الصناعات ٧٢٧/٢، ومعنى قوله: على قراريط لأهل مكة: أنه كان يرعاها لهم بأجرة قدرها كل شاة

بقيراط، والقيراط جزء من الدرهم أو الدينار كذا فسر (سويد) أحد رواة الخبر عند ابن ماجه، ورده

ابراهيم الحربي فقال: قراريط اسم موضع بمكة، ولم يرد القراريط من الفضة، قال الحافظ ابن حجر: لكن

رجح الأول؛ لأن أهل مكة لا يعرفون مكانا يقال له: قراريط، قلت: وهذا ما فهمه البخاري حيث عنون

لهذا الحديث: باب رعي الغنم على قراريط، وانظر فتح الباري ٥/١٠، وإرشاد الساري للقسطلاني

لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدريب على ذلك برعى الغنم.

وخصت الغنم لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع كثرة تفرقها فهي أسرع انقيادا من غيرها" (١).

وفي تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن بيان حاله بعد أن علم بكونه أكرم الخلق على الله، بيان لما كان عليه من عظيم التواضع لربه سبحانه والتحدث بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقد كان صلى الله عليه وسلم في تعامله هذا مثالا لما ينبغي أن يكون عليه التعامل في هذا الباب بلا ريب، لما كان عليه من الصدق والأمانة والإخلاص والوفاء... كما علم مما سبق، ويدل على ذلك قناعته بالأجرة القليلة التي كان يتقاضاها كما يدل عليه جمع القلة المستفاد من اللفظ "قراريط" أي: قراريط معدودة محدودة.

ومن كان كذلك فإن تعامله مع غيره سيكون مثاليا حقا، وهذا ما جعل الناس يأتمنونه على أموالهم ولم ينازعه أحد في الكفاءة بتلك المسؤولية، كل ذلك ولما يوحى إليه بعد، فلما بعثه الله رحمة للعاملين لم تزد هذه البعثة إلا ترسيخا للأخلاق الرضية العظيمة التي طبع عليها، والتي كانت بعثته لإتمام معالمها، غير أنه لم يكن ليتعاطى الإجارة في نفسه وقد كلفه الله بمسئولية الرسالة وهدايه الأمة وأغنائه عن ذلك، وفضله على كثير من خلق تفضيلا.

استئجاره صلى الله عليه وسلم غيره وحسن معاملته لأجرائه :

ولكن كان يستأجر غيره فقد عامل صلى الله عليه وسلم أناسا باستئجارهم في مناسبات كثيرة فمن ذلك :

(١) فتح الباري ٦/١٠، وإرشاد الساري للقسطلاني ٤/١٢٧، وانظر الروض الأنف بسيرة ابن هشام

١٩٢/١، والوفاء بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم ١٤٢/١.

١ - استئجاره صلى الله عليه وسلم رجلا من المشركين (١) عند خروجه للهجرة يدهم على الطريق، وكان من صفات هذا الأجير المرشحة لاستئجاره أنه كان (هاديا خريتا) أى ماهرا بمعرفة الطريق كما أخرج ذلك البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : استأجر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الدليل، ثم من بنى عبد بن عدى هاديا خريتا - الخريت الماهر بالهداية - قد غمس يمين حلف فى آل العاص بن وائل وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحتيهما صبيحة ليال ثلاث فارتحلا، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الدليلي، فأخذ بهم أسفل مكة وهو طريق الساحل" (٢).

٢ - ومن ذلك استئجاره صلى الله عليه وسلم يهود خيبر على العمل فى أرض خيبر التى أخذها منهم لما افتتحها فى العام السابع من هجرته، وذلك لما رأى صلاحية إبقائهم للعمل بها لخبرتهم بذلك العمل، وآجرهم على ذلك شطر ما يخرج من ثمارها . كما أخرج ذلك البخارى (٣) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : "أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر اليهود على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها " .

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يختار أجراءه لما تقتضى المصلحة منه أن يستأجر، يختار المهرة الأمناء، فالدليل الدليلي كان على الغاية من المهارة والأمانة، بحث استطاع بفضل الله ثم بمهارته أن يسلك بالنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه الطريق البعيدة عن الأنظار، التى لا يخطر ببال مشركي قريش أن يسلكوها، فكان ذلك من عوامل نجاح الهجرة المباركة .

وأما أمانته فقد دل عليها ثقة النبي صلى الله عليه وسلم به وأنه لم يخونهم بإفشاء

(١) هو عبد الله بن أريقط كما فى القسطلاني ١٢٨/٤ .

(٢) البخاري فى الإجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام ١١٦/٣ .

(٣) فى الإجارة ١٢٣/٣ وفى مواطن أخرى منها فى الزراعة ١٣٨/٣ .

ذلك الأمر لقريش التي كانت تبذل جائزة مغرية على ذلك قدرها مائة من الإبل . وقد كان في محل الوثاقة به حيث لم يغره ذلك العطاء الجزل لينخر أمانته مع ما هو عليه من الشرك والعداء له صلى الله عليه وسلم بمقتضى مخالفته له في الدين، وهذا يدل على عظيم حسن اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لاستئجار هذا الرجل .

وأما استئجاره ليهود خبير للعمل بما كانت أرضا لهم فلا يخفى مبلغ حكمته صلى الله عليه وسلم في اختيارهم لهذا العمل، لأنهم أدرى الناس بها وبما يصلحها من سقي وبذر وتنمية وحصاد، ولو أنه ترك ذلك في أيدي آخر لربما هلك النخل ولم يستفد منه المسلمون بشيء، لعدم خبرة من سيقوم بذلك بهذه الأرض وعادات أهلها الأسبقون فيها فهذا من حيث الاختيار .

أما من حيث بذل الأجرة فقد بذل لهم صلى الله عليه وسلم أجرا كبيرا حيث جعل لهم شطر ما يخرج من ثمارها، وهذا لا ريب في أنه كثير يليق بكرمه صلى الله عليه وسلم وحسن معاملته لهم، إذ كان بوسعه أن يبذل لهم أقل من ذلك كالثلث أو الربع أو الثلث وسيرضون بذلك لما يرون فيه من المصلحة في نيل ذلك، غير أنه عليه الصلاة والسلام أبى إلا أن يعطيهم فوق ذلك لما هو عليه من الجود والسخاء، لتقتدي به أمته في معاملة أجرائهم من حسن البذل لهم، وحسن اختيارهم، وغير ذلك مما يتعلق بحقوقهم وواجباتهم .

٣ - وهكذا كان صلى الله عليه وسلم في سائر استئجاراته كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : "ان النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجام أجره" (١) وذلك مع كراهته صلى الله عليه وسلم لكسب الحجام فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام قوله : "كسبُ الحجام خبيث" (٢) ومع ذلك فقد دفع للحجّام أجره

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ، باب خراج الحجّام ١٢٢/٣ .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب برقم ١٥٦٨، وأبوداود في البيوع، باب كسب الحجّام

برقم ٣٤٢١، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في ثمن الكلب برقم ١٢٧٥، والنسائي في الصيد، باب

النهي عن ثمن الكلب ١٩٠/٧، من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه .

عمله، وإن كان ذلك الكسب من حيث هو غير شريف، لكونه يدل على دناءة النفس لما فيه من مزاولة النجاسة، ومع ذلك فقد أعطاه ما استوجبه من الأجر، لأنه كما قال أنس رضى الله عنه "لم يكن يظلم أحدا أجره" (١) يعني: وإن كان يكره له تلك الصنعة فإن عمله يستوجب الأجر من حيث هو أجر، فكان عليه الصلاة والسلام يبذله بل ويكرمه.

٤ - فعن أنس رضى الله عنه قال: "حجم أبو طيبة رضى الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم فأمر له بصاع أو صاعين من طعام، وكلم مواليه فُخِّفَ عن غلته أو ضربيته (٢)"، وذلك زيادة له فى الإكرام وبذل الإحسان فى مقابل عمله.

٥ - ولما ارتاب الصحابة رضوان الله عليهم فى أخذ الأجرة على الرقية بكتاب الله أزاح ما فى قلوبهم من الريب بمباشرة عليه الصلاة والسلام الأخذ من ذلك الأجر، كما أخرج ذلك البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "وما يدريك أنها - أي: الفاتحة - رقية؟ قال: قد أصبتم، اقساموا - أي: الأجرة - واضربوا لى معكم سهما... (٣)".

وفى رواية أخرى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما: "أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا بماء (٤) فيهم لديغ - أو سليم - فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل منكم من راق؟ فإن فى الماء رجلا لديغا: أو سليما، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء (٥)، فبرىء، فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا

(١) أخرجه البخارى فى الإجارة، باب خراج الحمام ١٢٢/٣.

(٢) أخرجه البخارى فى الإجارة، باب ضريبة العبد وتعاهد ضرائب الإماء ١٢٢/٣.

(٣) البخارى فى الإجارة، باب ما يعطى فى الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب ١٢١/٣ ومتنه طويل، وفى

الطب ١٧٠/٧.

(٤) أي: يقوم نزلوا على ماء.

(٥) أي: على أجر من الشاء، وقد ذكر فى الروايات الأخرى أنه قطع من الغنم.

ذلك، وقالوا : أخذت على كتاب الله أجرا؟ حتى قدموا . المدينة فقالوا : يا رسول الله
أخذ على كتاب الله أجرا !، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أحق ما أخذتم
عليه أجرا كتاب الله" (١) .

فأفادهم النبي صلى الله عليه وسلم الحكم الشرعي من جواز أخذ الأجره على الرقية
بالقرآن وأنه أحق ما بذلت فيه الأجرة، ثم شاركهم في اقتسامها ليكون ذلك زيادة في
تطبيب قلوبهم على حل أخذ هذه الأجرة لأنها دخلت عليهم بطريق العمل المشروع،
وقد قال عليه الصلاة والسلام : "أطيب الكسب عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور" (٢) .

فهذا هو هديه صلى الله عليه وسلم في استئجار الأجراء، وحسن معاملته لهم،
والمبادرة إلى إعطائهم حقوقهم وإكرامهم فوق ذلك، وهذا السلوك النبوي يجب على
الأمة اتباعه بمقتضى الإيمان به صلى الله عليه وسلم وأمر الله عباده بلزوم اتباعه كما قال
سبحانه "﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾" ومع ذلك فإنه صلى الله
عليه وسلم لم يترك الأمة على هذا المقتضى، بل حذر من التهاون بحقوقهم وأكلها، وحث
على المبادرة والإسراع بأدائها في غير ما حديث .

تحذيره صلى الله عليه وسلم من أكل حقوق الأجراء، وحثه على المبادرة ببذل
الأجرة:

١ - فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله
تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه،
ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يؤته أجرته" (٣) .

(١) أخرجه البخاري في الطب، باب الشرط في الرقية بقطع من الغنم ١٧٠/٧ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٤١/٤، والحاكم في المستدرک ١٠/٢، وعزاه الهيثمي في المجمع ٦٤/٤ إلى

الطبراني في الأوسط والكبير قال: ورجاله ثقات . وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٦٠٧ .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، باب إثم من باع حرا ١٠٨/٣، وفي باب من باع أجرا الأجير ١١٨/٣ من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفى رواية : "ومن كنت خصمه خصمته (١)".

وفى هذا الوعيد ما يمنع من ظلم الأجراء ويضمن لهم الوفاء، لدى من يلقي السمع وهو شهيد؛ لأن الله تعالى : إذا خاصم عبدا فإن العبد لا يفلح أبدا؛ لأن الخصومة تقتضى العقوبة وإن لم يكن هناك سبب يوجب إنزالها، فكيف به إذا وجد، وهو هنا ظلم الأجير، حيث استخدمه بغير عوض، وهذا هو عين الظلم، وقد قال جل شأنه : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [سورة ابراهيم: ٤٢-٤٣] .

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يحث المستأجرين على المبادرة إلى إعطاء الأجراء حقوقهم حتى لا يقع منهم تفريط أو تقصير فيكونون عرضة لذلك العذاب الأليم .

٢ - فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه" (٢) .

فهكذا كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم فى معاملات الأجراء على كرم الأخلاق فى سلوكه بنفسه وتوجيهه أمته لذلك بقوله، فليت الأمة تدرك ما كان عليه نبيه وما يريد منها فى هذا الباب الذى طالما تهاون به المسلمون إلا من رحم ربك، الأمر الذى يجعل للأجراء عليهم يدا فى الإساءة ويحرجونهم على مساوئ الأخلاق من السب والكراهية والاستطالة... .

(١) عزاه الحافظ فى الفتح ٢٨٩/٩ إلى ابن خزيمة وابن حبان، وهو فى الإحسان ٢١٨/٩ .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ١٢١/٦، وابن عدي فى الكامل من ١٨٢٠/٥ من حديث عطاء بن

يسار، وصححه الألبانى فى الإرواء ٣٢٢/٥ من حديث أبي هريرة وذكر له طرقا وشواهد أخرى .

المبحث الخامس

(العارية)

العارية في اللغة: اسم لما يُعار، ولعقدها أيضاً، مأخوذة من التَّعَاوَر وهو التناوب؛ لأن المعير يجعل للغير نوبة في الانتفاع بملكه إلى أن يعود إليه، يقال: عاوره الشيء معاورة أعطاه عارية، وعاره الشيء وأعاره منه إعارة أعطاه إياه عارية .

وقيل هي مشتقة من العريّة وهي العطية، وقيل سميت عارية لتعريضها عن العوض (١) . وهي في الشرع: "إباحة الانتفاع بما يحل الانتفاع به مع بقاء عينه" ويقال: "هي تمليك منفعة بلا بدل" (٢) .

مكانة العارية في المعاملات المادية الاجتماعية :

والعارية من المعاملات الاجتماعية ذات الصبغة الأخلاقية، حيث إن المعير يقوم بإرفاق أخيه بإعارته المتاع الذي يحتاجه ليستعمله في حاجته، وذلك من التكافل الاجتماعي بين المسلمين، ويورث الوُدَّ والإخاء وتبادل المحاب فيما بينهم، وهذا من أهداف الأخوة الإيمانية بين المؤمنين، ولهذا ذم القرآن الكريم من تنكّر لهذا الخلق الاجتماعي العظيم أيما ذم، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ...﴾ إلى قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [سورة الماعون: ١-٧] .

فإن منعهم الماعون يعنى منع عارية ما يحتاج إليه الإنسان من أخيه من متاع البيت ونحوه مما ينتفع به مع بقاء عينه، ولا يمنع في العادة إعارته كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسرين .

(١) انظر محيط المحيط للبستاني ص ٦٤٣، وأنيس الفقهاء للشيخ قاسم القونوي ص ٢٥٢، والياقوت النفيس

للشاطري ص ١٠٢ .

(٢) الياقوت النفيس ص ١٠٢، والتعريفات للجرجاني ص ١٤٦ .

قال الفخر الرازي رحمه الله تعالى (١) : "القول الثاني (٢) وهو قول أكثر المفسرين : أن الماعون اسم لما لا يمنع في العادة ويسأله الفقير والغني، وينسب مانعه إلى سوء الخلق ولؤم الطبيعة كالفأس والقدر والدلو والمقدحة والغربال والقدم، قال : ويدخل فيه الملح والماء والنار فإنه روي: "ثلاثة لا يحل منعها الماء والنار والملح" (٣) ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يجبز في تنورك أو يضع متاعه عندك يوما أو نصف يوم... إلى أن قال : ويسمى ما يستعار في العرف كالفأس والشفرة ماعونا، قال : وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة فإن البخل بها يكون في نهاية الدناءة والركاكة . والآية وإن تحدثت عن المنافقين الذين كانوا بهذه الصفات كما وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [سورة النساء: ٢٣٧] إلا أن الآية عامة في دلالتها إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم .

ولذلك قال القاسمي رحمه الله تعالى : "المعني بهذه الآيات أولا وبالذات: المنافقون في عهد النبوة ويدخل فيها ثانيا وبالعرض: كل من وجد فيهم تلك الخلال الذميمة اعتبارا بالعموم (٤)".

ومعلوم أن ذم الله تعالى عبدا من عباده على فعل شيء أو تركه يقتضى بمفهوم المخالفة مدحه له عند تجنبه موضع الذم منه، ففاعل العارية على هذا ممدوح كما يفهم من ذم تاركها .

(١) في تفسيره الكبير ١١٥/٣١ .

(٢) وكان قد ذكر القول الأول أنه الزكاة لأن الله تعالى ذكره عقيب الصلاة، وذكر القرطبي في تفسيره أحد عشر قولاً في معناه، منها ما ذكرته من العارية والزكاة .

(٣) الرواية الثابتة في ذلك هي ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ثلاث لا يمنعن الماء والكأ والنار" أخرجه ابن ماجه في الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث برقم ٢٤٧٣، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٥٥/٢ برقم ٨٧٥: إسناده صحيح ورجاله موثقون .

وما رواه رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول: "الناس شركاء في ثلاث: في الماء والكأ والنار" أخرجه أبو داود برقم ٣٤٧٧، وأحمد في المسند ٣٦٤/٥، والبيهقي في السنن ١٥٠/٦، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٧/٦ .

(٢) محاسن التأويل ٢٧١/٧ .

فهذا ما علمته جاء في شأن العارية في كتاب الله تعالى، وهو وإن كان حديثا عنها في بعض صورها وأقلها شأنًا، فإن بقية صورها وأجلها نفعًا، كشأن ما ذكر منها بل أولى، فإن ما ذكر منها، إنما هو للدلالة على أصل التشريع فيدخل فيه الحقير والجليل، بل قياس الأولى يقتضى أن المدح والذم يترتب على العارية الجليلة أكبر منه في الصغيرة الحقيرة، وذلك نظرا لعظم النفع الحاصل منها إن بذلت، وكبر الأثر على النفس بالإساءة إن منعت، وبهذا تعلم أن ذكرها في أقل صورها إنما هو مخرج مخرج الغالب، حيث إن أكثر ما كان يجرى من صور العاريات بين المسلمين هو الماعون، أو إن ذكر الماعون من باب ذكر الأدنى للدلالة على الأعلى بالأولى كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ...﴾ [البقرة ٢٣٣]

تمثل أخلاق التعامل

بالعارية في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم على ما قد علمت من الزهادة في الدنيا والرغبة في الآخرة، فهو لذلك لا بد وأن تقتضى منه الحياة أن يكمل ما يحتاج إليه من متاع الحياة وحاجياتها إما عن طريق الأجرة أو الاستعاره، فإذا ما دعت الحاجة إلى ذلك فما كان يتوانى عن التعامل بها على أكمل وجوه التعامل فضلا وأعظمها أخلاقا ونبلا.

١ - وذلك كما روى أبو داود وغيره من حديث صفوان بن أمية رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعار منه أدرعا يوم حنين، فقال : أغضب يا محمد؟ قال : "بل عارية مضمونة" (١).

٢ - وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يا صفوان هل عندك من سلاح؟" قال : عارية أم غصبا؟ قال : "لا بل عارية" فأعاره ما بين الثلاثين إلى الأربعين درعا، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ فلما هزم المشركون جمعت دروع صفوان، ففقد منها أدرعا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصفوان : "إنا قد فقدنا من أدرعك أدرعا فهل نغرم لك؟" قال : لا يا رسول الله لأن في قلبي اليوم ما لم يكن يومئذ" (٢).

ومن هذا تعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استعار بعض ما يحتاج إليه من أدرع صفوان لتجهيز بعض أصحابه للقتال في معركة حنين، ولكن كان ذلك على وجه الكمال الخُلُقِي من حيث الرد والضمان، بخلاف ما كان صفوان قد توهمه أو خافه إما لما

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، باب تضمين العارية برقم ٣٥٦٢، والحاكم ٤٧/٢، وأحمد في المسند ٤٠١/٣،

٣٦٥/٦، وأورد له الحاكم شاهدا من حديث ابن عباس وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي،

وتعقبهما الألباني في الإرواء لكنه صحح الحديث نظرا لشواهده وطرقه، انظر الإرواء ٣٤٤/٥-٣٤٦.

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع، باب تضمين العارية برقم ٣٥٦٣، والحاكم ٤٨/٣ وصححه ووافقه الذهبي،

وحسنه الألباني في الإرواء ٣٤٥/٥.

يعهده من عادة العظماء في عدم رد العواري اللاتي يستعيرونها كتلك، اعتمادا على قوتهم وضعف معيرهم حيث كان القوى منهم يأكل الضعيف ولا يبالي، إذ لا يكفه عن ذلك إلا قوِّيُّ مثله، فأحوجه علمه بذلك أن يستثبت لحقه بما يطمئنُّ قلبه إليه، أو أنه قال ذلك للتأكيد على النبي صلى الله عليه وسلم مع علمه بمبلغ أمانته وسمو أخلاقه، لما يكنُّ له من العداء حيث لم يكن قد أسلم بعده، وما أسلم إلا بعد حين .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يستأنف من استيثاق الرجل لماله بمثل ذلك السؤال، سواء كان عن حسن نية أو سوء طوية، لما هو عليه صلى الله عليه وسلم من الحلم والعدل والفضل...، ولا ريب فقد قال عليه الصلاة والسلام : "العارية مُؤدَّاة، والزعيم غارم، والدين مقضي (١)" .

وقال : "على اليد ما أخذت حتى تؤدي" (٢) .

ولذلك ضمن له النبي صلى الله عليه وسلم رجوعها بعد الانتهاء من الانتفاع بها، فلما انتهت المعركة بادر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رد العارية لصاحبها، واستعد لضمان ما فقد منها، مع أن يدهُ أمانة لا يلزمها الضمان إذا لم يوجد تفريط في العارية، كما كان منه صلى الله عليه وسلم في هذه العارية، وذلك تنفيذا لما وعده به من الضمان، ولكن لما

(١) أخرجه أبو داود في الكتاب والباب السابقين رقم ٣٥٦٥، والترمذي في البوع، باب ما جاء أن العارية مؤداة برقم ١٢٦٥ من حديث أبي أمامة وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٢٤٥/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود فيما سبق برقم ٣٥٦١، والترمذي فيه أيضا برقم ١٢٦٦ من حديث الحسن عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، وابن ماجه برقم ٢٤٠٠، وأحمد في المسند ١٣، ١٢، ٨/٥، والبيهقي في السنن ٩٠/٦، والحاكم في المستدرک ٤٧/٢، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وتعقب بأن سماع الحسن عن سمرة بن جندب مختلف فيه وهو المدلسين ولم يصرح بالتحديث فيه، قلت: لكنه من مدلسي المرتبة الثانية الذي احتمل الأئمة تدليسهم، انظر معرفة أهل التدليس ص ٥٦، ٤٩ .

كانت بشاشة الإيمان قد خامرت قلب صفوان بعدئذ، لم يرض أن يضمّن النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يفرط فيه فقال له : "لا لأن في قلبي اليوم ما لم يكن يومئذ" يعنى لما شرح الله صدره عندئذ للإسلام ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام .

وقد جاء في رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله أدرعا: مائة درع وما يصلحها من عدتها، فقال : أغصبا يا محمد، قال : بل عارية مضمونة حتى تؤديها إليك ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرا" (١) .

٣ - وجاء أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب العارية أيضا من يعلى بن أمية على ذلك النحو من الضمان فقد روى أبو داود رحمه الله من حديث صفوان بن يعلى عن أبيه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أتتك رسلى فأعطهم ثلاثين درعا وثلاثين بغيرا" قال فقلت: يا رسول الله أعارية مضمونة أو عارية مؤداة؟ قال : "بل مؤداة" (٢) .

وهذه الروايات تتفق على حصول تعامل النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعارة عندما دعت الحاجة إلى ذلك، وإن كان المعير كافرا، وذلك لشدة الحاجة إليها حينئذ، حيث لم يكن بد من أن يجهز ما يقدر على تجهيزه من المسلمين لمواجهة هوازن وثقيف فى تلك الغزوة .

٤ - وقد أستعار النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى لمثل ذلك الغرض من الجهاد، فرسا لأبى طلحة رضى الله عنه امتطاه وذهب ليكتشف ما أشيع فى المدينة من مهاجمة عدو

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ٩٥٧ .

(٢) أخرجه أبو داود فى البيوع، باب تضمين العارية برقم ٣٥٦٦، وأخرجه أحمد ٢٢٢/٤، وابن حبان

١٠٩/٧، من الإحسان، ونقل الشوكاني فى نيل الأوطار ٤١/٦ عن ابن حزم قوله: أحسن ما فيها - أي:

تضمين العارية - حديث يعلى بن أمية، قال الشوكاني فى النيل ٤/٦: والحديث سكت عنه أبو داود

والمنذري والحافظ فى التلخيص، وانظر معالم السنن مع المختصر ١٩٨/٥، والتلخيص الجبير ٥٢/٣، لكن

صحح الحديث الألباني فى الإرواء ٣٤٨/٥ .

لها، وهم غارون في ليلهم .

فعن أنس رضي الله عنه قال : "كان بالمدينة فزع فاستعار النبي صلى الله عليه وسلم فرسا لأبي طلحة يقال له : "مندوب" فركبه، وقال : ما رأيت من فزع وإن وجدناه لبحرا" (١) .

وكل هذه الأحوال كما ترى كانت لأجل مصالح المسلمين ولم تكن لغرض نفسه الشريفة العظيمة، ولعل في هذا إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه التعامل بالعارية من أنه لا يكون إلا في أضيق الأحوال ، وذلك لأن العين المستعارة ملك للغير ، ولعله يكون في استعمالها تلف لها ، أو نقص من قيمتها ، ولعل ذلك مما لا تطيب به نفس صاحب الحق، فيبقى تحمل شائبة التبعات في النفس المؤمنة قائم ، فالأولى في ذلك التقليل من الاستعارة ما أمكن ، حذرا من الوقوع في الشبهات ، فإن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

كما أن كثيرا من الناس لا تطيب أنفسهم بإعارة ممتلكاتهم لاسيما إن لم يأمنوا على عودتها، وذلك لكثرة الشح من الملاك، وقلة الورع من المستعيرين ، ولا ريب بأن المؤمن الشحيح على ماله والحريص على دينه سيجد حرجا من طلب العارية ونفسه لا تجود بها، بينما النبي صلى الله عليه وسلم يندبه إلى بذلها كما في الصحيح من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا أقعد لها يوم القيامة بقاع قرقر" (٢)، تطؤه ذات الظلف بظلفها وتنطحه ذات القرن بقرنها، ليس فيها يومئذ جماء (٣) ولا مكسورة القرن" قال: قلت يا رسول الله وما حقها؟ قال: "إطراق فحلها ، وإعارة دلوها، ومنيححتها وحلبها على الماء، وحمل عليها في

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب اسم الفرس والحصان ٣٥/٤، ومسلم في الفضائل، باب في شجاعة النبي

صلى الله عليه وسلم وتقدمه للحرب برقم ٢٣٠٧ .

(٢) القرقر: الأملس .

(٣) الجماء: الشاة التي لا قرن لها .

سبيل الله... (١) .

فلا ينبغي للمؤمن أن يخرج أخاه ، أو يشق عليه في ماله إذا علم منه ذلك، وعليه أن يقلل من الاستعارة ما أمكن ، وأن يكون ممن لا يتخرجون منها .
وإذا استعار بادر إلى الرد فور الاستغناء عن العين المعارة وأن يضمن ما تلف منها بالعوض كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم .

لا أن يماطل في الرد أو يحجد العارية فإن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين بل هو تنكر للجميل ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [سورة الرحمن: ٦٠] .
تنكيل النبي صلى الله عليه وسلم بمن لا يرد العارية ويجحدها :

وقد كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم امرأة تستعير المتاع ثم تجحده، فنكّل بها النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن امرأة مخزومية كانت تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بها فقطعت يدها" (٢) .

وفي رواية أن امرأة كانت تستعير الحلي في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعارت من ذلك حليا فجمعته ثم أمسكتها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَتُتْبَ هذه المرأة وتؤدّى ما عندها مرارا - أى يقول ذلك مرارا - فلم تفعل فأمر بها ففُطِعت" (٣) .

ولمسلم (٤) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كانت امرأة مخزومية تستعير

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة برقم ٩٨٨، والنسائي، باب مانع زكاة البقر ٣٧/٥ .

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، باب في القطع والعارية إذا جحدت برقم ٤٣٩٥، والنسائي في السارق، باب ما يكون حرزا وما لا يكون ٧٠/٨، وأحمد ١٥١/٢، قال الألباني: وإسناده صحيح على شرط الشيخين، الإرواء ٦٦/٨ .

(٣) أخرجه النسائي في الباب السابق ٧١/٨ من حديث نافع، قلته: وأصلها في مسلم كما في الرواية التالية .

(٤) في الحدود، باب قطع السارق وغيره برقم ١٦٨٨ .

المتاع وتحجده، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع يدها، فأتى أهلها أسامة رضى الله عنه فكلموه، فكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تشفع في حد من حدود الله؟!" الحديث:

وقد ذهب إلى ظاهر هذه الأحاديث بعض أهل العلم كأحمد وإسحاق، فقالوا بقطع يد جاحد العارية، وخالف في ذلك جمهورهم وقالوا: إن القطع كان لأجل السرقة كما هو مصرح به في الصحيح وأن ذكر جحد العارية إنما هو للتعريف بها(١).

وأيا ما كان السبب فقد كان لجحد العارية دخل في إقامة الحد إما استقلالاً أو تبعاً، بدليل ذكره في كثير من الروايات الصحيحة وذلك زيادة في التنكيل لها والتشنيع بها والتحذير من فعلها، والله أعلم.

(١) وقد بين الإمام النووي الخلاف في هذه المسألة بقوله: قال العلماء: المراد أنها قطعت بالسرقة، وإنما ذكرت العارية تعريفاً لها ووصفاً لها، لا أنها سبب القطع، قال: قد ذكر مسلم هذا الحديث في سائر الطرق المصرحة بأنها سرقت وقطعت بسبب السرقة، فتعين حمل هذه الرواية على ذلك جمعا بين الروايات، فإنها قضية واحدة، مع أن جماعة من الأئمة قالوا: إن هذه الرواية شاذة فإنها مخالفة لجماهير الرواة، والشاذ لا يعمل بها، ثم قال: قال العلماء: وإنما لم يذكر السرقة في هذه الرواية؛ لأن المقصود منها عند الراوي ذكر منع الشفاعة في الحدود، لا الإخبار عن السرقة وقال: قال جماهير العلماء وفقهاء الأمصار: لا قطع على من جحد العارية، وتأولوا هذا الحديث بنحو ما ذكرته، وقال أحمد وإسحاق: يجب القطع في ذلك. اهـ.

المبحث السادس

(الصلح)

الصلح فى اللغة: اسم بمعنى المصالحة وهى المسالمة بعد المنازعة^(١)، قال فى القاموس^(٢): "والصلح بالضم: السّلم... يقال: صالحه مصالحة وصلاحا، واصطلحها واصّالها وتصالها واصتلتحا" كل ذلك بمعنى واحد، قال الراغب: "الصلح يختص بإزالة النّفار بين الناس يقال منه: اصطلحوا وتصالحو..."^(٣).

وفى الشرع: عقد يرفع النزاع^(٤).

مكانة الصلح فى الأخلاق الاجتماعية :

وهو من أجل الأخلاق الاجتماعية، إذ به يرفع الخلاف وينهى المنازعة التى تنشأ بين المتعاملين ماديا أو اجتماعيا، ويعود بسببه الوُدّ والإخاء بين المتنازعين لكونه يرضى طرفي النزاع ويقطع دابر الخصام، كما قال سيدنا عمر رضى الله عنه لأبى موسى رضى الله عنه: "رَدّ الخصوم حتى يصطلحوا، فإنّ فصل القضاء يورث بينهم الضغائن"^(٥)، ولذلك كان الصلح من أسمى المطالب الشرعية لتحقيق به الأخوة التى ينشدها لهم ويصفهم بها كما فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٠] وهى الأخوة التى يذهبها الخلاف والتنازع فيما بينهم.

عناية القرآن الكريم بالحديث عن الصلح :

لهذا عني القرآن الكريم به كثيرا، أمرا به، وترغيبا فيه، وتنويها به وبأهله...، فى نحو عشر آيات كريمات :

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٣٤ وأنيس الفقهاء للقونوي ص ٢٤٥ .

(٢) ٢٣٤/١، وانظر شرحه تاج العروس ١٨٣/٢ .

(٣) المفردات ص ١٨٤ .

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٣٤، والياقوت النفيس ص ٨٨ .

(٥) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٨٤/٥ .

١ - أما الأمر به ففي مثل قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: ١].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الحجرات: ٩، ١٠].

فترى أن الله تعالى أمر عباده بأن يصلحوا ذات بينهم لما بينهم من الإخاء كما صرح به في آية الحجرات حيث قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذ بينت هذه الآية عليّة الأمر بالإصلاح بين المؤمنين بصيغة القصر، المفيدة لحصر حالهم في حال الأخوة، مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين، لما بينهم من انتساب إلى أصل واحد وهو الإيمان الذي هو منشأ البقاء الأبدى في الجنات فأشارت جملة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ إلى وجه وجوب الإصلاح بين المؤمنين، ببيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من النسب الروحي مالا ينقص عن نسب الأخوة الجسدية، وحيث كان الحال كذلك وجب القيام به بين أخوة الروح كما يجب بين أخوة الجسد، وقد كان من المتعارف بين الناس أنه إذا نشب خلاف بين الإخوين لزم بقية الأخوة أن يتناهضوا لإزاحته بالصلح، فأرشد القرآن الكريم إلى أن المسلمين شأنهم كذلك إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم، فعلى بقيّتهم أن ينهضوا إلى السعي بالصلح بينهما، وبثّ السُّفراء إلى أن يرفعوا ما وهى، ويصلحوا ما أصاب ودهى.

ولهذا لما تقرر معنى الأخوة بين المؤمنين كمال التقرير من القصر عدل عن أن يقول: فأصلحوا بين الطائفتين إلى قوله: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ لكونه حينئذ وصف جديد نشأ عن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (١)﴾.

ومن هذه الأوامر القرآنية يُعلم أن الإصلاح بين الناس ليس هو من نافلة القول، بل هو تكليف إلهي للقادرين عليه، حتى لا تفسد أواصر الأخوة الإيمانية بين المؤمنين، وهو مع ذلك من التعاون على البر والتقوى، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذين أمر الله تعالى بهما في غير ما آية، ومعلوم أن هذين من الواجبات الشرعية التكليفية على المؤمنين في علاقاتهم الاجتماعية .

فكل هذه الأمور تحتم على المسلم القيام بالإصلاح بين المسلمين بل وبين الناس عامة، لتستقر الحياة الاجتماعية عامرة بالود والإخاء .

٢ - الترغيب في القيام بالإصلاح :

ولقد رتب الله تعالى على القيام به فضلاً كبيراً وأجرًا عظيمًا، يناله القائم بذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى كما قال الله جل شأنه : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ١١٤] .

ووعد القائمين به مغفرته ورحمته كما يفيد قول الله جل ذكره : ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٢٩] فإن في هذه الآية إشارة إلى مغفرة الله ورحمته للمصلحين كما آذن به ختم الآية بصفتي المغفرة والرحمة لله سبحانه وتعالى . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا (١) أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١٨٢] فإن فيها من الإشارة إلى مغفرته ورحمته سبحانه للمصلح ما في سابقته بدلالة نفى الإثم وتذيلها بصفتي المغفرة والرحمة، وهي إشارة جليّة، وقد وصف سبحانه بقوله : ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٠] .

٣ - التنويه بالصالح والقائمين به :

وتكرار هذا الوعد يدل على علو شأن الإصلاح بين الناس عند الله تعالى، ولذلك أجزل للقائم به تلك المثوبة الكريمة والأجر العظيم، وقد دل على ذلك أيضا تنويه الله

(١) أي: ميلا عن الحق خطأ .

تعالى به بمثل قوله سبحانه: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [سورة النساء: ١٢٨] فإن وصفه بالخيرية دليل على علو منزلته عند الله تعالى، وذلك لما له من عظيم الأثر فى إصلاح ذات البين بين الناس، التى طالما يتشوف الشارع الحكيم إليها فى المجتمعات الإنسانية .
ولما له من دلالة على كريم أخلاق القائم به أو الراضى به .

ولهذا كان من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود: ٨٨] وقال على لسان موسى وهو يخاطب أخاه هارون عليهما السلام : ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٢] . إلى غير ذلك من الآيات .

والإصلاح فى مثل هاتين الآيتين عام فىشمل الإصلاح فى الدين والدنيا، ومنه الإصلاح بين الناس عند حدوث المقتضى لذلك من نزاع ونحوه^١ لا يخلو منه مجتمع من المجتمعات البشرية .



تمثل خلق الإصلاح

بين الناس في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد مر بنا غير بعيد أن الإصلاح من أبرز صفات المرسلين وذلك لكمال أخلاقهم وفطنتهم ومعرفتهم العريقة بأحوال أمتهم .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أولئك الرسل الذين كانوا بهذه المثابة من التوفيق بين الناس وإصلاح ذات البين بينهم في كل أطوار حياته قبل البعثة وبعدها، في مكة وفي المدينة...، ودلائل ذلك كثيرة في كل الأطوار :

أ - أما قبل أن يبعثه الله تعالى نبيا رسولا، فيدل عليه ذلك الصلح العظيم الذي قام به بين فئات قريش المختلفة في شأن رفع الحجر الأسود، الذي كاد يصل بينهم إلى صراع مسلح يفنى عددهم، ويشكل أمهاتهم، ويرمل نساءهم، ويؤتم أبناءهم، لو لا أن تدراكمهم الله تعالى بلطفه بالصلح الذي قام به المصلح العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بعد أن هيا الله تعالى له السبيل إلى ذلك باتفاق القبائل المختلفة على تحكيم أول داخل عليهم من باب الصفا، فكان هو النبي صلى الله عليه وسلم الداخل الذي رضي به الجميع وفرحوا به، لما يعلمونه من أمانته وفطنته وعدم محاباته أحدا، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن أصلح بينهم صلحا أرضى جميع الفرقاء على السواء، حيث بسط رداءه ووضع الحجر عليه وأمر زعماء كل قبيلة أن يأخذوا طرفا منه، فكان كلهم رافعا له بالحقيقة، فلما قرب من موضعه في الركن أخذه بيده الشريفة إلى موضعه، وبذلك قطعت جبهة قول كل خطيب^(١)، وما كانوا سينالون هذا الحل السلمي بهذا الصلح المرضي لولا هذا المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل الإصلاح الذي لا يثبت أمامه عويص الخلاف المزمّن، أو أعتى الناس تصلبا لرأيه وقوله .

(١) تقدم ذكر هذه القصة في مبحث أمانته صلى الله عليه وسلم ص ٥٢٢، وانظر أيضا فقه السيرة للغزالي ص

ب - وأما بعد البعثة فدلائل ذلك وصوره كثيرة ونذكر منها مايلي :

١ - لما هاجر إلى المدينة وجد ساكنيها من الأوس والخزرج كأشد ما يكون عليه التنافر والشقاق؛ لما كانوا عليه من الحميّة الجاهلية التي كانت تولد بينهم الحروب الطاحنة على أتفه الأسباب، كما دل على ذلك قول من بايعه عند العقبة منهم : "إنّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبنك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك" (١) .

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ودخلوا جميعا في الإيمان اصطلحوا وزال ما بينهم من البغضاء والتنافر وأصبحوا بنعمة الله إخوانا .

وما كان لشملهم أن يلتئم لولا وجود النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، والنور الذي أتى به في أفئدتهم، كما دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم ممتنا عليهم بهذه النعمة لما بدر من صغار الإنصار ما يوحى بنسيانها : "يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي..؟" (٢) .

وقد أشار إلى هذه القرآن الكريم حيث يقول : ﴿وإن يُريدوا أن يخذعوك فإنَّ حسبَك اللهُ هو الَّذي أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألَّفَ بين قلوبهم لو أنفقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما أَلَّفَتَ بين قلوبهم ولكنَّ اللهُ أَلَّفَ بينهم إنَّه عزيزٌ حكيم﴾ [سورة الأنفال: ٦٢، ٦٣] قال القرطبي : "أى جمع بين قلوب الأوس والخزرج وكان تألّف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يتسقيدها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألّف الله بالإيمان بينهم حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين، قال : وقيل أراد التأليف بين المهاجرين

(١) سيرة ابن هشام ١٧٦/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف ٢٠٠/٥، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المولفة قلوبهم

برقم ١٠٦١ من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم .

والأنصار والمعنى متقارب" (١) .

٢ - ولقد برز جانب الإصلاح من جنابه العظيم فى صلح الحديبية، الذى تجلّت فيه دلائل نبويه ومكارم أخلاقه ، إذ ما كان بوسع أحد أن يقبله إلا هو صلى الله عليه وسلم لما ذكرت من الصفات، وذلك لقساوة شروطه، وجفاء لهجته ، كيف لا والصحابة كلهم إلا أبا بكر الصديق رضى الله عنه كانوا بين مُنكرٍ علناً، أو ساكت تأدّباً، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "والذى نفسى بيده لا يسألونى خُطّةً يُعْظَمون فيها حرّاتِ الله إلا أعطيتهم إياها" (٢) .

وفى رواية قال: "لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطّةٍ يسألونى فيها صلةَ الرحم إلا أعطيتهم إياها" (٣) .

وقد كان من بنود هذا الصلح شروط قاسيه خلاصتها ما يلى:

- ١ - أن يرجع المسلمون ذلك العام ولا يصلوا إلى مكة .
- ٢ - يقضون عمرتهم من العام المقبل وقيمون بمكة ثلاثة أيام فقط .
- ٣ - لا يدخلوا مكة بسلاح إلا سلاح الراكب: السيوف فى القرب .
- ٤ - من جاء النبي صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وليّه يرده عليهم ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا ترده إليهم .
- ٥ - من أراد أن يدخل فى عقد النبي صلى الله عليه وسلم وعهده دخل فيه وله مثل شرطه، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش وعهدا دخل فيه وله مثل شرطه .
- ٦ - أن بينهم عيبة مكفوفة - أي: صدر نقي من الغش والخداع مطوي على الوفاء بالصلح -

(١) جامع أحكام القرآن ٤٢/٨ .

(٢) أخرجه البخاري فى الشروط، باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٥٢/٣، من حديث عروة بن الزبير والمسور بن مخرمة رضى الله عنهما .

(٣) هذا لفظ ابن هشام فى السيرة فى سياق قصته لحديث غزوة الحديبية ٢٥/٤ .

٧ - أنه لا إسلال ولا إغلال - أى لا سرقة ولا خيانة -

٨ - أن توضع الحرب بينهم عشر سنين (١) .

ولقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشروط القاسية فى ظاهر أمرها كما عزم بذلك بما تشهره من تعظيم الكعبة المعظمة وعدم إراقة الدماء فى الحرم .

وإن ضاق الصحابة رضوان الله عليهم بها ذرعا ، لأنها فى تصورهم وتصور العقول البشرية التى لا يمدّها الوحي من السماء : شروط جائرة ، لا يقبلها من هو فى عز ومنعة كما كان عليه حال المسلمين يومئذ .

فهم أهل حق وعدوهم أهل باطل .

وهم لا يريدون قتالا وإنما يريدون الاعتمار .

والنبي صلى الله عليه وسلم قد وعدهم بدخول مكة والطواف بالبيت كما أراه الله تعالى ذلك ، ورؤيا الأنبياء حق ، غير أنهم لم يدركوا أن الوعد **مطلق** غير مقيد بتلك السنة ، حتى بينه صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه الذى مافتىء يجادل النبي صلى الله عليه وسلم فى قبول هذا الصلح ، حتى كان يقول : "مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعنت من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامي الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا" (٢) .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "أفأخبرت أنك آتية هذا العام؟ فإنك آتية ومطوّف به" (٣) .

ولقد بلغت الحيرة لدى المسلمين مبلغها فى قبول ^{ذلك} الشرط البالغ فى القسوة والعنت أشده ،

(١) انظر صحيح البخاري فى الشروط ٢٥٢/٣-٢٥٨ ، وفى المغازي ، باب غزوة الحديبية ١٥٥/٥-١٦٤ ،

وصحيح مسلم فى الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية ٥٧/٤-٦١ ، وسيرة ابن هشام ٢٤/٤-٣٨ مع الروض الأنف .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٨/٤ .

(٣) البخاري فى الشروط ، باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٥٦/٣ .

وهو الشرط الذي نص على أن يُردَّ إليهم من أتى المسلمين من غير إذن مولاه، بينما هم لا يردون من يأتيهم من صفوف المسلمين، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم فسَّر لهم قبول هذا الشرط بما يثلج صدورهم وهو أن من أتاهم مرتدا عن دينه فقد أبعدُ الله، ومن أتى المسلمين مسلما فسيجعل الله له فرجا ومخرجا .

ولقد زادهم غمًّا وضيقا قضية إرجاع أبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي جاء يرُسف في قيوده يريد الالتحاق بصفوف المسلمين، فحال بينه وبين ذلك أبوه إذ كان يفاوض النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الشروط الجائرة، قائلا للنبي صلى الله عليه وسلم:

قد بَلَّغْتُ (١) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، فصَدَّقَ النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل سهيل يضرب وجه أبي جندل ويأخذ بتلابيبه، وهو يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين: أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إننا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله! لا نغدر بهم" (٢) .

ومع كل ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قبل الصلح بشروطه تلك، رغبة منه في أن ينال خيرية الصلح الذي وعده به ^{قال} الله حيث: ﴿والصلح خير﴾ [سورة النساء: ١٢٨] .
وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول: «أنا عبدُ الله ورسولُه ولن أخالف أمره ولن يضيِّعني» (٣) .

فما هي إلا بُرْهة من الزمن يسيرة حتى نال بركته وخيره، حيث عادت تلك الشروط على المشركين بالخيبة والخسران، وغدو يسعون جاهدين في إلغائها .

(١) أي: وجبت .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٩/٤، والبخاري في الباب السابق.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٨/٤ .

بينما عادت على المسلمين بالخير وثبات الإيمان بدينهم وبنبيهم صلى الله عليه وسلم الذي لم تكن تصرفاته تلك إلا عن وحي وتسديد إلهي كما دل عليه قوله: "ولن أخالف أمره".

ققد قال الزهري (١): "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال، حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر".

قال ابن هشام (٢): "والدليل على قول الزهري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف" (٣).

وكانت عاقبة هذا الصلح العظيم الذي وعد الله تعالى به نبيه، وبشر به النبي صلى الله عليه وسلم أمته في وقت ما كان سيتحقق فيه لو لا تمهيد الله تعالى له بذلك الصلح المحمود عاقبته، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا...﴾ [سورة الفتح: ٢٧].

وهكذا تكون ثمار الصلح دائماً وأبداً، فإنه ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٦].

(١) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري المدني الحافظ المتفق على جلالته وإتقانه، وعداده في رؤوس الطبقة الرابعة من التابعين، وهو من أوائل من صنف في السيرة توفي سنة ١٢٤ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٣٨٨/٢، وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٠٨/١، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤٩ ونحوها.

(٢) هو عبد الملك بن هشام الذهلي صاحب السيرة النبوية التي هذب فيها سيرة ابن إسحاق وتوفي سنة ٢١٨ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤٢٩/١٠.

(٣) سيرة ابن هشام ٣٠/٤.

فهذه نماذج كافية لما كان يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم من إصلاح بين الآخرين، وما ينهجه في نفسه عند عرض الصلح عليه .

ج - وقد مرت بك نماذج أخرى في مبحث القرض^(١)، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوسط بين المقرض - بكسر الدال - والمقرض بفتحها، عندما يتعسر القضاء، فيصلح بينهما على أن يضع المقرض شيئاً من ماله حتى يتيسر على المقرض الأداء .

كحديث كعب بن مالك رضي الله عنه أنه كان له على عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي مالٌ فلقبه فلزمه حتى ارتفعت أصواتهما، فمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا كعب، فأشار بيده كأنه يقول النصف، فأخذ نصفهما عليه وترك نصفاً"^(٢) .

د - ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه في الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فقد حدث ذات يوم أن أهل قباء اقتتلوا^(٣) حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: "اذهبوا بنا نصلح بينهم"^(٤) .

فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتوان عن الذهاب للإصلاح بين المسلمين، حينما بدر الشقاق بينهم، ليحسم الخلاف، ويعيد الوئام قبل أن يستفحل الأمر ويتسع الخرق على الراقع .

وهذا دليل آخر على حرصه صلى الله عليه وسلم على الإصلاح بين المؤمنين ليبقى الود والإخاء بينهم متماسكا .

هـ - ولقد بلغت محبته صلى الله عليه وسلم للإصلاح أن أباح فيه الكذب الذي هو

(١) ص ٩٢٠.

(٢) تقدم ذكر هذه الرواية مخرجة بنحوها، وهذه رواية البخاري في الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح ٢٤٤/٣ .

(٣) أي: فعلوا فعلاً يودي بهم إلى القتل من مضاربة بالأيدي والعصي ورمي بالحجارة كما بين في الرواية .

(٤) أخرجه البخاري في الصلح، باب قول الإمام لأصحابه اذهبوا بنا نصلح ٢٤٠/٣ من حديث سهل بن سعد.

من أقبح الرذائل الخلقية، إذا كان سيثمر في إصلاح ذات البين، كما أخبرت بذلك عنه عليه الصلاة والسلام أم كلثوم بنت عقبة (١) رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله عليه وسلم يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيُنمي خيرا أو يقول خيرا» (٢)، وزاد مسلم في رواية: "ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث يعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها".

وما ذلك إلا لعظم خطر الخلاف بين المسلمين وفساد ذات بينهم كما بينه النبي صل الله عليه وسلم بقوله: «إياكم وسوء ذات البين فإنها خالقة» (٣) أي: الخصلة التي من شأنها أن تخلق، أراد أنها خصلة سوء تذهب الدين كما تذهب الموسيقى الشعر (٤)، ولذلك كان من أمله الكبير ورجائه العظيم في نسله المبارك الحسن السبط رضي الله عنه أن يصلح الله به فساد ذات البين الذي أعلمه الله بحدوثه في أمته بعد وفاته، كما أخرج ذلك البخاري رحمه الله من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: "إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (٥).

(١) ابن أبي معيط القرشية الأموية، أخت عثمان بن عفان لأمه، وأخت الوليد بن عقبة، أسلمت بمكة قديما، وصلت إلى القبلتين، وهاجرت إلى المدينة ماشية، وفيها نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن...﴾ انظر أسد الغابة ٦١٤/٥، والإصابة ٤٦١/٤.

(٢) أخرجه البخاري فيما سبق، باب ليس الكذب الذي يصلح بين الناس ٢٤٠/٣، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه برقم ٢٦٠٥.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة باب رقم ٥٦، برقم ٢٥٠٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال عنه: صحيح غريب من هذا الوجه.

(٤) جامع الأصول لابن الأثير ٦٦٨/٦.

(٥) أخرجه البخاري في الصلح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي: ابني هذا... ٢٤٣/٣.

و - ولقد بين عليه الصلاة والسلام ما للصلح من أجر عظيم بقوله: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة" (١) .

ولكن إنما يكون الصلح محموداً ومثاباً فاعله إذا كان في حدود ما أحلَّ الله تعالى كما في جميع الصور والأمثلة المتقدمة.

أما إذا كان الصلح يحرم حلالاً أو يحلل حراماً فإنه لا يكون آنحداً ما سبق بيانه من الأجر والمثوبة، ويكون من مكارم الأخلاق التي ندب إليها الإسلام، بل إنه غير جائز ولا نافذه لقوله صلى الله عليه وسلم: "الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو حلل حراماً، والمسلمون على شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو حلل حراماً" (٢) .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في إصلاح ذات البين برقم ٤٩١٩، والترمذي في صفة القيامة، باب رقم

٥٦، برقم ٢٥٠٩ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال عنه: حديث صحيح .

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب في الصلح برقم ٣٥٩٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي

في الأحكام، باب ما ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلح بين الناس برقم ١٣٥٢ من

حديث كثير بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده وقال: حسن صحيح، وانظر الإرواء ٢٥١/٥ .

الباب الخامس

الأخلاق القرآنية المتعلقة بالنبوة والإمامة
والتطبيقات النبوية لها

وفيه خمسة فصول:

- ١ - الأخلاق الواجبة للنبوة .
- ٢ - أخلاق البلاغ والدعوة .
- ٣ - الأخلاق العلمية .
- ٤ - أخلاق الإمامة .
- ٥ - أخلاق القيادة .

تمهيد:

لقد علمنا - فيما سبق - أن من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم وأعلامها؛ شرف أخلاقه صلى الله عليه وسلم وكمال فضائله وشمائله، فقد كان عليه الصلاة والسلام جامعاً لمكارم الأخلاق على وجه الكمال، بحيث لم يتخلف عنه خلق كريم، ولا تغير له خلق عظيم منذ حدوثه، وكان المكارم الخلقية كلها قد نظمت في عقد واحد تحلى بها في حياته البشرية المتوجة بتاج النبوة الخاتمة، وكلها كانت متناسقة لا تتعارض ولا تتضارب، ولا يطغى واحد منها على غيره خاصة بعد أن شرفه الله بالرسالة العامة إلى أن لقي الله تعالى وهو على ذلك الكمال الخلقى.

ولا ريب أن هذا من أدل الدلائل على نبوته صلى الله عليه وسلم، لأنه ما من أحد يبرز فيه جانب من جوانب الأخلاق الكريمة، إلا وفقدت منه جوانب أخرى كثيرة، وما برز فيه من ذلك لا يكمل أبداً، إذ لا بد وأن تحصل له زلة أو تقع منه هفوة، تخل بما برز منه من خلق، فإنه كما قيل لكل جواد كبوة، ولكل قلم نبوة، ولكل عالم هفوة.

أما نبينا سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه فقد كان في ذروة الكمال الخلقى وتماحه، لم يغيب عنه خلق كريم، ولا عيب عليه خلق ذميم، ولم تؤثر عنه زلة ولا عرفت له كبوة، مع كثرة المتربصين لذلك حتى استحق أن يصفه الله تعالى بالخلق العظيم ويؤكد ذلك بمؤكدات بلاغية كثيرة، لزيادة تقريره^(١). في أنفس السامعين والتالين إلى يوم الدين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿.. وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤] وكان ذلك في بداية تنزل الوحي، فإن هذه السورة من أوائل السور تنزلاً عليه صلى الله عليه وسلم مما يدل على أن عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم قد كانت معلومة من قبل البعثة، وهو ما دل عليه تاريخ نشأته في كتب السير، وقد تجلت لنا مظاهر عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم في كل المباحث التي تقدمت، وبقي ما لم يأت بحثها بعد.

ومما لم يتقدم من عظيم أخلاقه، صلى الله عليه وسلم: الأخلاق المتعلقة بجانب النبوة العظيمة والإمامة العظيمة التي قرر أهل العلم وجوب توفرها في الأنبياء، ويجب

(١) هي القسم "إن"، ولام التوكيد، والجملة الاسمية، وتقدم تقرير ذلك في أول الرسالة ص ٥٧.

اعتقادها فيهم ، ويجب تبرئتهم مما يناقضها، وهي: الأمانة، والعصمة، والصدق،
والتبليغ، والفظانة، كما قال الناظم :

وواجب في حقهم الامانة والصدق والتبليغ والفظانة

لأن هذه الأخلاق ، تمس جانب الرسالة المناطة بهم مسًا مباشرًا ، والطعن فيهم بهذه
الأخلاق ، يعنى عدم الإيمان بهم ، أو عدم تصديقهم وذلك كفر بهم، وبما أرسلوا به من
عند الله تعالى ، فإن الله لم يصطف من البشر رسولاً إلا كامل الخلق والخلق، وعظيم
الحسب والنسب معروفًا في أوساط قومه بذلك ، ليكون أدعى لتصديقه ، وأبعد عن أن
يعير بنقص .

وسأبحث هذه الأمور من جوانبها الأخلاقية (١) لأين ما كانوا عليه من الكمال فيها
ولاسيما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إمام الأنبياء وخاتم المرسلين.

(١) إلا الأمانة فإنه قد مر بحثها في الباب الثالث مستوفاة ص ٥١٥ قلم أر إعادة الحديث عنها هنا، مكتفيا بهذه
الإشارة ليعيد القارئ نظره إليها في موضع بحثها حيث اقتضت المناسبة ذكرها هناك .

الفصل الأول

الأخلاق الواجبة للنبوة

وفيه أربعة مباحث:

- ١ - العصمة .
- ٢ - الصدق .
- ٣ - التبليغ .
- ٤ - الفطانة .

المبحث الأول

(العصمة)

العصمة في اللغة: المنع ، قال ابن فارس في معجمه (١) مادة (عصم) : "العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة ، والمعنى في ذلك كله معنى واحد، ومن ذلك العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه ، قال: واعتصم العبد بالله إذا امتنع ، واستعصم: التجأ.."

وقال الجوهري في صحاحه (٢) "العصمة : المنع ، يقال: عصمه الطعام أى منعه من الجوع .. قال: والعصمة الحفظ ، يقال عصمته فانهصم ، واعتصمت بالله تعالى إذا امتنعت بلطفه من المعصية" .

وفي الاصطلاح: "هي ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها" (٣).

وهذا تعريف لها من حيث هي ، وأما بالنظر لمن تحلى بها وهم الأنبياء والرسل فتعريفها في مقامهم بما قاله الراغب في المفردات (٤) : "وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية ، ثم بالنصرة وبثبوت أقدامهم ، ثم بإنزال السكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم، وبالتوفيق".

وقال غيره (٥) : هي "اتصافهم بحفظ الله سبحانه ظواهرهم وبواطنهم ولو في حال الصغر من التلبس بمنهي عنه ولو نهى كراهة".

وإذا كانت العصمة تعنى حفظ الله تعالى لأنبيائه عن مواقع الذنوب الظاهرة والباطنة فذلك يعني أن العناية الإلهية لم تنفك عنهم في كل أطوار حياتهم قبل النبوة وبعدها ،

(١) معجم مقاييس اللغة ٣٣٢/٤ .

(٢) الصحاح ١٩٨٦/٥ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٥٠ ، وأنيس الفقهاء لقاسم القونوي ص ١٧٩ .

(٤) ص ٣٢٧ .

(٥) هو عبد السلام بن إبراهيم المالكي في شرحه على جوهرة التوحيد ص ١١٤ بحاشية الأمير .

على ماهو المعتمد كما سيأتى تحقيقه ، فهي محيطة بهم تحرسهم من الوقوع في منهي عنه شرعا أو عقلا ، وصدق القائل حين قال :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وهذا مظهر أثره في الخارج ، فقد كان أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام محفوظي الظواهر والبواطن من التلبس بمنهي عنه ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى (١) ، كما قاله بعضهم ، يعنى من غير أن ينبهوا عليه فيتوبوا منه.

فهم محفوظون ظاهرا من الزنا وشرب الخمر والكذب والسرقة، وغير ذلك من المنهيات المستقبحات فى الخارج، وم محفوظون فى الباطن من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن (٢).

فلم تعرف لهم زلة، ولا سجلت لهم هفوة فى مجتمعاتهم المليئة بالشحناء والعداوة والبغضاء لهم، ولو أن أعداءهم علموا من ذلك شيئا لطاروا به فرحا ، ليدفنوا ماذا لهم من مكارم الأخلاق وصالح القول والعمل، كشأن الغوغائيين الذين قال فيهم الشاعر :

إن يسمعوا زلة طاروا بها فرحا منى وما علموا من صالح دفنوا

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذن

فقد كانوا فى غاية التربص لتصيد عثراتهم إن وجدوها ، فلما أعياهم البحث ^{ويشوا} والانتظار من العثور على شىء من ذلك ، طفقوا يفترون الكذب ، ويقولون الزور ، فيرمونهم بالسحر تارة ، والكهانة أخرى ، والجنون حيناً والافتراء حيناً آخر ، وغير ذلك بما طاب لهم التفوه به مما سجله عليهم القرآن وحفظه التأريخ ، ولكن سرعان ما كان يكذبهم الواقع ، والمنصفون الذين تتأبى الحقيقة إلا أن تسود فيهم فتبور أقوالهم وترجع عليهم بالخزى والعار، ويبقى جانب الأنبياء مصونا بالعصمة الإلهية والعناية الربانية، ليكونوا أطهارا أتقياء قادة الخلق إلى مكارم الأخلاق وصلاح النيات والأقوال والأفعال.

(١) انظر إتحاف المريد بحاشية الأمير ص ١١٤ ، وتحفة المريد عل جوهرة التوحيد للباحوري ص ٧٥ .

(٢) المرجعين السابقين .

وما كان لهم بذلك من يد لولا العصمة الربانية التي أحاطت بهم ، فمنعتهم من الوقوع فيما لا يحمد مما يكون منفرا للناس عن اتباعهم إلى ما يدعونهم إليه من الدين والأخلاق الفاضله ، هذا وللعلماء كلام طويل ، وتفصيل مستطيل حول العصمة التي رعى الله تعالى بها رسله سنوجزه في الآتي :

١ - مواضع العصمة :

والعصمة التي أوجبها الله تعالى لرسله عليهم الصلاة والسلام تتعلق بالاعتقادات والتبليغ ، والأقوال ، والأفعال . فقد عصمهم الله تعالى من الوقوع في محذور في هذه الأمور حتى أدوا رسالتهم ولحقوا ببارئهم جل وعلا .

أما الأمور الاعتقادية . فقد أجمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة قبل البعثة وبعدها ، كما حكى ذلك الفخر الرازي والقاضي عياض وغيرهما (١) .

فقد قال القاضي عياض : (٢) في حُكم عقد قلب النبي صلى الله عليه وسلم من وقت : نبوته : "اعلم منحنا الله وإياك توفيقه أن ما تعلق منه بطريق التوحيد والعلم بالله وصفاته والإيمان به وبما أوحى إليه ، فعلى غاية (٣) المعرفة ووضوح العلم واليقين ، والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك أو الشك أو الريب فيه ، والعصمة (٤) من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين ، هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه ، ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون في عقود (٥) الأنبياء سواه" .

وقال في فصل آخر : "وأما عصمتهم من هذا الفن (٦) قبل النبوة فللناس فيه خلاف

(١) عصمة الأنبياء ص ٣٩ ، والشفاء ص ٢٣٠ .

(٢) في كتابه الشفاء ٢/٢٣٠ .

(٣) أي : فهم على غاية المعرفة .

(٤) بالجر عطف على المعرفة ، أي : هم على غاية العصمة من كل ما يضاد المعرفة .

(٥) أي : عقائدهم التي ارتبطت عليها قلوبهم ، أ.هـ نسيم الرياض ٣/٣٤ .

(٦) أي : اعتقاد ما لا يليق بالتوحيد والعلم بالله وصفاته وبما أوحى إليه من أمور الدين ، نسيم الرياض

والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته ، والتشكيك فى شىء من ذلك، قال: وقد تعاضدت الأخبار والأثار عن الأنبياء ، بتنزيههم فى هذه النقيصه منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ... ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبئ وأصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل، قال : وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله، - قال القاضى - : وأنا أقول: إن قريشا قد رمت نبينا بكل ما افترته، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته مما نص الله تعالى عليه ، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد فى شىء من ذلك تعبيراً لواحد منهم برفضه آلهته ، وتقريره بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه ، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلؤنه فى معبوده محتجين ، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفطع وأقطع فى الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آبائهم من قبل ، ففى إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه ، إذ لو كان لُنُقِل، وماسكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبلة وقالوا: ﴿ ماؤلاًهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ [سورة البقرة: ١٤٢] كما حكاه الله عنهم (١).

٢ - أما عصمتهم عما يخل بواجب التبليغ :

"فقد أجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة فى هذا الباب لا بالعمد ولا بالسهو، وإلا لم يبق الاعتماد على شىء من الشرائع" (٢).

قال فى الشفاء (٣) : "وأما أقواله صلى الله عليه وسلم فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من

(١) الشفاء ٢/٢٥٧ .

(٢) عصمة الأنبياء ص ٣٩، وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/٢٨٩ .

(٣) ٢/٢٨٥-٢٨٧ .

الأخبار من شيء منها بخلاف ما هو به (١)، لا قصدا ولا عمدا، ولا سهوا ولا غلطا" هـ، والكلام ليس خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم بل وغيره من الأنبياء كذلك، إذ لا فرق بينهم في واجب التبليغ".

واستدل القاضي على ذلك بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : "كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتني قريش ، وقالوا : أكتب كل شيء تسمعه ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضى ؟! قال : فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأوماً بأصبعه إلى فيه ، فقال : "اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق" (٢).

ثم قال : فإذا قامت المعجزة على صدقه وأنه لا يقول إلا حقا ، ولا يبلغ عن الله تعالى إلا صدقا، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له : صدقت فيما تذكر عني ، وهو يقول : إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم، وأبين لكم ما نزل عليكم ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [سورة النجم : ٤، ٣] ﴿ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾ [سورة النساء : ١٧٠] ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [سورة الحشر : ٧] قال : فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خير بخلاف مخبره على أي وجه كان، قال : فلو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره، ولا اختلط الحق بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص ، فتتزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك كله واجب برهانا واجماعا. (٣) هـ .

(١) أي: بخلاف الواقع .

(٢) أخرجه أبو داود في العلم، باب في كتاب العلم برقم ٣٦٤٦ بنحوه، والدارمي ١/١٢٥، وأحمد ٢/١٦٢، ١٩٢، والحاكم ١/١٠٥، ١٠٦، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/٧١، ورواة الحديث قد احتج بهم الشيخان غير أحدهم فاحتج به مسلم. انظر السلسلة الصحية للألباني رقم ١٥٣٢ .

(٣) وانظر مزيدا من أقوال أهل العلم هنا في آيات عتاب المصطفى ص ٤٢-٤٥ .

ومن هذا الباب ما كان من باب الفتوى فى أحكام الشرع ، فقد أجمعوا على أنه لا يجوز عليهم تعمد الخطأ فيما كان هذا سبيله ، أما سهوا ، فإنه محل خلاف (١) ، ومن جوزه عقلا ، فإنه لا يجد له مثالا نقلا .

٣ - عصمتهم فى أقوالهم مما هو ليس من باب البلاغ :

وأما عصمتهم فى أقوالهم مما ليس هو من باب البلاغ ، مما كان فى أمور الدنيا وأحوال أنفسهم الشريفه صلى الله وسلم عليهم أجمعين : فقد حكى القاضى عياض اتفاق السلف وإجماعهم على أنه لا يصدر عنه صلى الله عليه وسلم خبر بخلاف إخباره عنه قال :

"وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعاداتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله والثقة بجميع أخباره فى أي باب كانت ، وعن أي شيء وقعت ، وأنه لم يكن بهم توقف ولا تردد فى شيء منها ، ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيه سهو أم لا .." (٢) .
واستدل على ذلك بما جرى لسيدنا عمر رضى الله عنه مع ابن أبى حقيق اليهودى حين أجلاهم من خير حيث احتج عليه عمر رضى الله عنه بقوله صلى الله عليه وسلم : "كيف بك إذا أخرجت من خير ؟" فقال اليهودى : كانت هذه هزيمة (٣) من أبى القاسم - صلى الله عليه وسلم - فقال له عمر : كذبت يا عدو الله ! فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعروضا من أقتاب وحبال وغير ذلك" (٤) . قال القاضى : "وأیضا فإن أخباره وآثاره وسيره وشمائله معتنى بها مستقصى تفاصيلها ، ولم يرو فى شيء منها استدراكه صلى الله عليه وسلم لغلط فى قول قاله ، أو اعترافه بوهم فى شيء أخبر به .

(١) عصمة الأنبياء ص ٣٩ .

(٢) الشفاء ٣١١/٢ ، ٣١٢ ، وشرحه نسيم الرياض للخفاجي والقاري ١١١/٤ .

(٣) تصغير هزيمة ، وهي المرة الواحدة من الهزل ضد الجدد .

(٤) أخرجه البخاري فى الشروط ، باب إذا اشترط فى المزارعة إذا شئت أخرجتك ٢٥٢/٣ .

قال : ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه الصلاة والسلام عما أشار به على الأنصار في تلقيح النخل^(١) وكان ذلك رأيا لا خبرا" يعني فلا يدخله الصدق والكذب "وأیضا فإن الكذب متى عرف من أحد في شيء من الأخبار بخلاف ما هو على أي وجه كان ، استريب بخبره واثمهم في حديثه ، ولم يقع قوله في النقوس موقعا" إلى أن قال: "فانقطع عن يقين بأنه لا يجوز على الأنبياء خلف في القول في وجه من الوجوه لا بقصد ولا بغير قصد ، ولا تسامح في تجويز ذلك عليهم حال السهو فيما ليس طريقه البلاغ"^(٢) ١.هـ. قلت: وهذا الذي ندين الله تعالى به في أخبار النبي صلى الله عليه وسلم فقد كانت أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله كلها تشريع ، تقتضي المتابعة والافتداء ، إلا ما ورد الدليل فيها على التخصيص أو النسخ أو التوقيت بالعين أو الزمن ، ولا يكون لها ذلك الوصف التشريعي إلا بالقول بوجوب العصمة للنبي صلى الله عليه وسلم فيها ،

٤ - عصمتهم فيما يتعلق بالجوارح:

وأما عصمتهم فيما يتعلق بالجوارح من الأعمال والأقوال. فقد أجمع المسلمون على عصمتهم من الفواحش والكبائر والموبقات ومن كل رذيلة فيها شين ونقص .
وأما الصغائر فجوزها جماعة من السلف وغيرهم من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، ومنعها آخرون من محققى الفقهاء والمتكلمين^(٣) .

(١) يشير إلى ما أخرجه مسلم في الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم شرعا دون ما ذكره من معاش الدنيا على سبيل الرأي برقم ٢٣٦٣ من حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقيحون، فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصا - يعني عمرا رديئا - فمر بهم فقال: ما لنخلكم ؟ فقالوا: قلت: كذا وكذا، فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم، وفي رواية قال: إني إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به، فإني لست أكذب على الله).

أخرجها مسلم من رواية طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه برقم ٢٣٦١ .

(٢) الشفاء ٢/٣١٢-٣١٥ .

(٣) الشفاء ٢/٣٢٧، ٣٢٨، وتفسير القرطبي ١/٣٠٨ .

قال الفخر الرازى: "والذى نقول به أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فى زمان النبوة عن الكبائر والصغائر بالعمد، أما على سبيل السهو فهو جائز. قال: "ويدل على وجوب العصمة حجج خمس عشرة" ثم ساقها واحدة واحدة، وهى حجج عقلية دامغة للمجيزين على رسل الله معصيتهم لله تعالى بصغائر الذنوب، ومن تلك الحجج قوله:

"لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم عاجلا والعقاب آجلا، أشد من حال عصاة الأمة، قال: وهذا باطل، فصدور الذنب أيضا باطل، ببيان الملازمة: أن أعظم نعم الله على العباد، هى نعمة الرسالة والنبوة، وكل من كانت نعم الله تعالى عليه أكثر كان صدور الذنب عنه أفحش، وصريح العقل يدل عليه، ثم استدل على ذلك من ثلاثة وجوه:

أحدها: دلالة قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٢] وقوله سبحانه: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مِنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٠].

الثانى: أن المحصن يرحم وغيره يجلد.

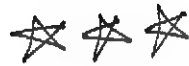
الثالث: أن العبد يحد نصف حد الحر، قال: فثبت بما ذكرنا أنه لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم العاجل والعقاب الآجل فوق حال جميع عصاة الأمة، إلا أن هذا باطل بالإجماع، فإن أحدا لا يجوز أن يقول: إن الرسول أحسن حالا عند الله وأقل منزلة من كل أحد، وهذا يدل على عدم صدور الذنب عنهم^(١).

فالفخر الرازى كالقاضى عياض يقران ثبوت العصمة للأنبياء حتى فى الصغيرة، خلافا لمن أجازها من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين^(٢)، غير أن الفخر يستثنى من ذلك ما كان فى حال السهو، بخلاف عياض فإنه يرى العصمة فى ذلك أيضا.

(١) عصمة الأنبياء ص ٤١ .

(٢) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٠٨/١ .

ولكن يتفق الجميع فى العصمة من الصغائر فيما إذا كانت الصغائر تؤدى إلى الخسّة وإزالة الحشمة وإسقاط المروءة ، وتوجب الإزراء، فإن هذا مما يعصم عنه الأنبياء إجماعاً كما قال القاضى عياض ، وكذا تكرار الصغائر وكثرتها ، حيث يلحقها ذلك بالكبائر الممنوعة إجماعاً(١)، وقد تكفل القاضى وعياض والفخر الرازى بدفع الشبه التى وردت على عصمة الأنبياء من خلال نصوص القرآن والسنة ، وهى كثيرة يطول ذكرها ، لأن كل آية أو حديث استدل به المجوزون يقتضى الإجابة عنه ، فتكثر الإيرادات ، والإجابات ويحوج الحال إلى صفحات وصفحات. فينبغى أن تنظر هناك .



(١) انظر الشفاء ٢/ ٣٣٠ .

المبحث الثاني

(الصدق)

لقد تقدم في الباب الثالث (١) تعريف الصدق لغة وشرعا ، حيث ذكر هناك بوصفه خلقا سلوكيا فرديا ، وتحلّى النبي صلى الله عليه وسلم به من حيث هو سلوك فردي ، وخلق فاضل كريم، وقد استفاد الحديث عنه هناك من هذه الحيثية فقط.

ولكن كون الصدق خلقا واجبا لنبوته عليه الصلاة والسلام يستحيل تخليها عنه ، ويجب إثباته لها عقلا وشرعا، لم يبحث بعد، وتقتضى المناسبة أن يبحث في هذا الباب وهذا أوان ذكره، فأقول :

لقد وصف الله تعالى أنبياءه بالصدق على سبيل التعيين أو الإجمال في غير ما آية من كتابه العزيز كقوله عن إدريس عليه السلام: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٥٦] وقوله عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَادَّكَرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٤١] وقوله عن إسماعيل عليه السلام : ﴿ وَادَّكَرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٥٤]، وقوله عن موسى عليه السلام: ﴿ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ.. ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٥] وقوله عن يوسف عليه السلام : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ [سورة يوسف : ٤٦]، وقوله فيه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة يوسف: ٥١] وقوله في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [سورة الأحزاب : ٢٢] وقوله في حقه أيضا : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مِثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٣٢، ٣٣] .

فسمي ما جاء به من عند الله من أحكام شرعه، وأخبار رسله وخلقه، قرآنا أو سنة، سماه صدقه وذلك وصف له بالالتزام ، إذ لا يأتي بالصدق إلا صادق، وذلك مما لا جدال فيه ، حيث كان صدقه معلوما منذ حداثة سنه ، وشهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه،

فإن الأعداء من الكفرة والمشركين لم يكونوا يشكُّون يوماً في صدقه كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [سورة الأنعام ٣٣] وكما كانوا يشهدون له بذلك في مواقف مختلفة ، تقدم ذكر بعضها ، ومثل هذا الدليل الالتزامى قول الله تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [سورة الحاقة: ٤٤-٤٧] ، حيث دلل الله تعالى على صدق نبيه بدليل التمانع ، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بتلك الصفة ، لامتناع تقوله عليه ، وامتناع الثقول عليه يعنى الصدق فيما يقول .

فالآية إذا تطمئن النفوس على صدق وأحقية ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم غاية الاطمئنان، إذ دلت على أن الله تعالى له بالمرصاد إن هو تقوَّل عليه - وحاشاه من ذلك - والواقع خلافه ، فإن الله تعالى مازال يؤيده بالمعجزات الدالة على صدقه ، وهي منزلة منزلة أن يقول الحق تبارك وتعالى: صدق عبدى فيما يبلغ عنى، إذ لولا صدقه لما أمره بها، كما يعلم من حال الكذابين من مدَّعي النبوة، وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [سورة الشورى: ٢٤] (١).

ولكن لما كان الله تعالى يؤيد نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الباهرات، وينصره على عدوه المرة تلو الأخرى ، ويظهر دينه يوماً بعد يوم ، دل ذلك على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن ربه جل شأنه.

وقد أكد الله تعالى ذلك بأدلة أخرى كثيرة ، كقوله سبحانه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [سورة النجم: ١-٤]. فهذا قسم من الله جلا وعلا ، على أن ما ينطق به النبي صلى الله عليه وسلم هو وحى من الله تعالى لا مجال لمحمد صلى الله عليه وسلم فى أن يأتى به من عنده أو أن يتقوله عنه .

(١) انظر النبوة والأنبياء لابن تيمية ص ٢٢٨-٢٣٠ .

ولذلك كانت أقواله صلى الله عليه وسلم نصوصاً شرعية لإقامة الدين ، وكذا أفعاله وتقريراته، فإن الصدق شامل لها، لأن الصدق كما يكون بالأقوال، يكون كذلك بالأفعال ، والأحوال كما تقدم بيانه (١).

وقد تبين برهان هذا القَسَم بالواقع العلمى حينما طلب مشركو مكة من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بقرآن غير الذى أتاهم به ، لا يكون فيه عيب آلهتهم ، أو يبدله من تلقاء نفسه على ذلك الشرط ، ليقبلوا منه بعد ذلك دعوته للإيمان ، وهم بذلك يريدون أن يستلوا مصداقية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليحتجوا بذلك لأنفسهم على الكفر الذى هم عليه ، لعدم صدق صاحب الدعوة فيما يوحى به إليه حينئذ ، ولكن هيهات أن ينالوا شيئاً من ذلك أو يجابوا إليه ، لأن صدق النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة لا تتبدل ولا تقبل الجدل والنقاش . وقد قص الله تعالى علينا هذه المبادرة الخادعة الهزيلة بقوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا تُلِيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدَّلِهِ قُلْ مَا يَكُوْنُ لِيْ أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِيْ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ ﴾ [سورة يونس ١٥-١٧] .

فحاجَّهم النبي صلى الله عليه وسلم بما يعرفونه فيه من الصدق والأمانة منذ الصغر ، وقد لبث فيهم أربعين سنة وهو لا يذكر لهم شيئاً مما أتاه بعد ذلك من الهدى والنور ، فلو أنه كان يقدر على أن يأتي بشيء مما أتى به بعد ، لكان ظهر ذلك لهم منه أيام حداثة سنِّه وقوَّة جلده ، ولكنه إن يتبع إلا ما يوحى إليه من ربه حين يوحى إليه، ثم بين لهم أن فعل ما يريدونه منه هو من أقبح وأعظم الجور والجُرم، ثم لا يلبث أن يفتضح أمره للناس فيصير أضحوكة بينهم ، ولعبة يهزأون به كما قال فى آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [سورة الأنعام: ٩٣] .

فقامت عليهم بذلك الحجة على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم فيما ينسبه إلى الله تعالى من الوحي والرسالة، وكان عليهم حينئذ أن يذروا الجدل والمكابرة، ويدعنوا للحق الذي جاء به الصادق الأمين، الذي يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، كما قال أبو سفيان وهو رأس الكفر وعموده إذ ذاك لهرقل حينما سأله قائلاً: "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن أن يقول ما قال؟ فقال له أبو سفيان: لا، ثم قال له هرقل: قد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى" (١).

فاعترف بالحق الذي لا يقدر على أن يغالبه وهو على شركه وعدائه، وكما قال جعفر ابن أبي طالب للنجاشي رضي الله عنهما: "بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته.."(٢) فهذه شهادات الحق التي لا تجرح.

فما كان عدم التصديق به بعد ذلك إلا محض كبر وعناد وجهالة، فلذلك ناداهم الله تعالى نداء حاسماً، أن يتوبوا من غيهم ويفيقوا من غفلتهم وجهالتهم، ويذروا العناد والمكابرة التي هم عليها بعد أن وضع الحق لذي عينين وضوح الشمس في رابعة النهار، وقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٧٠].

حيث بين الله تعالى بهذا النداء المفعم بالرفقة والرحمة أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى والنور هو الحق الذي بعثه به، وأن الخير كله لهم أن يؤمنوا ويتابعوه فيما جاء به ودعاهم إليه، وأنهم إن أبوا ذلك فإن وبال إبائهم عائد عليهم بالخزي والنكال، أما هو سبحانه فلا يضره من ذلك شيء، فإن له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبداً، وهو مع ذلك غني عنهم، فلا تنفعه طاعة الطائعين كما لا تضره معصية العاصين.

(١) تقدم تخريجه ص ٤٠٠.

(٢) تقدم تخريجه ص ٥٩٤ وانظر تفسير ابن كثير ٤١٠/٢.

هذا وكم فى القرآن الكريم من الدلائل البينة والشواهد الصادقة على صدق رُسل الله تعالى عامة، وسيدنا محمد رسول الله خاصة، إضافة إلى ما تقدم ذكره وبيانه، كقوله سبحانه: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [سورة يس: ٥٢] .

وقوله سبحانه بعد محاورته عيسى عليه السلام فى شأن عبادة النصارى له: ﴿.. قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة المائدة: ١١٩] فهذه الدلائل الشرعية الناطقة بصدق أنبياء الله تعالى ورسله فيما يبلغونه عن الله تعالى من شرعه لعباده ، وفيما يحدثونهم به عنه سبحانه وتعالى وعن جنته وناره ، ووعدته ووعدته، وسننه فى خلقه وكونه.

الدليل العقلى على صدق سيدنا محمد رسول الله ورسول الله عامة صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين:

وأما الدليل العقلى على وجوب صدقهم ، ووجوب اعتقاد ذلك فيهم، فهو أنهم لو كذبوا فى دعواهم الرسالة أو فيما يوحى الله به إليهم ، أو أن ينسبوا إليه ما لم يوح به، للزم الكذب فى خبره سبحانه وتعالى ، لأن الله تعالى صدق رسله. بمثل تلك الآيات المتلوة المتقدم بعضها منها ، وبآيات الحسية وهى المعجزات الكثيرة التى أيدهم بها لتدل أمهم وتقنعهم على صدقهم ، فإن المعجزات تلك التى كان يظهرها الله تعالى على أيدي رسله منزهة قول الله تعالى للرسول إليهم: (إن رسولى صادق فى قوله ، بدليل تأييدى له بالمعجزات التى لا يقدر عليها أحد سواي).

فلو كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كاذبين، وحالهم من تأييد الله تعالى ما ذكر ، لكان الكذب منصبا على المعجزات التى أتوا بها أيضا (أي على ما يعتبر خبرا عن الله تعالى بتصديق رسله) والكذب فى خبر الله تعالى محال ، لأن خبره تعالى إنما يكون على وفق علمه ، والخبر على وفق العلم لا يكون إلا صدقا، فخبره تعالى لا يكون إلا صدقا ، فدل ذلك على استحالة كذب المبلغين عنه من رسله ، وثبت بذلك

صدقهم (١) .

فهذا هو الدليل العقلي المقنع على صدق رسل الله تعالى فيما يبلغونه عن الله تعالى .

الدليل الخارجي على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة والمرسلين عامة:

أما الدليل الخارجي على صدقهم ، فهو شهادة الواقع لهم بذلك ، حيث إن ما أخبروا به من مغيبات مما أطلعهم الله تعالى عليها أو أنزله عليهم ليبلغوه عباده ، فما ظهر منها كان على وفق ما أخبروا به ، من إنجاز العذاب على المكذبين لما حل أجله فيهم ، ومن إظهارهم على أعدائهم ، ومن إقامة دين الله تعالى في أرضه ، ومن غلبة الروم على الفرس ، وفتح مكة ونصرة دين الله تعالى ، وإفاضة المال ، واستتباب الأمن ، وأمر الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم ، وأمر الفتوح التي وعد بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وركوب أمته البحر غازين في سبيله ، واستشهاد من استشهد منهم فيه ، وظهور الكذابين بعده ، إلى غير ذلك مما ينوء بها الحصر هنا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، والتي دون فيها حفاظ الأمة وجهابذيها الأسفار الكبار فيرجع إليها من أراد استقصاء ذلك أو الاطلاع عليها (٢) .

وأما التطبيقات النبوية لها فقد تقدمت في الباب الثالث (٣) ، بإعادتها هنا تكرر لا داعي له ، فتنظر هناك .

(١) انظر شرح أم البراهين للدسوقي ص ١٧٦ ، وعقيدة المؤمن للجزائري ص ٢٧٢ ، والعقيدة الإسلامية لعبد

الرحمن حنكة الميداني ص ١١٣ ، والشفاء للقاضي عياض ٢٨٥/٢ - ٢٨٧ وشرح العقيدة الطحاوية ص

١٠٦ .

(٢) وذلك كدلائل النبوة للبيهقي ت ٤٥٨ يقع في سبعة مجلدات ، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ت ٤٣٠

ويقع في مجلد ، ودلائل النبوة لاسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني . ت ٥٣٥ ويقع في

مجلد ، ودلائل النبوة للفريابي ت ٣٠١ ويقع في جزء ، وكأعلام النبوة للماوردي ت ٤٥٠ ، إلى غير ذلك

من كتب الحديث من جوامع ومسانيد وسنن التي تتضمن من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم على

الشيء الكثير .

(٣) ص ٣٩٨

المبحث الثالث

(التبليغ)

التبليغ مصدر بُلِّغَ يبلغ: إذا أوصل الأمر منتهاه .

لأن البلوغ ، والبلاغ فى اللغة: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى ، مكانا كان أو زمانا أو أمرا من الأمور المقدرة ، فلفظ البلاغ والتبليغ يعنى إيصال الأمر المراد تبليغه إلى منتهاه ومنه قوله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة إبراهيم ٥٢] وقوله سبحانه: ﴿...بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة الأحقاف : ٣٥] .

وإبلاغ الوحي فى الشرع: أن يوصل الرسول ما أمره الله تعالى بإيصاله إلى من أرسل إليهم (١) .

مكانة هذا الخلق فى الأخلاق الواجبة للنبوة:

إن مهمة الرسل الأولى التى كلفهم الله تعالى بها إلى الأمم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، هى التبليغ الذى أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضى اصطفتائهم للرسالة التى حملهم إياها ، فيجب عليهم التبليغ ويستحيل عليهم الكتمان، ويجب على المسلمين اعتقاد ذلك فيهم، تصديقا لشهادة الله تعالى لهم بذلك كما سيأتى بيانه، وللإجماع المتقدم ذكره على عصمتهم من كتمان الرسالة كما تقدم تقريره.

الدليل على وجوب التبليغ عليهم :

قالوا: والدليل على وجوب التبليغ عليهم هو النقل والعقل، أما النقل فهو ما صرحت به الآيات الكثيرة التى تحدثت عن بلاغ المرسلين كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [سورة النحل: ٣٥] أى ليس عليهم إلا ذلك، وهذا قصر لواجب الرسالة التى حملوها، وكقوله: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [سورة المائدة: ٩٢] .

وأما العقل ، فهو أنهم لو كتموا شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم، لأن الله تعالى أمرنا بالاعتداء بهم ، وكوننا مأمورين بكتمان العلم باطل، فكتمانهم

(١) مختار الصحاح ص ٦٣، والمفردات للراغب ص ٦٠ .

شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلاً، فثبت لهم التبليغ، واستحال عليهم الكتمان لشيء مما أمروا بتبليغه^(١)، ويؤيد هذا الدليل العقلي ما أخذه الله تعالى من العهد على العلماء من بيان العلم وعدم كتمانهم الدال عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٩] .

وقد قام رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم بواجب ذلك البلاغ أكمل قيام ، حيث يَلْغُوا كل صغيرة وكبيرة ليلاً ونهاراً، لا يفترون عن ذلك ولا يملئون، حتى قامت الحجة على أقوامهم فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة .

بذلهم الوسع في البلاغ وتحملهم لتبعاته:

وقد كانوا ينالون من جراء ذلك الشدة الشديدة والإيذاء البليغ ، وذلك لما هم عليه من الرحمة بأمتهم والشفقة بهم، لعلمهم بما سيحيق بهم من العذاب إن أعرضوا عن قبول ما بَلَّغُوهُ عن الله تعالى جل جلاله، فكان كل واحد يبذل جهده، ويتفانى في إقناع قومه بقبول ما أمر بتبليغه إليهم، ويتلطف لهم بالخطاب ليقبلوا ما جاؤوا به من عند الله تعالى، كما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَبْلُغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٦١، ٦٢] وكما قال هود لقومه أهل عاد: ﴿...يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَبْلُغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [سورة الأعراف: ٦٧، ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على التلطف بالبلاغ وكمال الرحمة بالمبليغين، فكانوا غير مقتصرين على مجرد البلاغ الواجب عليهم فقط،

بل إنهم كانوا يتفانون في النصيحة لأقوامهم بقبوله فيجادلونهم ويحاورونهم بالتى هي أحسن حتى يقبلوا أو ييأسوا من ذلك ، فعندئذ لا يسعهم إلا أن يقولوا ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا

(١) انظر شرح أم البراهين للدسوقي ص ١٨٤ مع الحاشية، ونحفة المريد للباحوري ص ٧٦، ومع رسل الله

البلاغ المبين ﴿[سورة يس: ١٧]﴾ كما قال هود عليه السلام لما يئس من قوم عاد عن قبول رسالة الله: ﴿قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ [سورة الأحقاف: ٢٣] وقال أيضاً: ﴿فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرُّونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ [سورة هود: ٥٧] .

وكما قال صالح عليه السلام: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربِّي ونصحتُ لكم ولكن لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٧٩] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أسفهم على أقوامهم لما لم يقبلوا البلاغ والنصح منهم مما يدل على عظيم رأفتهم بأقوامهم وحنانهم عليهم فبلغوا جاهدين ، ولكنهم بعدئذ لم يسعهم إلا التسليم بما قضاه الله عليهم من النكال لما لم يقبلوا شرعه ويتبعوا رسله ، وما كان عليهم شيء لو أنهم اكتفوا بإبلاغ رسالات الله تعالى من غير بذل جهد في الجدل والحوار والنصيحة ، فإن ذلك هو ما افترضه الله عليهم لا غير ، كما قال سبحانه: ﴿فهل على الرُّسل إلاَّ البلاغُ المبين﴾ [سورة النحل: ٣٥] .

ولكنهم عليهم الصلاة والسلام ذوو رحمة ورأفة لا يبالون بالتضحية إذا علموا أن فيها نفعا للأمة كُلاً أو بعضاً.

تمثل خلق البلاغ

فى النبى صلى الله عليه وسلم

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم عقد الرسالات الإلهية التى تحملت عن الله وحيه إلى الخلق ليقوموا بواجبهم نحوه فى الاعتقاد والعبادة وعمارة الأرض، على النحو الذى ارتضاه فى شرعه المطهر؛ الاسلام الحنيف .

فكان على النبى صلى الله عليه وسلم حينئذ ما على المرسلين أجمعين من البلاغ المبين عن الله رب العالمين، وكان عليه من ذلك ما هو أكبر حظاً وأكثر جهداً، نظراً لشمولية رسالته ودوامها، فافتضى منه ذلك أن يوجه إليه خطاب خاص يلزمه بالبلاغ، زائداً عن الخطاب العام المستفاد من مقتضى الرسالة فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة: ٦٧] وذلك ليقوم بواجب البلاغ على أكمل وجه وأتمه، فلا يتوانى ولا يقصر ولا يفرط وإن كلفه ذلك ما كلفه، والمعنى: (إن لم تبلغ القرآن أو ما أوحيت به إليك، أو شيئاً مما حمّلت، تكن فى حكم من لم يبلغ شيئاً من رسالته؛ لأن حكم الأنبياء وتكليفاتهم أشد، وليس حكمهم كحكم سائر الناس الذين يتجافى عنهم إذا خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) (١) .

ولارىب بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد كان قائماً بذلك الواجب على أكمل وجه من يوم أن كلفه الله تعالى بالرسالة، وأن هذا الخطاب إنما هو من باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ [سورة النساء: ٣٦] أى دوموا على الإيمان واثبتوا عليه، فهو أمر للتأكيد لا للتأسيس؛ لأن الإيمان ثابت لهم بدليل وصفهم به، وكذلك حال النبى صلى الله عليه وسلم فى البلاغ، والدليل على ذلك "أن هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، لأن سورة المائدة من أواخر السور نزولاً، وقد بلغ الرسول

(١) المفردات للراغب ص ٦٠ بتصرف يسير .

الرسول صلى الله عليه وسلم الشريعة وجميع ما أنزل إليه إلى يوم نزولها" (١) فدل ذلك على أن المراد به طلب الدوام "وأن الله تعالى أراد به قطع تخرص من قد يزعمون أن الرسول قد استبقى شيئاً لم يبلغه ، أو أنه قد خص بعض الناس بإبلاغ شيء من الوحي لم يبلغه للناس ، كما تزعم الروافض لأنه لو ترك شيئاً منه لم يبلغه لكان ذلك مما أنزل عليه ولم يقع تبليغه" (٢) ، وذلك مستحيل في حقه عليه الصلاة والسلام بمقتضى العصمة الكاملة التي منحها الله تعالى لإياها.

مجالات البلاغ الذي أمره الله تعالى به:

والبلاغ الذي أمره الله تعالى به عام وشامل لكل ما تحتاج إليه البشرية في عاجلها وآجلها ودنياها وآخرها ، سواء كان ذلك بوحى القرآن أو وحي السنة ، فشمّل ذلك إبلاغ الدعوة إلى الله ، وإبلاغ القرآن ، وإبلاغ السنة ، إذ كل ذلك مما أنزله الله عليه من أمر الدين ، كما أفاد ذلك عموم الاسم الموصول (ما) (كما عَمِمَ من أراد تبليغهم حيث حذف المفعول الأول لبلغ ، ليعم الخلق المرسل إليهم والتقدير: بلغ جميع ما أنزل إليك من يحتاج إلى معرفته من أمر الدين الموحى به إليك) (٣) .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك البلاغ كله على وجه الكمال والتمام من يوم أن أنزل الله تعالى الرسالة وكلفه بالبلاغ بصدر سورة المدثر، فإنه من حينئذ قام بإبلاغ الدعوة وإبلاغ القرآن وإبلاغ السنة على حد سواء، لا يألو في ذلك جهداً ولا يدخر وسعاً، حتى أتم الله له الدين وقمع به المشركين والمبطلين .

أما بلاغ الدعوة فقد قام به منذ أن كلفه ، حيث قام يدعو إلى الله على بصيرة ويبلغ مراد الله تعالى من خلقه إليهم بحكمة وأناة ليلاً ونهاراً .

(١) التحرير والتنوير ٢٥٥/٦، وانظر في هذا كتب التفسير كالبحر المحيط ٥٢٩/٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦٠/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦٠/٦ بتصرف .

أسلوبه صلى الله عليه وسلم فى إبلاغه الناس برسالته إليهم:

وكان الأسلوب الذى اتبعه فى إبلاغه الدعوة إلى الله فى بادئ أمره، هو الدعوة سرا لما يعلمه من حال قومه فى الغلظة والجفاء، وخشيته أن يعوقوه عن إبلاغ رسالته التى حملها من أول أمره .

وكان لهذا الأسلوب الأثر الأكبر فى نجاح دعوته وبلاغ رسالته ، حيث لم يطل الأمد حتى التفَّ حوله عدد مبارك ممن آمن به وصدقوه ، كان فى طليعتهم أبو بكر الصديق وخديجة بنت خويلد زوجته صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب ، وبلال بن رباح وعبد الله بن مسعود (١) وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، وقد أسلم علي يد أبي بكر رضى الله عنه فى بادئ الأمر جماعة من شُبان مكة الذين كان لهم شأن عظيم فى نجاح دعوته وظهور أمره كعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله (٢) رضى الله عنهم، وظلَّت الدعوة والبلاغ سرا بين المؤمنين نحو ثلاث سنوات حيث كان لا يُدعى إلا من تُرجى إجابته ويُركن إلى عقله ، فدخل فى هذه الفترة نحو خمسين نفرا بين رجل وامرأة (٣) ، واختار النبي عليه الصلاة والسلام دار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مركز لقائهم، ومنتدى اجتماعهم، يبلِّغون فيها كلام الله تعالى، وتُوجَّه إليهم توجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

موقف قريش من الدعوة النبوية فى بادئ أمرها:

ولم تكن قريش فى هذه الفترة تتجرأ على اعتراض سبيلهم أو إيذائهم؛ لأنهم لم يجهرُوا بدعوتهم ولا بتسفيه أحلامهم، فما كانت تظن إلا أن هذا الدين لا يعدو ما كانت تعهده فى المتحنِّفين السابقين، من كونهم اختاروا لأنفسهم ديناً يتعبدون به ، ولا سبيل لهم فى

(١) سيرة ابن هشام ٢٧٧/١-٢٨٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٨٨/١ .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن حبان ص ٦٨ ، وللذهبي ص ٧٨ .

الناس الآخرين ، فأمنوا بذلك جانبهم فى الجملة (١)، وإن كانوا قد تعرّضوا لبعض الأفراد بالإيذاء من واقع التصلت العائلى ، أو الولاية للمستضعفين ، فلما تكونت القاعدة الأساسية للانطلاقة بالبلاغ والدعوة إلى طور آخر، حيث فشا الإسلام بمكة، وأصبح غالب بيوت مكة تساهم فى بناء هذه القاعدة بالنفر أو النفيرين أو الأسرة كلها، وأصبحت تضم أفراداً أولى بأس شديد كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، عندئذ لم يكن بد من أن يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم شكلاً آخر من أشكال البلاغ والدعوة وذلك بالإعلان عن ذلك على رؤوس الملأ ودعوة الكافة إلى الإسلام .

الجهر بالدعوة والبلاغ :

فعندها أوحى الله تعالى إلى عبده ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بتشريع الانتقال بالدعوة والبلاغ إلى الجهر والأعلان ، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ١٤٤] فما أن نزلت حتى صعد الصفا فجعل ينادى: "يا بنى فهر، يا بنى عدي .. لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا ، قال : فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" فقال أبو لهب لعنه الله: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟! فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ... ﴾ [سورة المسد: ١، ٢] فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حينئذ يشق طريق البلاغ العلنى والكفاح المضنى مع أشد أعداء الرسل عداً، وأكثرهم خبثاً وإجراماً، كما سمعت من هذا الرد السريع القبيح من أقرب الأقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يجدر به أن يؤازره إن لم يكن تديناً، فحمية كما فعل أبو طالب ، وحيث

(١) انظر فقه السيرة النبوية للغزالي ص ١٠٠ .

(٢) تقدم تحريجه فى مبحث الصدق ص ٤٠١ .

لم يفعل ذا ولا ذاك، فكان الأولى به أن يكف أذاه عن ابن أخيه ويتركه وشأنه كما كان يراه بعضهم، ولكن من يضل الله فلا هادي له.

ولقد كان لهذا البلاغ المبين أصداء واسعة في أوساط العالم أجمع، إذ برز للناس ما كان مكنوتاً، وتحقق ما كان يرجوه الرهبان والأخبار في أقطار الأرض، وما كانوا يتربصونه من ظهور النبي المبعوث في البلد الأمين، من القوم الأميين، حيث كان بأعلى الصفا، وتسامع به الناس، وتذاكر في دعوته الذين يغشون مكة من غير أهلها، وبذلك انتشر صيت هذه البعثة المحمدية (١) بهذا البلاغ المبين الذي كان تمهيدا لإبلاغها إلى الناس أجمعين.

غير أنه لم يؤت ثماره المرجوة من إيمان أولئك الأقربين الذين يبلغون نحو الأربعين بين رجل وامرأة ممن اجتمعوا، إلا في بعض نساء العشيرة الطاهرة كصفية عمتها وفاطمة امرأة أبي طالب (٢) رضي الله عنهما، ولكن لم يأس رسول الله صلى الله عليه وسلم من استجابتهم، بل واصل إبلاغهم رسالة الله ودعوتهم للإيمان به والاستجابة له، غير وإن ولا يائس، ولا مكثرت بعدائهم وعنادهم وأذيتهم، فإنه يعلم أن ذلك من سنن المرسلين، غير أنهم لم يبعدوا منه في بادئ الأمر حيث لم يردوا عليه، إلا ما كان من أبي لهب اللعين.

واستمروا على ذلك الصمت إلى أن عاب ألھتهم التي يعبدونها، وضلل آباءهم الذين احتجوا عليه باتباعهم، وسفه أحلامهم التي لم تميز بين الهدى والضلال، فلما ذكر ذلك لهم اشتد عليهم الأمر، وأجمعوا له الخلاف والعداوة والشر، فحذَّب عليه عمه أبو طالب ومنعه، وقام دونه وعرض نفسه للشر دونه، مع بقائه على دينه (٣) لحكمة أرادها الله تعالى

(١) انظر خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لأبي زهرة ٤١٢/١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/٣٥١، وخاتم النبيين لأبي زهرة ٤١٢/١.

(٣) انظر السيرة النبوية للنهي ص ٨٤، وحنائق الأنوار في سيرة النبي المختار لابن الديبع الشيباني ٣٠٤/١،

وطبقات ابن سعد ١/١٩٩.

لا تخفى على المتأمل، وبعدئذ انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم بالبلاغ إلى طور آخر أوسع مدى، وأكثر عددا وبلدا، كما هو مقتضى رسالته العامة الخاتمة، وذلك حينما أنزل الله عليه: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ * إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴿[سورة الحجر: ٩٤-٩٦] فعندئذ نهض بأمر الله يبلغ عن الله تعالى (ليلاً ونهاراً، سرا وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصدّه عن ذلك صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم وفي المواسم ومواقف الحج وغيرها، يدعو من لقيه من حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق عنده في ذلك على السواء) (٢).

الوسائل التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة والبلاغ:

متخذاً في ذلك كل وسيلة يمكن أن يبلغ بها رسالة الله تعالى بعد أن كان لا يبلغ إلا بوسيلة السر والدعوة الفرديه منه صلى الله عليه وسلم، أو ممن أسلم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم :

١ - فتارة كان يدعوهم للاجتماع ويستنفرهم له، كما فعل حينما أمره الله تعالى أن يبلغ عشيرته الأقربين.

٢ - وتارة كان يقوم بنفسه يصول ويجول في تجمعات الناس ونواديهم وأسواقهم ونسكهم، يبلغهم رسالات ربه، ويطلب أن يحموه حتى يتسنى له إبلاغ رسالة الله على أكمل وجه كما ستأتى الأمثلة على ذلك عما قريب.

٣ - وتارة كان يقوم بتكليف من أسلم بتبليغ من لم يسلم كما أرسل مصعب بن

(١) وهي أن بقاءه مع أهل مكة محترماً للأوثان كان من أسباب امتداد نفوذه عليهم ورعاية حقوقه عندهم ولو أنه آمن لتكروا له وناصره العدا ولم يرعوا له حقاً ولا ذمة كما جرى لغيره من أولي السيادة والمكانة. انظر

فقه السيرة للغزالي ص ١٠٣ .

(٢) البداية لابن كثير ٤٠/٣ بتصرف يسير

عمير (١) رضى الله عنه إلى المدينة يبلغهم الإسلام ويدعوهم إليه ، إلى غير ذلك من الصور الأخرى الآتى بيانها قريبا ، التى كانت النبى صلى الله عليه وسلم أن يبلغ بها رسالة ربه ، ليهدى الأمة إلى الصراط المستقيم.

موقف قريش من النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته بعد الجهر بالبلاغ والدعوة:

فلما اشتد نشاطه صلى الله عليه وسلم فى التبليغ والدعوة إلى الدين الحق، وترك عبادة الأوثان، وتسفيه أحلام عابديها ، عندئذ ناصبته قريش العداء ، وآذوه ومتبعيه أشد الإيذاء، وما تركوا حيلة يظنون أن ستففعهم فى أن يشنوه عن رسالته إلا طرعوها: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٣٢].

فقد آذوه أبلغ الأذى فصير ، واستهزؤا به وسخروا منه واتهموه بأنواع البهتان فما انثنى ولا فتر ، وأغروه بالمال والسيادة فما التفت إلى ذلك ولا نظر ، وحاولوا أن يضغطوا عليه عائليا فما أثر فيه ولا انكسر ، واستعملوا سلاح المقاطعة الاقتصادية ضده وضد عشيرته فخاب صنيعهم واندحر ، ولاحقوه فى النوادي والمجتمعات يشبطون دعوته ويخذلون الناس عنه فخييهم الله ببيعات الأنصار الغرر ، وحاولوا قتله بعد يأسهم من نجاح محاولاتهم السابقة فأقمأهم الله ونجا وفاز بالظفر ، وهيهات أن يشنوه عن إبلاغ رسالته وهو المؤيد بغالب القوى والقدر.

"إذ ما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بازاء رجل يحمل رسالة من الله تعالى الذى له ملك السماوات والأرض يريد أن يعيد بها الرشد لعالم فقد رُشده ، وأن يحو بها الأوهام فى حياة مرغتها الأوهام فى الرغام ، وما تجدى وقفة جهول أو غضبة مغرور فى منع هذه الرسالة الكبيرة من المضى إلى هدفها البعيد" (٢).

(١) ابن هاشم بن عبد مناف، كان من فضلاء الصحابة وسابقهم إلى الإسلام، وناله أذى شديد من أهله وأمه بسبب إسلامه بعد أن كان فى دلال ونعيم، وهاجر إلى الحبشة ثم عاد، بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ليعلمهم الإسلام بعد العقبة الأولى، وتوفي شهيدا يوم أحدا، انظر طبقات ابن سعد ١١٦/٣، وأسد الغابة ٣٦٨/٤ .

(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ١٠٤ .

بدء الهجرة :

غير أنه لما اشتدت الوطأة على أصحابه، وخاف عليهم أن يفتنوا في دينهم ، أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة عند الملك العادل النجاشي، ليأمنوا فيها على أنفسهم ودينهم، أمّا هو صلى الله عليه وسلم وجماعة كبيرة من أصحابه القويّ إيمانهم، أو الحميين بأقوامهم، فمكثوا بمكة يجهرون بالبلاغ إلى الأمة كافة والدعوة إليها للدخول في دين الله جلّ شأنه.

وقد كان عليه الصلاة والسلام في بادئ الأمر محمياً بعمه أبي طالب، فكان يبلغ ويدعو ولا يصل إليه سوء يذكر، لحماية عمه له وحذبه عليه ، فما كان أحد يجرأ على أذيته لذلك، كما جاء في الحديث « ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب »^(١).

فلما توفي أبو طالب ركنه القوي الملموس ، وزوجه خديجة وزيرة الصدق وكاشفة حزنه، تمكن الأعداء من مواصلة الأذية له بما لا يقدر على تحملها غيره - بنفسه هو وولديه ومالي وأبي وأمي صلى الله عليه وسلم - ولكنه مع ذلك هو بشر يحتاج الى أن يأخذ بالأسباب العادية التي تمكنه من إبلاغ رسالته، وذلك بالحماية البشرية من اضطهاد أعدائه البشر، بعد أن افتقد تلك الحماية الحانية من شيخ قريش وعميدها الكبير عمه أبي طالب.

وروى ابن سعد من حديث حكيم بن حزام (أن أبا هب تكفل بحمايته صلى الله عليه وسلم بعد موت أبي طالب وأنه قال له : «إمض لما أردت، وما كنت صانعا إذ كان أبو طالب حيا فاصنعه ، وقال له: لا واللّات لا يوصل إليك حتى أموت» وذكر أنه سرعان ما نكث عهده لما وشى له الواشون في أن يسأله عن مصير أبيه عبد المطلب ، فلما أخبره الصادق الأمين أنه في النار قال أبو هب: والله لا برحت لك عدوا أبدا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار فاشتد عليه هو وسائر قريش^(٢)).

(١) أخرجه ابن اسحاق من حديث عروة بن الزبير مرسلا، وسنده صحيح لولا الإرسال، انظر التعليق لمفقه السيرة

(٢) انظر الرواية مطولة في طبقات ابن سعد ٢١١/١، والوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزي ٢١٠/١-٢١١.

بحثه صلى الله عليه وسلم عمن يحميه ليبلغ رسالة ربه:

فعندئذ شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب، فيبحث عمن يحميه من إيذاء قريش حتى يبلغ رسالة ربه، فأتجّه نحو الطائف يطلب من هوازن وثقيف أن يحموه وينصروه حتى يبلغ رسالة الله تعالى إلى خلقه، فردّوا عليه أقبح رد كما تقدم بيانه في مبحث صبره (١)، فرجع حزينا كسيفا - بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم - إذ لم يحقق مأربه ولم يسلم من الإيذاء، وخشي بعد ذلك سطوة قريش إن هي علمت بخروجه لدعوة الناس إلى حربها، وقد رفضت ثقيف أن تكتم عنه، حتى قال له زيد بن حارثة رضى الله عنه عند إرادته دخول مكة وكان رفيقا له في سفرته هذه: «كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟» فأجابه صلى الله عليه وسلم بجواب مليء بالثقة بالله ونصره وتأيده قائلا: «يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

وقد حقق الله تعالى له ظنه فيه فدخل آمنا حيث قبض الله له من يحميه ويدفع عنه أذية المشركين، فقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى المطعم بن عدي (٢) يعرض عليه أن يجيره حتى يبلغ رسالة ربه، فقبل مطعم بعد أن رفض ذلك من كان طلب منهما النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وهما: الأخنس بن شريق، وسهيل بن عمرو؛ لكن خليهما عن الشهامة العربية، أما مطعم فإنه قال: نعم، ودعا بنيه وقومه وقال لهم: تلبّسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإنني قد أجرت محمدا، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم، فأنتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته هـ

(١) ص ٤٣٠

(٢) ابن نوفل بن عبد مناف، كان من سراة قريش وساداتهم، وهو أحد الذين مزقوا الصحيفة الظالمية التي كتبها

قريش على بني هاشم، توفي سنة ٢ هـ، انظر الأعلام ٢٥٢/٧ .

والمطعم بن عدي وولده مطيفون به^(١).

ولقد حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع حيث تمنى يوم بدر أن يكون موجودا فيكافأه على معروفه هذا بإطلاق سراح أسرى قريش يومئذ لو كلمه فيهم ، كما أخرج البخاري من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء لنتنن لتركهم له^(٢) » غير أن هذا الجوار لم يكن عاما كما يظهر ، بل كان مؤقتا بحمايته وقت دخوله ، وخاصة به لا بدعوته ، لذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ . بعدئذ يعرض نفسه على القبائل في المواسم والأسواق والنوادي ، ليؤمنوا به ولينصروه حتى يبلغ رسالة الله تعالى ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الهدى والرحمة ، لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده^(٣).

وفي الترمذي من حديث جابر رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه بالموقف فقال : « ألا رجل يحملني إلى قومه ، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي^(٤) » .

(١) أخرج القصة ابن سعد في الطبقات ٢١٢/١ بسنده إلى جبير بن مطعم بأبسط مما هنا ، وذكرها الحافظ ابن كثير في البداية ١٣٧/٣ ، وابن الديبع في حقائق الأنوار ٣٤٦/١ ، ورواه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١٧٢/٢ ، والبيهقي في الدلائل ٤١٤/٢ ، من طريق ابن شهاب الزهري بإسناد رجاله ثقات غير أنه مرسل .

(٢) البخاري في الخمس ، باب ما من النبي صلى الله عليه وسلم على الأسرى من غير أن يخمس ١١١/٤ ، وفي المغازي ١١٠/٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ١٧٤/٢ نقلا عن ابن إسحاق .

(٤) في فضائل القرآن ، باب رقم ٢٤ ، وقال الترمذي عنه : غريب صحيح .

مطاردة قريش النبي صلى الله عليه وسلم في مواقف دعوته:

غير أن قريشا لم تترك له شأنه والناس ، بل استمر عنادها وضلالها في صد الناس عن تصديقه ، وتحذيلهم عن ذلك ليشاركوهم في الضلال، فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل، فقد كان أبو لهب لعنه الله يقفو أثر النبي صلى الله عليه وسلم فكلما أتى قوما ودعاهم إلى الله كذبه وحذرهم منه (١).

ولقنهم الوليد بن المغيرة كلاما يقولونه لمن يقدم مكة من أهل المواسم ليحذروه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن يقولوا لهم: إنه ساحر، فأكذبه الله تعالى بآيات كتابه الكريم حيث قال جل شأنه: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ * وَاسْتَكْبَرَ * فَقالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُوْثِرُ * إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ.. ﴾ [سورة المدثر: ١٦-٢٦] ومعلوم أن الغريب إذا قدم بلدا ثم حذروه أهلها من أمرها ، لا شك أنه سيحذر منه لأنه يرى أن أولئك الذين حذروه هم أدرى الناس به ، فلا شك أنه سيأخذ كلامهم مأخذ الجد، وسينفر مما حذر فيه نفور الإبل، إن لم يكن عن ثقة بما أخبر فللشك في أمره.

وهذا ما كان يحدث له عليه الصلاة والسلام وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [سورة النساء: ١٦٧] .

غير أنهم مع ذلك الجهد الذي بذلوه في الصد عن دين الله وشرعه القويم ، لن يستطيعوا مغالبة قدر الله وإرادته الأزلية في نصرة هذا الدين وظهوره ولو كره المشركون

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢١٦/١ ففيه أنه صلى الله عليه وسلم كان يوافي المواسم كل عام يتبع الججاج في منازلهم في المواسم بعكاظ، ومجنة، وذو الحجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحدا ينصره ولا يبيعه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: (يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم العجم، وإذا آمتمم كتتم ملوكا في الجنة) وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كاذب، فيردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد ويؤذونه ويقولون: أسرمتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، ويكلمونه ويجادلونه، ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول: (اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا) اهـ .

فإنَّهم وإن أرادوا أن يطفؤا نور الله بأفواههم ، فإن الله متم نوره ولو كره الكافرون ، وقد كان ذلك على يد من اختارهم الله للقيام بهذه المهمة وأعدهم لها وهم الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم.

دعوته صلى الله عليه وسلم الأنصار وقبولهم ذلك:

فإن الله عز وجل لما أراد إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنجاز وعده له، ساق إليه هذا الحي من الأنصار لما أراد الله به من الكرامة ،

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فانتهى إلى نفر منهم عند العقبة وهم يخلقون رؤوسهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن فاستجابوا لله ورسوله، فأسرعوا وآمنوا وصدقوا وآووا ونصروا وواسوا وقالوا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم»^(١)، فعسى أن يجمعهم الله بك، فتقدم عليهم فتدعوهم إلى أمرك، وتعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك» ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا^(٢) .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوههم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما كان العام المقبل و^{الموسم} من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوا النبي صلى الله عليه

(١) يعني لما كان بينهم من الحروب الطاحنة المستعرة التي كان آخرها يوم بعاث، لحكمة أرادها الله تعالى، وفي البخاري ٣٨/٥ من حديث عائشة رضي الله عنها: (كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم) فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملوهم، وقتلت سرااتهم وجرحوا، فقدمه الله لرسوله في دخولهم في الإسلام .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢١٧/١، وسيرة ابن هشام ١٧٦/٢ .

وسلم بالعقبة فبايعوه وكانت تلك بيعة العقبة الأولى على (بيعة النساء^(١)) وذلك قبل أن تفرض الحرب بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ماعدا التوحيد والصلاة^(٢). فبعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين، فأسلم على يديه بشر كثير، بحيث لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيه رهط من المسلمين يظهرون الاسلام.

بيعة العقبة الثانية :

فلما كان العام القابل رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه، واعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

فلما كانت ليلة الموعد اجتمعوا لبايعوه على الحماية والنصرة حتى يبلغ رسالة ربه ففي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في قصة البيعة قال: «.. فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم ما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة" قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم فقال: رويدا يا أهل يثرب، فإننا لم نضرب أكباد الأبل إلا ونحن نعلم أنه

(١) سميت بذلك لكونها على وفق بيعة النساء التي نزلت بعد الفتح، وهي: «أن لا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا، ولا يزناوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمرکم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر. انظر سيرة ابن هشام ١٨٥/٣، ووفاء الوفاء للسمهودي ٢٢٤/١ .

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي ٢٢٤/١ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصيرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها أبدا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة^(١).

بدء الهجرة الى المدينة:

فلما تمت البيعة المباركة طفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث المسلمين إلى هذه الديار المؤمنة ليعبدوا فيها ربهم ويكونوا بها دولتهم بعد أن اشتد الأذى عليهم من قريش حينما علمت بيعة العقبة ، ليجهضوا هذا الحدث العظيم قبل أوانه بحسب رأيهم الضعيف ، ولم يعلموا أن الله قد كتب على نفسه أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وأنه سيتم نوره ولو كره الكافرون ، فما هي إلا برهة من الزمن حتى غدت دور مسلمي مكة موحشة خلاء ، قد ارتحل أهلها إلى المدينة حيث إخوانهم في الدين، تاركين أثقالهم وبيوتهم وأموالهم وأهلهم من أهل الشرك، أو الذين منعوا من الهجرة من المسلمين ممن حبس أو فتن في دينه.

ثم وليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضي الله عنه ، بعد أن رد الله كيد الكافرين في محاولتهم الخبيثة لاستئصال الرسالة المحمدية من أساسها بمكرهم الغادر البائر في اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك عين النصر له، إذ آذنه الله بالهجرة التي قضت مضاجعهم، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، فكانت سببا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٣٢٢، ٣٢٩، ٣٩٤، والحاكم في المستدرک ٢/٦٢٤، وقال: صحيح الإسناد،

ووافقه الذهبي، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٣/١٦٠، وقال: إسناده جيد على شرط مسلم،

والحافظ في الفتح ١٥/٧٥، وقال: رواه أحمد بإسناد حسن، وصححه الحاكم وابن حبان .

وذكره الذهبي في السيرة النبوية ص ٢٠٠، وانظر: زاد المعاد ٣/٤٨، والسيرة النبوية الصحيحة للعمري

أساسيا لإبلاغ رسالة الله وإعلاء كلمته التي جاهدوا في إطفائها ، فخييهم الله وأذلهم وقطع دابرهم بما آتى الله نبيه وعباده المؤمنين بعد ذلك من النصر المبين والعز والتمكين ، ابتداء من يوم أن أذن الله تعالى لهم بالجهاد الدفاعي بقوله سبحانه: ﴿ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [سورة الحج: ٣٩] وذلك بعد أن تحصنوا بعاصمتهم، وأصبحوا ذوى عدد وُعدة ومنعة، فتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من البلاغ المبين أيمّا تمكين، انطلاقا من المدينة العاصمه الحصينه، وبحماية من فيها من أولى الأيد والقوة والعزيمة واليأس، من الأنصار والمهاجرين رضى الله عنهم أجمعين، وعندئذ قام عليه الصلاة والسلام بتبليغ رسالات ربه على أكمل وجه وأتمه وأفضله، لا يفتّر عن ذلك ليلا ولا نهارا ولا يشغله عن ذلك شاغل ، يبلغ القرآن ويدعو إلى الله ، ويجاهد فى سبيله، حتى أتاه اليقين بعد مضي عشر سنين من مهاجره صلى الله عليه وسلم، ولكن بعد أن بلغ البلاغ المبين.

وسائل التبليغ التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة:

ولقد كان له صلى الله عليه وسلم وسائل كثيرة للبلاغ والدعوة بعد هجرته وقيام دولته الفتية العظيمة، فإضافة إلى ما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم من البلاغ فى مثل الصور السابقة فى هذه الفترة، أضاف إلى ذلك: بعث البعوث فى تبليغ رسالة الله والدعوة إلى دينه القويم، وتكليف الوفود القادمة عليه بذلك، ومكاتبة ملوك الأرض لإبلاغهم رسالة الله تعالى ودعوتهم إلى الإيمان به، أو لتقوم عليهم الحجة إن لم يستجيبوا.

بعث البعوث لإيصال البلاغ والدعوة :

فإنه عليه الصلاة والسلام بعد أن أرسى قواعد دولة الإسلام من القرار فى عاصمة انطلاق البلاغ والدعوة ، وبعد تكوين الكُماة الأبطال، لحماية الأسلام وأهله وعاصمته، والبلاغ به والدعوة إليه.

عند ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يبعث البعوث لإبلاغ رسالات الله والدعوة إليه وجهاد من أبى وعاند، ابتداء من أول سني هجرته المباركة على رأس سبعة أشهر منها، يبعث حمزة بن عبدالمطلب إلى ساحل البحر لاعتراض غير لقريش التي حادّت

الله ورسوله واستولت على أموال المهاجرين منها (١) ، إلى آخر سني حياته يبعث أسامة ابن زيد إلى (مؤته) (٢) حيث استشهد أبوه زيد وهو في جهاد الدعوة والبلاغ، وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم يقول لهم: "اغزوا باسم الله في سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغْلُوا ، ولا تَغْدِرُوا، ولا تَمَثَلُوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم :

١ - ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم .

٢ - ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم الذي يجري على المسلمين ، ولا يكون لهم في الفبيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين .

٣ - فإن هم أبوا فسلمهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، وإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...» (٣) .

(١) وكان على غير قريش أبو جهل في ثلاثمائة راكب في قافلة لهم آية من الشام بتجارة، وكان حمزة رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، فلما التقوا تصافوا للقتال فحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني، فأطاعوه وانصرفوا، فشكر صلى الله عليه وسلم مجدياً على ذلك لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم، وكانت هذه السرية في شهر رمضان من السنة الأولى من الهجرة، انظر زاد المعاد ١٦٣/٣، ونور اليقين للخضري ص ١٠٠ .

(٢) بالضم ثم واو مهموزة ساكنة وتاء مثنة فوقية، قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، معجم البلدان ٢١٩/٥ .
(٣) أخرجه مسلم في الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها ١٣٩/٥ برقم ١٧٣١، وأبو داود في الجهاد برقم ٢٦١٢، ٢٦١٣، باب دعاء المشركين، والترمذي في البر، باب ما جاء في وصيته صلى الله عليه وسلم في القتال برقم ١٧١٦ كلهم من حديث بريدة رضي الله عنه .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل أول مهام مبعوثيه لإعلاء كلمة الله هي الدعوة إلى الإسلام الذي بعثه الله تعالى به لتتفيا البشرية ظلاله ناعمة في الدنيا والآخرة، فإن رفضوا ذلك فلهم وما يختارون من دين، لكن على أن يعطوا الجزية لمن يحميهم وهم المسلمون الذين كتب الله لهم العزة وجعل لهم حق الوصاية والحماية على البشرية إن هي لم تؤمن، يعطوها عن يدهم صاغرون، فإن رفضوا ذلك نابذهم على سواء، واستعان عليهم بالله تعالى القادر القاهر، الأمر بذلك؛ لأنهم بذلك أرادوا مكابرة الحق ودفعه، ومحاربة الخالق وجنده ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [سورة الصافات: ١٧١-١٧٣].

حاله صلى الله عليه وسلم مع من قد بلغتهم الدعوة من أهل الجزيرة :

ولذلك لما كان غالب ساكني الجزيرة العربية، حاضرها وباديها من عرب ويهود، قد بلغتهم بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ببلاغه لهم في أسواقهم ونواديهم ونسكهم، في عكاظ^(١) ومجنة^(٢) وذى المجاز^(٣) ومِنَى ونحوها من مواطن تجتمع العرب في أسواقهم الحولية، ومواسمهم النسكية، ومع ذلك أصروا على الكفر وعدم الاستجابة لله ورسوله بل حاولوا جاهدين محاربتة وإطفاء نور الاسلام الذي أتى به .

لما كانوا كذلك بادرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاد غزوا لهم في ديارهم تارة، ودافعا لهم عن مهاجمته تارة أخرى، كما هو معلوم من غزواته وبعث سراياه، وكما سيأتى بيانه في المباحث القادمة إن شاء الله تعالى.

إبلاغه صلى الله عليه وسلم من لم تبلغهم الدعوة :

أما من لم تبلغهم الدعوة، ولم يحاولوا محاربتة صلى الله عليه وسلم وذلك كالبلاد النائية عن محل البعثة، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث إليهم البعوث يبلغونهم رسالة الله تعالى

(١) عكاظ: واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، مرصد الاطلاع ٩٥٣/٢ .

(٢) مجنة قيل: هي بحر الظهران، وهو على مرحلة من مكة، وقيل غير ذلك. انظر المرجع السابق ١٢٣١/٣ .

(٣) ذو المجاز: خلف عرفة على ناحية كبكب، عن يمين الإمام على فرسخ، انظر المرجع السابق ١٢٢٩/٣ .

ليُسلموا بها ويُسلموا ، أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وإلا آذَنهم بالمناجزة ، ويبلغهم ذلك إما ببعث رسل يتولون مهمة البلاغ والدعوة ، وإما بكتب صُحبة رسل يختارهم لتلك المهام :

أ - أما بعث الرسل فكما بعث إلى اليمن معاذ بن جبل رضى الله عنه وقال له : "إنك ستأتى قوما أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " .

وفى رواية قال له : "إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله عز وجل ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة .." (١) وذكر نحوه .
ونلاحظ أنه صلى الله عليه وسلم لم يأمره بالخطوتين التاليتين للدعوة للإيمان بالله؛ وهما طلب الجزية أو الإيذان بالجهاد، ولعل ذلك كان مما أعلم الله به نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم باستجابتهم لدعوة الإيمان من غير تردد ، فلم يحتج إلى أن يأمره بما لم يحتج إليه عند هؤلاء القوم .

ب - وأما بعث الكتب فقد كان صلى الله عليه وسلم يبعث بها مع رسله إلى ملوك الأرض وعظمائها منذ أن تيسر له ذلك بإقامة دعائم دولة الاسلام، وقد كان يدعوهم فيها إلى الإسلام، ويرغبهم فيها ببقاء ملكهم عليهم إن هم أسلموا، فإن امتنعوا من ذلك خيّرهم بين الجزية والجهاد كما يتضح من المكاتبات التالية :

١ - فقد كتب إلى هرقل عظيم الروم قائلاً له : "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ٢٠٦/٥، ومواضع أخرى،

ومسلم في الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام برقم ١٩ .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ،
أما بعد ، فإنني أدعوك بدعاية الاسلام : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت
فإن عليك إثم الأريسيين (١) ، ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاَّ
نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) [سورة آل عمران: ٦٤].

٢ - وكتب إلى كسرى يقول له : "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن
بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ،
أدعوك بدعاية الله ، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حيا ويحق القول
على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم الجحوس (٣) ...".

٣ - وكتب إلى ملك عُمان كتابا يقول فيه : "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن
عبد الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جيفر وعبد ابني الجُندى ، سلام على من اتبع
الهدى ، أما بعد ، فإنني أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنني رسول الله إلى
الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فإنكما إن أقررتما بالإسلام
وليُتَكما ، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن مُلككما زائل عنكما ، وخيلي تحلُّ بساحتكما

(١) هم الخدم والخول كما قال أبو عبيد ، وقيل : هم الأتَّارون ، وهم عبدة النار ، كما قاله ابن الأعرابي ،
وذلك لأنه يصدِّهم عن الدين لطاعتهم إياهم . انظر النهاية ٣٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد ، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة .. ٥٧/٤ ؛ ومسلم
في الجهاد ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام برقم ١٧٧٣ من حديث
ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) انظر إعلام السائلين من كتب سيد المرسلين لابن طولون الدمشقي ص ٦٠ ، وشرح المواهب ٣٤٠/٣ ،
وأصله في البخاري من حديث ابن عباس ٥٤/٤ .

وتظهر نبوتى على ملككما (١)...".

إلى غير ذلك من مكاتباته الكثيرة التى كانت على هذا النحو من البلاغ والإنذار ليهلك من هلك عن بينه، ويحيى من حى عن بينة ، فقد قال أنس رضى الله عنه: "إن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشى وإلى كل جبار عنيد يدعوهم إلى الله عز وجل" (٢).

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يبلغ الدعوة لا يألو جهداً، ولا يدخر وسعاً فى إبلاغها ليلاً ونهاراً ، سرا وجهاراً وبكل وسيلة يمكن أن يوصل بها البلاغ والدعوة إلى العالمين، وكل ذلك ينبى عن مدى حرصه صلى الله عليه وسلم على إبلاغ رسالات الله لأجل أن يهدى عباد الله إلى صراط الله العزيز الحميد.

إبلاغ القرآن :

أما إبلاغه القرآن فقد كان أيضاً على ذلك النحو من الجهد والمثابرة والعناية؛ لأن الله تعالى قد أرشده إلى ذلك بوجه خاص حيث قال له: ﴿ وَقرآنًا فرقناه، لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾ [سورة الاسراء : ١٠٦] أي: لتبلغه الناس وتتلوه على مهل لتكون ألفاظه ومعانيه أثبت فى نفوس السامعين (٣) .

فقام بذلك حق القيام ، فكانت له به عناية خاصة فى تعليمه وإذاعته ونشره، فهو

(١) انظر عيون الأثر لابن سيد الناس ٢٦٦/٢، وشرح المواهب ٣٥٢/٣، وزاد المعاد ٦٩٣/٣، وإعلام السائلين ص ٩٢، وطبقات ابن سعد ٢٦٢/١، ونصب الراية للزيلعي ٤٢٣/٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى الجهاد، باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل برقم ١٧٧٤، وانظر كتبه إلى أولئك فى أعلام السائلين الآنف الذكر، وفى طبقات ابن سعد ٢٥٨/١-٢٩٠، ونصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية للزيلعي ٤١٨/٤-٤٢٥، وزاد المعاد فى هدى خير العباد ٦٨٨/٣-٦٩٧.

إلى غير ذلك من كتب المغازي والسير والحديث وغيرها .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦٨/٣، والتحرير والتنوير ٢٣١/١٥ .

يقرؤه لهم على مكث لو عدّه العادّ لأحصاه، ترتيلاً كما أمر الله، ويسمعهم إياه فى الخطب والصلاة وفى الدروس والعظات والدعوة والإرشاد، وفى الفتوى والقضاء، ويدارسهم إياه فيسمع منهم ويسمعون منه، ومن لم يكن حاضراً لديه كأهل البلاد المختلفة أرسل إليهم بعثات القراء ليعلّموهم إياه ويفقهونهم به، كما هو معلوم من رسالته وسيرته وسننه (١).

كتابة القرآن وكتبته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وقبل ذلك كله كان لا يكاد ينفك عنه الوحي حتى يقرأه على الناس ويدعو كتابة الوحي فيكتبوه، فيما يسهل لهم من العُسب واللّخاف والرقاع وقطع الأديم (٢)، وعظام الأكتاف والأضلاع ونحوها، ثم يحفظ فى بيته ليكون وثيقة لحفظه وحفظ أصحابه كما هو مبين فى مظانه من كتب السيرة والسنة المشرفتين.

فعن زيد بن ثابت (٣) رضى الله عنه قال: كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته بُرحاء شديدة، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان (٤)، ثم يُسرى عنه، فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف أو كسرة فأكتب وهو يملأ

(١) انظر مناهل العرفان فى علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ٣٠٧/١ :

(٢) العسب: جمع عسيب: وهو جريد لنخل، واللخاف: جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء، وهي الحجارة الرقيقة، والرقع: جمع رقعة، وتكون من جلد أو ورق أو كاغد أو نحوها .

(٣) ابن الضحاك الأنصاري النجاري المدني الفرضي الكاتب، كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد معه الخندق وما بعدها، وكان قد رده يوم بدر ويوم أحد لصغره، وكان يكتب الوحي والمراسلات للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان يكتب لأبي بكر وعمر من بعده، وهو أحد الثلاثة الذين جمعوا المصحف بأمر أبي بكر وعمر رضى الله عنهما، ومناقبه كثيرة، توفي سنة ٥٤ هـ، بالمدينة، وقيل فى تاريخ وفاته غير ذلك، انظر طبقات ابن سعد ٣٥٨/٢، وأسد الغابة ٣٢١/٢، والاستيعاب بهامش الإصابة ٥٥١/١، والإصابة ٥٦١/١ .

(٤) الجمان: هو اللؤلؤ الصغار، وقيل: هو حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ، النهاية ٣٠١/١ .

عليّ، فما أفرغ حتى تكاد رجلى تنكسر من ثقل القرآن حتى أقول : لا أمشي على رجلى أبداً، فإذا فرغت قال: اقرأ فأقرأه، فإن كان فيه سقط أتمّه ثم أخرج به إلى الناس (١) .

وعنه رضى الله عنه قال : كنت جار رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل الوحي أرسل إلي فكتبت الوحي، وكان إذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا... (٢).

وكان إذا لم يجد زيدا أمر غيره ممن يكتب الوحي فيكتبه ، فقد كان له صلى الله عليه وسلم جمع غفير من كتّبة الوحي فى مكة والمدينة ، ففي مكة كان يكتب له أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان بن عفان وعلي بن أبى طالب وغيرهم رضى الله عنهم، وانضاف إليهم فى المدينة عدد كبير من الكتبة الذين اصطفاهم النبي صلى الله عليه وسلم لكتابة الوحي أو المهام الأخرى التى يريد كتابتها من مراسلات وإقطاعات ونحوها ، كأبي ابن كعب وزيد بن ثابت ومعاوية والزبير بن العوام وخالد بن الوليد وعبد الله بن رواحة وعمرو بن العاص وغيرهم رضى الله عنهم . وكان صلى الله عليه وسلم يأمرهم بوضع آية كذا فى سورة كذا بعد آية كذا، كما علّمه جبريل عليه السلام، وبذلك تظاهرت الكتابة مع الحفظ، لحفظ القرآن الكريم تحقيقاً لوعده الله تعالى بحفظه حيث قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩].

وكانوا جميعاً على رتبة عالية من الأمانة والثقة والمكانة والاعتماد عند النبي صلى الله عليه وسلم المؤيد بالوحي فى هذه المهمة الخطيرة ، وكانوا جديرين بذلك لأمانتهم

(١) عزاه الهيثمي فى المجمع ١/١٥٧ إلى الطبراني فى الأوسط، قال: ورجاله موثقون إلا أن فيه: وجدت فى كتاب

خالي، فهو وجادة، وأخرجه ابن أبي داود فى المصاحف ص ٧ ولم يذكر وجادة .

(٢) أخرجه الترمذي فى الشمائل برقم ٣٢٦، وابن سعد فى الطبقات ١/٣٦٥، والبغوي فى الأنوار برقم ٢٩١،

وعزاه الهيثمي إلى الطبراني قال: وإسناده حسن. اهـ. مجمع الزوائد ٩/٢٠ .

ووثاقتهم وخذقهم فى الهجاء والكتابة (١) .

ثم كان يقوم الصحابة رضى الله عنهم بكتابته لأنفسهم ، واستظهاره فى قلوبهم ، وتبليغه من لم يبلغه منهم، وكانوا رضوان الله عليهم فى حال عال من الحرص على جمعه وحفظه، بحيث لم يكن مثل ذلك لأحد غيرهم، فقد كانوا يتناوبون ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يتمكن أحدهم من ذلك بشغل أو جهاد ، فإذا ظفروا بجديد من القرآن لم يرحوا حتى يحفظوه ويكتبوه إن تيسر لهم.. (٢) .

فهكذا كان عليه الصلاة والسلام يبلغ القرآن الكريم بكل جهده، وطاقته وفى كل أوقاته وأحواله.

تبليغه صلى الله عليه وسلم للسنة:

وأما تبليغه صلى الله عليه وسلم للسنة فما كان أقل شأنًا من إبلاغ الدعوة وإبلاغ القرآن، بل كان مساهرا لهما فى كل أطوار البلاغ والدعوة على حد سواء؛ لأن السنة هى من الوحي الذى أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: ٤، ٣] وإن غايرت وحي القرآن فى أمور كثيرة (٣) فإنها تتفق معه فى التشريع ، وتزيد عليه فى إيضاح القرآن الكريم وبيانه، كما

(١) انظر توثيق نصوص القرآن لخالد عبد الرحمن العك ص ٤٥-٤٨ .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني ٣١٣/١، والبرهان للزركشي ٢٣٣/١-٢٤١،

والإتقان للسيوطي ١/٥٧-٦٤ .

(٣) وهى عشرة على خلاف فى بعضها، جمعها الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن الإمام العلوي فى كتابه طلعة الأنوار

ص ٢٢-٢٦ بقوله:

فالأُطْرُفُ الأعلى من الإعجاز مما به القرآن ذوامتياز

كذلك حفظه من التبديل ومنعه للمحدث المغتسل

ومنعه تلاوة للجنب فى كل حرف منه عشا أوجب

وفى صلاتنا له تعيينٌ تخصيصه باسم القرآن بين =

ناط بها الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٤] وكونها تبين كلام الله يقتضى أن تكون من عند الله؛ لأنها تبين مراده من كلامه لخلقه، ولا يكون ذلك إلا بما يوحى به إلى نبيه إذ هو العالم بكلامه ومراده منه على وجهه، فافتضى ذلك أن تكون وحياً يوحى، كما أفادت الآية الكريمة وأوضحه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "...ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه" (١) ولذلك كانت سنته صلى الله عليه وسلم واجبة الطاعة والامتثال ككلام الله تبارك وتعالى، كما ألزم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [سورة الحشر: ٧] بل إنه سبحانه قرن طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا تقبل طاعة الله مع معصية لرسوله صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٢] وكما قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [سورة النساء: ٨٠] وكما قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْتُمْ عَلَى رَسُولِنَا بِالْأَمْرِ الْمَبِينِ﴾ [سورة المائدة: ٩٢].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي توجب طاعته صلى الله عليه وسلم كما توجب طاعة الله تبارك وتعالى، وما ذلك إلا لأن ما يأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من عند الله بالوحي الجلي أو الخفى، أو الاجتهاد المؤيد بإقرار الله تعالى له فينزل منزلة الوحي، إذ لو لم يقره لنقضه أو تعقبه كما أفى ^{حدث} قصة أسارى بدر، فلهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعنى بإبلاغ السنة كما يعنى بإبلاغ القرآن، بل

= والنقل بالمعنى على المنصور ورأى الأربعة والجمهور

ومنع بيعه لدى ابن حنبل وكرهه لدى ابن شافع جلي

جمله الآي وتسمى سورا ولا كذا الحديث فيما غيرا

(١) جزء من حديث أخرجه أبو دواد في السنة، باب لزوم السنة برقم ٤٦٠٤، وأحمد في المسند

١٣٠/٤-١٣٢، وابن ماجه في المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ١٢، كلهم

من حديث المقدم بن عمرو بن معديكرب رضي الله عنه وإسناده حسن .

إن إبلاغه السنة كان أوسع دائرة من حيث إنه لا يمضي عليه حال من الأحوال إلا وهو محتاج إلى أن يبين ما يستجد فيه . من محكم أو موعظة أو قصة أو مثل، إذ القرآن يعنى بجوامع الأمور ، وأصول التشريع ، وقواعد الأحكام، ويتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان دقائق الأخبار وتفاصيل الأحوال فى كل الأحيان والأحوال، بل غالبه يحمل أوكل الله بيانه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما علمت آنفاً، وقد كان عليه الصلاة والسلام يبين ذلك على الدوام ، والدليل على هذا محسوس ملموس، إذ هذه سنته صلى الله عليه وسلم التى بلغت مآت الآلاف من الأحاديث ، والمدونة فى دووين السنة، لم تترك صغيرة ولا كبيرة من أمر الدين إلا وتناولتها بالتفصيل والبيان ، حتى بلغ من بيانه صلى الله عليه وسلم أن أخبر أصحابه بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، كما أخرج البخارى ومسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: "قام فىنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فما ترك شيئا يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابى هؤلاء قال: وإنه ليكون الشيء قد نسيته فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه" (١).

وعنه رضى الله عنه قال :«أخبرنى رسول الله بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فما فيه شيء إلا وقد سألته، إلا أنى لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة» (٢) .
وعن عمرو بن أخطب الأنصارى (٣) رضى الله عنه قال:«صلى رسول الله صلى الله

(١) البخارى فى القدر، باب (وكان أمر الله قدرا مقدورا) ١٥٤/٨، ومسلم فى الفتن، باب إخبار النبي صلى

الله عليه وسلم فيما يكون إلى قيام الساعة برقم ٢٨٩١ واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه مسلم فى الباب السابق برقم ٢٨٩١ .

(٣) المكنى بأبي زيد الأنصارى الخزرجي، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم عدة غزوات ومسح على رأسه

وقال: اللهم جمِّله، فعاش بضعا ومائة سنة ولم تبيض له شعرة، انظر أسد الغابة ٢٠٤/٥، والإصابة ٧٨/٤

ومعها الاستيعاب .

عليه وسلم يوما الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، قال : فأعلمنا أحفظنا" (١) .

ومن هذه الأحاديث تعلم مدى تبليغه صلى الله عليه وسلم للسنة ، حيث كان ذلك البيان كله في مجلس واحد، فما بالك ببقية المجالس في سائر الأيام ، نعم قد كان صلى الله عليه وسلم يخص بعض أصحابه ببعض الحديث مما يترتب على إبلاغه العامة فتنة أو مفسدة كأحاديث الفتن الخاصة ، وبيان المنافقين بالتعيين ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يخبر بذلك العامة، وإنما خص به بعض الصحابة كحذيفة بن اليمان رضى الله عنه كما دل عليه حديثه السابق، وكأبي هريرة رضى الله عنه الذى قال : «حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين : فأما أحدهما فبثته، وأما الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم" (٢) يعنى بحرى طعامه ، يكنى بذلك عن قطع رأسه .

وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يخص بعض أصحابه بأحاديث يحمل إشاعتها على الاتكال وعدم العمل، كما خص معاذ بن جبل رضى الله عنه بحديث بين فيه جزاء من لقي الله تعالى لا يشرك به شيئا كما أخرج الشيخان (٣) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وهو رديفه على الرحل : "يا معاذ بن جبل ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : يا معاذ ، فقال : لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا، قال : "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرّمه الله على النار" قال يا رسول الله : أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : "إذا يتكلموا"، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما" أي: خروجاً من إثم كتمان العلم.

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الباب السابق برقم ٢٨١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب حفظ العلم ٤٠/١ .

(٣) البخاري في العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا ٤٣/١، ومسلم في الأيمان برقم ٣٢ .

وعنه رضى الله عنه قال : : ذكر لى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ : "من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، قال : ألا أبشر الناس ؟ قال : "لا إنني أخاف أن يتكلموا(١)" أي : يمتنعوا عن العمل اعتماداً على ما يتبادر من ظاهر الحديث .

ومع خشيته صلى الله عليه وسلم هذه، إلا أنه لم يترك إبلاغ بعض من لا يخشى عليه الاتكال، أو أمن عليه عدم بث ما يترتب على بثه فتنة أو مفسدة كأحاديث الفتن، وذلك لتبرأ ذمته فى البلاغ الذى كلفه، أما أحاديث الفتن المجملة فقد كان يبلغها بلاغاً عاماً كما تشهد لذلك أحاديث الفتن الكثيره المحفوظة فى دواوين السنة الصحيحة وغيرها .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود من حديث أبى بكره (٢) رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة، القاعد فيها خير من الماشى فيها، والماشى فيها خير من الساعى إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلق بها، ومن كانت له غنم فليلق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلق بأرضه" قال : فقال رجل يا رسول الله : أرايت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : "يعمد إلى سيفه فيدق على حدة بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟" قال : فقال رجل يا رسول الله : أرايت إن أكرهت حتى ينطلق بى إلى أحد الصفين أو أحد الفئتين فضربنى رجل بسيفه أو يجمىء سهم فيقتلنى ؟ قال : "يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار"(٣) .

فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على البلاغ حتى أنه أشهد الله تعالى

(١) أخرجه البخاري فى العلم، الباب السابق ٤٣/١ .

(٢) هو نفي بن الحارث بن كلدة الثقفي، على قول فى نسبه، نزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى حصار

الطائف متديلاً ببكره، فأسلم وكنى بأبى بكره، وكان من فضلاء الصحابة وصالحهم، توفى بالبصرة سنة ٥١ هـ، انظر أسد الغابة ٣٨/٥، ١٥١، وتهذيب الأسماء ١٩٨/٢، والإصابة ٥٧٢/٣ .

(٣) مسلم فى الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر برقم ٢٨٨٧، وأبو داود فى الفتن، باب النهي عن السعي فى

الفتنة برقم ٤٢٥٦ .

على ذلك ثلاثاً ليرأ من تبعة تحمّل الرسالة التي كلف بإبلاغها إلى الأمة، وقد أداها على أكمل وجه وبلغها كما أراد الله تعالى.

تكليفه صلى الله عليه وسلم من بلغه شيء عنه أن يبلغه غيره:

ثم لم يكتف بذلك بل كلف كل من يسمع عنه شيئاً أن يبلغه إلى من وراءه ليعم بلاغه الأمة في كل زمان ومكان، ليعملوا بما بلغهم من سنته في كل ما كلف به بنو الإنسان من أمور الدين والدنيا.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بلغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" (١).

ورغبهم في ذلك وشجعهم عليه، فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "نظر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغ غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه" (٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "نظر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع" (٣).

وهكذا أدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم واجب التبليغ تارة بالعبارة، وتارة بالكتابة، وتارة بالحث على إبلاغ من لم يبلغه، لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً في إيصال

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢٠٧/٤، والترمذي في العلم، باب ما جاء في

الحديث عن بني إسرائيل برقم ٢٦٦٩.

(٢) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع برقم ٢٦٥٦، وأبو داود في العلم، باب

فضل نشر العلم برقم ٣٦٦٠، وأحمد في المسند ٤٣٧/١، وابن ماجه برقم ٢٤٢، والدارمي ٧٥/١، وهو

حديث صحيح، وحسنه الترمذي.

(٣) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع برقم ٢٦٥٨ وهو من الأحاديث

المتواترة عن ابن مسعود وجبير بن مطعم والنعمان بن بشير وغيرهم، انظر قطف الأزهار المتناثرة

للسيوطي ص ٢٢٨، ولقط اللآلى المتناثرة في الأحاديث المتواترة للزيدي ص ١٦١.

رسالة الله التي حَمَلَهَا إلى كل من يستطيع إيصالها إليه تنفيذًا لواجب البلاغ الذي تحمله بمقتضى رسالته، وتنفيذًا لأوامر الله تعالى في ذلك كقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [سورة المائدة: ٦٧] فبَلِّغْ البلاغ المبين منذ أن بعثه الله تعالى إلى أن أتاه اليقين.

تبليغه صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى ما يتعلق بجنابه العظيم من عتاب ونحوه ولا أدل على ذلك من تبليغه حتى ما لمس جنابه العظيم من العتاب الذي كان يوجهه الله تعالى إليه، كما هو مقتضى تأديب الله تعالى له صلى الله عليه وسلم الدال عليه ماروى عنه صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه "أدبني ربي فأحسن تأديبي" (١) وذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة التحريم: ١] وقوله سبحانه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ...﴾ [سورة الأحزاب: ٣٧] وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٣] وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٦٧، ٦٨] وقوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى...﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [سورة عبس: ١-١٠].

إلى غير ذلك من آيات العتاب التي ما كان ليتفوه النبي صلى الله عليه وسلم بها لولا كمال أخلاقه في البلاغ وكمال أمانته فيه، لأن في كتمان ذلك في نظر العقول البشرية ستر على النفس الشريفة واستيفاء لحرمة آرائه، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانها إذ

(١) أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص ١، بلفظ إن الله أدبني وأحسن أدبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال: ﴿خُذُوا الْعَفْوَ وَأْمُرُوا بِالْعُرْفِ﴾ الآية. قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٢٩: وإسناده منقطع فيه من لم أعرفه عن عبداً لله أظنه ابن مسعود رضي الله عنه. وذكر له شواهد وقال عنه: إسناده ضعيف جداً، وإن اقتصر شيخنا - يعني الحافظ ابن حجر - على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه. قال: ولكن معناه صحيح ونقل عن ابن تيمية نحو ذلك، وذكره السيوطي في الجامع الصغير ص ١٣ ورمز لصحته، ونقل في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ص ٤٣ تصحيح أبي الفضل بن ناصر له، وانظر فيض القدير للمناوي ١/ ٢٢٤.

هو الصادق الأمين الذي اصطفاه لإبلاغ رسالته ﴿والله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ (١)
[سورة الأنعام : ١٢٤] ولذلك قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "لو كان محمد صلى الله عليه وسلم كائناً شياً مما أنزل عليه لكتّم هذه الآية ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه ﴿سورة الأحزاب : ٣٧﴾ (٢) وعن عائشة رضي الله عنها قالت :
« من حدثك أن محمداً كتّم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب والله يقول: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ [سورة المائدة: ٦٧] (٣) .

ولقد صدق أنس وصدقت عائشة رضي الله عنهما وبرّاً ، فما أدق استنباطهما في الدلالة على واجب البلاغ الذي قام به النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه أمين الله على وحيه ، لا يكتّم صغيرة ولا كبيرة مما أراد الله تعالى إبلاغه إلى خلقه ، وكيف لا وقد زكّاه الله تعالى في ذلك حيث قال سبحانه: ﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رسالاتِ رَبِّهِمْ ..﴾ [سورة الجن : ٢٨] وقال عنه سبحانه: ﴿وما هو على الغيب بظنين﴾ [سورة التكوين: ٢٤] أي: ما هو على ما يخبر به من الوحي إليه وغيره من الغيوب بمتهم ، وقرىء (بضنين) من الضن: وهو البخل ، أي لا يخل بالتعليم والتبليغ (٤) ، بل يبذله لكل أحد، كما قال قتادة: كان القرآن غيباً، فأنزله الله تعالى على محمد فما ضن به على الناس بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده ، قال ابن كثير : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح (٥) .

وهذه شهادة من الله له وتزكيته بأداء واجب البلاغ على أكمل وجه (وكفى بالله شهيداً) ولم يكتف سبحانه وتعالى لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الشهادة بل لقد

(١) انظر النبأ العظيم د/محمد عبد الله دراز ص ٢٤، ٢٥ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء) ١٥٢/٩، ومسلم في الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ برقم ١٧٧ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة المائدة، باب ﴿يا أيها الرسول بلغ ..﴾ ٦٦/٦ وفي تفسير سورة النجم ١٧٦/٦، وفي التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ...﴾ ١٩٠/٩ .

(٤) تفسير البيضاوي ص ٧٨٧ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٨٠ .

أضاف إليها شهادة أخرى بأسلوب آخر حيث قال جل شأنه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [سورة المائدة : ٣] فإن كمال الدين لا يكون إلا بالتبليغ لجميع أحكامه وما أوحى الله به في شأنه إلى أهله عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومع ما شهد الله له بالبلاغ المبين فإنه عليه الصلاة والسلام أحب أن تشهد له أمته بذلك فاستنطقها بها لتطمئن نفسه، وذلك في يوم عرفة في حجة الوداع حيث قال لهم في خطبته العظيمة ذلك اليوم: "...وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات" (١).

وفي حديث سُمرة بن جندب في قصة الكسوف قال عليه الصلاة والسلام: "إنما أنا بشر رسول، فأذكركم بالله إن كنتم تعلمون أنني قصرت عن تبليغ شيء من رسالات ربي؟" يعني فقولوا، فقالوا: نشهد أنك بلغت رسالات ربك وقضيت الذي عليك (٢) "فهكذا كانت سناء أخلاقه صلى الله عليه وسلم العظيمة تحمله على أن يتحسس من أصحابه أن يخبروه إن وجدوا منه صلى الله عليه وسلم تقصيرا في واجب البلاغ، وذلك لكمال خشيته لله وأمانته فيما أوثمن عليه، وإلا فإنه يعلم أنه المعصوم عن ذلك فإن كان جانب البشرية منه يجوز له التقصير، فإن واجب العصمة تمنعه منه ويدفعه إلى كمال البلاغ.

فصلى الله وسلم على سيدنا محمد رسول الله فما أعظم إحساسه بالمسئولية، وأجل خشيته لله عز وجل!! فنشهد أنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

(١) جزء من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في بيان حجة النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه مسلم

في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم برقم ١٢١٨ .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٣٠٠/٢٨: صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم .

المبحث الرابع

(الفطنة)

الفطنة في اللغة : الحذق ، وضدها الغباوة ، وقيل الفطنة الفهم ، والذكاء سرعته وقيل: الفهم بطريق الفيض وبدون اكتساب (١) .

والمعاني متقاربة ، إذ كلها تفيد تخلقا فاضلا في الذات الأنسانية يقدر به المرء على المحاجة والمجادلة وإفحام الخصم ، وذلك بخلق هو الفطنة التي عرّفوها في الاصطلاح بأنها: "التّيَقُّظُ لألزام الخصوم وإحجاجهم وإبطال دعاويهم الباطلة" (٢) .

مكانة هذا الخلق في أخلاق الرسل :

والفطنة بهذا المفهوم من أبرز أخلاق الرسل الذاتية التي منحهم الله تعالى إياها، وهي من لوازم الرسالة الإلهية، والاصطفاء الرباني لها، لأن حمل رسالة علمية، ومهمة تربوية للناس، وقيادة سياسية عظيمة ، لابد أن يرافقها في حاملها صفة الاستعداد لحمل هذه الرسالة يعرف بها الرسول ما يلقي إليه من الوحي، وبها يستطيع أن يحفظه ولا ينساه، وبها يستطيع بعد ذلك أن يبلغه كما أوحى إليه به، وبها يستطيع أن يعالج أمته بالتربية الحكيمة والقيادة السليمة وفق طبائعهم وأخلاقهم وهذه الصفة هي صفة الفطنة (٣) .

لذلك فلا يصطفى الله تعالى لرسالته إلا من يتمتع بصفة الفطنة التامة، والعقل الراجح؛ لأن من لم يكن فطنا بأن كان مغفلا لا يمكنه إقامة الحجة على صدق دعواه ، ولا مجادلة أعدائه الذين يريدون إخفاق دعوته ودحض حجته ، كما لا يستطيع أن يقنع الآخرين بالحق الذي جاء به .

وقد قص الله تعالى لنا من أحوال فطنة رسله ما لا ينقضي منه العجب، من سرعة البديهة وإقامة الحجة الصادقة ، ودفع الحجة الباطلة وإلزام الخصم وإفحامه بالبراهين النيرة، والحجج الدامغة وذلك كنوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، ويوسف، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(١) القاموس المحيط بشرحه تاج العروس ٣٠١/٩، والصحاح للجوهري ٢١٧٧/٦ .

(٢) تحفة المريد للباجوري ص ٧٦ .

(٣) العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة الميداني ص ١١٢ بتصرف يسير .

نماذج من فطنة رسل الله:

إذا ذهبنا نبحث عن نماذج حيةٍ عن فِطْن الأنبياء في القرآن الكريم ، فإننا نجد من ذلك الكثير الطيب مع كل من ذكر في القرآن الكريم ، وذلك يفضي بنا إلى الإطالة ، ولكن بحسبنا أن نأتي ببعض نماذج لتكون كافية في الدلالة على باقيها ، وذلك من واقع حياة نبي الله نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، لتخلص من ذلك إلى تقريرها في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأدلتها من حياته في مراحل حياته ودعوته.

فطنة نوح عليه السلام:

لقد استطاع نوح عليه السلام بفطنته العظيمة أن يفهم مناوئيه من قومه حتى أقروا له بالعجز عن مجادلته واستعجلوا ما يتوعدهم به من العذاب ، وقالوا : ﴿ يانوح قد جادلنا فأكثرَ جدالنا فائتينا بما تعدنا إن كنتَ من الصادقين ﴾ [سورة هود : ٣٢] ذلك لأنه مافتىء يناظرهم ويجادهم ويحاججهم ، كلما أتوه بشبهة فندها ، وكلما جادلوه أسكتهم ، فلا يملكون جوابا ولا ردا ولا حجة ، فلما قال له ﴿ الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ [سورة هود : ٢٧] أجابهم نوح عليه السلام بقوله : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي وآتاني رحمةً من عندي فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم له كارهون * ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجزى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيتهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ [سورة هود : ٢٨-٣١] .

فقومه لما جادلوه بما يُنمى عن قصور عقولهم حيث احتجوا عليه بفقده وسائل السؤدد عليهم من المال والجاه ، فرأوا أنه غير أهلٍ لشرف الرسالة لذلك ، وأنه من جنسهم البشري، وظنوا أن شرف الرسالة ينبغي أن يكون لغير هذا الجنس، مع أنه الجنس الذي كرمه الله وشرفه على كثير من الأجناس كما قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٠] .

فلما قصر نظرهم عن إدراك أسباب الكمال حيث نظرُوا إليه وإلى أتباعه فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس ، بل أن أتباعه من ضعفاء قومهم ، ورأوا أن ذلك علامة كذبه وضلال أتباعه، لما كان أمرهم كذلك سلك نوح عليه السلام في مجادلته مسلك الإجمال لإبطال شبههم، ثم مسلك التفصيل لرد أقوالهم .

أمامسلك الاجمال فسلك فيه مسلك القلب ، بأنهم ان لم يروا فيه وفي أتباعه ما يحمل على التصديق برسالته ، فكذلك هو لا يستطيع أن يحملهم على رؤية المعاني الدالة على صدقه ، وأنه لا يستطيع منع الذين آمنوا به من متابعتهم والاهتداء بالهدي الذي جاء به ، وأنه لم يدع فضلا غير الوحي إليه ، كما حكى الله عن أنبيائه ورسله عليهم السلام في قوله: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [سورة ابراهيم : ١١] .

ثم فصل إجابته السابقة ، فأجابهم عما توهموه من أن من لوازم النبوة أن يكون أغنى منهم أو أن يعلم الأمور الغائبة بقوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ والمعنى لا أدعى ما ليس لي فتذكروا قولي وتستبعدوا ما آتاني الله من فضل النبوة . وعن دعواهم بأنه بشر لا يستحق أن يتميز عنهم بالرسالة أجابهم بقوله : ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنَّنِي مَلَكٌ ﴾ يعنى بل أنا بشر مثلكم تعرفوني وأعرفكم ، ولكن آتاني الله فضل الرسالة إليكم .

وعن دعواهم باستزلال أتباعه لكونهم من ضعفاءهم وفقرائهم أبطله بطريقة التخليط، لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سببا لانتفاء فضلهم ، فأبطله بأن ضعفهم ليس بحائل بينهم وبين الخير من الله تعالى إذ لا ارتباط بين الضعف في الأمور الدنيوية من فقر وقلة، وبين الحرمان من نوال الكمالات النفسانية والدينية ، فقال : ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ .

وهكذا فند ادعائهم واحدة واحدة بما لم يترك لهم مجالا للمكابرة ، حيث قرر لهم بذلك الحقائق الثابتة في شأنه والتي لا يجهلونها ، وجعلهم في واقع الأمر مسلمين بأنه

لا يحملهم على مجادلته إلا محض الكبر وبمجرد اللجاج والعناد، فما كان لهم بعد ذلك من طاقة في الصبر على مجادلته المفحمة ، فعدلوا إلى استعجال العذاب الذي يتوعدهم به لما سئموا من تزييف معارضتهم وأرائهم ، شأنهم بذلك شأن المبطل اذا دمغته الحجة فقالوا : ﴿يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة هود: ٣٢] (١).

وكم قص علينا القرآن الكريم من جدله المحكم الرصين الذي كان يواجههم به (٢) واستقصاؤه يفضي إلى الأطالة فبحسبنا هذا المثال .
فطنة ابراهيم عليه السلام :

إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، استطاع بفطنته النيرة وذكائه المفرط أن يفحم أعداءه و يقيم عليهم الحجة والبرهان الدامغين على بطلان معبوداتهم وضلال معتقداتهم ، بحيث عجزوا عن مناظرته ومجادلته ، وعدلوا إلى مغالته بقوة البأس ، شأن من تعيا عليهم الحجج فيعدلون إلى القوة، ولكن مالبثوا أن خيبتهم الله وأذلهم من حيث أرادوا من القوة والبطش، وقد قص الله في كتابه الكريم من أخبار مجادلته قومه ما يشهد ببالغ فطنته وفرط ذكائه، من ذلك مناظرته لقومه في شأن معبوداتهم من الكواكب ، حيث استطاع إقامة الحجة الدامغة عليهم في بطلان ألوهيتهما بما لم يدع شكا للمتصف العاقل ، فقد استدرجهم في تفنيد اعتقادهم شيئا فشيئا، حتى أتى على متعدهم الزائف من أساسه، وأقام الحجة الدامغة على اجتثاثه، ~~كن~~ بما قصه الله تعالى علينا بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُوْنَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي

(١) انظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤٥/١٥-٦٠، وتفسير ابن جزري ١٠٣/٢-١٠٤، وتفسير البيضاوي ص ٢٩٥ .

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ٨٤/١-٩١ حيث جمع كل ما حكاه الله عنه في شأنه في القرآن الكريم .

فلما أَفَلَ قال لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا رَبِّي هذا أكبر فلما أَفَلَتْ قال يا قوم إني بَرِيءٌ مما تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وما أنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ [سورة الأنعام : ٧٥-٧٩] .

"فقد بين لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة ، لاتصلح للألوهية ، ولأن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة ومدبرة مسخرة ، تطلع تارة وتأفل تارة أخرى فتغيب عن هذا العالم ، والرب سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا اله إلا هو ولا رب سواه.

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب ، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة فلا تصلح أن تكون ربا (١) ، وأن الرب شأنه أن يكون مدبراً مسخراً ضاراً نافعا ، وأن هذه الكواكب لا تملك شيئا من هذه الأمور ، فهي إذاً لاتستحق أن تعبد، فأعلن براءته منها وإخلاص عبوديته لله تعالى قائلاً : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وما أنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وبذلك زعزع إيمانهم في معتقداتهم الضالة بهذه الكواكب السَّيَّارة التي لا تملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وذلك بفضل الله تعالى، ثم بفضل هذا الأسلوب الجدلي الحكيم القائم على استدراج المخاطب بالتسليم بدعاويه ثم الكر عليها بالبطلان ، بقوة الحجة والبرهان، وما كان له بذلك من قوة لولا الفطنة الكبرى التي رزقه الله تعالى إياها؛ لتساير تكليفه بالرسالة. ومن صور مجادلاته المفحمة مناظراته المحكمة الدالة على قوة فطنته وكمال نباهته، تلك المجادلة التي جرت بينه وبين ملك زمانه ، (النمرود) (٢)

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ١٦٠/١ .

(٢) نقل الحافظ ابن كثير في قصص الأنبياء ١٧١/١ عن المفسرين وغيرهم من علماء النسب والأخبار أن هذا

الملك هو ملك بابل واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وقال غيره: إنه كان أحد ملوك

الدنيا قال: فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران، فالؤمنان: ذو القرنين وسليمان، =

لأثبات وحدانية الله تعالى ، التي كان ينازع فيها هذا الملك الجبار المتمرد ويدّعيها لنفسه ، وذلك كما قصها الله تعالى علينا في كتابه الكريم حيث قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة البقرة ٢٥٨] فإن نبي الله إبراهيم عليه السلام لما دعاه إلى التوحيد وعبادة الله تعالى حمّله جهله وإنعام الله عليه بالملك وطول العمر على إنكار الخالق جل جلاله المستحق للتوحيد والعبادة فطفق يجادله بالباطل ليدحض به الحق ، فأراد إبراهيم عليه السلام أن يكذب دعواه بدليل محسوس ، يدركه كل عاقل وهو أن الرب الحق هو الذي يحيي ويميت ، والذي يفعل ذلك هو ربي وأنت لا تملك ذلك ولا تقدر عليه ، فذهب الجاهل يجادل بما لا يفهم بطلانه ، ويدعي لنفسه هذه الخصوصية ، فقال : (أنا أحيي وأميت) وهذه مغالطة مكشوفة إذ زعم أنه يعتمد إلى من حكم عليه بالموت فيعفو عنه ، وإلى بريء فيقتله ، وظن أنه بذلك قد خلق الحياة والموت وأنه استطاع أن يقيم الحجة على نبي الله تعالى ويقنع الحاضرين من أبناء جنسه ومن هم على شاكلته في الشرك والضلال ، ولا شك بأنه سيجد آذنا صاغية تصدق بحجته هذه الواهية من متبوعيه ، فسيصفقون له تصديقا وابتهاجا ، مع أن إجابته تلك هي انقطاع عن الحاجة ، وفرار منها في الواقع ، إذ ما أراده ليس من باب الإحياء والإماتة في شيء ، فان الإحياء والأماتة تعنى خلق الأجسام الحية من الإنسان والحيوان ، وفنائها ، وهذا معلوم بالضرورة بالنسبة لكل إنسان ، لذلك فقد عدل إبراهيم عليه السلام عن الاعتراض بأن هذا ليس من الأحياء المحتج به ، ولا من الأماتة المحتج بها ، لما علم من مكابرة خصمه ، وانتقل إلى ما لا يستطيع الخصم انتحاله ، فذكر دليلا آخر يبين وجود الصانع ووجوب عبادته فقال له : (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فإن الذي يحيي ويميت هو الذي

= والكافران: النمرود ومُختَصَر، قال: ذكروا أن غروذا هذا استمر في ملكه أربعمئة سنة، وكان قد طفئ

وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا. اهـ .

يفعل هذه الأشياء فعندئذ (بهت الذى كفر) أى غلب ،

وصار مبهورا منقطعاً عن الكلام متحيراً لاستيلاء الحجة عليه ، إذ لا قدرة له عند ذلك على المكابرة أو المغالطة (١)،

وهكذا أقام عليه نبي الله ابراهيم عليه السلام الحجة الدامغة بفطنته النيرة ، بحيث لم يستطع مواصلة اللجاج والعناد، وبذلك عُرف خُبره لأتباعه وأنه أحقر من أن يخلق بعوضة أو يدبر أمراً، وتبين لهم بذلك أن دعواه الألوهية محض افتراء ، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا، إذ الناس غالباً على أديان ملوكهم وأتباع كل ناعق، فاستمروا معه على الباطل وعاونوه عليه حتى أرادوا بإبراهيم عليه السلام كيذا فجعلهم الله هم الأخسرين كما فى قصة إرادة إحراقه وإنجاء الله له، وجعل نارهم عليه برداً وسلاماً، وكم كان لإبراهيم عليه السلام من مناظرات ومجادلات مع قومه عبدة الأصنام والكواكب قصها علينا القرآن الكريم ، كان يفحهم فيها ويلزمهم الحجة ويقيم عليهم البرهان، كل ذلك بفضل ما آتاه الله من فطنة نيرة، وذهن وقاد، وحس مُرهف ، كما قال الله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام : ٨٣].

وقد آتى الله تعالى تلك الفطنة لكل أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام كما يعلم ذلك جلياً مما قصه الله علينا من أحوالهم مع أقوامهم فى الحوار والجدال والمناظرة التى كانوا يجرونها معهم ، فيقطعون بذلك لججهم وخصوماتهم ، ويبينون زيف أقوالهم وجدالهم فيهدى الله من يشاء ويضل من يشاء ، ولكن بعد ما تقام الحجة الواضحة ويستبين الحق المبين ، وصدق الله إذ يقول : ﴿...رُسُلًا مَّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء : ٦٥].

(١) انظر التحرير والتنوير ٣/٣٢-٣٣، وروح المعاني ١/٣١٦-١٩، وقصص الأنبياء لابن كثير

فطنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

أما فطنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانت فى ذروة الذرى من بين فطن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فطره الله عليها لما رشحه إليه من حمل رسالته العامة الخاتمة؛ الملة الحنيفية المرتضاه لديه سبحانه، وهى شريعة الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة : ٣] وقد دل على فطنته عليه الصلاة والسلام أمر الله تعالى له أن يجادل معاندي دعوته حيث قال : ﴿...وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل : ١٢٥] وقال له : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٦] .

فإن هذا التكليف الربانى يدل على كمال فطنته عليه الصلاة والسلام حيث كلفه الله تعالى بمجادلة الكفار من مشركين وأهل كتاب، على صدق دعوته الرسالة ، ووجوب إثبات وحدانية الله تعالى وعبادته .. ومعلوم أن الجدال لا يقدر عليه إلا من كان مفردا فى الذكاء والفطنة ، وإلا فإن الحجة ستقام عليه ويُغلب ، وتدحض حجته ، ولكن لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذروة الذكاء والفطنة أو كل الله إليه بمجادلتهم ، وثوقا بكامل فطنته لأقامة الحجة الدامغة على أعدائه ، كما حدث بالفعل فى كل مجادلاته ومناظراته التى جرت بينه وبين أعدائه كما سيتبين لك ذلك عند ذكر نماذج منها، ومما يدل على كمال فطنته عليه السلام ، قول الله تعالى : ﴿يَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ماأنتَ بنعمة ربك بمجنون﴾ [سورة القلم : ٢٠١] حيث أقسم المولى جل وعلا قسما مؤكدا (١) على نفي الجنون عنه الذى كان يرميه به بعض المشاغبين من أهل الكفر والعناد، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة القلم : ٥١] وذلك ردا عليهم وتكذيبا لقولهم، كما قال فى آية اخرى ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة التكويد : ٢٢] وقال : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [سورة الطور : ٢٩] وفى ذلك النفي إثبات لكمال عقله ، وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل والشهامة التى يقتضيها التأهيل للنبوّة بمنزلة (٢) عظمى لا يرقى إليها .

(١) المؤكّدات هنا هي القسم ومحى الجملة بعد النفي بالباء التى تزداد بعد النفي لتأكيد، والجملة الاسمية المنفية

(٢) البحر المحيط لأبى حيان ٣٠٨/٨ .

وقد برهن الله تعالى على كمال عقله إضافة إلى قسمه المؤكد بعظمة أخلاقه حيث قال بعد ذلك ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم : ٤، ٣] إذ أن صاحب الخلق العظيم ، لا يكون إلا في منتهى الكمال العقلي والصفاء الذهني ، لأن العقل أصل فروع الفضائل الخلقية وعنصر ينايعها ونقطة دائرتها ، حيث يتفرع منه "ثقوب الرأي وجودة الفطنة ، والأصابة ، وصدق الظن ، والنظر للعواقب ، ومصالح النفس ، ومجاهدة الشهوة ، وحسن السياسة والتدبير ، واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل " وقد كان صلى الله عليه وسلم من هذه كلها في الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه (١) .

وقد نقل القاضي في الشفاء (٢) عن وهب بن منبه (٣) رحمه الله تعالى قال : «قرأت في أحد وسبعين كتابا فوجدت في جميعها أن النبي صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا» وفي رواية أخرى قال : «فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها في جنب عقله إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا» وقال القاضي بعد أن قرر أنه لا مزية في أنه صلى الله عليه وسلم أعقل الناس وأذكاهم ، قال : «ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة ، مع عجيب شمائله ، وبديع سيره ، فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع ، دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب فيه ، لم يمتز في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة» (٤) .

(١) الشفاء للقاضي عياض ٢١٦/١ .

(٢) ١٦٢/١ .

(٣) ابن كامل اليماني الصنعاني الأبنائي تابعي جليل ثقة ، من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية ، وسمع من عدد

من الصحابة كجابر بن عبد الله وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم ، قال الإمام النووي

اتفقوا على توثيقه توفي سنة ١١٤ هـ ، انظر طبقات ابن سعد ٥٤٣/٥ ، وتهذيب الأسماء ١٤٩/٢ .

(٤) الشفاء ١٦١/١ .

تمثل خلق الفطنة

فى النبى صلى الله عليه وسلم

أما تمثل هذا الخلق فى النبى عليه الصلاة والسلام ، فيتجلى فى مظاهر كثيرة من سير حياته صلى الله عليه وسلم نذكر منها مايلى :

١ - سرعة إقامة الحجة على المعارضين وقطع شغبهم وجدالهم بالباطل ، فلا يستطيعون بجاته أو مكابرتة ، بل لا يسعهم إلا الأذعان والتسليم ، أو النكوص على أعقابهم خاسئين خاسرين وصور ذلك كثيرة منها :

١ - ماجاء عن سعيد بن أبى راشد (١) رحمه الله ، قال : رأيت التَّوْخِي رسول هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (بمحص) وكان جاراً الى شيخا كبيرا ، قد بلغ الفناء أو قرب ، فقلت : ألا تخبرنى عن رسالة هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل ، قال : بلى ... وذكر الحديث وفيه : "فانطلقت بكتابه (أى كتاب هرقل) حتى جئت تَبُوكَ فإذا هو جالس بين أصحابه على الماء ، فقلت : أين صاحبكم ؟ ، قيل : ها هوذا ، قال : فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابى فوضعه فى حجره ، ... إلى أن قال : ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره ، فقلت : من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟ فقالوا : معاوية. فإذا فى كتاب صاحبى : يدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ! فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «سبحان الله فأين الليل اذا جاء النهار ؟!...» الحديث (٢) .

(١) قال فى التهذيب ٢٦/٤ : ذكره ابن حبان فى الثقات، وفى التقریب برقم ٢٣٠١ مقبول .

(٢) عزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٣٩/٨ إلى عبد الله بن أحمد وأبى يعلى ، قال : ورجال أبى يعلى ثقات، ورجال

عبد الله بن أحمد كذلك .

٣ - ومن ذلك ماجاء عن عدى بن حاتم (١) رضى الله عنه فى قصة إسلامه ، وفيه قال : « .. فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان ، أو قال صبي ، قال : فعرفت أنه ليس ملك كسرى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «ياعدى بن حاتم ماأفرك ؟ أن تقول : لاإله إلا الله ، فهل من إله إلا الله ؟ ماأفرك أن يقال : الله أكبر ، فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل؟» قال : فأسلمت فرأيت وجهه استبشر..» (٢)

٣ - ومن إجاباته القاطعة للحجج ماأجاب به أبا سفيان يوم أحد حينما افتخر أبو سفيان وهو على شركه إذ ذاك ، بأوثانه إثر المعركة التى انجلت عن نصر له ولقومه أهل الشرك والوثنية ، فقال متبجحاً : «..أعلُّ هُبَلُ (٣) ، فقال صلى الله عليه وسلم «أجيبوه» ، فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : «اللهُ أعلى وأجل» قال أبو سفيان : لنا العُزَى (٤) ولا عُزَى لكم ، فقال صلى الله عليه وسلم : «أجيبوه» فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : «الله مولانا ولا مولى لكم» - فقال أبو سفيان : يوم بيوم والحرب سجال ، وتجدون مُثْلَه لم أمر بها ولم تسؤنى ، فقال صلى الله عليه وسلم : «أجيبوه» فقالوا : ما نقول ؟ قال : «قولوا : لا سواء قتلتنا فى الجنة وقتلاكم فى النار» (٥).

ب - ومن مظاهر كمال فطنته صلى الله عليه وسلم سرعة حله للمشاكل المستعصية التى تثار فى حلها العقول الكبيرة الشهيرة وصور ذلك كثيرة ومنها :

(١) الطائى أسلم سنة تسع من الهجرة ، وكان جواداً شريفاً فى قومه معظماً عندهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرمه إذا دخل عليه ، توفي سنة ٦٨ هـ ، انظر طبقات ابن سعد ٢٢/٦ ، وتهذيب الأسماء ٣٢٧/١ والإصابة ٤٦٨/٢ .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٣٧٨/٤ ، وعزاه الهيثمى فى المجمع ٢١١/٦ إلى الطبرانى قال : رجاله رجال الصحيح غير عماد بن حبيش وهو ثقة .

(٣) اسم للصنم الأكبر الذى كانوا يعبدونه ، وكانوا قد وضعوه على الكعبة ، تفسير غريب الحديث ص ٢٤٩ .

(٤) اسم صنم لهم كان بالطائف ، تفسير الحديث ص ١٦٦ .

(٥) أخرجه البخارى فى المغازي ، باب غزوة أحد ١٢٧/٥ .

١ - حله لمشكلة قريش في وضع الحجر الأسود الذي تنافست فيه قبائلها وأرادت كل قبيلة أن تحوز شرف وضعه وتستأثر به على غيرها ، حتى وصل بها الحال إلى شفى الحرب، حيث قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، وأشار عليهم أبو أمية بن المغيرة وكان يومئذ أسن قريش كلها على أن يجعلوا بينهم فيما يختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد - يعنى باب بنى شيبه - فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر فقال صلى الله عليه وسلم : هلم إلي ثوبا ، فؤتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ثم بنى عليه (١).

وبذلك رفع ما بينهم من ذلك الخلاف الذى كاد يودى برجالهم ، والذى حارت فيه عقولهم وفيهم المشهورون بالعقل والحنكة والتجربة والسؤدد ، ومع ذلك بارت فى هذه المشكلة العويصة، حتى خلصهم منها ذو الفطنة النبوية سيدنا محمد عليه صلوات الله وسلامه.

٢ - ومثل هذا الحل السريع الحاسم ، حله صلى الله عليه وسلم لمشكلة المهاجرين ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [سورة الحشر : ٨] فوفدوا إلى المدينة لايملكون شيئا ، فكانوا بذلك فى خطر المجاعة والغربة ، مما اقتضى إيجاد حل سريع لهذه المشكلة ، وكان رجلها وواحداه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث آخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة والحق والتوارث أخوين أخوين ، وكانوا تسعين رجلا من كل طائفة خمسة وأربعون ، وقيل مائة ، واستمروا على ذلك الحال إلى أن أنزل الله تعالى : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ٥٢/١ ، وتقدم ذكر هذه القصة في الإصلاح ص ٩٦٧

ببعض في كتاب الله... [سورة الأنفال : ٧٥] فنسخت حكم التوارث بين المهاجرين والأنصار (١) ، وبذلك حل النبي صلى الله عليه وسلم مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء في الحل.

٣ - كما حل في نفس الوقت مشكلة أخرى هي بمثابة المشكلة الأولى أهمية ، وهي مشكلة التعايش في المدينة بين طوائف مختلفة : الأوس والخزرج الذين كان بينهما من العداء بسبب ما كان يجري بينهما من الحروب ما لا يكاد ينسى ، والمهاجرون ، وجموع يهود التي كانت تسيطر على الحركة الاقتصادية في المدينة باحتكارها التجارة فيها ، وتشكيلهم خطراً عظيماً على الدولة الإسلامية الفتية ، وهم أيضاً منقسمون على أنفسهم فبعضهم يوالى الأوس ، والبعض الآخر يوالى الخزرج.

فكان لابد من إيجاد ثقة كاملة ، بين هذه الأطراف المختلفة للتعايش السلمي ، والدفاع العام عن عدو مشترك يقدم عليهم من الخارج ، يريد المساس بأحد من هذه الطوائف فكان ذلك بما أجراه النبي صلى الله عليه وسلم من عهد موادة بين هذه الطوائف يرضى جميعها ومما كان في ذلك العهد مانصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم (٢) يتعاقلون بينهم (٣) ، وهم يقدون عاينهم (٤) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عاينها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ... وأن لا

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٤٢ مع الروض ، ووفاء الوفاء للسمهودي ١/٢٦٧ ، وعيون الأثر لابن سيد الناس ١/٢١ .

(٢) الربعة الحالة التي جاء الإسلام وهو عليها ، عيون الأثر ١/١٩٩ .

(٣) أي : يدي بعضهم بعضاً .

(٤) أي : أسيرهم .

يحالف مؤمن مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة (١) ظلم أو إثم أو عدوان ، أو افساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعا من يهود فإنه له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ (٢) إلا نفسه وأهل بيته ... وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم .. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الأثم ، ... وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يشرب... (٣).

وبذلك قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على النعرات الجاهلية ، والدسائس اليهودية ، وأوجب للجميع الود والأخاء والتراحم وإقامة العدل ، وما كان لذلك أن يتم لولا هذا العلاج الناجع ، من ذى الفطنة العظيمة والسياسة الحكيمة صلوات الله وسلامه عليه.

٤ - ولقد حاول المنافقون ذات مرة أن يفككوا عرى هذه الصحيفة العادلة والمعاهدة الكريمة، لكن كانت فطنة النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالمرصاد ، فأحبطت تلك

(١) أي: طلب دفعا على سبيل الظلم. النهاية ١١٧/٢ .

(٢) أي: لا يهلك يقال: وتَغَفَتَا، وأوتغته غيره إذا أهلكه. انظر النهاية ١٤٩/٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٤١/٢-٢٤٢، وعيون الأثر ٩٧/١ .

المحاولة الخبيثة وأجهضتها في حينها ، وذلك أن رجلا من غلمان المهاجرين كَسَعَ (١) رجلا من غلمان الأنصار إثر اختلاف بينهما على الماء ، فقال الأنصاري: يا للأنصار ، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا : يا رسول الله كَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ ، فسمع بذلك عبدا لله بن أبيّ رأس المنافقين ، فقال : فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقام عمر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه" (٢) .

ثم مَتَنَ (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم حتى أذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نياما .

وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس (٤) حيث خاض الناس فى حديث عبدا لله بن أبيّ ، وفى النزعة الجاهلية التى كادت تقضى على وحدة المجتمع المسلم لولا حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسياسته الماهرة، وفطنته العظيمة، فى إطفاء لهيبها بسيره الميمون ذلك الذى أشغلهم به عن الخوض فى تلك الفتنة العمياء، التى أراد رأس النفاق أن يشعلها ، ليحقق غرضه فى زعزعة المجتمع المسلم وإطفاء نور الله ولكن الله رد كيده فى نحره بفضل ما آتى نبيه من الحكمة والفطنة والحلم ، فصلوات ربي وسلامه عليه. وكم كانت فطنته الكاملة تحل من مشاكل عديده فى أسرع وقت وأقصره ، فيتحقق بذلك له ولأمتة ما يصبون إليه من نصر وسعادة وعز وسيادة ، ينوء

(١) الكسع: أن تضرب بيدك على شيء أو برجلك. تفسير غريب الحديث ص ٢٠٩ .

(٢) إلى هنا رواية البخاري فى الصحيح، كتاب ^{التفسير} التفسير سورة المنافقين ١٩١/٦ من حديث جابر بن عبدا لله.

(٣) أي: سار بهم يومه أجمع .

(٤) عيون الأثر لابن سيد الناس ٩٤/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ١٥٧/٤-١٥٨ .

عنها الحصر فى مثل هذا المقام المقتضى للأيجاز والأتيان من كل بحر قطرة كالأنموذج
لغيره والدليل على ما سواه.

ومن ذلك براهينه الساطعة القاطعة التى كان يقيمها على مجادليه ومناظريه من
مشركون وأهل كتاب التى كانت تقطع دابرهم ، وتزهق باطلهم ، وتجعلهم يوقنون أنهم
فى ضلالهم يعمهون ، ويعميهم عن اتباع الحق بعد سماع تلك القوارع البينة، الكبر والعناد
والرسوخ فى الألحاد ، كما سيأتى بيانه فى مبحث دعوته إلى الله تعالى بالتى هى أحسن
لكونه بذلك المبحث ألصق ، والله ولي التوفيق .

